

مصر والنوبة
فى عصر الولاة
دراسة فى التاريخ الاجتماعى
فى ضوء أوراق البردى العربية

دكتور

كرم الصاوى باز

معهد البحوث والدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة



مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد - القاهرة

أسم الكتاب : مصر و النوبة فى عصر الولاية
أسم المؤلف : د. كرم الصاوى باز
أسم الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية
أسم الطابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقم الإيداع : ٣٦٣٦
سنة الطبع : ٢٠٠٦
الترقيم الدولي: 7 - 2218 - 05 - 977 I.S.B.N

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ "

صدق الله العظيم
(سورة الأنعام)

إهداء

إلى روح أستاذى العالم الجليل الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود،
تغمده الله برحمته وأدخله فسيح جناته، وجعله مع النبيين والصديقين
والشهداء. ونسأل الله أن يجعله من أهل الخير الذين ذكرهم الرسول
"صلى الله عليه وسلم" لقد صادق فيه قول الرسول "صلى الله عليه
وسلم": "إذا مات ابن آدم أنقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم
ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

شكر وتقدير

لا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أشكر الله عز وجل فى السراء والضراء أولاً، ثم أسجل شكرى وعرفانى وامتنانى لأستاذى الجليلين، الأستاذ الدكتور/ حسن أحمد محمود رحمة الله عليه أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة القاهرة، والأستاذ الدكتور/ محمد عبد العال أحمد رحمة الله عليه أستاذ التاريخ الإسلامى بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، لتفضلهما بالإشراف على هذه الرسالة، إذ كان لتوجيهاتهما ورعايتهما المستمرة لى الفضل الأكبر فى إكمال هذا البحث على هذا النحو، فلهما منى أجزل الشكر مع عرفانى بالجميل.

كما أذكر بالفضل والإعزاز المرحوم أستاذى الدكتور/ عبد المنعم ماجد الخبير الوطنى بمركز الدراسات البردية جامعة عين شمس، وأستاذى الفاضل المرحوم/ عبد الرحمن عبد التواب مستشار الآثار الإسلامية، فقد استفدت من خبرتهما بعلم البردى العربى وكثير من التسهيلات للإطلاع على أوراق البردى العربية فى مصر والخارج.

كما أختص بالشكر والتقدير الأستاذ الدكتور/ حمدى السكوت، والدكتورة/ اليزابث سارتين بالجامعة الأمريكية بالقاهرة لمساعدتهما فى إعطائى المزيد من المعلومات عن وثائق النوبة.

وأتقدم بالشكر والتقدير إلى الدكتور/ خورى Khoury المسئول عن قسم البرديات العربية بجامعة هايدلبرج بألمانيا الغربية لإعطائى معلومات قيمة عن الحياة الثقافية فى مصر.

كما أشكر الدكتور/ عبد الرؤوف على يوسف رحمة الله عليه القائم بأعمال رئيس هيئة الآثار سابقاً لمنحى الكثير من التسهيلات للإطلاع على برديات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

كما أشكر أستاذى الدكتور/ السيد على أحمد فليفل عميد معهد البحوث والدراسات الأفريقية، وأستاذى الدكتور عبد الله عبد الرازق أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالمعهد، والدكتور محمد مؤنس عوض أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة عين شمس، لمساعدتهم لى خلال إعداد هذه الدراسة.

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أذكر بكل العرفان والفضل والدى وزوجتى، فقد تحملوا معى الكثير طوال فترة إعداد هذه الدراسة.

وأخيراً أتوجه بالشكر إلى جميع أساتذتى وزملائى بالمعهد، وإلى كل من مد لى يد العون والمساعدة.

جزى الله الجميع عنى خير الجزاء.

المقدمة

لا يزال المشتغلون بدراسة التاريخ الإسلامى فى مصر فى عصر الولاية، يشعرون بأنهم يحتاجون إلى مضاعفة العناية بدراسة المجتمع، لأن معظم الجهود التى بذلت فى الدراسات التاريخية الإسلامية لمصر، كانت تتجه إلى عصر قريب - إلى التاريخ السياسى ونظم الحكم، والمعروف أن الاكتفاء بدراسة الأحداث أو التاريخ السياسى أيسر من التعمق فى الدراسات الاجتماعية والثقافية، ولعل ذلك يرجع إلى أن الأحداث السياسية فى العصر الإسلامى كانت تحتل الصدارة فى كتب الحوليات والتاريخ، ولم يسلط جمهرة المؤرخين، فى تلك العصور الضوء فى أبحاثهم وكتاباتهم إلى المجتمعات والفنون وغير ذلك من الجوانب الحضارية. ويجب أن نذكر دائما أن حالات الشعوب ونظمها الاجتماعية تتطور تطورا بطئيا ومنتظما يستغرق أزمنة طويلة، وأنها تؤثر فى وقوع الأحداث السياسية أكثر مما تتأثر بها.

كما أن أى تطور فى بلد ذى تراث حضارى مثل مصر لابد وأن يكون له صداه فيما يجاوره، ونقصد هنا السودان وادى النيل، ذلك أن مصر بحكم عراقتها التاريخية كانت دائما مركزا للإشعاع والعطاء الحضارى، هيات لهذا العطاء مقومات كثيرة، كان أبرزها: العامل الجغرافى، حيث يمتد نهر النيل كعامل وصل لانتقال هذه المؤثرات.

من هذا المنطلق كان اختيار موضوع الكتاب عن: " مصر والنوبة فى عصر الولاية " أى فى الفترة من (٢١هـ - ٢٥٤هـ / ٦٤٢م - ٨٦٨م). فهى بداية فترة إسلامية متميزة فى تاريخ مصر الإسلامية، ألا وهى فترة عصر الولاية، وللتحولات الكثيرة التى حدثت فى كلا البلدين، فهى تعتبر فترة التكوين لمجتمع إسلامى ذى نتائج حضارى جديد.

ولعل اختيار مصطلح السودان وادى النيل لم يكن معروفا طوال فترة العصور الوسطى، فالنوبة وقتذاك - حسبما ورد فى النصوص والوثائق المعاصرة - كانت أكبر مساحة مما هى الآن، إذ اشتملت وقتذاك على أجزاء وادى النيل الممتدة من أسوان إلى جنوبى التقاء النيلين الأبيض والأزرق، وذلك بالإضافة إلى مناطق من

حوض النيل الأزرق والعطبرا حتى أطراف الجبشة شرقا، وأقاليم كردفان ودارفور غربا.

أما لفظ "السودان" كما ورد عند المؤرخين المسلمين، والرحالة يطلق على الإقليم الممتد من البحر الأحمر شرقا وحتى المحيط الاطلنطى غربا، ومعنى هذا أن النوبة وبلاد البجة في العصور الوسطى هي السودان وادى النيل. والحقيقة أن التطور الاجتماعى فى مصر قد شهد تحولا كبيرا على أثر هجرات القبائل العربية، ومن ثم نزولهم بالريف والقرى المصرية فقد حدث الاختلاط بالمصريين وصاهروهم وشاركوهم أعمالهم، ومنذ ذلك الوقت اختلطت الدماء العربية بالدماء المصرية، وأصبح الإسلام دين أكثرية السكان واللغة العربية لغة الثقافة والعبادة للأقباط أنفسهم، وأن استغرق انتشارها فترة أطول حتى بعد عصر الولاة.

وتطلبت دراسة القبائل دراسة الأنساب، وفى فترة كانت القبائل العربية تتدمج فيها مع الشعب المصرى وتترك أنسابها العربية وتتنسب إلى مدن مصر وقراها، فكان من الصعب على الباحث تتبع أنساب القبائل، بل أن المقرئ الذى كتب عن قبائل العرب فى القرن التاسع الهجرى أشار إلى مثل هذه الصعوبة.

هذا وإذا كان التعريب فى مصر قد أخذ خطى سريعة من التطور، فإن السودان وادى النيل استغرق وقتا طويلا لتشرب الثقافة العربية المنطلقة من مصر، وذلك بحكم رصيدها الحضارى.

والتعرض لهذه الفترة الزمنية من تاريخ مصر الإسلامية، وسودان وادى النيل، وهى فترة مبكرة الا أنها كانت بداية عهد جديد، ترك بصماته الواضحة على هذه الفترة المحدودة. ولكن هذه المرحلة التاريخية كان من الصعب الإمام بكل ما حدث فيها من تطورات اجتماعية، والسبب فى ذلك قلة المصادر المعاصرة لهذه الفترة وقد حاول الباحث أن يطرق محالا جديدا فى الدراسات التاريخية اعتمادا على أوثق المصادر وهى البرديات العربية التى تتضمن مادة فياضة لدراسة المجتمع الإسلامى فى مصر وسودان وادى النيل، لأن من بينها وثائق تتعلق بالجزية والخراج وإسناد المناصب وأنظمة الإدارة، وطرق التجارة، وأثمان البضائع، والمواد الغذائية والبيوت والأرض، وعقود الزواج والطلاق، فضلا عن المكاتبات الخاصة التى تكشف عن بعض العادات والعلاقات الاجتماعية فى مصر الإسلامية.

بل أن هناك وثائق بردية على غاية من الأهمية توضح مدى طبيعة العلاقات بين مصر وسودان وادى النيل، مثل معاهدة البقط التى حددت، ولمدى طويل، شكل العلاقة بين مصر وسودان وادى النيل، وقام الباحث بدراسة إحدى هذه الوثائق الهامة وهى خطاب مرسل من وإلى مصر موسى بن كعب إلى حاكم مقرة ونوبة عام ١٤١هـ تتضمن تأكيداً لمعاهدة البقط فى فترة أخرى من العصر العباسى الأول.

وقد كان التعامل مع هذه المصادر البردية مضمناً لعدة أسباب، ومن ذلك ما شابهها من كثرة أخطاء الناسخين، وما أصاب بعضها من نقص، أو بتر، وما كانت عليه حروف الكتابة العربية آنذاك من غموض، إضافة إلى أن كثيراً من هذه الأوراق تنقصها النقط والحروف، وكثيراً منها غير مؤرخ على أن أهميتها البالغة فى دراسة المجتمع المصرى، وصلاته بسودان وادى النيل جعلت الباحث يقبل عليها متحمساً لمادتها العلمية الفياضة.

وتتضح جده هذه الدراسة الاجتماعية فى اعتمادها على المصادر البردية إلى جانب المصادر المطبوعة والمخطوطة، وقد نشر الباحث عدداً من وثائق البردى غير المنشورة التى كشفت النقاب عن كثير من التطورات الاجتماعية التى لم يتم تناولها من قبل هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى اعتمد الباحث على عدد من البرديات الخاصة بالحياة الثقافية التى قام بنشرها دكتور/ خورى K Houry المسئول عن قسم البرديات العربية بجامعة هايدلبرج بألمانيا الغربية، وأهمها بردية "الليث بن سعد" أول فقيه مصرى فى الإسلام.

وإذا كان هناك فضل للمستشرقين فى دراسة الحضارة العربية الإسلامية فى مصر، فإن أدولف جروهمان يأتى على رأسهم، فقد وضع أصول عشرة مجلدات بردية عربية، نشر منها ستة أجزاء، وهناك أربعة أجزاء أخرى لم تنشر بعد فى المكتبة الأهلية بفينا (البرتينا Albertina).

هذا وقد قام الباحث بمراسلة المكتبة الأهلية بفينا التى يوجد فيها أكثر من (١٥,٩٣٤) بردية عربية مرقمة، قابلة للنشر والتحقيق، غير ما نشر أو حقق بالفعل.

هذا إلى جانب الأوستراكا العربية، فلم يتيسر للباحث إلا الحصول على فهرست الموضوعات وهى باللغة الأهمية حيث تتناول السجلات والمكوس والأجور والمبادلات والعقارات والمتأخرات والمصادر والإعفاءات، وعمليات الحرث والحصاد وأنواع المحاصيل مثل الزيت والكروم، والحنطة، والحبوبات، والتوابل،

والفول، والمعاصر والمعادن والكحل، والأدوية، والأموال، والعملية، والصيرفة، وبيت المال، والجزية والخراج، وأنواع المأكولات، والتسكير، وأصحاب الحرف، والممالك، واليتامى، والبقر، والبناء والزخرفة، والخطط، والتجليد، وأيضاً القرآن الكريم، والحديث النبوى، والشعر، والقصائد والطب، والكيمياء، والفلسفة الخ.

وسوف يؤدى الإطلاع على هذه البرديات العربية بعد تنسيق بروتوكول التعاون العلمى بين باحثينا فى مصر، والمكتبة الأهلية بفيناء، إلى إثراء حقل الدراسات والبحوث الاجتماعية فى تاريخ مصر والنوبة، وقد علم الباحث من مسئولى مكتبة البرتينا بفيناء باستحالة توفير هذه المادة الا لمؤسسة علمية تعقد معهم مثل هذا البروتوكول، وهو ما لم يتم حتى الآن.

وقد اعتمد الباحث فى هذا الكتاب على عدد من المصادر أهمها:

الوثائق : وتأتى فى المقام الأول بين مصادر التاريخ الإسلامى، وهى برديات عربية لم تنشر بعد تعتبر إضافة جديدة فى معالجة تاريخ مصر الاجتماعى، فمن هذه النماذج البردية عقود خاصة ببيع وشراء عقارات بين مسلمين وأهل ذمة، توضح مدى العلاقة التى ربطت بينهما فى داخل المجتمع المصرى، وتشير إلى تمتع أهل الذمة بكثير من الحقوق، فلم يكن هناك تمييز فى مساكنهم.

وإذا كان من الثابت حتى وقت قريب أن توثيق عقود الزواج فى مصر قد بدأ مع نهاية القرن الثانى وبداية الثالث الهجرى، فقد نشر عقد زواج إسلامى مؤرخ من سنة ٩١هـ. أى منذ القرن الأول الهجرى، وهذه إضافة جديدة فيما يتعلق ببداية تعريب المجتمع المصرى.

هذا بالإضافة إلى نشر عقد زواج يهودى، وهو الوحيد فى مصر باللغة العبرية وتوجد هذه الوثائق بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

أما عن الوثائق البردية المنشورة، فأهمها وثيقة الليث بن سعد قام بنشرها الدكتور خورى بجامعة هايدلبرج بألمانيا الغربية.

أما عن النوبة فقد أشرنا إلى البردية المرسلة من وإلى مصر إلى حاكم مقرة ونوبة عام ١٤١هـ، وإن أعاد الباحث تحقيق ما ورد فيها من نص الرسالة.

هذا بالإضافة إلى ما نشره جروهمان من أوراق البردى العربية، فقد نشر أكبر مجموعة من النصوص البردية العربية حتى الآن فى العالم، فضلاً عن مؤلفاته المتعددة عن البردى.

وإذا كانت أوراق البردى العربية تضيف رصيذا للتراث العربى الإسلامى فإن أوراق الجنيزة من الوثائق الهامة لدراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لمصر فى العصور الوسطى، وهى تتعلق بأهل الذمة فى مصر، إذ نقلت معظمها بفضل سولو من شختر Soloman Schechter إلى جامعة كمبردج بإنجلترا حيث احتفظت المكتبة بهذه المجموعة تحت اسم مجموعة تيلور شختر -Taylor-Schechter وقد قدرها جوايتاين Goitein بحوالى عشرة آلاف وثيقة، واشتملت وثائق الجنيزة على وثائق متنوعة أسرية وغير أسرية، إذ احتوت على خطابات وقوائم حسابات، وموارد مالية، وإيجارات دور وحوانيت وأثمان سلع، ومتاجر مختلفة، وسجلات قضائية، وإيصالات وعقود إيجارات، وزواج وطلاق، ورغم أن هذه المجموعة الوثائقية اكتشفت فى مدينة الفسطاط وما حولها بمصر إلا أنها تلقى الكثير من الضوء على الأحوال الاجتماعية، فقد استفدت منها فى بيان أحوال اليهود فى المجتمع المصرى، هل عاشوا منغلقيين على أنفسهم أم اختلطوا السكبان؟ واعتمدت فى هذا على ما نشره س.د. جوايتاين، وإن أخذت على كتاباته محاولة النيل من الإسلام وذلك بإرجاع التصوف إلى اليهود ولذلك يؤخذ على ما كتبه سيطرة العاطفة اليهودية عليه وميله لإبراز كل شئ كانعكاس للثقافة اليهودية.

أما وثائق دير سانت كاترين: فهى تلك المجموعة من الوثائق التى حفظها لنا الدير الذى تنسب إليه فى شبه جزيرة سيناء، ويرجع تاريخ الاهتمام العلمى بهذه الوثائق وتسجيلها إلى القرن التاسع عشر الميلادى حيث قامت عدة بعثات أجنبية بتصوير بعض وثائق الدير ومخطوطاته بمعاونة دار الكتب المصرية، ويرجع الفضل الأكبر فى عملية تصوير وتسجيل الجزء الأكبر من هذه الوثائق إلى أعمال البعثة المشتركة بين العلماء الأمريكيين من مكتبة الكونجرس الأمريكى، وبعض المعاهد والكليات الأمريكية المهمة بالدراسات الشرقية، وبطريقة سانت كاترين فى القاهرة والقدس، وجامعة الإسكندرية ووزارة التربية والتعليم فى مصر.

ويهمنا من مخطوطات دير سانت كاترين ووثائقه مجموعة الوثائق العربية وعددها ١٠٧٢ وثيقة، منها ٢٩ وثيقة مكتوبة على ورق منتظم، ١٠٤٣ وثيقة مكتوبة على ورق مختلف الأنواع. وقد أفادت هذه الوثائق فى بيان من أسلم من أهل الذمة ومدى علاقاتهما بالمسلمين.

أما عن المصادر المخطوطة والمطبوعة، فبالنسبة للنوع الأول من هذه الكتب فإن لدينا منها كتاب "شروط النصارى" لابن زين القاضى" (وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٥٢ - تاريخ)، ويهتم هذا الكتاب - كما يبدو من عنوانه - بوضع الشروط الواجب فرضها على النصارى لعقد الذمة معهم، ويزخر رغم صغر حجمه بالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحض على ذلك، فضلا عن "نص الشروط العمرية" أو "العهد العمرى" المنسوب إلى الخليفة "عمر بن الخطاب" ويندرج تحت هذا النوع أيضا رسالة "المذمة فى استعمال أهل الذمة" لابن النقاش (وهو ما زال مخطوطا بدار الكتب تحت رقم ٣٩٥٢ تاريخ) وواضح أن هذه الرسالة تعارض استخدام الموظفين من غير المسلمين فى وظائف الدولة ويسوق المؤلف كثيرا من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية وما أثر عن السلف فى منع استخدام اليهود والنصارى، فضلا عن المبررات الأخرى التى يسوقها المؤلف تدليلا على خيانة بعضهم وعدم أمانتهم. ويأتى هذا دليلا على انتشار استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة.

وتحتل شواهد القبور مكانة هامة فى تلك المصادر لما تمتاز به من دقة وصدق، وقد أفادت فى توضيح تحرك القبائل وانتسابها إلى أقاليم مصر، وكذلك انتقال المسميات العربية إلى النوبة.

كذلك أمكن الاستفادة من قطع النسيج الموجودة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، بالإضافة إلى القطع الأثرية من الأطباق التى تدل على تطور الفن الإسلامى وارتقائه فى مصر عصر الولاة.

وإضافة إلى المصادر السابقة، اعتمد الباحث على المصادر التقليدية فى التاريخ الإسلامى ومن أبرز المؤرخين المعاصرين لفترة نهاية عصر الولاة ابن عبد الحكم - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع المالكى القرشى المصرى - المتوفى سنة ٢٥٧هـ، فقد أفادنا كتابه "فتوح مصر وأخبارها" فى بيان موقف أهل الذمة من الفاتحين العرب، وإن لم يوضح أعداد اليهود الذين خرجوا من الإسكندرية وقت الفتح، وإلى أية جهة قصدوا، ولكنه أمدنا بدراسة مستفيضة عن حركة انتشار القبائل العربية فى ريف مصر من خلال ما كتبه عن خطط القبائل فى الفسطاط ثم ما كتبه عن اختلاط العرب بالمصريين وانصهارهم فى داخل المجتمع المصرى، وأيضا تحدث عن فتح بلاد النوبة،

والحملات التي أرسلت إليها، واهتمام الولاة بجنوب مصر، ومن ثم إبرام معاهدة البقط التي أشار إليها. هذا ويعتبر ابن عبد الحكم واضع أساس دراسة تطور المجتمع العربي في مصر بصفة خاصة في فترة عصر الولاة.

كذلك من المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها الباحث "كتاب الولاة والقضاة" الذي كتبه أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن يوسف بن معاوية بن كنده المصري المولد "٢٨٣-٣٥٠هـ" المتوفى بالفسطاط. وقد تحدث الكندي في كتابه عن الولاة والقضاة الذين تعاقبوا على مصر مرتباً إياهم ترتيباً زمنياً مع ذكر أهم أعمال هؤلاء الولاة وبرز الحوادث التي وقعت في عهد كل منهم وذلك منذ الفتح العربي إلى نهاية عصر الولاة، ولذلك يعد مصدراً غنياً بالدراسات الأدبية، وجوانب الحياة الاجتماعية في مصر، وبخاصة فيما يتعلق بإيضاح موقف بعض ولاة المسلمين من احتفالات أهل الذمة بأعيادهم.

هذا بالإضافة إلى بيان انتشار القبائل العربية في الصعيد الأسفل والأوسط والأعلى، ومن ثم اهتمام ولاة مصر بجنوبها. والكندي إلى جانب أنه أحد أبناء القبائل العربية في مصر فإنه يمثل مرحلة متطورة في كتابة التاريخ ظهرت واضحة بعد عصر الولاة.

أما كتابة "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري (٣٥٠-٤٢٩هـ) فقد جاء متمماً لمجهود الكندي فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي من مجالس الشعراء، وقد استفدت منه في الحياة الاجتماعية الخاصة والعامة في المجتمع المصري.

أما البلاذري - أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري - صاحب كتاب "أنساب العرب"، والكتاب يختلف عن كتب التاريخ فهو لا يسوق الحوادث على تسلسل الأعوام ولا تتبع تسلسل الحكام، ويختلف عن كتب الأنساب فلا يسرد النسب موجزاً، فهو صاحب طريقة وأسلوب مميز، جمع بين التاريخ والتراجم والأدب وتشابك الأنساب.

وللبلاذري مؤلف آخر هو "فتوح البلدان" أضاف الكثير من المعلومات عن فتح مصر، والحملات التي أرسلت إلى بلاد النوبة، وأرض البجة، وهو يحتوى على كثير من التفاصيل وخاصة عن النوبة فهو مكمل لكتاب "فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم.

وأعطتنا كتب الجغرافيين والرحالة صورة صادقة أيضا عن البلاد والمدن التي شاهدها، وحياة الناس فيها وإفادتنا في معرفة أماكن تمرکز القبائل، ومن أهم تلك الكتب "كتاب البلدان" لليعقوبى المتوفى سنة ٢٩٢هـ/٨٧٤م، وقد ذكر في هذا الكتاب أسماء البلاد المصرية، وقد أشار اليعقوبى إلى القبائل التي نزلت منطقة المعادن في أقصى جنوب مصر، وكذلك القبائل التي نزلت في المنطقة الواقعة بين الإسكندرية وبرقة، واليعقوبى كتاب آخر هو "تاريخ اليعقوبى" يعتبر من المصادر الهامة لفترة العصر العباسى.

أما الكتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" تأليف "أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى" المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٦م، ورغم أن هذا الكتاب لم يكن خاص بمصر وحدها، إلا أنه قد أعطى تصويرا صادقا عن أحوال المصريين من حيث العادات والتقاليد طوال فترة عصر الولاية، وقد اعتمد عليه الباحث في دراسة التأثيرات المصرية في النوبة، وأرض البجة، وبيان عاداتهم وتقاليدهم.

وللمسعودى كتاب آخر "التنبيه والإشراف" يعتبر ذا أهمية في مجال أسماء الأماكن والبقاع وهو يشير إلى بعض العادات والتقاليد لدى مصر والنوبة.

كذلك استفدت كثيرا من كتاب "المسالك والممالك" وكتاب "صورة الأرض" لابن حوقل، فهو يعطينا صورة صادقة عن مشاهداته وقد أفادنا في معرفة انتشار العرب في كل من مصر والنوبة وكذا علاقاتهم بالنوبة، وأرض البجة.

ومن أهم المصادر الكنسية، والتي لها قيمة كبيرة في هذه الرسالة كتاب "سير البيعة المقدسة" أو "سير الأباء البطارقة" أو "تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية" ومؤلفه "ساويرس بن المقفع" وهو أحد علماء الكنيسة المصرية في القرن العاشر الميلادى - ولد حوالى سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م، - وصنف كتابه المذكور باللغة العربية، واعتمد في تصنيفه على السير والتراجم الموجودة بالأديرة المختلفة، وهو شاهد على مدى انتشار اللغة العربية، وأوضح أن اللغة العربية على عهد كانت لغة عامة بين أهل مصر.

وقد أورد لنا معلومات مستفيضة عن علاقة ولاية مصر بالكنيستين المصرية والنوبية، وبملوك النوبة، وأيضا عن علاقة هؤلاء بالكنيسة الحبشية، ويبدو أنه أول من أطلق على البطريك القبطى اسم بطريك الإسكندرية والنوبة والحبشة والخمس مدن الغربية "برقة وتونس وطرابلس الغرب، وأفريقية، والقيروان".

ومن المصادر الكنسية أيضا كتاب "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" لسعيد بن بطريق، المتوفى سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م، وقد اعتمد الباحث عليه في بيان موقف أهل الذمة من الفتح، ودورهم في النواحي الاجتماعية، وفي علاقة الكنيسة القبطية بغيرها من الكنائس منذ الفتح العربى.

كذلك استفاد الباحث من كتاب "أحكام أهل الذمة" لابن قيم الجوزية ويعالج الكتاب موقف الشريعة الإسلامية من أهل الذمة سواء من ناحية عقد الذمة أو الجزية أو وضعهم في المجتمع، وغير ذلك من الأمور، ويعرض في ذلك كله لوجهات نظر فقهاء المذاهب الأربعة.

أما كتاب "كنائس وأديرة مصر" وهو المعروف باسم "تاريخ الشيخ أبى صالح الارمنى" وهذا المصدر مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية كما أن هناك نسخة مطبوعة منه بعنوان "تاريخ الشيخ أبى صالح" تذكر أخبار من نواحي مصر واقطاعها، وقام بنشره. مع ترجمة إنجليزية بعنوان: "كنائس وأديرة مصر والبلاد المجاورة لها": The churches and Monastries of Egypt and Neighbouring country. وأبو صالح الأرمنى هذا من علماء القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى وهو أرمنى الجنسية، كتب عن علاقة كنيسة النوبة بالكنيسة القبطية في مصر، وأعطانا معلومات وفيرة عن مملكتى النوبة المسيحيتين "مقرة وعلوة" ولم يشر أبو صالح من قريب أو من بعيد إلى المصدر الذى استقى منه مادته العلمية عن بلاد النوبة، فمن المعروف أنه لم يقم بزيارتها كمن سبقوه من الرحالة، ويبدو أنه استمد هذه المعلومات مما كتبه ساويرس بن المقفع، وعلوة على ذلك يبدو أنه قام بجمع معلومات وافية عن بلاد النوبة بالاتصال بالنوبيين الذين كانوا يقدون إلى مصر بكثرة في ذلك العصر، وأيضا من رجال الدين المسيحيين من رهبان وقساوسة الذين كانت تبعثهم الكنيسة القبطية إلى تلك البلاد بحكم تبعيتها الروحية لها، فضلا عن وفود رجال الدين النوبيين المسيحيين الذين كانوا على صلة دائمة بالكنيسة الأم في مصر.

وتعد مقدمة العلامة عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م) من أبرز المصادر التى استقيننا منها كثيرا من المعلومات الأدبية والاجتماعية، فهو أول من بحث من علماء المسلمين في أحوال المهن والصنائع والعلوم والفنون المختلفة، كما نقد هذه العلوم نقدا موضوعيا، وقد انتهج في مؤلفه منهجا فلسفيا

عميقا، وقد احتوت المقدمة على بعض أخبار الحياة الثقافية في مصر، وتعرض إلى الكلام عن النوبة وأصلهم وعاداتهم وتقاليدهم.

ومن المصادر الأخرى التي اعتمدنا عليها في دراسة معالم مدينة الفسطاط كتاب "الانتصار لواسطة عقد الأمصار" ومؤلفه "صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاني القاهري الحنفى" الشهير ابن دقماق (٧٥٠-٨٠١هـ/١٣٤٩-١٤٠٦م).

والكتاب دراسة قيمة عن خطط الفسطاط منذ إنشائها، ويتضمن بعض المعلومات عن أحيائها وأسواقها ورحابها ومساجدها، كما يتضمن الكتاب بعض المعلومات عن القبائل ودورها في مصر وبخاصة في عصر الولاية.

ومن أبرز المؤرخين الذين اعتمدنا عليهم، وأعظمهم شأننا (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقرئى (٧٦٦هـ-٨٤٥هـ/١٣٦٤-١٤٤١م) وتعد موسوعته التاريخية العظيمة المسماة (بكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) أحد المصادر الرئيسية الهامة التي اعتمدنا عليها في كل جزء من أجزاء الدراسة في مصر أو النوبة، فقد تعرض للتطور الاجتماعى في مصر على أثر نزول القبائل العربية، ومدى اختلاطها بالسكان الأصليين، ثم بيان التطور العمرانى فى عواصم مصر الإسلامية طوال الولاية، وترجع أهمية هذا المصدر فيما تضمنه من شذرات أو مقتطفات من كتاب مفقود يعد من أعظم ما كتب عن بلاد النوبة وعلاقتها بمصر سواء فى عصر الولاية وبعده، على يد شاهد عيان، هو مؤرخ النوبة المعروف أحمد بن سليم الأسوانى الذى قام بدراسات واسعة وشاملة فى كل أرجاء تلك البلاد، وكتب عن كل ما شاهده بعينه أو سمع بأذنيه، كما قام بدراسة مستفيضة على نهر النيل، ثم صنف مرجعا عظيما اسماه بـ "كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل" وهذه الشذرات أو المقتطفات نقلها لنا المقرئى، نقلا حرفيا حينما وملخصا حينما آخر، وأودعه فى الجزء الأول من مؤلفه المذكور.

كما نقل عنه أيضا ابن عبد السلام مقتطفات من الجزء الخاص بأخبار النيل وضمنها فى كتابه "الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد".

وكذلك وضع المقرئى كتابا بالغ الأهمية وهو "البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب"، فقد حققه الدكتور عبد المجيد عابدين، وأضاف إليه فصولا هامة عن القبائل فى مصر، وأشار إلى أثر قبائل مصر فى التكوين القبلى فى السودان.

وللمقرئ مؤلف آخر "الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك" أشار إلى معلومات قيمة عن كسوة الكعبة، ونوع الأقمشة التي كانت ترسلها مصر "القباطي".

وقد اعتمدنا على مصادر عامة مثل ما كتبه القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، وابن تغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة" فقد استفاد الباحث في دراسة المجتمع المصري من العادات والتقاليد التي كان يأتي ذكرها أحيانا أثناء الحديث عن النواحي السياسية.

وهناك مصادر أخرى أعانت على سد كثير من الثغرات في موضوع البحث وأهمها كتب الطبقات، ومن أهمها "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - لابی العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ، وكتاب "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة" للسيوطي، وكذلك أمدنا الادفوى في "الطالع السعيد الجامع لأسماء تجباء الصعيد" بكثير من المعلومات عن القبائل العربية ودورهم في مصر والنوبة.

ومن المراجع الإفرنجية التي اعتمدنا عليها أيضا كتاب: "تاريخ العرب في السودان" A History of the Arabs in the Sudan-By MacMichael. تأليف المستشرق مالك مايكل.

وأهمية هذا الكتاب، مستمدة من أن مؤلفه استقى معلوماته من مصادر هامة لا توجد إلا في بلاد النوبة والسودان نفسها، ومما ساعده على ذلك، إقامته هناك فترة زمنية طويلة بحكم وظيفته في حكومة السودان مما ساعده على الاتصال بالقبائل السودانية، فإن معظمهم يحتفظ بكتب الأنساب، ورغم أن هذا المؤلف يتناول القبائل في السودان إلا أنه يتناول قبائل مصر أيضا، وناقش فيه عملية الاختلاط وتأثير القبائل في كل من المجتمع المصري والنوبي.

كذلك من المراجع العربية الحديثة التي أعانت الباحث على إنجاز بحثه كتاب "المكتبة السودانية العربية" وهذا الكتاب يتضمن مجموعة نصوص ووثائق عربية خاصة بتاريخ بلاد النوبة والبجة "سودان وادي النيل" ويرجع الفضل في تجميع هذه النصوص إلى الدكتور مصطفى مسعد الذي وضع مؤلفا بالغ الأهمية وهو الإسلام والنوبة، فهو من الدراسات العربية التي عالجت تاريخ هذه المنطقة اعتمادا على أوثق المصادر والمخطوطات.

كذلك من المراجع العربية التي استفاد منها الباحث كتاب "التاريخ الإسلامى أفاقه السياسية وأبعاده الحضارية" للدكتور إبراهيم أحمد العدوى، وخاصة أنه قد أمدنا بدراسة مستفيضة عن نشر الإسلام، وتعريب المجتمع الإسلامى طوال فترة دراستنا "عصر الولاية".

كذلك من المراجع العربية التي أنارت لى الطريق كتاب انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا "للدكتور حسن أحمد محمود فقد تعمق فى هذه المنطقة بدراسة مستفيضة وبتحليلات فلسفية صائبة عن فترة عصر الولاية.

ومن الأبحاث الجديدة فى معالجة العلاقة بين مصر والنوبة من الناحية السياسية والعسكرية، بحث "النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها" للدكتور محمد عبد العال أحمد، فقد استفدت من آرائه الجديدة حول تصحيح بعض المفاهيم التي وردت عند بعض المؤرخين الحديثيين من الخلط بين الحملات العسكرية الأولى، وشخصية قائدها، ثم بيان العلاقة التي ارتبطت بها النوبة مع مصر على أثر معاهدة البقط.

وقد اتبع الباحث منهاجاً موضوعياً يعتمد على متابعة التطور الاجتماعى فى مصر خلال الفترة موضوع البحث، وعنى الباحث بتفصيل التطور فى شتى مناحى الحياة من ناحية عناصر وفئات السكان، وأوضاعهم وعاداتهم الاجتماعية فيما يتعلق بالمسكن والمأكل والمشرب، والملبس، والزواج والطلاق، والمآتم والأحزان والأعياد الدينية والاحتفالات العامة، وغير ذلك من تفصيلات؛ كما عنى الباحث أيضاً بدراسة الأوضاع الثقافية ومدى انعكاسها على السودان وادى النيل.

وتضمن موضوع البحث بابين رئيسيين :

خصص الباب الأول عن "التطور الاجتماعى فى مصر الإسلامية فى عصر الولاية" وقد قسمته إلى سبعة فصول:

الفصل الأول: تحدثنا فيه عن السياسة الإسلامية فى مصر، بداية من سياسة عمرو بن العاص إزاء أهل النمة، ثم السياسة الإسلامية عموماً طوال فترة عصر الولاية، ومدى تمتعهم بحرية العقيدة وتوليهم وظائف الدولة، ومعرفة قضايهم، ثم أخيراً العلاقة بين مصر والدولة الإسلامية من الناحية المالية.

أما الفصل الثانى فتحدثنا فيه عن هجرات القبائل العربية إلى مصر موضحين خطط القبائل الأولى بالفسطاط، ثم مدى انتشار هذه القبائل فى مصر السفلى

والعليا، وتتبعنا الأقليات الأخرى والموالى بحكم إقامتهم أحيانا بين خطط القبائل، وعرضنا أخيرا لدراسة بعض الظواهر الاجتماعية للعرب المسلمين في مصر من ناحية العصبية القبلية، وأخذهم العطاء، وفكرة الإرتباع، وإثباتهم في الديوان، ثم الاختلاط.

أما الفصل الثالث، فقد عالجا فيه انتشار الإسلام والثقافة العربية في مصر بداية من الدعوة إلى الإسلام، ثم انتشار اللغة العربية والثقافة العربية، وقد بينا النشاط الثقافي لمدرسة الفسطاط، العلوم الدينية، ثم تأثر مدرسة الفسطاط بالمذاهب الإسلامية، ثم نشأة علم الصوفية في مصر على يد ذى النون المصري، وأخيرا العلوم العربية الأخرى (التاريخ - الشعر - النحو).

أما الفصل الرابع، فقد عالج الباحث فيه تخطيط المدن الإسلامية (الفسطاط العسكر - القطائع)، ثم دراسة خطط المدينة الإسلامية من حيث الدروب والأزقة وأبواب الدروب والسقائف والرحاب والأزقة وإنارة الدروب والأزقة، ثم تطور المسكن الإسلامى والعمارة الدينية الإسلامية من المساجد، والمرافق العامة مثل الأسواق، والحمامات ووسائل المواصلات.

أما الفصل الخامس فدرس الباحث فيه العادات الاجتماعية الخاصة عند العرب مثل الزواج على ضوء أوراق البردى العربية، ثم الولادة والتسمية، والختان، والملابس وتطورها في مصر، والطعام والشراب، ثم المآتم والأحزان.

أما الفصل السادس فتناولنا فيه العادات الاجتماعية الخاصة لأهل الذمة: من المصريين المسيحيين ومن اليهود ناقشنا فيه الزواج والطلاق، والختان، ثم الملابس، والطعام والشراب، والمسكن ثم المآتم والأحزان.

أما الفصل السابع فقد تناول الباحث الحياة الاجتماعية العامة من ناحية الأعياد والمواسم والاحتفالات عند المسلمين، ثم الأعياد والمواسم عند أهل الذمة، ثم الموكب العامة والاحتفالات وأخيرا وسائل التسلية.

أما الباب الثانى، أثر التطور الاجتماعى في مصر في عصر الولاة على سودان وادى النيل، وقد قسم إلى فصلين رئيسيين:

الفصل الأول التأثير المصرى في سودان وادى النيل فى النواحي السياسية والعسكرية، ناقشت فيه الصلات السياسية والعسكرية ببلاد النوبة، ثم الرسائل

المتبادلة بين ولاية مصر وحكام النوبة، وأيضا الصلات السياسية والعسكرية ببلاد البجة، ثم موقف ولاية مصر من الكنيستين القبطية والنوبية.

والفصل الثاني: التأثير الثقافي والاجتماعي المصري في السودان وادى النيل. ناقشنا فيه هجرات القبائل العربية وأثرها في نشر الإسلام والثقافة العربية في السودان وادى النيل، ثم تتبعنا الهجرات العربية وأثرها على العادات والتقاليد بسودان وادى النيل في الزواج والختان - المسميات - المأكّل والمشرب - الملبس - المسكن.

وقد ختم الباحث دراسته بخاتمة تضمنت أبرز ما توصل إليه من نتائج، وخلاصة للدراسة على ضوء المصادر الجديدة في هذا البحث.

أما الملاحق فقد نشر فيها الباحث بعض البرديات غير المنشورة والخاصة بمصر، إضافة إلى وثيقة واحدة منشورة خاصة بالنوبة ورأى الباحث تعميم الفائدة منها وإضافة بعض الآراء والتحليلات بشأنها، كذلك تضمنت الملاحق بعض الخرائط التوضيحية.

ونأمل أن يتمخض هذا البحث عن إظهار عملية تطور المجتمع في مصر الإسلامية وانعكاسه على السودان وادى النيل اعتماداً على أوثق المصادر وخاصة الوثائق البردية، وأوراق الجنيزة.

وبعد - فلعلّى أكون قد وفقت في تقديم دراسة متكاملة عن مجتمعي وادى النيل منذ الفتح العربي إلى بداية عهد أحمد بن طولون أي نهاية عصر الولاية، فإن يكن التوفيق حليفي فهذا من فضل الله، وإن أصبت فلي أجران وأن أخطأت فلي أجر.

والله لى التوفيق.

كرم كمال الدين الصاوى باز

القاهرة ١ يناير ٢٠٠٦م

الباب الأول
التطور الاجتماعي في مصر الإسلامية
في عصر الولاة

الفصل الأول

السياسة الإسلامية في مصر

- سياسة عمرو إزاء أهل الذمة.
- السياسة الإسلامية إزاء أهل الذمة.
- حرية العقيدة.
- وظائف الدولة.
- قضايا أهل الذمة.
- العلاقة بين مصر والدولة الإسلامية من الناحية المالية.

الفصل الأول

السياسة الإسلامية في مصر

سياسة عمرو إزاء أهل الذمة :

جاء الفتح الإسلامي لمصر سنة ١٨هـ/٦٣٩م، في وقت كان المصريون قد بلغ شعورهم بالكراهية والعداوة مداه للبيزنطيين، نظراً لتسلطهم الديني^(١) والسياسي والاقتصادي^(٢)؛ وكان عمرو بن العاص من العرب ذوي الخبرة بأهل مصر من قبل الإسلام^(٣)، ونجح في تحييد الجزء الأكبر منهم في الصراع المرتقب بينه وبين البيزنطيين^(٤)

لهذا كان ترحيبهم بالعرب ضماناً للخلاص من الاضطهادات البيزنطية وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم، وحرية ممارسة شعائرهم الدينية^(٥).

١- انظر: المقرئى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط بيروت، ج٢، ص٤٨٨؛ وكذلك Stephenson. C. Medieval history Europe from the second to the sixteenth Century, New York, 1962, P. 43.

Jackson. F.: The history of the Christian church from the earliest times to the death of st Leo the great A.D. 461, London 1909, PP. 269-270;

Creed. J. M.: Egypt and the Christian Church, Oxford, 1947, P. 300;

2- Bell. H.L.: The Byzantine servile state in Egypt. Journal of Egyptian Archaeology, 1917. 4, PP. 94-106; Book. A.E.R. Byzantine Imperialism in Egypt. "The American historical review, 34, 1928, PP. 1-8; Thompson. J. Johnson E.. An introduction to Medieval Europe 300-1500, New York, 1965, P. 39.

Vasiliev. A.A.: history of the Byzantine Empire 324-1453. Modison and Milwaukee 1964, P. 54.

٣- ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ط ليدن ١٩٢٠م، ص٥٥؛ الواقدي: فتوح الشام، المطبعة العثمانية ١٣١٥هـ، ج١، ص٢٢.

٤- ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٥٨، ٥٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ط بيروت ١٩٧٨، ج١، ص٢١٤؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ط ليدن، ١٩٦٧، ص٨٢؛ ابن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩، ٢٥؛ الكندي: الولاة والقضاة، ط بيروت، ١٩٠٨، ص٨؛ المقرئى: الخطط، ج١، ص٢٨٩.

5 - Father C. Anawati: Factors and Effect of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria, Wiesbaden, 1975, PP. 25-27.

وقد أرسل عمرو أمانا إلى بنيامين بطرك النصارى الذى كان هاربًا من البيزنطيين فضمن تأييد جانب كبيرًا من المصريين لجيشه^(١).

وعاون القبط العرب وساعدوهم فى إقامة جسر ضخم عند بابليون، لمنع سفن البيزنطيين من الذهاب إلى نقيوس^(٢) والإسكندرية، ومصر العليا من جهة، ولتيسير عبور الفرسان العرب النيل من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية من جهة أخرى، وأصبح القبط أعوانا للمسلمين يقدمون لهم المساعدة^(٣)، انتقامًا من البيزنطيين وليضمنوا معاملة المسلمين لهم بالحسنى.

وقد حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون^(٤)، وحظى بمساعدة القبط فى ذلك، إلا أن مجموعة أخرى من القبط استمرت فى الولاء للبيزنطيين، واشتركت معهم فى الدفاع عنه^(٥)، وكان أغلب هؤلاء من الداخلين فى دائرة المصالح البيزنطية، إذ سبق للدولة البيزنطية تجنيد القبط سواء عن طريق التجنيد أو التطوع^(٦).

وقد توصل عمرو إلى الصلح مع المقوقس، بعد ما أشار عليه القبط المواليين له عدم قدرة قواته على الصمود أمام المسلمين^(٧)، ويوضح هذا أن كفة الأقباط

١ - ذكر ساويرس بن المقفع أن عمرا أرسل إلى بنيامين بطرك النصارى: "العهد والأمان والسلامة من الله... وقد حضر بنيامين بناء على أمان عمرو بن العاص" ساويرس: سير الأباء البطارقة، ط المعهد القبطى، جـ ١، ص ١٠٧.

٢ - نقيوس: كانت أهم الحصون فى الطريق إلى الإسكندرية، أنظر: Chronique de Jean, évêque de Nikiou, Paris 1889, P. 448.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٢؛ C.F: Chronique de Jeanm PP. 439-440.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٤؛ البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٢١٥؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، القاهرة، ١٣٤٩هـ، جـ ٢، ص ٣٩٥؛ المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٨٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور ط القاهرة، ١٩٨٢م، جـ ١، ق ١، ص ص ٩٥، ٩٦.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٤؛ ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٢٢؛ Buttler: The Arab Conquest of Egypt, London, 1902, PP. 311-326.

٦ - سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٤٧م، ص ١٠؛ J. Maspero: Organisation militaire de L' Egypt Byzantine, Paris, 1912, PP. 114-118; Bell: Op. Cit., P. 106.

٧ - الواقدي: فتوح الشام، جـ ٢، ص ص ٨٣، ٨٤ الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٣٩، جـ ٣، ص ص ١٩٧، ١٩٩؛ ابن الأثير: الكامل جـ ٢، ص ٣٩٥.

الذين ساعدوا العرب كانت أكبر من كفة الموالين للبيزنطيين والذين هدد المقوقس بهم عمرو^(١).

وقد تضمنت شروط صلح بابليون:

- تأمين أهل مصر على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شئ من ذلك أو ينتقص، ولا تساكنتهم النوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية^(٢).
- يفرض على جميع من بمصر، أعلاها وأسفلها من القبط (ديناران) يتساوى في ذلك شريفهم ووضيعهم، ومن بلغ الحلم منهم، دون النساء والأطفال والشيوخ^(٣).
- ضيافة القبط للمسلمين النازلين عليهم ثلاثة أيام.
- للقبط أرضهم وأموالهم، لا يتعرض لهم في شئ منها.
- واشترط المقوقس على عمرو أن يترك للبيزنطيين حرية الموافقة على هذه الشروط، ومن رفضها منهم، فله الحرية في الخروج من مصر إلى الدولة البيزنطية^(٤).
- وأرسل المقوقس شروط هذا الصلح إلى الإمبراطور هرقل^(٥).

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٥؛ الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ٢٨، ٢٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ط القاهرة ١٩٢٩، ج ١، ص ١٠، ١١.

٢ - الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٩٩، ٢٠٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩٦٣، ج ٣، ص ٣٢٤؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط بيروت ١٩٦٦م، ق ٥، م ٢، ص ٩٧١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٤، ٢٥.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٠؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ط بيروت، بدون، ج ٤، ص ٢٦٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، دار الكتب ١٩٦٩، ص ٩٧؛ راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية، القاهرة ١٩٤٨، ١٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٠، ٧١؛ بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٤٦، ص ١٩٥.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧١، ٧٢؛ البلائرى: فتوح البلدان، ص ٢١٧؛ ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٢٢٤؛ ابن خلدون: العبر، ق ١، م ٢، ص ١٤٧، ١٤٨؛

ومن الملاحظ أن هذا الصلح شمل أهالى مصر جميعا فى الوجهين القبلى والبحرى، ومنح الأقباط حرية العقيدة، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وكنائسهم وفرض عليهم الجزية، أما الخراج ففرض على جميع من بمصر مسلمين وغير مسلمين، وكان يزداد أو ينتقص تبعا لأحوال الفيضان، كما كان يدفع على ثلاثة أقساط فى السنة^(١).

وقد طبق الصلح على البيزنطيين والنوبيين إن وافقوا على شروطه، أما إذا رفضوا فلهم حرية مغادرة البلاد إلى حيث يريدون، وكانت تلك أول إشارة إلى النوبة مما يدل على اهتمام المسلمين بأمرها، ونص الصلح على ألا يساكن النوبة المصريين "وأن من يدخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى منهم، واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم ثلاث (فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم) على ما فى هذا الكتاب عهد الله ونمته رسوله وزمة الخليفة أمير المؤمنين، وضم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعملوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا، على ألا يغزوا أو يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة"^(٢).

ولما اتجه عمرو بجيشه بعد فتح بابليون إلى الإسكندرية قدم كثير من القبط المساعدة له لفتحها^(٣)، فأصلحوا الطرق وأقاموا الجسور والأسواق، ولم يلق عمرو أية مقاومة على طول الطريق بين بابليون والإسكندرية^(٤).

وقد تغيرت أحوال الدولة البيزنطية بعد موت هرقل، إذ ألت مقاليد الحكم لابنيه قسطنطين وهرقلوناس تحت وصاية الامبراطورة مارتينة Martina، فبدأت

١ - انظر: ص ص ٤٢، ٤٤، من الفصل الأول.

٢ - الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ص ١٩٩، ٢٠٠؛ القلقشندى: صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٣٢٤؛ ابن خلدون: العبر، ق ٥، م ٢، ص ٩٧١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٤، ٢٥؛ محمد عبد العال أحمد: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٢٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥م، ص ٢٧٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٢؛ وانظر أهمية الإسكندرية: محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩، ص ٤٨؛ سعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية، دار الكاتب العربى ١٩٦٧، ص ٦٦؛ جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن، بيروت ١٩٦٨، ص ١٥؛ ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، نقله للعربية أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠، ص ٦٥.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٣.

الأمر بتبديل لصالح العرب، فقررت الإمبراطورة إنهاء حالة الحرب معهم لانشغالها بالمشاكل الداخلية للدولة، فأرسلت المقوقس إلى مصر. وكان قد غادرها من قبل - لإنجاز هذه المهمة^(١)، بعد ما ساد الانهيار بين قوات البيزنطيين بالإسكندرية^(٢)، وعم الخلاف بين قادتهم^(٣).

وعقد صلح الإسكندرية في ٢٠هـ/ ٦٤١م، وتضمن الشروط الآتية:

- يدفع الجزية كل من دخل في العقد^(٤).
- يبقى المسلمون في أماكنهم، دون تدخل في أي عمل أو تعديل أي وضع حتى يجلوا الجند البيزنطيون.
- يجلوا الجند البيزنطيون عن الإسكندرية، خلال أحد عشر شهرا، ويحملون معهم ممتلكاتهم ومتاعهم، ومن أراد منهم الرحيل عن طريق البر يدفع جزية شهرية حتى يتم رحيله من أرض مصر^(٥).
- لا تعود القوات البيزنطية ثانية إلى الإسكندرية^(٦).
- يسود السلام، ويوقف القتال بين المسلمين والبيزنطيين.
- يتعهد المسلمون بحماية كنائس المسيحيين، ويمنحهم الحرية الدينية.
- يسمح لليهود بالإقامة في الإسكندرية^(٧).
- وبفتح العرب دمياط وتنيس تمت لهم السيطرة على كل بلاد مصر السفلى بما فيها الموانئ الشمالية^(٨)، وكان عمرو بن العاص قد سيطر على بلدان

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٦، سيده كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ١٣.

٢ - سعد زغلول: تاريخ الإسكندرية من الفتح الإسلامي إلى بداية العصر الفاطمي، من كتاب تاريخ الإسكندرية وحضارتها منذ أقدم العصور ١٩٦٣ ص ٢٢٧.

3 - Book, A. E. R.: Op. Cit., PP. 7-8; Bell, H. I.: Op. Cit. P. 106.

4 - Chronique de Jean, P. 453.

5 - Ibid, P. 455.

البلانري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٢٢؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، العراق ١٩٨١، ص ص ٢٤٠-٢٤١؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ص ١٦٦-١٦٧.

6 - C. F.: Buttler: Op. Cit., P. 320.

7 - Chronique de Jean, P. 455.

ترتوتون: أهل النمة في الإسلام، دار المعارف ١٩٦٧، ص ٩٩، صفاء حافظ عبد الفتاح: الموانئ والثغور المصرية، دار الفكر العربي، الكويت، ١٩٨٦م، ص ص ٤٩-٥٠.

٨ - ابن اسحق: فتوح مصر وأعمالها، ط القاهرة، ١٢٧٥هـ، ص ٧٩.

الصعيد^(١).

ومما هو جدير بالذكر أنه "كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة، وبعضها عنوة، فجعلها عمر بن الخطاب ذمة، وحملهم على ذلك"^(٢). وبسيطرة العرب على الصعيد الأعلى والأسفل، دخلت مصر عهداً جديداً، فأصبحت إحدى الولايات التابعة للخلافة الإسلامية، وأسند الخليفة عمر بن الخطاب ولايتها لعمر بن العاص^(٣).

السياسة الإسلامية إزاء أهل الذمة:

أهل الذمة اصطلاح إسلامي يطلق على معتنقى أحد الأديان السماوية السابقة على الإسلام، وهم من أهل الكتاب كاليهود والنصارى، كما أعتبر المجوس أهل ذمة، وأخذت منهم الجزية^(٤).

وأعتبر السامرة والصائبية أهل ذمة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى في أصل عقيدتهم - ومعنى "الذمة" التزام تقرير "توطين" أهل الكتاب في ديار الإسلام، وحمايتهم مقابل "الجزية"^(٥) قال الله سبحانه وتعالى: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"^(٦).

وقد حدد الإسلام موقفه بشكل واضح من أهل الذمة أو (أهل الكتاب) فقد قال تعالى: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا"^(٧)، وقال سبحانه وتعالى:

١ - الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ٤٦-٥٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٨، ٢٣٩، انظر: ملحق الرسالة، خريطة شكل (١).

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٠؛ ترتون: مرجع سابق، ص ٢٤٧.

٣ - الكندي: الولاة، ص ١١.

٤ - كان عمر بن الخطاب قد توقف عن أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد (عبد الرحمن بن عوف) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخذها من مجوس مجر فأخذها منهم. انظر: ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، دمشق ١٩٦١م، ج ١، ص ١-١٠.

٥ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ط الثالثة، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٤٣؛ ابن طلحة: العقد الفريد للملك السعيد، القاهرة ١٣٠٦هـ، ص ١٥٩، ١٦٠؛ النويرى: نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٤، ٢٣٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٦٢، ٣٦٣؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر العصور الوسطى (دراسة وثائقية) دار المعارف ١٩٧٩، ص ٨٥.

٦ - سورة التوبة/ آية ٢٩.

٧ - سورة البقرة/ آية ١٩٠.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ^(١)، وفي القرآن الكريم أيضا: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ"^(٢). فالآية الأولى تأمر بالقتال وعدم اللجوء إلى الاعتداء، والثانية قتال الذين ليسوا على دين سماوى وفرض الجزية، والثالثة البر من لم يعتدى على المسلمين.

يتضح من نصوص الآيات القرآنية الكريمة أن الإسلام، لا إكراه لأحد على اعتناقه، " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ "^(٣)، وأن من ظل متمسكا بدينه فلا إكراه له على تركه، ولهذا كان لزاما تحديد وضعه في المجتمع الجديد، وقد أطلق على هؤلاء أهل الذمة لأنهم قد صاروا في ذمة المسلمين من حيث تأمينهم على أرواحهم وأموالهم وأهليهم، وإطلاق حرية ممارسة شعائرهم الدينية. ويرى بعض المفسرين أن الأمر بقتالهم ناتج عن أنهم، وإن آمنوا بوحداية الله، فقد كفروا بما جاء به النبي محمد (عليه الصلاة والسلام)، ومن ثم لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل. لأن الإيمان بالرسول إيمان بالمرسل. وهم بذلك يتبعون أهواءهم، ولذلك يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية^(٤).

وهكذا كانت الجزية هي الشرط الأساسى لبقاء أهل الذمة في ديار الإسلام تحت حماية المسلمين، لأن الله أمر بقتالهم "وحتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

وقد فسرت هذه الآية عدة تفسيرات يهمنها منها قوله تعالى: "حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ" التي فسرت تفسيرين أحدهما: "حتى يدفعوها فعلا" وثانيهما: "حتى يضمنوها" فإذا ضمنوها يجب الكف عنهم^(٥)، أما الاشتقاق اللغوي لكلمة "الجزية"

١ - سورة التوبة/ آية ٢٩.

٢ - سورة الممتحنة/ آية ٨.

٣ - سورة البقرة/ آية ٢٥٥ انظر: سياسة الرسول في الدعوة إلى الإسلام، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٥-٥٣؛ محمد الخضرى: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٩٣، ٢٠٢.

٤ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ١٤٢، ١٤٣؛ قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ٨٥.

٥ - الماوردى: للمصدر السابق، ص ١٤٣؛ ابن قيم للجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٢٢، ٢٣؛ النويرى: نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٤، ٢٣٦؛ الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله): المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الاثنا، مخطط مصور، جامعة القاهرة، رقم ٤٢٠٤٥ ورقة ٢١٧-٣١٨.

فهو من الجزاء: بمعنى أنهم يدفعون الجزية، إما جزاء على كفرهم وإما جزاء تأمينهم في ديار الإسلام والدفاع عنهم وحمايتهم، وهو الأرجح^(١).

وقد جعل الفقهاء عقد الذمة من حق الإمام، وجعلوه قسمين مستحق ومستحب^(٢)، ويتضح من دراسة "عقد الذمة" أن الشروط الستة الأولى، التي اتفق على تسميتها "المستحق" استهدفت في أساسها حماية الإسلام والجماعة الإسلامية، كما أنها تتفق في مجموعها مع روح الشريعة الإسلامية، أما الشروط الستة الأخرى التي عرفت باسم "المستحب" فواضح أنها من وضع الفقهاء في مرحلة متأخرة^(٣)، وتؤلف هذه الشروط بقسميها صورة "العهد العمري"^(٤) أو "الشروط العمرية" المنسوبة إلى الخليفة "عمر بن الخطاب" وجدير بالذكر أن "عهد عمر"^(٥) لم يدون في حينه إلا مع مرحلة التدوين.

واختلف الفقهاء حول مقدار الجزية، ولكنهم اتفقوا جميعاً على أن قيمتها بالنسبة للفرد الغنى يجب أن تكون أعلى من قيمتها بالنسبة للفقير^(٦)، ولا تجب الجزية على صبي أو امرأة أو مجنون أو خنثى مشكل (فإن زال إشكاله وبان رجلاً

١ - البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤٣٤، ٤٣٥؛ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٤٢، ١٤٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣٦٢، ٣٦٣؛ المرتضى: البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، مكتبة الخانجي مصر ١٣٦٧هـ، ج ٢، ص ٢٢١، ٢٢٢؛ ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، ط الثانية، الأنجلو ١٩٦١، ص ١٢٥.

٢ - الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٤٥، ١٤٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

٣ - قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ٨٥، ٨٦.

٤ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣٧٨، ٣٧٩.

٥ - أنظر نصر العهد في: الأحكام السلطانية للماوردي، ص ١٤٥، ١٤٦؛ ابن الأخوة: معالم القربة في احكام الحسبة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٦ ص ٩٤، ٩٥؛ ابن زين القاضي: شروط النصاري، مخطط بدار الكتب ٢٩٥٢ تاريخ، ورقة ٣-٥؛ المقنسي الحنبلي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، مصر ١٣٤٨هـ، ج ٢، ص ٤٦٥، مع ملاحظة أنه وجدت بعض التغييرات الطفيفة بين مختلف النصوص التي أوردها هذه المصادر وغيرها.

٦ - انظر: الإمام مالك: الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء الكتب العربية، ١٣٧٠هـ، ص ٤٧٠؛ الماوردي: الأحكام، ص ١٤٤، ١٤٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٦، ٢٣٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣٦٢، ٣٦٣؛ المرتضى: البحر الزخار، ج ٢، ص ٢٢١، ٢٢٢؛ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٢٦؛ أنم مئز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ط القاهرة، ١٩٤٧، ج ١، ص ٦٠.

أخذت منه). ولا تؤخذ من غير القادرين على القتال، ويجوز تأجيل تحصيل الجزية من الفقير المعسر حتى يصبح قادراً على أدائها^(١).

ونخلص من هذا كله إلى أن الجزية ليست في واقع الأمر سوى ضريبة دفاع على حد تعبيرنا المعاصر، فهي مقابل مادي لما يتمتع به أهل الذمة من حماية في ديار الإسلام، وما كفلته حرية كسب العيش، وتنظيم جماعتهم داخليا بجانب حرية العقيدة، والدفاع عنهم طالما بقوا داخل المجتمع الإسلامي^(٢)، ولكن شروط فرض الجزية ومقاديرها المختلفة تميزت بطابع إنساني إذ راعت إعفاء النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والمعسرين والرهبان بشرط انقطاعهم عن أديرتهم^(٣)، وقد نهى الإسلام عن تكليف أهل الذمة بما لا قدرة لهم عليه أو ضربهم أو تعذيبهم إذا ما عجزوا عن أداء الجزية^(٤).

وتنظيماً لحصر من فرضت عليهم الجزية، خصص لكل مجموعة من أهل الذمة عريف يتولى حصر من أسلم منهم أو مات^(٥)، ومن بلغ من صبيانهم الحلم ومن قدم عليهم أو سافر منهم، وإحضارهم لأداء الجزية^(٦).

وقد تركت الشئون الداخلية لطوائف أهل الذمة لهم لينظموها بالكيفية التي تلائمهم بما لا يخالف أحكام الإسلام، تنفيذاً لما جاء في ذلك في قوله تعالى:

١ - الإمام مالك: الموطأ، ص ٤٧٠؛ الماوردي: الأحكام، ص ص ١٤٤، ١٤٥؛ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٢؛ القلقشندي: صبح الاعشى ج ١٢، ص ص ٣٦٠، ٣٦١؛ النووي: نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٣٦، ٢٤٠؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ص ١٥٩.

٢ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٣٢٢.

٣ - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص ص ٤٩، ٥٠؛ ويذكر ابن عبد الحكم: "أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب في رهبان يترهبون بمصر فيموت أحدهم، وليس له وارث، فكتب إليه عمر أن من كان منهم له عقب، فأدفع ميراثه إلى عقبه، ومن لم يكن له عقب فأجعل ماله في بيت مال المسلمين فإن ولاؤه للمسلمين" انظر: فتوح مصر وأخبارها، ص ٩٠، وهي تدخل ضمن المزايا التي تمتع بها أهل الذمة.

٤ - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٩٩.

٥ - إذا مات أحد من أهل الذمة لا تسقط عنه الجزية المستحقة قبل وفاته، ففي خلافة عبد الملك، وولاية ابنه عبد الله على مصر "أمر عبد الله أن لا يدفن ميت حتى يقوموا عنه بالجزية". انظر: ابن المقفع: سير الأباء البطارقة، ج ١، ص ١٤٢.

٦ - أصبح في دولة الإسلام وظيفة المحتسب، حيث النظر في أهل الذمة وأن يلزمهم بما هو مشروط عليهم، انظر: ابن الاخوة: معالم القربة، ص ٩٤؛ ابن خلدون: العبر، ط بيروت، ١٩٦٧، ج ١، ص ٣٩٨.

"وَلِيَحْكَمْ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (١) كما ذكر مثل ذلك شأن اليهود في الآية الكريمة: "إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" (٢)، وكان من حقهم أن يلجأوا في خصوماتهم إلى الحاكم المسلم، وعندئذ يتعين عليهم القبول بحكمه وفقا للشريعة الإسلامية (٣).

ولم تشأ الشريعة لأهل الذمة أن يكونوا جماعة منبوذة داخل المجتمع الإسلامي، فقد أحل القرآن الكريم تبادل الطعام بين المسلمين وأهل الذمة، وهي أكبر علامات العلاقات الودية الاجتماعية "وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم" (٤)، وقد اختلفت الروايات بشأن إقامة العلاقات الودية مع أهل الذمة، وإن كان الراجح جواز عيادتهم أثناء المرض وشهود جنازتهم وتعزيتهم في مصائبهم، وتهنئتهم في أفراحهم (٥)، وثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام جواز معاملتهم في البيع والشراء ومشاركتهم في التجارة (٦).

وأيا ما كان الأمر فقد التزم المسلمون بتطبيق تلك القواعد، ولهذا عاش أهل الذمة في أمان طالما التزموا بدورهم بالعمل طبقا لتلك الشروط، واحسوا بالفرق بين ما كانوا يرزحون تحته من نير البيزنطيين وظلمهم، فتمتعوا بالعدالة (٧)، وكفلت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، يتضح هذا عداة الفتح، من عودة الأب بنيامين إلى الإسكندرية، بناء على أمان عمرو بن العاص، فقد غاب عن بيعته ثلاث عشرة سنة قضى منها عشر سنوات خلال حكم الإمبراطور هرقل ونائبه المقوقس، وثلاث

١ - سورة المائدة/ آية (٤٧).

٢ - سورة المائدة/ آية (٤٤).

٣ - الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٤٥، ١٤٦.

٤ - سورة المائدة/ آية (٥).

٥ - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ٢٠٠، ٢٠٦.

٦ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٤، ٢٤٥.

٧ - يتضح هذا من خطبة عمرو بن العاص غداة الفتح مخاطبا جنوده "..... واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا" ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، دار الكتب ١٩٦٩. ص ١١٨، ١١٩.

سنوات منذ بدء الفتح العربى لمصر^(١)، وقد عاد كثير من مسيحي مصر إلى أراضيهم، وذلك بعد عودة بطركهم الأب بنيامين^(٢). كما لم يتعرض الفاتحون لأمالك الكنيسة المصرية، بل أعلن عمرو بن العاص حمايته ورعايته لها، واحتفظت الكنيسة بأموالها وأملاكها، وتمتع مسيحيو مصر فى ظل الإسلام بحرياتهم ومن بينها الحرية الدينية^(٣).

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مصر، قال: أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صهراً ونمة^(٤).

كانت سياسة عمرو بن العاص عقب الفتح تتسم برعاية أهل الذمة، وتفقد أحوالهم، فقد كان يخرج متخفياً بين الناس، ليقف على أحوال المصريين والتأكد من أنهم يعاملون معاملة حسنة، ويتبين مشاعر الأهالى تجاه المسلمين وحكمهم^(٥). كما كان الخليفة عمر بن الخطاب يرسل بأوامره مؤكداً على ضرورة حسن معاملة أهل الذمة، وعدم الإساءة إليهم، حتى ولو اقتضى الأمر الاقتصاص لهم من عماله ومن أولادهم - كما حدث عندما اقتص لأحد أقباط مصر من عبد الله ابن واليها على مرأى من الناس^(٦).

والحقيقة أن السياسة الإسلامية السمحة أحلت الهدوء والسكينة طوال عصر الخلفاء الراشدين الذين كانوا يوصون دائماً ولائهم بأهل الذمة خيراً، والدليل على ذلك الخليفة عمر عند وفاته قال: "أوصى الخليفة بعدى بزمه رسول الله صلى الله

١ - ابن المقفع: سير الأباء، م ١، ج ١، ص ١٠٨، ١٠٩؛ وذكر أبو صالح الأرمنى: أن نصص الأمان: "قليظهر الشيخ البطريرك مطمئنا على نفسه وعلى طائفته القبط جميعهم التى بالديار المصرية، وغيرها آمنين على نفوسهم من كل مكروه" انظر: تاريخ كنائس وأديرة مصر، اكسفورد ١٨٩٥، م ٢، ص ١٠٢.
٢ - ساويرس: سير الأباء البطارقة، م ١، ج ١، ص ١٠٩.

3- Chronique de Jean, P. 464.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢، ٣؛ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ط لينن ١٩٦٧، ص ٥٨؛ ابن زولاق: فصائل مصر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٣٥٩١ تاريخ، منقولة عن نسخة خطية بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٦٩٩٣ تاريخ؛ ابن ظهيرة: محاسن مصر، ص ٧١-٧٨.

٥ - ابن الداية: المكافأة، القاهرة ١٩١٤، ص ٨٧، ٨٨.

٦ - انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٧، ١٦٨؛ جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٤، القاهرة ١٩٠٨، ص ٢٠٨، ٢٠٩؛ الشماس منسى القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٢٤، ص ٢٠٦.

عليه وسلم، خيرًا أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه^(١).

وثمة رواية تجدر الإشارة إليها هنا تقول أن الخليفة عمر ابن الخطاب أمر عمرًا بن العاص أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص^(٢)، وفرض عليهم بعض القيود في الملبس والمظهر بقصد تمييزهم عن المسلمين.

ويذكر أبو يوسف أن ختم الرقاب، كان وقت جباية الجزية فحسب، فيقول: "ينبغي أن تختم رقابهم، في وقت جباية جزية رؤوسهم، حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتم"^(٣).

فلما كان عهد عثمان بن عفان، لم يطرأ تغيير على تلك المعاملة السمحة إزاء أهل الذمة، وتوالت كتبه إلى عماله يوصيهم برعاية أهل الذمة، وعدم الإجحاف بهم في جزية أو خراج، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا وراعيا لقومه، ولم يكن جابيا^(٤).

كذلك أحسن على بن أبي طالب، معاملة الذميين فأوصى عماله في جميع أنحاء الدولة الإسلامية بهم خيرا، وأمر بمراعاة عهودهم والدفء عنهم، وعدم الإجحاف بهم^(٥)، وقد أوصى عامله محمد بن أبي بكر بأهل الذمة حين قدم مصر واليا عليها من قبله في سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، وجاء في عهد ولايته: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد عبد الله على أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر، حين ولاه

١ - أبو يوسف: الخراج، القاهرة ١٣٠٢هـ، ص ١٢٥، ضياء الدين الريس: الخراج، ص ١٧٢.

٢ - يقول ابن عبد الحكم: "كتب عمر بن الخطاب. أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص.. ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم". انظر فتوح مصر، ص ١٥١؛ ويذكر المقرئ: "أنه في ولاية اسامة بن زيد التتوخي لخراج مصر وسم ايدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم دير وتاريخه، وجعل على كل نصراني وسد، وصورة أسد على أيديهم" انظر: الخطط، ج ١، ص ٧٦؛ وأيضا: ج ٢، ص ٤٩٢، ٤٩٣؛ ترتون: أهل الذمة في الاسلام، ص ١٢٨؛ على حسنى الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ١٩٦٩، ص ٧١، ٧٢.

٣ - انظر: أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٧، ١٢٨؛ ترتون: مرجع سابق، ص ١٢٨.

٤ - الطبرى: تاريخ الامم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

٥ - ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ١٠٩؛ على حسنى الخربوطلى: الحضارة العربية الإسلامية، ١٩٦٢، ص ١٤٨.

مصر، وأمره بتقوى الله في السر والعلانية، وبالعدل مع أهل الذمة، وبإنصاف المظلوم وبالشدة على الظالم، وأمره أن يجنى خراج الأرض على ما كانت عليه من قبل لا ينتقص منه ولا يبتدع فيه^(١).

واستخدم أهل الذمة الجهاز الإداري الذي أبقاه عمرو بن العاص على حاله^(٢)، وهو نفس النظام الذي وضعه الإمبراطور جستنيان والذي بقي موجودا حتى الفتح الإسلامي، كما أبقى بعض الموظفين البيزنطيين وأحل الأقباط محل البعض الآخر^(٣). وفي العصر الأموي عهد الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ / ٦٨٢-٦٨٤م)، بولاية إقليم الإسكندرية والبحيرة ومريوط، وما يليها لأحد المسيحيين الملكانيين، ويسمى تيود وسيوس^(٤)، الذي كان على خلاف مع مسيحي مصر من الأرثوذكس^(٥)، ويبدو أن هذا القول فيه شيئا من المبالغة، "بيد أنه ليس ثمة ما يدعو للشك في أنه كان في قدرة الرجل المسيحي أن يتمتع بالسلطان العظيم"^(٦).

ويتضح دور المصريين المسيحيين في الإدارة والحكومة في ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٥هـ / ٦٨٥م) الذي اتخذ له كاتبين من اليعاقبة هما أثناسيوس^(٧)

١ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٥٥٦.

٢ - يقول ابن عبد الحكم: "وكان عمرو بن العاص لما استوسق له الأمر أقر قبضها على جباية الروم فتوح مصر، ص ١٥٢.

وانظر: سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٢٠-٢٦.

٣ - دانييل دينيت: الجزية والإسلام، ترجمة فوزى فييم، بيروت ١٩٦٠، ص ١١٢؛ نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة ١٩٥٠، ص ٣٥٩؛ محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ١٩٧٩ ص ١٠٠؛ إبراهيم العنوي: التاريخ الإسلامي، الأنجلو ١٩٧٦، ص ١٢٧؛ مصطفى طه: مصر الإسلامية، ط الثانية. النهضة المصرية ١٩٥٩، ج ١، ص ٤١-٤٣؛ هـ. موس: ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق، ط القاهرة ١٩٦٧م، ص ٢٦٥.

٤ - ابن المقفع: سير الأباء البطارقة، م ١، ج ١، ص ١٢٢، ويسميه تاوضوسيوس، وفي موضع آخر تادرس، ص ١٢٤؛ وانظر أيضا: بطرس الجميل: السنكسار الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين، القاهرة ١٩٦٨، ج ١، ص ١٢٧؛ ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١٦، ١٧.

٥ - ابن المقفع: سير الأباء م ١، ج ١، ص ١٢٢؛ السنكسار، ج ١، ص ١٢٧.

٦ - ترتون: نفس المرجع، ص ١٧.

٧ - ويسميه أحد المؤرخين السريان اثناسيوس بن غوماية Athanasius Ben Gaumaye، ويقول أنه كان يشتهر بالنبل والذكاء وكان متبحرا في العلوم الكنسية والدينية، وذاعت شهرته حتى بلغت أخباره الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي عهد إليه بتعليم أخيه عبد العزيز بن مروان الذي ولي أموة مصر. انظر المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٩٨؛

واصله من مدينة الرها، والأخر اسمه اسحق من أهل شبرا، وقد عملا على خدمة مصالح الكنيسة المصرية، وإقصاء تيود وسيوس الملكاني من منصبه، وإرجاع أملاك، وأموال الكنائس القبطية على المذهب اليعقوبي^(١).

ويبدو أن أثناسيوس تولى ديوان الخراج^(٢) في عهد الوالى عبد العزيز بن مروان، واستمر في اهتمامه بالكنيسة المصرية ذات المذهب اليعقوبي وأحوال مسيحي مصر، فلما توفي البطريرك سيمون في سنة ٦٩هـ/٦٨٨ م وأصبحت الكنيسة بدون راع لها^(٣)، طلب أثناسيوس ومن معه من الكتاب القبط من الوالى عبد العزيز بن مروان، أن يرسل الأسقف اغريغوريوس إلى الإسكندرية للحفاظ على أموال الكنائس ورعاية شئونها، وأجاب عبد العزيز بن مروان الكتاب القبط إلى طلبهم، وأنفذ اغريغوريوس إلى الإسكندرية، وكتب له سجلا يفوضه التصرف فى أموال الكنائس، وعهد إليه بتدبير شئونها، وقد ظل فى منصبه ثلاث سنوات^(٤).

وكان أثناسيوس ينعت فى المكاتبات الرسمية "بالكاتب الأفخم" ويضم ديوانه عشرون كاتباً، ثم زاد عددهم حتى بلغ أربعة وأربعين كاتباً^(٥)، وتمتع اثناسيوس فى ظل ولاية عبد العزيز بن مروان بشأن عظيم حتى أنه قد شيد فى عهده بعض كنائس بمدينة الفسطاط منها كنيسة مارى جرجس وكنيسة أبى قير^(٦).

ولم يكن أثناسيوس واسحق هما الموظفان الوحيدان من أهل النمة فى عهد ولاية عبد العزيز بن مروان، إذ كان هناك كثير من الكتاب المسيحيين خاصة، إلى

١- ترتون: أهل النمة، ص ١٥.

٢- أن الحرية والخراج حقان فرضا على المشركين (أهل النمة) فالجزية منصوص على قدرها، وتؤخذ مع بقاء الكفر، أما الخراج فيؤخذ مع الكفر والإسلام، وهذا يجعلنا للقول فيمن يتولى الخراج من النميين، من أنه يكون عمله قاصراً على الخراج الذى يؤديه النميون، وعلى ذلك يكون عمله تحت إشراف والى الخراج الذى يجمع بين الخراج بنوعيه من النمي والمسلم.

الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ١٤٢.

٣- هو رهاوى أى من أهل مدينة الرها، رحل إلى الإسكندرية، ودخل السلك الدينى، وبعد وفاة البطريرك اسحق، وقع لاختيار القبط عليه ليكون بطركا، وحارب فى سبيل مذهبه اليعقوبى. ابن المقفع: سير الأباء، م ١، ج ٢، ص ١٣٢-١٤٢.

٤- المصدر نفسه، والصفحات.

5- Chronique de Michel, T 2, Fase 3, P. 475.

ترتون: أهل النمة فى الإسلام، ص ١٥.

٦- ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٤١.

جانب بعض حكام الأقاليم^(١)، نذكر منهم بطرس حاكم الصعيد، الذي أسلم في نهاية حكم عبد العزيز بن مروان، وأيضا كان حاكم مريوط مسيحيا إلا أنه كان من اتباع المذهب الملكاني، وهكذا فقد أبقى المسلمون على الموظفين من مسيحي مصر في وظائفهم المختلفة^(٢).

ولا شك أن ذلك كفيل بأن ينفي ما ذهب إليه بعض المحدثين من وصفهم سياسة عبد العزيز بن مروان نحو أهل الذمة بالظلم والجور^(٣)، في الوقت الذي استعان فيه بالقبط في إدارة البلاد، واستجاب لمطالبهم والسماح لهم ببناء الكنائس في مدينة حلوان^(٤).

ومما يذكر أنه في خلافة عبد الملك بن مروان تولى عبد الله بن عبد الملك على مصر ٨٦هـ/٧٠٥م فكان أول من نقل الدواوين إلى العربية، وقد أدى هذا إلى زيادة أعداد العرب في الدواوين مع الإبقاء على من يعرف العربية من غير المسلمين والاستغناء عن عداهم^(٥).

ومن صور التسامح الإسلامي، وتغلغل الذميين في شئون الإدارة والحكم ما نلمسه في عهد قرّة بن شريك (٩٠-٩٦هـ/ ٧٠٩-٧١٥م) فقد عهد لاحد القبط ويدعى يونس بجباية الخراج من الرهبان والأساقفة، وكان يونس يتمتع بمكانة عظيمة لدى والي وكبار أعوانه^(٦).

وتؤكد الوثائق البردية مدى احتفاظ الذميين بكثير من الوظائف منذ البداية فهناك بردية مؤرخة سنة ٩٠/٩١هـ، يطالب فيها قرّة بن شريك "باسيل" بما تبقى

١ - ابن المقفع: سير الأبناء البطارقة، م ١، ج ٢، ص ١٣١.

٢ - المصدر نفسه: صفحات ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٤٣.

٣ - بتشر: تاريخ الأمة القبطية: ترجمة اسكندر تانرس، القاهرة ١٩٥٠، ج ٢، ص ١٦٣؛ الرامب البراموسي، حسن السلوك في تاريخ البطارقة والملوك، القاهرة، بدون، ج ١، ص ٤٣١.

٤ - ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٤١؛ أبو صالح الأرمني: تاريخه، ص ٦٧.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٢، ٢٣٧؛ الكندي: الولاية ص ٥٨، ٥٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٢٥.

٦ - ابن المقفع: سير الأبناء، م ١، ج ٢، ص ١٤٨.

Lammens. M. H.: Un Gouverneur Omayyade d' Egypte; "Qorra Ibn Sarik d' après les Papyrus Azabes", Bulletin de J. institut Egyptien, Le Caire, 1908, P. 115.

من الجزية^(١)، كما أورد جروهمان خطابا خاصا بضريبة الطعام من قرة إلى عاملين هما بقطر بن تيودسيوس، وأبا قيرس بن أندرياس^(٢).

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧١٩م)، فقد كره أن تكون يد الذمي هي العليا فتكون له السلطة على المسلمين، لذلك عزل جماعة من القبط واستبدلهم بآخرين مسلمين^(٣)، فأرسل أوامره إلى الولاة، ومما جاء في رسالته "فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة فتبسط أيديهم والسنتهم...."^(٤).

كذلك عهد الخليفة العباسي المأمون (١٩٧-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م) - عند زيارته إلى مصر سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م - لأحد الأقباط ويدعى بكام^(٥) عهد إليه بكورة بورة^(٦) وما حولها.

واستمرت سياسة ولاة مصر في العصر العباسي من استخدام أهل الذمة والاعتماد عليهم في إدارة البلاد، فقد قام كل من مقارة بن يوسف. وكان يتولى شئون بيت المال واستخراج الأموال - إبراهيم بن ساويرس، بدور كبير في سياسة البلاد، وذلك أثناء ولاية عبد الواحد بن يحيى الوزير (٢٣٦-٢٣٨هـ / ٨٥١-٨٥٢م)، وكان هذان الموظفان من مسيحي مصر يعملان لصالح كنيستهم وإخوانهم المسيحيين^(٧).

١ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ط دار الكتب المصرية ١٩٣٨، ج٣، ص ١٥.

٢ - المرجع نفسه، والجزء، ص ٦٠.

٣ - عبد الله بن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة ١٩٥٤م، ص ١٣٥، ١٣٦؛ الكندي: الولاة ص ٦٩؛ ابن المقفع: سير الأباء البطارقة، م ١، ج ٢، ص ١٥٢، ١٥٣؛ ابن النقاش: الذمة في استعمال أهل الذمة، ورقة ٨٣، مخطوط بدار الكتب، رقم ٣٩٥٢ تاريخ؛ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ق ١، ص ٢١٢-٢١٣؛ ابن كثير: سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة، بدون، ص ٩١؛ سيده كاشف: تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، مجلة كلية الآداب، المجلدان ٩، ١٠، ١٩٦٠، ١٩٦٢، ص ١٢، ١٣؛ قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ٨٨.

father. C. Anawati: Op. Cit., P. 28

٤ - الكندي: الولاة، ص ٦٩، ابن الأخوة: معالم القرية في احكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان واخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ٩٣، ٩٤.

٥ - عرض عليه المأمون اعتناق الإسلام، ولكن بكام كان متمسكا بدينه، قال للخليفة "لأمر المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم، فلا يكون له مولى واحد نصراني" انظر: ابن بطريق: التاريخ الجموع، ص ٥٨؛ ابن المقفع: سير الأباء، م ١، ج ٢، ص ٢٧١، ٢٧٢.

٦ - بورة: مدينة على ساحل النيل، بالقرب من دمياط، وتنسب إليها العمائم البورية والسبك البورى. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٠٦.

٧ - ابن المقفع: سير الأباء، م ٢، ج ١، ص ٢، ٣.

فلما كانت خلافة المتوكل (٢٢٣-٢٤٧هـ / ٨٤٨-٨٦١م) أمر بعدم الاستعانة بالذميين في الدواوين^(١).

وهناك كتاب للمتوكل يوصي فيه عماله في مختلف الأقاليم الإسلامية، بأن يكون موظفيهم من أهل الأمانة والنصح، وهو يرى أن هذه الخصائص لا تتوفر عند أهل الذمة، يقول في هذا: "فإما الأمانة فليس أحد منهم مأمون على أموال الفئ، وأمور المسلمين، لأنهم عداة الدين ونعائه، وأما النصيحة فغير موجودة عند من كان مقامة بين ظهرائي المسلمين على قهر وذله وصغار^(٢)".

ونهى المتوكل في كتابه هذا عن استخدام الذميين في شئ من أمور المسلمين وأموالهم، وتدبير خراجهم، فلا يكون منهم في الدواوين الخاصة والعامة في العاصمة والنواحي، وأعمال الجبهة، والمعادن، والبريد وسائر الأعمال^(٣)، وفي هذا دليل على انتشار الإسلام، وكثرة المسلمين الذين هم أحق بهذه الوظائف لقد صار أهل الذمة قلة في البلاد، ويتضح هذا عندما أصدر المتوكل أوامره بإنشاء المقياس الهاشمي^(٤) على ألا يتولى أحد من النصاري أمره^(٥)، أي أنه لم يكن هناك من كان يتولى أمره منهم^(٦).

وتشير أوراق البردي إلى استخدام النصاري بصفة خاصة في تحصيل الجزية والخراج من الذميين سواء تم ذلك قبل خلافة المتوكل أو بعده، فهناك بردية يرجع

١ - المصدر نفسه، والمجلد، والجزء، ص ٤؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٣٥٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٢٨٥.

٢ - ابن زين القاضي: شروط النصاري، ورقة ١٦.

٣ - المصدر نفسه، ورقة ١٧، ١٨.

٤ - المنوفي: الفيض المديد في أخبار النيل السعيد، مخطوط بدار الكتب ٦٦ جغرافيا، ص ٤٠؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٥٧.

٥ - يذكر الكندي: وفي ولاية يزيد بن عبد الله من قبل المنتصر ورد كتاب المتوكل باتبناء المقياس الهاشمي للنيل، ويعزل النصاري عن قياسه، فجعل يزيد عليها أبا الرداد المعلم، وأجرى عليه سليمان ابن وهب صاحب الخراج سبعة دنائير في سنة سبع وأربعين ومائتين المقصود بالعزل هنا عدم الاستخدام، انظر: الكندي: الولاية والقضاء، ص ٢٠٣.

٦ - انظر: المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٣٨٠، ٣٨١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ط بيروت ١٩٧٠، ج ٣، ص ١١٢-١١٤؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٢٩٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٥٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٥٦.

تاريخها إلى ١٠ سبتمبر ٨٤٧م، جاء فيها أن القسطل^(١) لكورتى الأشمونيين وأسفل انصنا وقوص، وكان قبطيا ويسمى مينا بن إبراهيم^(٢).

وفى بردية أخرى مؤرخة فى سنة ٢٤٩هـ (٨٦٣/٨٦٤م) وفيها أن القسطل كان قبطيا ويسمى ابن ابهيوه^(٣)، كما تشير بعض أوراق البردى إلى أن رؤساء القرى فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، كانوا من النصارى المصريين^(٤).

هكذا حظى أهل الذمة بضمان حرية العقيدة بجانب حرية كسب العيش، وتأمين الأرواح والأعراض، ومن ثم كانت لهم علاقات ودية وصلات طيبة بالمسلمين.

أما عن السياسة الإسلامية تجاه أهل الذمة من اليهود، فإنه مما لا شك فيه أنهم عوملوا بنفس الشروط التى عومل بها النصارى باعتبار اليهود من أهل الذمة. وسوف نحاول من خلال أوراق الجنيزة أن نوضحها ذلك أن وظائفهم فى المجتمع المصرى كانت متنوعة، إذ كانوا يعملون فى ثلاثمائة وستون حرفة مختلفة، وقد وجد منها مائتين وأربعين حرفة يدوية مشاركة مع الأهالى من مختلف الديانات، ووصل هذا التعاون إلى درجة المشاركة فى الأعمال والمصانع^(٥)، وهذا يدل على أنصهارهم ضمن طوائف الحرفيين فى المجتمع المصرى. وقد شارك الأقباط واليهود فى أعمال الصرافة، بل كان أغلب الصرافين فى مصر الإسلامية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى من أهل الذمة^(٦).

١ - القسطل: لقب يطلق على الموظف المشرف على مالية الكورة، وبمعنى آخر مندوب ديوان الخراج والأموال، وكلمة قسطل تقابل الكلمة البيزنطية أو جستاليوس سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٩.

٢ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ٣، ص ١٣٤، ١٤٠.

٣ - المرجع نفسه، والجزء، ص ١٤٥.

٤ - المرجع السابق، ص ٧٠.

٥ - س. د. جوايتاين: دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق عطية القوصى، الكويت، ١٩٨٠، ص ١٥١، ١٥٢؛ قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ٥٩، ٦٠.

٦ - أبو الحسن على بن يوسف الحكيم: الدوحة المشبكة فى ضوابط دار المسكة، تحقيق حسين مؤنس، مدريد ١٩٦٠م، ص ١١٧؛ عبد العزيز الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى، بغداد ١٩٤٨، ص ١٧٣.

ويبدو أن سماح عمرو بن العاص لليهود بالإقامة في الإسكندرية أهم مراكز نشاطهم، كان مكافأة لهم، لعدم تدخلهم في قتال المسلمين، والتزامهم الحياد طوال أحداث الفتح.

وقد ذكرت المصادر العربية أن عدد يهود الإسكندرية كان حوالي أربعين ألفاً عندما فتحها عمرو بن العاص، وقد فرضت عليهم الجزية^(١)، ويرى بعض الباحثين أنه ربما كانت أعداد اليهود في الإسكندرية قبل الفتح الإسلامي تزيد على السبعين ألفاً^(٢).

وقد رأى بعض الباحثين أن عدد اليهود بالنسبة إلى عدد المسلمين في مصر، فيما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر الميلاديين، لم يكن يتجاوز نسبة واحد إلى مائة، مستندا على أوراق الجنيزة^(٣).

وتوضح سجلات وثائق الجنيزة تمتع أهل الذمة بتولى هذه المناصب الرفيعة المتحكمة في رأس المال، ففي وثيقة ترجع إلى نهاية عصر الولاة، عن صيرفي بالفسطاط يدعى إبراهيم كان يعمل قاضيا لبنى ملته، فقد ترك لأهل الذمة إدارة شئونهم، وأن من حقهم أن يرفعوا الأمر للمسلمين، هذا إلى جانب عمله بالصيرفة وكانت له ثروة طائلة^(٤).

١ - جاء في المصادر التاريخية العربية، أنه لما فتح "عمرو بن العاص" الإسكندرية كتب للحليفة "عمر بن الخطاب" يقول: "أما بعد، فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف منية، بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية". انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٨٢؛ ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٢٦؛ ابن العميد: تاريخ المسلمين، لندن ١٩٢٥، ص ٣٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٩٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٠٨.

2- Mann. J.: The Jews in Egypt and Palestine Under the Fatimid Caliphs (Oxford, 1920), 1, P 13.

3- C. F.: Goitein: "Jewish Society and institution under Islam" In: Jewish society through the Ages, ed. H.H. Ben Sasson and S. Ettinger (New York, 1973) P. 173;

قاسم عبده قاسم: اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٢.

4- C. F.: Goitein: A Mediterranean society of the high Middle Ages, New York, 1967, P. 238.

وكذلك تمتع المجتمع المصري منذ الفتح الإسلامي، بالحرية الفكرية والثقافية، فكثيراً ما نقرأ بين أوراق البردي عن استخدام النصارى في أعمال الجهبذة^(١). ومن ثم تمتع معهم مجتمع اليهود في مصر بالجهبذة^(٢).

وقد كان اليهود يتوارثون صنعتهم، بدليل أنه فيما يختص بالتدريب على الحرف، ودخول أفراد جدد فيها، تكشف وثائق الجنبزة أن الأباء كانوا حريصين على إعطاء أبنائهم أسرار صنعتهم ليتوارثوها، ففي قسيمة طلاق حررت في مدينة على النيل بالدلتا سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م يتعهد الزوج بإطعام وكساء ابنه وبتعليمه صنعه، وفي تسوية بين زوج وزوجته تمت في القسطاط في ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، تعد فيها الأم بدفع تكاليف طعام ابنها الأكبر، وجزيته لمدة عامين، كذلك تكلفة تعليمه صناعة الصياغة لذا كان الابن يتبع مهنة أبيه أو أعمامه وأخواله^(٣).

وفيما يتعلق بالقضايا بين المسلمين: "فالمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيماً في ولاء أونسب^(٤)" ولم يكن يسمح لأهل الذمة بالتقدم للشهادة أمام القضاء^(٥)، فلا بد في الشهادة عند المسلمين أن يكون الشاهد عدلاً... أما في قضايا أهل الذمة فإذا نظرت أمام القاضى، فيؤخذ بالشهادة طالما لم يكن هناك طرف مسلم في القضية^(٦).

وفي سنة ١٢٠هـ/٧٣٨م ولى قضاء مصر خير بن نعيم، فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج، فيقضى بين النصارى، ثم خصص القضاء للنصارى يوماً يحضرون فيه إلى منازل

١ - الجنبذ بالفارسية هو الناقد الكبير، والكلمة فى الأصل "جنبذ"، ولقد عرف أبو سعيد السيرافى، العالم النحوى المعروف (ت ٣٦٨هـ) الجنبذ بأنه الناقد العارف يجيد المال وردنييه، انظر: البستاني: محيط المحيط، بيروت ١٨٦٩، ص ٢٠٥؛ وذكر القلقشندي: بأن الجنبذ هو الصيرفى، انظر القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٤٦٦؛ وعرف اليهود هذا المنصب واطلقوا على صاحبه بالعبرية اسم "جيزبار" Gizbar أى الأمين وهى تقابل جنبذ بالفارسية، انظر:

Fischel, W.: Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam. London 1937, P. 26; Goitein: Studies in Islamic history and institution, Leyden 1968, P. 249.

٢ - آدم متر: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٨٨، ٨٩.

3- The Geniza sources in S. D. Goitein. Jewish Education in Muslim Cauntpies. Terysalem 1962, PP. 2, 3

٤ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ٧١، ٧٢.

٥ - الكندي: الولاة، ص ٣٥١؛ آدم متر: مرجع سابق، ج ١، ص ٥٩، ٦٠.

٦ - الماوردى: الأحكام، ص ٧١، ٧٢.

القضاة فيحكموا بينهم^(١)، حتى جاء القاضي محمد بن مسروق الذي ولي قضاة مصر عام ١٧٧هـ/٧٩٣م، فكان أول من أدخل النصارى فى المسجد ليحكم بينهم^(٢).

وعلى أية حال فإن بعض الفقهاء أجازوا تقليد الذمى القضاء بين أهل دينه، وهذا وأن كان العرف جاريا بتقليدهم الرياسة بين أهل ملتهم، "وليس بتقليد حكم وقضاء، وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له، وإذا امتنعوا من التحاكم إليه لم يجبروا على ذلك، فإذا رجعوا إلى قاضى الإسلام فإنه يقضى بينهم بحكم الإسلام، لأنه يكون عليهم أنفذ ولهم ألزم"^(٣).

وفى إطار الحرص على عدم التهاون فى المواد المالية المشروعة، كان اهتمام الخلفاء بموارد بيت المال، وفيما يتعلق بمصر فقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب عدة رسائل إلى عمرو بن العاص منها ما يتعلق باستعجال وصول أموال الجزية، ومنها السؤال عن أسباب قتلها عن المتحصل على أيام البيزنطيين^(٤).

وفى خلافة عثمان بن عفان وجه اللوم إلى عمرو بن العاص، لأن خراج مصر زاد فى عهد ولاية عبد الله بن أبى السرح، وقال له: "لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو فأجابه هذا بقوله: نعم ولكن أجاعت أبناءها"^(٥) مجسما بذلك حقيقة ما حدث نتيجة زيادة الخراج التى أثلجت صدر الخليفة.

وازداد هذا الاتجاه وضوحا فى عصر الدولة الأموية ثم العباسية، فالمعروف أن المصريين عوملوا على أساس أن بلادهم فتحت صلحا، وكانت أهم شروط

١- ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٤٠؛ أدم متر: مرجع سابق، ج ١، ص ٥٩، ٦٠.

٢- الكندى: الولاة، ص ٣٥١، ٣٩٠.

٣- الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ٦٥، ٦٦؛ أدم متر: الحضارة الإسلامية، ج ١، ٢، ص ٥٨، ٥٩.

٤- ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥١، ١٥٢.

٥- البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٢٢، ٢٢٣؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٢٢٩؛ المقريزى: الخطط، ج ١، ص ٧٩، ٩٨.

الصلح فرض الجزية بواقع دينارين عن كل رجل، وأعفى منها الشيوخ والأطفال والنساء مقابل تأمين المصريين على حياتهم وأموالهم وأعراضهم^(١). كما فرضت الجزية على اليهود المقيمين في الإسكندرية آنذاك، وقدر عددهم بأربعين ألف يهودي^(٢).

وقد راعى المسلمون أحوال القرى، من حيث زيادة العمران، وكثرة السكان أو حدوث الكوارث أو قلة عدد السكان، فإن عمرت القرية، وكثر أهلها استلزم الأمر زيادة ما عليهم بهذا القدر، وأن قل أهلها وخربت، انقصوا بذلك القدر أيضا وهو نظام كان معمولاً به على أيام البيزنطيين، فأقرهم المسلمون على ذلك، ولهذا كانت جبايتهم بالتعديل على النحو السابق إيضاحه^(٣).

وكان رؤساء القرى يجتمعون لبحث حالة القرى ويقررون لكل قرية الضريبة التي تناسبها من حيث احتمال القرية وسعة مزارعها، ويخرجون من ذلك حساب أوقافهم، ومصاريف حماماتهم ومعدياتهم وأعباء الضيافة للمسلمين^(٤).

وكانت الضرائب تجبى من القرية باعتبارها وحدة متكاملة، وتعتبر الأرض في هذه الحالة "أرض عهد" من وجهة نظر المشرع الإسلامي بحيث أن الفرد لو مات دون ولد أو ورثه عادت أرضه إلى القرية، وهكذا فقد كانت تلك المبالغ تؤدي عن هذه القرى بشكل التزام جماعي من الجالية النمية الموجودة بها، أما في حالة الجزية على الرؤوس (الأفراد) فإن الأرض تعتبر أرض خراج، بمعنى أن صاحبها يؤدي عنها خراجا بجانب الجزية الشخصية فإن مات صاحب الأرض تؤول ملكيتها إلى الدولة^(٥).

١ - انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٠، ٧١، ٨٢، ٨٥، ١٥٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢١٤، ٢١٥؛ تاريخ ابن البطريق، ص ٢٢، ٢٤؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٣٣٨؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٧٧.

٢ - ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٨٢؛ تاريخ ابن البطريق، ص ٢٦.

٣ - ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ١٥٢، ١٥٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢١٤، ٢١٥؛ تاريخ ابن البطريق، ٢٢-٣٢، المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٧٧ وما بعدها.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٢؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٧٧.

٥ - يقول ابن عبد الحكم: "الجزية جزيتان، فجزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية" (أي الخراج وهو جزية الأراضي، انظر: فتوح مصر، ص ١٥٤؛ دانييل دينيت: الجزية والإسلام، ص ١٤٢، ١٤٣).

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن أهل القرية كانوا يتضامنون لمساندة من يعجز عن زراعة أرضه منهم^(١).

وهكذا فإن المسلمين أقاموا تنظيمًا للإدارة المالية منذ بداية الفتح، فقد قال عمر بن الخطاب: "قد فرضت لكم الفرائض، وسنت لكم السنن، وتركتكم على الواضحة"^(٢)، وبتنظيم منسق أيضا على عهد عبد الله بن سعد (٢٥-٣٥هـ/ ٦٤٥-٦٥٥م) إذ تلت ذلك إجراءات تنظيمية أخرى وتعديلات شملت في كثير من الحالات إحصاءات مستقلة للأراضي والسكان^(٣)، مع التخفيف عن غير القادرين على أداء الجزية^(٤)، ومن ثم راعى التنظيم الضرائبي إعادة إحصاء الذميين ومدى القدرة لكل فرد، وكل قطعة أرض^(٥)، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الحكم، قال: لما ولي ابن رفاع مصر خرج ليحصى عدة أهلها، وينظر في تعديل الخراج عليهم.....^(٦).

وهكذا أقام الفاتحون نظاما فيما يتعلق بالمستحق لبيت مال المسلمين على درجة عالية من الإتقان والتخصص، روعى فيه ألا يكون مرهقا للخاضعين له^(٧) ويؤكد هذه الحقيقة الكشف التي حفظتها لنا بعض أوراق البردي التي ترجع للقرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، إذ دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين تختلف مقادير الجزية التي يدفعونها^(٨).

ومن المؤكد أن نسبة من هذه الأموال كانت تتفق محليا على المشروعات العامة، إذ كان النظام يقضى أن يخرجوا من المستحق على القرى، فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض، ثم يخرج منها عددا لضيافة المسلمين ونزول السلطان^(٩) فإذا ما تم وصول الأموال إلى بيت المال كان والى مصر يبعث

١ - ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ١٥٢، ١٥٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٥٥.

٣ - آدم متر: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٨٤.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٢.

٥ - آدم متر: مرجع سابق، ج ١، ص ٨٤.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٦.

٧ - دينيت: الجزية والإسلام، ص ١٤٨-١٥٢.

٨ - سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، القاهرة، سلسلة الألف كتاب، ص ٣٣.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٢.

بها إلى دار الخلافة بعد أن يحجز ما يحتاج إليه "لحفر الخلجان، وإقامة الجسور وبناء القناطر، وقد بلغ هذا القدر على عهد ولاية عمرو بن العاص مائة ألف وعشرين ألفاً"^(١) وهذا ما يؤكد حرص المسلمين على الإصلاح والتعمير.

كما يتضح من أوراق البردي أيضا أن الجزية دفعها بعض القسس بينما أعفى منها آخرون، ولا توجد أية دلائل على أن الرهبان دفعوها في القرنين الأول والثاني للهجرة في رأي ترتون^(٢)، ولكن هذا الرأي يخالف الحقيقة التي أشار إليها بعض المؤرخين المسلمين والمسيحيين على السواء^(٣)، وهي أن عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٥م) أحصى الرهبان، وأخذ عن كل منهم دينارا، فكانت أول جزية من الرهبان، وربما كان الدافع إلى ذلك هو كثرة من يلجأون إلى الأديرة هربا من الجزية^(٤).

وإذا كانت بعض تلك القواعد قد خولفت من قبل الجباة، فقد أدى ذلك إلى حدوث مقاومة سلبية واسعة النطاق تمثلت في فرار أعداد كبيرة من أهل بعض القرى مما دفع "قرة بن شريك" (٩٠-٩٦هـ / ٧٠٨-٧١٤م) للعمل من أجل إعادة هؤلاء إلى قراهم^(٥)، كما أصدر أوامره بضرورة مراعاة العدالة في جباية الضرائب، وقد حفظت لنا أوراق البردي بعض هذه المراسيم^(٦).

ورغم ذلك فإنه يبدو من خلال مصادر تلك الفترة أن الأعباء المالية تزايدت بشكل أخرج المصريين (مسلمين وذميّين، عن طور المقاومة السلبية إلى مرحلة من المقاومة المسلحة، فتكررت ثورات القبط خلال سنوات ١٠٧هـ / ٧٢٥م^(٧)، ١٢١هـ / ٧٣٨م، ١٣٢هـ / ٧٤٩م، ثم في عامي ١٥٠هـ / ٧٦٧م، ١٥٦هـ / ٧٧٣م، واستطاع الولاة إخماد تلك الحركات، إلا أن أخطرها جميعا كان سنة

١ - المصدر نفسه، ص ١٥١.

٢ - ترتون: أهل النمة، ص ٢٣٠.

٣ - ابن الراهب (أبو شاكّر بطرس بن أبي الكرم المهنّب): تاريخ ابن الراهب، نشرة لويس شيخو، بيروت ١٩٠٣، ص ص ١٢٣، ١٢٤؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٩٢.

٤ - المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤٩٢.

٥ - سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص ١٢٧.

٦ - انظر نص أحد المراسيم، كما جاء على بريدية محفوظة بالمتحف البريطاني في كتاب ترتون: أهل النمة، ص ص ١٥٤، ١٥٥.

٧ - الكندي: الولاة، صفحات ٧٣، ٧٤، ٨١، ٩٤، ٩٦، ١٠١، ١٠٢، ١١٦، ١١٧.

٢١٦/٨٣١م^(١) في عهد المأمون العباسي، بسبب سوء سيرة العمال^(٢) فقد شملت كل أنحاء مصر، وشارك فيها المسلمون والأقباط، وأمتنعوا عن أداء الضرائب وطرّدوا عمال الدولة، ولم تستطع القوات الحكومية إخماد الثورة إلا بعد قدوم الخليفة المأمون بنفسه إلى مصر سنة ٢١٧هـ/٨٢٣م، حيث استطاع قائد الأفشين هزيمة القبط، وقتل رجالهم وسبى نساءهم وباع أطفالهم، ويروى المقرئ أن ثبات القبط وقتذاك: "دالة منهم بما هم عليه من القوة والكثرة..."^(٣) ولكن الهزيمة هذه المرة كانت ساحقة بحيث كانت نقطة تحول حاسمة في تاريخ المجتمع المصري، إذ تحول كثيرون إلى الإسلام "وغلّب المسلمون على أماكنهم من القرى...."^(٤).

وهكذا أصبح المسلمون أغلبية في مصر، وبدأت منذ ذلك الوقت تتحدد سمات الشعب المصري بالمفهوم المعاصر.

ونخلص من هذا كله بنتيجة هامة هي أن أهل الذمة قد أفادوا من مفهوم الدولة الإسلامية تجاه حرية العقيدة، وضمان الحريات الاجتماعية بشكل عام، كما أنهم شاركوا في كافة مجالات النشاط في الدولة، ووصل بعضهم إلى أرفع المناصب لسماحة الإسلام في مصر.

١ - تاريخ ابن البطريق: ص ٥٧؛ تاريخ ابن الراهب: ص ص ١٢٩، ١٣٠؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٩٤.

٢ - تاريخ ابن البطريق: ص ٥٧؛ تاريخ ابن الراهب: ص ص ١٢٩، ١٣٠؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٩٤؛ عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول (التاريخ السياسي)، ط مكتبة الأنجلو ١٩٧٣م، ج ١، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

٣ - المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٩٤، وما بعدها.

٤ - المصدر نفسه، الجزء ١، والصفحة

الفصل الثانى

هجرات القبائل العربية إلى مصر

- خطط القبائل بالفسطاط.
- القبائل العربية فى مصر السفلى.
- القبائل العربية فى مصر العليا.
- الموالى والاقليات الأخرى.
- دراسة بعض الظواهر الاجتماعية للعرب المسلمين فى مصر.
 - العصبية القبلية فى مصر.
 - العطاء.
 - إثباتهم فى الديوان.
 - الاختلاط.

الفصل الثانى

هجرات القبائل العربية إلى مصر

خطة القبائل بالفسطاط :

كان معظم القبائل التى اشتركت فى الفتح من القبائل القحطانية من حيث الكم نواة ذلك المجتمع المصرى الجديد^(١)، علاوة على القبائل العدنانية^(٢)، وقد اتخذت كل قبيلة عربية خطة لنفسها^(٣)؛ ومن ثم عرفت كل خطة باسم القبيلة التى نزلت بها^(٤). واختطت حول مسجد عمرو بالفسطاط مجموعة من القبائل العربية التى اشتركت فى الفتح^(٥). مما كانت سبباً فى ظهور تجمعات عربية ذات طابع قبلى^(٦). فقد قدمت قبائل من مصر فى جيش عمرو، وهى إحدى فروع القبائل العدنانية^(٧)، واختطت بالفسطاط، عند أسفل التل المطل على بركة الحبش، وهو التل الذى أقامت على سفحه قبائل حمير والمعاقر القحطانية^(٨). ويبدو أن قبائل مضر بعامة فقدت جانباً من قوتها مع الزمن، أو أنها كانت باقامتها فى مصر أسرع من غيرها إلى التخلص من البداوة والأخذ بأسباب النظام^(٩). كما

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٨-١٢٧: الكندى: الولاة، ص ٨؛ ابن خلدون: العبر، م ٢، صفحات ٨٤، ٨٥، ٥٠٧؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٨٠؛ عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر، دار الكاتب العربى ١٩٦٧، ص ٥٩.

٢ - المقرئى: البيان والأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين؛ عالم الكتب ١٩٦١، ص ٩٩؛ وأيضاً: الخطط، ج ١ ص ٢٨٠.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٨.

٤ - المصدر نفسه، ص ١٢٦؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٢٩، ١٣٠.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٨.

٦ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٨٦.

٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦، ١٢٧؛ ابن خلدون: العبر، ق ٣، م ٢، ص ٦٣٠، ٦٤٩.

٨ - ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ١٢٦، ١٢٧؛ عبد الله خورشيد: مرجع سابق، ص ٦٣.

٩ - حينما رفضت قبيلة المعافر استعمال المدى الذى أراد الخليفة هشام أن يوجد به للمكيال فى خلافته سنة

١١٧/٧٣٥م وكسرتة. انظر: الكندى: الولاة، ص ٧٩.

اختطت إحدى بطون مضر وهى "هذيل"^(١) إذ كان لها خطة بالفسطاط بجوار خطة الحمراوات الثلاثة^(٢) وهى خطط القبائل غير العربية.

واختطت قبيلة غنزة، وهى من قبائل ربيعة، يذكر ابن عبد الحكم أن لها بمصر "دوراً مجتمعة نحواً من عشر ومسجداً فى أصل العقبة التى عند دار ابن صامت"^(٣).

ومن خطط القبائل الخاصة المميزة "خطة أهل الراية"^(٤) وهم جماعة من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة، وينسبون لراية عمرو بن العاص، ويبدو أنهم سموا بذلك لأن قوماً من إقناء القبائل من العرب كانوا قد شهدوا الفتح مع عمرو بن العاص، ولم يكن من قومهم عدد فيقفوا مع قومهم تحت رايتهم، وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم فقال لهم عمرو: أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية تقفون تحتها فرضوا بذلك^(٥).

كما اختطت قبيلة "سبأ" وهم من القبائل القحطانية شرقى جنُب مما يلى مراد، وقد مضوا بخطتهم بين المعافر وحضرموت حتى أصبحوا، كما كان لهم مسجد فى الفسطاط عرف باسمهم^(٦).

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٧؛ ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الامصار، ج ٤، ص ٥.

انظر: ملحق الكتاب خريطة شكل (٣)

٢ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٢٩.

٣ - انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١١٦؛ الكندى: الولاة، ص ٩٠، ١٧٤، ١٧٦.

٤ - يذكر ياقوت الحموى الراية: "وهى محلة عظيمة بفسطاط مصر، وهى المحلة التى فى وسطها جامع عمرو بن العاص إنما سميت الراية، لأن عمرو بن العاص، لما نزل محاصراً للحصن فى الفسطاط، وكان فى صحبته قبائل كثيرة من العرب، واختطت كل قبيلة خطة بأرض مصر هى معروفة بهم إلى الآن، وكان فى صحبته قوم من قريش والأنصار وخزاعة وغفار واسلم ومزينة وأشجع وجهينة وتقيف ودوس وعيس وجرش والليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة والعنقاء، فلم يكن لكل بطن من هؤلاء من العدد ما ينفرد بدعوة فى الديوان، وكره كل بطن أن يدعى باسم قبيلة غيره وتشاحنوا فى ذلك، فقال عمرو بن العاص: فأنا أجعل راية ولا أنسبها إلى واحد معكم، ويكون موقفكم تحتها وتسمون منزلكم بها، فأجابوه إلى ذلك" انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان ج ٣، ص ٢٢٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٢٩، ١٣٠؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٢٢٧؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٩٧.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٦، ١١٧.

٦ - المصدر نفسه، ص ١٢٦، ١٢٧؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٢٨؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٩٨.

واختطت "الأزد" في الفسطاط، وهي من مجموعة كهلان القحطانية، كانوا - جزءاً من جيش عمرو بن العاص^(١)، وقد تمتعوا بسمعة طيبة جعلت معاوية بن أبي سفيان يكتب إلى مسلمة بن مخلد الانصارى وإلى مصر (٤٧-٦٢هـ / ٦٦٧-٦٨١م) بأن: "لا تولى عملك إلا أزدي أو حضرمي، فإنهم أهل الأمانة"^(٢).

كما اختطت قبيلة "الحجر"^(٣) خطة كبيرة بالفسطاط^(٤)، إذ كانوا من القبائل التي جعلها عمرو بن العاص تعسكر في الجيزة خوفاً من عدو يغشاهم من تلك الناحية^(٥). والواقع أن بطنا منهم فقط وهم "بنو كعب بن مالك بن الحجر" الذين أقاموا بالجيزة، واختط بها فيما بين بكيل ويافع من همدان^(٦)، هذا بخلاف خطتهم بالفسطاط أسفل من عقبة تنوخ^(٧).

وكذلك اشتركت قبيلة عك في أحداث الفتح العربي بأعداد كبيرة فابن عبد الحكم يذكر أن جيش عمرو "كله من عك"^(٨) ولذلك احتفظوا بمكانة عالية من الناحية الاجتماعية في مصر إبان عصر الولاة^(٩).

وكانت غافق أحد بطون عك، فهم منسوبون إلى غافق بن الحارث بن عك^(١٠) وقد ذكرنا في الفتح العربي لمصر برواية ابن عبد الحكم أن غافق كانت ثلث الناس^(١١)، ولذا اتسعت مساحة خطتها التي كانت تقع بين خطى مهرة ولخم^(١٢).

١ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٢١.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٢٥.

٣ - ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣.

٤ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١١٧.

٥ - ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ١٢٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٠٦.

٦ - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٠٦.

٧ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٢٩.

٨ - المصدر السابق، ص ٥٦.

٩ - المصدر نفسه، ص ١٤٤.

١٠ - المصدر نفسه، ص ٥٦؛ الكندي: الولاة، ص ٨، ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٤؛ القلقشندي: صبح

الاعشى، ج ٣، ص ٣٢٨؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٩٨.

١١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢١.

١٢ - المصدر نفسه، ص ١٢١، ١٢٢؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٩٨.

كما اختطت بالفسطاط قبائل سلامان، وهم بطن من الازد^(١)، اتخذوا خطتهم في الحمروات الثلاث، ثم شرعت طائفة منهم إلى البحر^(٢).
ومن الازد أيضا شباية، إلا أن موضع خطتهم بالفسطاط لم يحدده ابن عبد الحكم، على الرغم من وجود مسجد لهم عرف بالمسجد ذى المنارة^(٣).
وقبيلة همدان إحدى قبائل كهلان لعبت في الفتح دورا بارزا^(٤)، فعند عودتها من فتح الإسكندرية أمرها عمرو أن تعسكر في الجيزة مع قبائل أخرى من الازد، وحمير والحبشة لتحمي جيش المسلمين من ناحية الغرب ورفضت هذه القبائل العودة إلى الفسطاط، وأقامت بصفة دائمة بالجيزة واختطت بها^(٥).
كما اختطت قبيلة "كنده" التي شهدت الفتح بأعداد كبيرة، ولم يحدد ابن عبد الحكم موضع خطتها^(٦)، لكنه يقول "وكنده بطون في مصر منها السكاسك^(٧) الذين شهدوا فتح مصر، واختطوا في المعافر.
واختطت قبيلة "تجيب"^(٨) وعرف أحد الطرقات باسمهم وبنوسوم كانت لها خطة بجوار حصن بابليون، ومن أشهر شخصياتها قيسبة بن كلثوم، وقد تنازل عن خطتهم لتكون موضع المسجد الجامع^(٩)، كما اختطت قبيلة بنى عامر أحد بطون تجيب شرقى حسن بابليون^(١٠).

-
- ١ - السمعاني: كتاب الأنساب، ط ليدن ١٩١٢، ص ٣٢٠.
 - ٢ - ويذكر ابن عبد الحكم: "ثم اختطت بنو بحر مما يلي، وهم قوم من الازد في لخم ثم شرعوا إلى البحر". انظر: فتوح مصر، ص ١١٦؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٥.
 - ٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٠.
 - ٤ - المصدر نفسه، ص ٦٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٢٠.
 - ٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٨، ١٢٩؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ١٢٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٠٦.
 - ٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦، ١٢٨؛ ابن خلدون: العبر، م ٢، ص ٥٦٩-٥٧٧.
 - ٧ - المصدر نفسه، ص ١٢٧.
 - ٨ - الكندي: الولاة، ص ٤٤؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٩٧؛ رضا كحالة: معجم قبائل العرب، دمشق ١٩٤٩، ج ١، ص ١١٦.
 - ٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٢؛ الكندي: الولاة، ص ١٦.
 - ١٠ - السمعاني: الأنساب، ص ٥٤؛ انظر: الخريطة، ملحق الكتاب شكل (٣).

كما شهدت قبيلة "جزام"^(١) الفتح، واستقر بعضهم في الفسطاط في خطة لخم، وكان نفر منهم في اللفيث مثلها^(٢).

كما شهدت "المعافر"^(٣) الفتح، وكانت خطتهم في بادئ الأمر حول جامع عمرو ثم نقلوا إلى الجبل المشرف على البركة التي عرفت باسمهم بعد أن ضاقوا بالبعوض في خطتهم الأولى وبخاصة وقت الفيضان، وقد شاركهم حمير خطتهم الجديدة ذات الموقع الممتاز حيث كانت تشرف منه على القبائل جميعا^(٤).

ومن بطونها التي اختطت في الفسطاط قبيلة "القرافة" حيث كانت خطتهم في الموضع الذي عرف باسمهم فيما بعد، واتخذ موضعاً لمقابر المسلمين^(٥)، كما شهدت خولان الفتح، واختطت بالفسطاط وكان لهم بها مصلى عرف باسمهم^(٦)، وكان عمرو بن قحزم أشهر أفراد هذه القبيلة إذ كان أحد الأربعة الذين اسند إليهم عمرو مهمة توزيع الخطط بين القبائل^(٧).

كما اختطت قبيلة "مذحج" بعد أن شاركت في الفتح بين خطتي خولان وتجب^(٨)، ومن أشهر بطونها قبيلة مراد التي اشتركت في الفتح واختطت في الفسطاط، ومن بطون مراد اختطت قبيلتي زوف وعبس، وكان لهم زقاق باسمهم في الفسطاط^(٩).

كما اختطت "وعلان" وهي إحدى بطونها أيضاً وراء حصن بابليون واتسعت خطتها حتى جاورت خطة خولان وتجب^(١٠).

١ - المقرئزي: البيان والأعراب، ص ٢٣، ٢٧؛ وانظر أيضاً، رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٧٤.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٢٨.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٧.

٥ - المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٩٨.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٥، ١٤٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٢٨؛ انظر:

الخريطة ملحق البحث، شكل رقم (٣).

٧ - الكندي: الولاة، صفحات ٦٠، ٦٣، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١٤٩.

٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٢٨.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦، ١٤٢.

١٠ - المصدر نفسه، ص ١٢٦.

كما اختط "الاشعريون" الذين شهدوا الفتح في الفسطاط، وكان خطتهم جزءاً من خطة المعافر لقلعة عددهم، وأضيفوا إلى المعافر في الديوان^(١).

كما اختطت قبيلة "حمير" وهي من القبائل القحطانية أيضاً إلى الجنوب من خطة خولان، وفي شرقيها عند سفح الجبل الذي اختطت عليه المعافر^(٢). واختطت قبيلة "لخم"^(٣) وهي إحدى قبائل كهلان في الفسطاط خطة كبيرة وقد انضم إلى خطتهم في بادئ الأمر بعض من اللقيف^(٤).

كما شهدت قبيلة "قضاة" الفتح، واختطت في الفسطاط، ولقعة عددها في بلاد الأمر لم يفرد لها سجل خاص في الديوان، إنما وزعت في القبائل الأخرى، ويذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب حول قبيلة "بلى" التي كانت تمثل ثلث قضاة بالشام إلى مصر^(٥).

كذلك اختطت "مهرة" على سفح جبل يشكر في بادئ الأمر، ثم نقلهم عمرو فاخطوا بجوار المسجد الجامع^(٦)، وكان لهم بالفسطاط مسجداً ذو قبة سوداء^(٧).

واختطت "بلى" وهي أحد بطون قضاة في الفسطاط منذ الفتح، الذي لعبت فيه دوراً كبيراً، حيث تولت ضرب حصن بابليون بالمنجنيق^(٨)، إذ كانوا ميمنة جيش عمرو، واخطوا في الحمرواات الثلاث^(٩).

١ - المصدر نفسه، ص ١٢٦؛ الكندي: الولاة، ص ٤٤؛ السمعاني: الأنساب، ص ٣٣٥.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦، ١٤٢.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٩؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣، القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٣٢٧.

٤ - الكندي: الولاة، ص ٧١؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٤؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٢٧، ٣٢٨.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٦؛ ابن خلدون: العبر، م ٢، ص ٥١٥-٥٢٢؛ المقريزي: البيان والأعراب، ص ٣٠.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٨، ١١٩؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣؛ انظر: ملحق البحث، خريطة (شكل ٣، ٤).

٧ - ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ١١٨.

٨ - المصدر نفسه، ص ٦٢.

٩ - المصدر نفسه، ص ١٦٦؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٥.

واختطت قبائل حضرموت مع خطة تجيب^(١) منذ بداية الفتح، لقلعة عددهم فى بادئ الأمر إلا أنه فى عهد عثمان بن عفان قدم إلى الفسطاط من الحضارمة ما يقرب من مائة نفس، فاتخذوا لأنفسهم خطة مستقلة بالفسطاط شرقى خطة "سلهم" والصدف^(٢)، وكانت الصدف أيضا قد شهدت الفتح، وسجل لها عمرو دورها فيه بقوله "يوم لهمدان ويوم للصدف"^(٣)، واختطت جنوب خطة مهرة، وكما كانوا فى موطنهم الأصلى فى حضرموت مختلطين مع قبيلة كنده فقد احتفظوا بعلاقتهم تلك فى الفسطاط، فلم ينفردوا بسجل خاص فى الديوان رغم كثرة عددهم، فانضموا مع كنده فى الديوان^(٤).

كما اختطت "رعين" منذ الفتح شرقى خطة خولان، إلى الجنوب من خطة "مذحج"^(٥)، وكذلك اتصلت خطة قبيلة "الكلاع" بخطة رعين^(٦).

كما اختطت قبيلة يحصب جنوب خطة المعافر^(٧) وهى جميعا بطون من قبائل حمير القحطانية التى اختطت فى الفسطاط منذ الفتح.

وفى العصر الأموى شهدت الفسطاط قدوم كثير من بنى أمية، ولم تبدأ إقامتهم الفعلية فى الفسطاط إلا فى النصف الثانى من القرن الأول حتى أن عبد العزيز بن مروان شعر بأنه إزاء بلد "ليس به أحد من بنى أبيه"^(٨)، هذا وكانت الفسطاط قد شهدت منذ الفتح استقرار عدد من القبائل القيسية متمثلة فى قبائل أشجع، وعبس وثقيف وفهم وعدوان^(٩)، وازداد عدد عبس بعد تولية قرة بن

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٢، ١٢٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٢٣؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٢٨.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٢؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٢٧.

٤ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٥٥.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٥، ١٢٦؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٤؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٢٨.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٤.

٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦؛ الكندي: الولاة، صفحات ٧٧، ٧٨، ٤٠٢، ٤٠٣؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٤.

٨ - الكندي: الولاة، ص ٤٧.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، صفحات ١٠٨، ١١١، ١١٧، ١٢٦.

شريك (٩٠-٩٦هـ / ٧٠٨-٧١٤م^(١)).

وفى عهد بشر بن صفوان الكلبي (١٠١هـ / ٧١٩م)، والى مصر زاد عدد أفراد "قضاة" لأنه كان أحد أبنائها، وقد أعاد تنظيم الديوان، فاستخرج بطون قضاة من القبائل الملحقة بها، وجعل لها سجلا خاصا، وذلك فى التدوين الرابع للديوان سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م^(٢).

وفى العصر العباسى اختط فى الفسطاط بنو طابخة، وهى إحدى القبائل المضرية متمثلة فى قبيلتى تميم ومزينة التى شهدت الفتح وأدمجت فى خطة أهل الراية لقلّة عددها^(٣).

وفى سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٢م اختط فى الفسطاط بنو شيبان، وهم أحد قبائل ربيعة فى بداية القرن الثالث الهجرى، حين تولى إمرة مصر أحد أمراء بنى شيبان، وهو خالد بن يزيد الشيبانى، فقدم مع جيش من ربيعة وشيبان بخاصة، فاخطوا فى الفسطاط منذ ذلك الوقت^(٤).

كما اختط فى الفسطاط فى أواسط القرن الثانى كثيرون من الأنصار وخزاعة التى كانت قد اشتركت فى الفتح، وكان لهم داران، ولكن نظرا لقلّة عددهم كانوا من أهل الراية^(٥). وحين ولى مصر محمد بن الأشعث (١٤١-١٤٣هـ / ٧٥٨-٧٦٠م) جاء أعداد كثيرة منهم واخطوا بالفسطاط، كما قدم آخرون مع قدوم المطلب الذى ولى مصر سنة ١٩٩هـ / ٨١٤م، واستقروا بالفسطاط، وعرف أحد أزقة الفسطاط باسم زقاق المطلبية^(٦).

كما ازداد عدد أفراد قبيلة "خشين" إحدى قبائل قضاة حين استقدم العباسيون عددا كبيرا منهم من فلسطين فى أواخر القرن الثانى، وكانوا من قبل لقلّة عددهم يتبعون قبائل لخم فى الديوان^(٧).

١ - الكندى: الولاة، ص ٧٦.

٢ - المصدر نفسه، ص ٩٧، ٩٨.

٣ - الكندى: الولاة، ص ١٠٦، ١٠٨، ١٢٣؛ ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٤.

٤ - الكندى: الولاة، ص ١٧٤، ١٧٦.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٨، ١١٦، ١١٧؛ ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٣.

٦ - الكندى: الولاة، ص ١٠٨، ١٠٩؛ ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٢٣.

٧ - الكندى: الولاة، ص ٧١؛ ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٤.

ومع تجدد العناصر غير العربية التي دخلت الفسطاط، لم تعد خططا قاصرة على أبناء القبائل منذ بداية القرن الثالث الهجري، فيقال أن السري بن الحكم بنى له دارا بالحمراء^(١)، كما أنشأ المانرايون البساتين، وحفروا الآبار في خطة بنى وائل^(٢).

تلك هي خطط القبائل الأولى بالفسطاط، وما طرأ عليها من تغيرات طوال فترة عصر الولاة، وسوف نتتبع هجرات القبائل العربية القحطانية والعدنانية، وانتشارها في مصر السفلى، ومصر العليا، هذا بخلاف العناصر غير العربية، وأماكن استقرارها.

القبائل العربية في مصر السفلى :

طرأ على المجتمع المصري عقب الفتح الإسلامي عنصر عربي وافد بمؤثرات حضارية جديدة، جاء على شكل مجموعات متصلة الحلقات لتمتزج مع العناصر الأصلية من أهل البلاد، ويمثل جيش عمرو بن العاص طليعة الهجرات العربية^(٣) إذ كان يضم قبائل قحطانية^(٤)، وأخرى عدنانية، إلا أن القبائل القحطانية كانت ثلاثة أضعاف القبائل العدنانية^(٥).

ذكر ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب عقد لعمر بن العاص على أربعة آلاف رجل كلهم من عك، ويقال ثلاثة آلاف وخمسمائة^(٦)، وفي رواية أخرى قال ثلثهم غافق^(٧)، فلما أبطأ الفتح أرسل مددا أربعة آلاف على كل ألف رجل مقام آلاف^(٨)، وقول عمر بن الخطاب: ان معك اثني عشر ألفا قصد به أن معه في

١ - الكندي: الولاة، ص ١٥٩.

٢ - المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ١٥٢.

٣ - انظر الصلات الممتدة بين الجزيرة العربية ومصر قبل وبعد الإسلام، محمد محمد أمين: تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، معهد الدراسات العربية، ١٩٧٧، ص ٥٣، ٥٤؛ محمد عزة دروزة: عروبة مصر، بيروت ١٩٦٣، ص ٨٨.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٨-١٢٧؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٨٠.

٥ - الكندي: الولاة، ص ٨، عبد الله خورشيد: مرجع سابق، ص ٥٩.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٥٦، البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢١٢، ٢١٦، الكندي: الولاة، ص ٨.

٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٥٦.

٨ - المصدر السابق، ص ٦١، قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٢٣٦، ٢٣٧.

البداية أربعة وجاءه مدد أربعة، وكل قائد من الأربعة قادة المدد بألف أى أنهم بأربعة آلاف وذلك تكون القوة مقدرة مجازا باثنى عشر ألفا.

ولم يعتمد التكوين القبلى على تنظيم الجيش فحسب، وإنما روعى فى تخطيط المدن التى شيدها العرب، فإن القبيلة هى أساس المجتمع العربى، وأن ذلك من شأنه تجنب حدوث التنافس بين القبائل أو تصادمها، فبعد أن تم للعرب فتح الإسكندرية عهد عمرو إلى أربعة من كبار الصحابة اختارهم من قبائل مختلفة بالإشراف على عملية تخطيط المدينة الجديدة، وتوزيع الخطط على القبائل^(١).

واتبع المبدأ نفسه فى تخطيط مدينة الجيزة^(٢)، بل أنه اتبع فى توزيع دور الإسكندرية، يقول ابن عبد الحكم: "من ركز رمحه فى دار فهى له ولبنى أبيه، فكان الرجل يدخل الدار، فيركز رمحه فى منزل منها، ثم يأتى آخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار، فتكون الدار لقبيلتين ولثلاث قبائل^(٣)". ولكن يرى الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن تركيز الرمح فى الدور لم يكن عشوائيا، ولأن الاخاند كانت للدور التى كان يقطنها الروم وتركوها عند الفتح أو بعد خروج الروم من الإسكندرية بعد الصلح^(٤).

١ - ينكر المقرئى بشأن خطط الفسطاط: قال القضاعى: ولما رجع عمرو من الإسكندرية، ونزل موضع فسطاطة انضمت القبائل بعضها إلى بعض، وتنافسوا فى المواضع، فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج التجيبى وشريك بن سمي الغطيفى، وعمرو بن قحزم الخولانى، وحيويل بن ناشرة المغافرى وكانوا هم الذين انزلوا الناس، أو فصلوا بين القبائل، وذلك فى سنة إحدى وعشرين. انظر الخطط، جـ ١، ص ٢٩٧؛ جاستون قبيث: القاهرة مدينة الفن والتجارة، بيروت ١٩٦٨، ص ١٥، ١٦.

٢ - الجيزة: على الشاطئ الغربى للنيل أنشأها العرب، وسموها الجيزة لأنها فى المكان الذى اجتازوا فيه نهر النيل بين الفسطاط، وبين جانب الوادى الغربى الممتد من الجيزة إلى الجبل. انظر د. محمد رمزى: تعليقات على كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، جـ ٥، ص ٣٤٨ حاشية (١) ويقول المقرئى: الجيزة: بالكسر، وللجيزة فى لغة العرب الوادى أو أفضل موضع فيه: الجيزة بليده فى غربى الفسطاط. انظر: النقود الإسلامية ط النجف ١٩٦٧م، ص ١٣٩ وانظر أيضا: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٨، ١٢٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٠، ١٣١.

٤ - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى (حتى الفتح العثمانى) ط الأولى مصر ١٩٦١، ص ٤٨، ٤٩؛ سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٤٨.

وقد انضمت جماعة من القيسية مع فئات أخرى من المجموعة اليمنية^(١) وذلك تكملة للعدد المخصص للخطة، فعندما ولى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر سنة ٦٥هـ/٦٨٤م نقلت إلى مصر بطون كثيرة من قيس^(٢).

كما أذن هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٣-٧٤٣م) في ترحيل ثلاثة آلاف من قيس إلى مصر، ولكنهم لم ينزلوا الفسطاط، فلقد اشترط أن ينزلوا في الحوف الشرقي^(٣) من أجل انتشار المسلمين في أنحاء متعددة.

وكانت ربيعة من قبائل الحوف أيضا^(٤)، ويبدو أن تركزها الفعلي في الحوف جاء على أثر من قدم من ربيعة حيث توجد قبيلتهم، وذلك في أوائل القرن الثالث الهجري، حيث أتوا في جيش خالد بن يزيد الشيباني، وكان بنى وائل وهم من ربيعة ممن أقام بالشرقية^(٥).

وقد اختلفت آراء المؤرخين المسلمين القدامى حول أسباب هجرة قيس إلى مصر، فيذكر ابن عبد الحكم: "ولم تكن قيس بالحوف الشرقي قديما، وإنما الذي أنزلهم به ابن الحبحاب، وذلك أنه وفد إلى هشام بن عبد الملك، فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل أو ثلاثة آلاف رجل، شك عبد الرحمن، فجعل ابن الحباب الفريضة في قيس وقدم بهم فأنزلهم بمصر الحوف الشرقي^(٦)".

ويقول الكندي: "نقلت قيس إلى مصر في سنة تسع ومائة، ولم يكن لها منهم أحد قبل ذلك إلا من كان من فهم وعدوان، فوفد ابن الحبحاب على هشام، فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتا، فأذن له هشام في الحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر، على أن لا ينزلهم الفسطاط^(٧)".

- ١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٦؛ ابن دقماق: الانتصار، بواسطة عقد الامصار، ج ٤، ص ٣-٥.
- ٢ - يذكر الكندي: أن عبد العزيز بن مروان قال: يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى "الولاة والقضاة، ص ٤٧، ٧٦-٧٧.
- ٣ - انظر: الكندي: الولاة، ص ٧٦، ١٧٥، ١٨٥، ١٨٨؛ المقرئ: البيان والأعراب، ص ٦٦؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، دار النهضة العربية ١٩٦٣، ص ١١٠.
- ٤ - اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ليدن ١٨٨٣، ج ٢، ص ٥٥٥، ٥٥٦.
- ٥ - القلقشندي: صبح الاعشى، قلاند الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط الأولى ١٩٦٣م، ص ١٣٠.
- ٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٣؛ المقرئ: البيان والأعراب، ص ٦٦.
- ٧ - الكندي: الولاة، ص ٧٦.

ويضيف المقرئى: "ان عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال ما أرى لقيس فيها حظا الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان، فكتب إلى هشام، أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس، ونعشهم ورفع من ذكرهم، وانى قدمت مصر، ولم ارلهم حظا الا أبياتا من فهم، وفيها كورليس فيها أحد، وليس يضر أهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجا وهى بلبيس^(١)".

وكان الهدف من الهجرة القيسية التى استوطنت بلبيس عامل اقتصادى إذ أريد أن يعمل هؤلاء المهاجرون بالزراعة استغلالا للأراضى، وزيادة للخراج، يؤيد ذلك ما ذكره المقرئى من: "أنه لم يظهر من خراج مصر بعد تناقصه إلا فى وقتين أحدهما فى خلافة هشام بن عبد الملك عندما ولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب، فخرج بنفسه، ومسح العامر من أراضى مصر والغامر^(٢)"، وهيت لهم عوامل نجاح الزراعة فى تلك الأراضى الجديدة (أرض الدلتا) فصرف لهم الصدقة من العشور لتساعدهم على شراء الإبل والخيول^(٣)، حتى وصل مقدار ما تحصله الرجل فى شهر عشرة دنانير وأكثر، يقول المقرئى: "وليس عليهم مؤنة فى علف أبلهم، ولا خيولهم لجودة مرعاهم" كل هذا كان حافزا على الهجرة حتى وصل إليهم (بلبيس) خمسمائة أهل بيت، فمات هشام، وأصبحت القيسية ألف وخمسمائة أهل بيت^(٤).

فلما كانت ولاية الحوثر بن سهيل السباهلى على مصر سنة ١٢٨-١٣٨هـ / ٧٤٥-٧٥٥م) فى عهد خلافة محمد بن مروان، وفدت أعداد كبيرة من القيسية، حتى وصلت إلى ثلاثة آلاف أهل بيت عند موت مروان^(٥). ومن ثم اخذوا يتناسلوا بالإضافة إلى من قدم عليهم من البادية، فاحصوا فى سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م) وكان

١ - المقرئى: الخطط، ج١، ص ٨٠، ج٢، ص ٢٦١؛ انظر ملحق البحث خريطة رقم (٤)
Lane Poole (Stanly): History of Egypt in the Midle Ages, London 1901, PP. 28. 29.

٢ - المقرئى: الخطط، ج١، ص ٩٨، ٩٩.

٣ - المقرئى: البيان والأعراب، ص ٦٧، ٦٨.

٤ - المصدر السابق، ص ٦٧، ٦٨؛ سيدة كاشف: مصرفى فجر الإسلام، ص ٢٥١، ٢٥٢.

٥ - المقرئى: البيان والأعراب، ص ٦٧، ٦٨؛ محمد ضياء الدين الرئيس: الخراج، ص ٢٥٤،

على خراج مصر محمد بن سعيد فوجدوا "خمسة آلاف ومائتين أهل بين صغيرا وكبيرا"^(١).

وكانت السياسة العربية منذ تم الفتح تفرض على القبائل العربية الوافدة عدم الاشتغال بالزراعة، أو امتلاك الأراضي، فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب، ولذا لم يختلط العرب بالمصريين في البداية، ومعنى ذلك أن العرب في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلون عن السياسة التي اتبعوها منذ الفتح، ليكونوا على استعداد دائما للجهاد^(٢).

كذلك نجد من القبائل التي شاركت في فتح مصر، ولعبت دورا بارزا في الحياة السياسية - قبيلة المعافر^(٣)، إذ اختطوا في بداية الأمر بجانب عمرو بن العاص حول المسجد الجامع، حتى اشتكوا لعمرو بن العاص من كثرة البعوض في زمن الفيضان، فنقلهم إلى الجبل المشرف على البركة التي أطلق اسمهم عليها، وبذلك أصبحوا يشرفون على قبائل مصر، ولكنهم لم يكونوا وحدهم في مسكنهم هذا، فقد كانت معهم قبائل حمير^(٤).

ويذكر الكندي من أن بشر بن صفوان (١٠١هـ/٧١٩م)، لما رأى افتراق قضاة في القبائل كتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الأذن له في استخراج من كان في القبائل منهم فيجعلهم دعوة منفردة، فإذن له يزيد بن عبد الملك في ذلك، فأخرج مهرة من كنده، وأخرج تتوخا من الازد، وأخرج آل كعب بن عدى التتوخي من قریش، وأخرج جهينة من أهل الراية، وأخرج خشينا من لخم فجعلهم مع سائر قضاة دعوة منفردة^(٥).

١ - المقرئى: البيان والأعراب، (خاتمة) ص ١٠١، ١٠٢.

٢ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ١١١؛ سيدة كاشف: مصر في فجو الإسلام، ص ٢٤٨.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦، ١٢٧؛ شحاتة عيسى: القاهرة، الألف كتاب، ص ١٩، ٢٠.

٤ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٩٨.

٥ - يقول الكندي: "وتدوين بشر بن صفوان هذا التدوين الرابع، لأن الأول تدوين عمرو بن العاص، والثاني تدوين عمر بن عبد العزيز بن مروان، والثالث قرّة بن شريك والرابع هذا وهذا يعنى أنه كلما وقّدت مجموعة من قبيلة، وكان هناك مجموعة سابقة، ممن اشتركوا مع قبائل أخرى في خطة، ففي هذه الحالة كان يتم أفراد خطة جديدة تجمع هؤلاء. الكندي: الولاة، ص ٧٠، ٧١.

وكثيرا ما كانت تظهر مشاكل عديدة في أثناء وضع خطط القبائل، فأهل الظاهر^(١) قد عادوا من الإسكندرية متأخرين، فوجدوا أنهم ليس لهم مكان بين خطط القبائل، فتحاكموا إلى معاوية بن حديج فقال لهم: "انى أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوا لكم منازل فسميت منازلهم الظاهر".

وكذلك كانت خطة اللقيف^(٢) فإن معظمها كان من الأزد من الحجر ومن غسان ومن شجاعة، مضافا إليهم نفر من جذام ولخم والوحاف وتتوخ: قال عمرو بن جمالة بشأنهم: "تا الله ما رأيت قوما قد سدوا الأفق مثلكم وإنكم لكما قال سبحانه: "فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا"^(٣).

وكانت هذه الجماعة قد سألوا عمرو أن يفرد لهم خطة، فامتنعت عشائهم فعندئذ طلبوا أن يكونوا مجتمعين كما هم، ومتفرقين في الديوان، حتى إذا دعى كل بطن منهم انضم إلى بنى ابيه، فأجابهم عمرو إلى ذلك^(٤)، فكانت خطتهم مما يلي خطة أصحاب الراية^(٥).

١ - وهؤلاء القوم هم الذين يطلق عليهم اسم العتقاء، وهم جماع من القبائل كانوا يقطعون الطريق، فجى بهم أسرى إلى الرسول، ثم اعتكهم فعرفوا بالعتقاء، ودخل هؤلاء العتقاء مصر مع عمرو، وشهدوا الفتح وكانوا معدودين في أهل الراية، ولما ذهب عمرو ليفتح الإسكندرية، ذهبوا معه، ولكنهم تأخروا في العودة إلى القسطنطينية وعندما جاءوا لم يجدوا مكانا ينزلون به في خطة أهل الراية، فغضبوا وشكوا ذلك إلى عمرو، ولكن معاوية بن حديج أحد المشرفين على الخطط قال لهم: "أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوا منزلا وتسموه "انظر: ابن خلكان: وفیات الأعيان، جـ ٣، ص ١٣٠؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ ٤، ص ٤؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٣، ص ٣٢٨؛ المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٢٩٧؛ عبد الله خورشيد: القبائل العربية في مصر، ص ٢١٩.

٢ - لما فتح العرب الإسكندرية عام ٢١هـ/٦٤٢، ثم عادوا إلى القسطنطينية لتشييدها ورد خبر ان الأسطول البيزنطى في طريقه إلى الإسكندرية، فأرسل عمرو بن العاص رجلا من الأزد يسمى عمرو بن جمالة ليأتيه بالخبر، وبعد قليل ثارت في صدور بعض القبائل عاطفة هي مزيج من الحماسة والتدين والعصية فتعاقبوا على اللحاق بأخيهم عمرو، فلما أركود في الطريق فنظر إليهم في دهشة وأعجاب وقال عمرو بن جماله مقولته "لقيفا". انظر: ابن دقماق: الانتصار، جـ ٤، ص ٣؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٣، ص ٣٢٧، ٣٢٨؛ عبد الله خورشيد: القبائل العربية في مصر، ص ٣١٨.

٣ - سورة الإسراء/ آية ١٠٤.

٤ - المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٢٩٧؛ شحاته عيسى: القاهرة، الألف كتاب، ص ١٩، ٢٠.

٥ - لكى نتتبع خطط أهل الراية، وخطط اللقيف نجد أنها تداخلت في مواضعها. انظر المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٢٩٧؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ ٤، ص ٤، على بهجت: حفريات القسطنطينية، دار الكتب المصرية ١٩٢٨، ص ٢٢.

واختطت همدان بالجيزة هي ومن والاها مثل يافع وذو أصبح وطائفة من الحجر ومعهم جماعة من الروم، والفرس المسلمين، ورفضت هذه القبائل العودة إلى القسطنطين وأقامت بصفة دائمة بالجيزة^(١) وكان عمرو بن العاص قد كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر يقول:

"كيف رضيت أن تفرق أصحابك، ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لاحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غيائهم حين ينزل بهم ما تكره، فأجمعهم إليك فإن أبو عليك، وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من في "المسلمين حصنا"^(٢) فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة في سنة ٢١هـ، وفرغ من بنائه سنة ٢٢هـ/٦٤٣م.

ومن القبائل التي احتفظت بالشرف في الجاهلية والإسلام بنوسهم^(٣) فقد حضر بعضهم فتح مصر، واضطر عمرو إلى أن يبني لهم دار السلسلة التي في غربى المسجد، والتي اشتهرت أيضا باسمهم، وهي التي أشار إليها الكندي^(٤) في حركة العلويين بمصر سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، واستمرت هجرة سهم، ونزحوا في حركة انتشار القبائل إلى الصعيد، وتمركزوا في الاشمونين مع قریش^(٥).

وكذلك نزلت في القسطنطين كثير من القبائل في خطة الحمراوات^(٦) وخطة

- ١ - انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٨؛ النويري: نهاية الارب، ج ١، ص ٣٢٠.
- ٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٨، ١٢٩؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٠٦؛ وأيضا: النقود الإسلامية، ص ١٣٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج ١، ص ٥٩؛ سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٢٤٨.
- ٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٠٢، ١٠٣؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٣٣٤.
- ٤ - الكندي: الولاة، ص ١١٤.
- ٥ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ١، ص ٣٥٣؛ وأيضا: قلاند الجمان، ط ١٩٦٣، ص ١٤٢؛ المقرئ: البيان والأعراب، ص ٤٣؛ محمود عكوش: مصر في عهد الإسلام، دار الكتب ١٩٤١، ص ١١٧.
- ٦ - الحمراوات: وهي ثلاث خطط، وقد سميت بذلك لنزول الروم بها، وهم حمر الألوان: الحمراء الدنيا، وبها خطة بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاة إلا من كان منهم في أهل الراية، وخطة ثراد من الازد وخطة فهم، وخطة بنى بحر بن سودة أما الثانية الحمراء الوسطى وبها خطة بنى ينة، وهم قوم من الروم حضروا الفتح وخطة هذيل، وخطة بنى سلامان من الازد. والثالثة الحمراء القصوى، وهي خطة بنى الأزرق من الروم، وحضر الفتح منهم أربعمائة رجل، وخطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم. انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٩؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٣٢٩؛ انظر: ملحق البحث، خريطة شكل (٣).

بنى وائل^(١).

ورغم أن ابن عبد الحكم يذكر أنه لم يكن في الإسكندرية خطط^(٢)، غير أنه قال: "ان الزبير بن العوام اختط بالإسكندرية"^(٣).

كما استقرت قبائل على مقربة من الإسكندرية في سنة ٣٧هـ/٦٥٧م إذ نزلت قبيلة مدلج بقرية خربت^(٤)، اتجهوا منها نحو الغرب، كما نزل منهم وادي هبيب فيما بين مريوط والفيوم^(٥)، ومع هذا فقد أقام جانب كبير منهم بالإسكندرية، وقاموا في آخر القرن الثاني بأعنف الثورات، ويبدو أن المدالجة كانوا كثيرين بمصر، خصوصاً بنو معاذ، بنو الهجيم^(٦).

ونزلت بالإسكندرية أيضاً قبيلة نجيب^(٧)، وفي نهاية القرن الأول حظيت بمكانة ممتازة^(٨)، خاصة أسرة معاوية بن حديج^(٩)، ولم تكف نجيب بالإقامة في مصر، فقد اتجه بعضهم نحو الغرب، فكان منهم قوم في جبل برقة الغربى مع غيرهم من بطول العرب اليمنيين^(١٠).

١ - بنو وائل: من زيد بن أقصى بن جذام؛ انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٢.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٠. يقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم: "كانت الاسكندرية في العصر الإسلامي تزخر بالدور الفخمة التي أخذها المسلمون من الروم فسميت لذلك أخاند، وذكروا أن عمرو حين افتتحها أحصى دورها، فوجد أنها أربعة آلاف دار، محكمة البناء، مفروشة بالرخام الملون، وفي كل دار منها حمام تختص بها ومضت موجة الفتح، وأقام العرب في هذه الأخاند، وما لبثت المدينة أن تعربت، وأقيمت فيها بجانب الدور الحكومية مثل دار الأمانة، ودار الطراز والاهراء وبيت المال، ودورا أخرى خاصة مثل الدار التي أقامها الزبير بن العوام عند الفتح" السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ١٤٢.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٠.

٤ - خربت: قرية من قرى البحيرة تقع على بعد ٩٠ كم من الإسكندرية. انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٢، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٢، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

٥ - ابن المقفع: سير الأباء البطارقة، ج ١، ص ٥٦٨.

٦ - الكندي: الولاة، ص ١٥٣-١٦٢.

٧ - نجيب: من كنده، وهم بنو عديب وسعد ابن الأشرس بن شبيب بن السكين انظر: ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٢٣١.

٨ - الكندي: الولاة، ص ٦٤.

٩ - المصدر نفسه، صفحات ١٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٠، ١٩٦، ١٩٧. انظر: الخريطة شكل رقم (٤) ملحق الدراسة.

١٠ - اليعقوبي: البلدان، ص ٣٤٣.

القبائل العربية في مصر العليا :

أخذت جيوش العرب طريقها إلى جنوب مصر في ولاية عمرو بن العاص^(١)، إلا أن حملة عبد الله بن سعد على بلاد النوبة سنة ٣١هـ/٦٥١م، كسنت أكثر تنظيمًا، ولكنها لم تستقر هناك بل اكتفت بعقد صلح مع أهل تلك البلاد^(٢).

ومن القبائل العربية التي انتشرت في الصعيد الأعلى بنو أمية، ومن المعروف أنها نزلت إلى مصر بعد مقتل عثمان بن عفان ٣٥هـ/٦٥٥م، ونشوب الصراع على الخلافة، وانتهى الأمر بسيطرة الأمويين على مصر سنة ٣٨هـ^(٣)، لكن إقامتهم الفعلية لم تبدأ إلا منذ النصف الثاني من القرن الأول، بدليل أن عبيد العزيز بن مروان يتساءل عندما تولى مصر كيف يمكنه أن يحكم بلدا ليس به أحد من بنى أمية^(٤).

وقد أخذ الأمويون في التكاثر في مصر منذ أواخر عهدهم، ومع هروب مروان بن محمد تمركزوا بصورة فعلية في الصعيد الأعلى^(٥).

وفي القرن الثالث الهجري كان كثير من بنى أمية قد تمركزوا في الصعيد^(٦). كذلك نقل بنو ربيعة إلى تلك المنطقة في خلافة المتوكل، للوقوف أمام غارات البجة، ولكن ما لبثت ربيعة أن خالطت البجة وزاد نفوذها في مناجم المعادن^(٧)، وأصبح لها شأن عظيم في أرض البجة^(٨).

كذلك استقرت عدة قبائل في الصعيد الأوسط ثم اتجهت إلى الصعيد الأعلى ومنها قبيلة همدان التي نزلت بالجيزة منذ بداية استقرار القبائل، ثم اتجهت نحو

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص ١٦٩، ١٧٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص ص ٢٣٦، ٢٣٧.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص ١٨٨، ١٨٩؛ الكندي: الولاة، ص ١٢، المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٢٩٩.

٣ - الكندي: الولاة، ص ٢٨.

٤ - الكندي: الولاة، ص ٤٧، ٧٦، ٧٧؛ المقريزي: البيان والأعراب، ص ٤٣.

٥ - تؤكد أوراق البردي العربية أن الأمويين، قد تواجدوا منذ منتصف القرن الثاني أنظر: أدولف جروهمان: أوراق البردي العربية، ج ٣، لوحة (٨-١١) ص ٣٩؛ ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ٣٦٧.

٦ - الادفوي: الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والنشر، صفحات ٩٤، ١٤٥، ١٧٤.

٧ - المقريزي: البيان، ص ص ٤٤، ٤٥؛ الخطط، ج ١، ص ١٩٧.

٨ - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٣٢، ١٥٠.

الصعيد الأوسط ثم الأعلى. فمنذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري استقرت القبيلة الطحاوية بمدينة طحا^(١).

وقد اتجه العلويون إلى الصعيد^(٢)، منذ ظهورهم في مصر سنة ١٤٤هـ / ٧٦٣م، عندما دخلها علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن الذي كان أول علوي يدخل مصر ثم اتجهوا إلى الأشمونيين^(٣).

ولقد حظى الصعيد الأعلى بهجرات عربية كان على رأسها قبائل بلى التي كانت تؤلف ثلث المجموعة القضاعية الساكنة في بلاد الشام، فقد نقلت كلها بأمر عمر بن الخطاب إلى مصر، وتفرقت بأرض مصر، ويبدو أن جزءا كبيرا قد اتجهوا إلى الصعيد^(٤).

وكانت هذه القبائل العربية تفر إلى مصر باستمرار، وتصاهر أهل البلاد، ومنهم أولاد الكنز^(٥)، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان، أى من عرب الشمال، وكانوا ينزلون اليمامة، وقد قدم كثير منهم إلى مصر في خلافة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٦-٨٦١م) وانتشروا في أنحاءها، ونزلت طائفة منهم بأعلى الصعيد^(٦)، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية حتى خربوها،

١ - يختلف المؤرخون المسلمون حول طحا، فيفهم من كلام الكندي أنها قريبة من القسطنطينية، بينما يذكر ابن تغري بردي أنها إحدى ضواحي القاهرة، ويذكر جروهمان: هناك أحد عشر مكانا باسم (طحا) تقع في مصر السفلى ومصر العليا. (طحا المرج - طحا نوب - طحا سها - طحا ماعد - طحا بوش - طحا بيشا - طحا المدينة - طحا الخراب - طحا سوا - ديوب)، انظر: الكندي: الولاة، ص ١٦٨ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٣، ص ٢٣، جروهمان: أوراق البردي، ط دار الكتب ١٩٦٨، ج ٥، ص ١٢٣-١٢٥.

٢ - الكندي: الولاة، ص ١١١.

٣ - الأشمونيين: مدينة قديمة كانت من كور الصعيد، وتقع غرب النيل. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ط بيروت ١٩٥٥، ج ١، ص ٢٠٠، وهي الآن قرية من قرى مركز ملوى بمحافظة أسيوط محمد رمزي: القاموس، ج ٤، ص ٦٠، انظر: الخريطة، ملحق الدراسة، شكل رقم (٥).

٤ - عبد المجيد عابدين: البيان والأعراب، ص ٩٧، ١٠٥.

٥ - انظر: المقرئ: البيان والأعراب، ص ٤٤؛ عطية القوصي: بنو الكنز، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٥.

٦ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ١١٠، ١١٢.

فقامت بطون ربيعة تصدهم، ثم تزوجوا منهم، واستولوا على معدن الذهب بـوادي العلاقي. فكثرت أموالهم، وأصبحوا في سعة من العيش^(١).

أما قریش فيذكر المقریزی أنها نزلت بكثرة في أسوان^(٢)، منذ العهد الأموي، وملك أبناؤها الضياع في بلاد النوبة^(٣).

كذلك وفدت قبائل عربية أخرى إلى الصعيد الأقصى، منهم بنو هلال، وبنو سليم، ومعروف أن بنى سليم كانوا من بين البطون القيسية التي دخلت مصر سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧م^(٤)، ولكن يبدو أن سليما لم تستقر في خوف مصر مع قيس، بل اتجهت جنوبا^(٥)، وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، كانوا يعملون في استخراج الذهب من مناجم الجنوب.

أما بنو هلال فقد دخلوا مع هجرة قيس، إلا أن ظهورهم في مصر بشكل واضح جاء بعد نقل كثيرين منهم إلى مصر في عهد عبد العزيز بن مروان، حيث نزلوا الصعيد^(٦)، وكان الهلاليون من أكثر القبائل تمسكا بالبدواة، يؤثرون حياة الانتقال والترحال والعصية، وقد بلغوا في تجوالهم الواحات^(٧).

١ - المقریزی: البيان والأعراب، ص ٤٤؛ وسوف تشهد حركة الهجرة والاستقرار في الصعيد تطورا كبيرا في القرن الثالث حين أخذت تنزح من القسطنطينية إلى الصعيد. انظر: القسم الثاني من الدراسة.
٢ - يفسر المقریزی كلمة "أسوان" من قولهم أسي الرجل إذا حزن ورجل أسيان وأسوان أي حزين، ويفسره سليم حسن: بأنه مشتق من أسمها الفرعوني سونت أي السوق، وذلك لشهرتها كسوق تجاري لمصر والنوبة، ثم حذفت الكلمة بعد ذلك، فأصبحت أسوان، ويفسرها البعض بأنها مشتقة من كلمة صوان، وذلك لوجود محاجر الصوان والجرانيت بكثرة، كما عرفت باسم سونييت Swenet وسينييه Syenne عند اليونان أنظر: المقریزی الخطط، ج ١، ص ١٩٧، سليم حسن: مصر القديمة ج ٢، ص ٢٩٦؛ سعاد ماهر: محافظات الجمهورية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢١، العدد الأول ١٩٥٩، ص ٨١؛ دائرة المعارف الإسلامية مادة (أسوان)؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي القسم الثاني، ج ٤، دار الكتب ١٩٦٣، ص ٢١٦.

٣ - الخطط، ج ١، ص ١٩٧، ١٩٨.

٤ - الكندي: الولاة، ص ٧٦؛ المقریزی: البيان، ص ٦٧.

٥ - اليعقوبي: البلدان، ص ٢٣٥.

٦ - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص ٣٤٧ مادة (أبو زيد).

٧ - عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، جامعة القاهرة ١٩٥٦.

أما قبيلة جهينة، فقد اشتركت في الفتح العربي بأعداد قليلة^(١)، إلا أنها في القرن الثالث الهجري غزت بلاد البجة، وامتد نفوذها إلى بلاد النوبة، وأرض السودان لتسهم في نشر الإسلام^(٢).

ونلاحظ أن العرب في مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالي قرنين من الزمان، إذ نرى في معظم شواهد القبور التي كشفت حديثاً في مقابر أسوان والفسطاط أن اسم المتوفى كان يتبع باسم قبيلته في خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن في خلال القرن الثالث الهجري نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الإقليم الذي ينتسب إليه المتوفى، فيكتب السيوطي، أو الأدفوي أو الكوفي أو المصري^(٣).

ومع ذلك فتشير أوراق البردي العربي إلى وجود اسم القبيلة خلال القرن الثالث من الهجرة، فهذا عقد زواج يظهر فيه اسم الشخص متبوعاً باسم قبيلته "هذا ما أصدق إسماعيل مولى أحمد بن مروان القرشي بمدينة أشمون عايشة"^(٤).

الموالي والاقليات الأخرى:

استقر بمصر منذ عشية الفتح عناصر من الموالى، وخاصة من الفرس والترك، فيذكر ابن عبد الحكم أنه "قدم مع عمرو بن العاص قوم من العجم يقال لهم

١ - جهينة من قبائل اليمن، وهى جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاة، وهى قبيلة عظيمة، وفيها بطون كثيرة، وهى أكثر عرب الصعيد، وكانت مساكنهم فى بلاد قريش. انظر: المقرئى: البيان والأعراب، ص ٣٢، ٣٣؛ عبد الله خورشيد: القبائل العربية، ص ١٩٣.

٢ - انظر: رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ط دمشق ١٩٤٩، ج ١، ص ٢١٦، ٢١٧؛ مصطفى مسعد: البجة والعرب والعرب فى العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الحادى والعشرين، ج ٢ ديسمبر ١٩٥٩، ص ٤٨، ٤٩، عبد المجيد عابدين: البيان والأعراب، ص ١٠٥، عبد الله خورشيد: مرجع سابق، ص ١٩٤؛ انولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ١٢٢.

٣ - C. F. Wiet (Gaston): Catalogue General du Musée Arabe du Caire. Stèle Funéraires. Tome 1.V. Le Caire. wiet (G): L'Egypte musulmane (Précis de l'histoire d'Egypt. T. II) PP. 136- 137. Le Caire 1932.

سيدة كاشف: دراسات فى المجتمع المصرى الإسلامى قبل العصر الفاطمى، المجلد الثانى، ١٩٨٠،

ص ٢، مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٥٨؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ١١٢.

٤ - انظر: أنولف جورهمان: أوراق البردى العربية، دار الكتب ١٩٣٤، ج ١، ص ٧٣ (لوحة ٣) عقد زواج رقم ١٥٩.

الحمراء والفارسيون^(١)، "قنزلت الروم الحمراء التي بالقنطرة، ونزلت الفرس بناحية بنى وائل، فمسجد الفارسيون هناك مشهور ومعروف^(٢)"، ويتضح من هذا أن وجود الروم في خطط الفسطاط، أنهم لم يكونوا مع عمرو عند حضوره، وإنما هم من البيزنطيين الذين فضلوا البقاء في مصر، فقد ترك لهم حرية الخروج أو البقاء^(٣)، واعتقد أن وجودهم بين خطط المسلمين لأنهم اعتنقوا الإسلام، أما الفرس فقد جلعوا مع الفاتحين، وأنهم كانوا مسلمين.

لقد كان بالفسطاط حمراوين أحدهما للفرس، والأخرى للروم^(٤)، وزيدت خطة ثالثة بعد أن ازدحمنا بالنازحين، ويذكر المقرئ أن اسم الحمراء كان يطلق على المنطقة الواقعة بين الحصن، وبين جبل يشكر^(٥).

ولقد تولى الموالي العديد من المناصب الإدارية بمصر، وخاصة العجم، فيذكر الكندي أنه "في ولاية بشر بن صفوان الكلبي على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك سنة إحدى ومائة، جعل على شرطه شعيب بن حميد بن أبي الربداء البلوي من الموالي^(٦)".

وقد أخذ هذا العنصر في التدرج في سلم المناصب بمصر حتى وصل بعضهم إلى منصب الوالي، يقول الكندي: "ثم وليها مولى أبي جعفر من قبل المهدي على صلاتها وخراجها يوم دخلها يوم الثلاثاء لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين ومائة فجعل على شرطه موسى بن زريق مولى بني تميم^(٧)".

وفي خلافة المأمون العباسي، وولاية كيدر جعل على الشرطة رجل من العجم اسمه بسطام، وقد عزله كيدر لرشوة ارتشاها، فأمر بضربه بالسوط في صحن المسجد الجامع، وولى رجلا بخاريا يقال له داوه^(٨).

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٩؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٩٨؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٥.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٩، انظر: الخريطة، ملحق الدراسة، شكل (٢).

٣ - ابن عبد الحكم، ص ٧٠، ٧١.

٤ - المصدر نفسه، ص ١٢٩.

٥ - المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢٠.

٦ - الكندي: الولاة، ص ٧٠.

٧ - المرجع السابق، ص ١٢١.

٨ - المصدر نفسه، ص ١٩٣.

ويشير المقریزی أيضا إلى عناصر السكان من غير العرب فيقول: "أعلم أن أرض مصر، لما دخلها المسلمون كانت مشحونة... وكلهم روم من جند القسطنطينية ملك الروم، وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومي^(١)".

وقد وجدت عناصر من الجنسيات الأخرى منها الشاميون الذين جاءوا مع الجيش الفاتح، وقد خرج بعضهم في خلافة يزيد بن عبد الملك، وقد قتل زعيمهم ربيعة من موالى أهل حمص، وأخرج أصحابه إلى أجنادهم في سنة خمس وعشرين ومائة هجرية^(٢).

كذلك وفد على الإسكندرية عنصر جديد، هم الأندلسيون، جاءوا من أجل التجارة في سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م، وقد أثروا في الحياة السياسية بعد انضمامهم إلى قبائل لخم^(٣).

هذا وقد وجد في مصر العنصر النوبي والحبشي^(٤)، إذ تشير أوراق البردي إلى وجود الرقيق الأسود، فهناك خطاب خاص ببيع جارية نوبية من الرقيق، يرجع إلى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي^(٥)، ومن المعروف أن العرب حرصوا على شراء الاقنان، إذ يذكر البلاذري: "كان خباب قينا، وكان قد أسلم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يألفه ويأتيه"^(٦) ولما كثرت حركة الفتح كثرت الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة، ووزع المسترقون رجالا ونساء وذراري على العرب الفاتحين^(٧).

ويشير القلقشندي إلى أن أحمد بن طولون خصص لهم قطعة باسمهم في مدينته الجديدة هي قطعة السودان، وهذا دليل على كثرة عددهم بمصر منذ سنة ٢٥٦هـ، إذ شكلوا عنصرا أساسيا في المجتمع المصري^(٨).

١ - المقریزی: الخطط، ج٢، ص٤٩٢.

٢ - الكندي: الولاة، ص٨٣.

٣ - المصدر نفسه، ص١٥٨، ١٦٢، ١٦٣.

٤ - المقریزی: الخطط، ج٢، ص٤٩٢؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣، ص٣٢٤.

٥ - جروهمان: أوراق البردي، ج٥، طراز رقم ٦٠٥، ص٣٥.

٦ - البلاذري: أنساب الإشراف، ج١، ص١٧٨، ١٧٩.

٧ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ج١، ص٨٨، ٨٩.

٨ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣، ص٣٣١، ٣٣٢؛ المقریزی: الخطط، ج١، ص٣١٥.

العصبية القبلية في مصر :

وظهرت عدة ظواهر اجتماعية متأثرة بالسلوك القبلى العام نذكر منها، (الحلف)، وهو ارتباط بين القبائل فى تحمل أعباء الحاضر ومواجهة حوادث المستقبل، فقد تحالفت مدلج (قبيلة فى مضر) وذبحان (قبيلة من حمير) وأقامتا بخربتا^(١)، كما حالفت قبيلة جيشان أبو سالم المعافى وأصبح هو وبنوه ينسبون إليها^(٢).

وكان عبد الله بن المهاجر الذى أخذ ثورة القبط فى بلهيب سنة ١٥٦هـ/٧٧٢م، حليفا لبنى عامر من تجيب^(٣)، وكان إبراهيم بن اسحق قاضى مصر (٢٠٤-٢٠٥هـ) حليفا لبنى زهرة^(٤).

ومن مظاهر السلوك القبلى الاستجارة، مثلما حدث فى مصر، لما استجار كريب بن أبرهة سيد حمير الخليفة مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ — عندما تجمع المصريون على بابه يريدون قتله انتقاما للاكدر بن حمام سيد لخم^(٥).

كما لعبت العصبية القبلية دورا كبيرا بين القبائل العربية المقيمة فى مصر، فقد وقف قيس بن سعد الأنصارى، والى مصر، يوصى خليفته محمد بن أبى بكر القرشى (سنة ٣٧هـ/٦٥٧م) بأن يعامل قومه المضريين معاملة طيبة فقال: "وانظر هذا الحى من مضر، فأنت أولى بهم منى، فأن لهم جناحك، وقرب عليهم مكانك، وأرفع عنهم حجابك"^(٦).

وبلغ من قوى العصبية بين العرب فى مصر، أنه فى القرن الثانى، كان القاضى توبة بن نمر (١١٥-١٢٠هـ) لا يقبل شهادة مضرى على يمانى ولا يمانى على مضرى^(٧).

أما عن العطاء، فالواقع أن هذه القبائل العربية المهاجرة ظلت طوال عصر الراشدين، والأمويين وأوائل العصر العباسى، تكون طبقة ارسنقراطية حاكمة

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٢.

٢ - الكندى: الولاة، ص ٣٥٣.

٣ - المصدر نفسه، ص ١١٩.

٤ - عبد الله خورشيد: القبائل العربية، ص ٢٢٤.

٥ - الكندى: الولاة، ص ٤٦.

٦ - المصدر نفسه، ص ٣٧.

٧ - الكندى: الولاة والقضاة، ص ٣٤٦.

تحتكر الخدمة في الجيش، والمناصب الإدارية والعسكرية، وتنال العطاء من بيست المال^(١).

وإذا كان المؤرخون قد ذكروا أن عمر بن الخطاب أمر مناديه بالخروج إلى أمراء الأجناد ليتقدموا إلى الرعية "بأن عطاءهم قائم، وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون"^(٢). فالحقيقة أن عمر بن الخطاب قصد بذلك ألا ينشغل جند المسلمين بغير الجهاد، حدث ذلك عقب الفتح مباشرة.

ومن النظم الأساسية التي سنّها عمرو للعرب في مصر، بعد أن يعودوا من غزوهم، أنن لمن أراد منهم الخروج بجواده يربعه أي ليرعى في مراعى الريف، وذلك حتى لا يكون جواد كل منهم هزيلا، وترك لكل قبيلة حرية اختيار الكورة التي تحب أن ترتبع فيها^(٣).

ولا شك في أن الارتباع كان فرصة للعرب ليتعرفوا فيها على البلاد، ويختلطوا بأهلها، وكان لذلك أثر كبير في امتزاج الفريقين امتزاجا أدى إلى انتشار العرب في مصر، وترك أثره في نشر الإسلام.

وكانت حركة الارتباع هذه تتم حسب نظام مرسوم، فكان الوالى إذا جاء الربيع يصدر أمرا كتابيا يحدد فيه القرية التي تذهب إليها القبيلة^(٤)، وكميات اللبن التي يسمح لها بالحصول عليها من المصريين.

وحركة الارتباع هذه تتركز في عدد من القرى منها منف أول مدن الصعيد،

١ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ١١١؛ حرجى ريدل: تاريخ النمنن الإسلامى، ج ٥، ص ١٨.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٢؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤٤٧؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٧٣.

٣ - جاء في خطبة عمرو بن العاص: "فحى لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خير، ولبنه وخرافه وصيده وأربعوا خيلكم وأسمنوها، وصونوها واکرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأتقاكم واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا وإياى والمشومات والمعسولات فأنسهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم". وقد خصص ابن عبد الحكم فصلا بعنوان "نكر مرتبع الجند" انظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٩، ١٤٠، ١٤١؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٨٠، وأيضا ج ٢، ص ٢٦٠.

٤ - يذكر ابن عبد الحكم: "وكان إذا جاء وقت الربيع واللبن، كتب لكل قوم بريبعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا" فتوح مصر، ص ١٤١؛ المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٠، انظر ملحق الدراسة، خريطة شكل (٦).

على غربى النيل من أعمال الجيزة^(١)، وأوسيم، كما كانت تتركز فى الشمال الشرقى من القسطنطينية فى عين شمس، وهى المدينة المعروفة اليوم بتل الحصن، وما جاوره بأرض المطرية، وأتريب^(٢)، وبالقرب من بنها وبسطة وهى قرية فى محافظة الفيوم، وطرايبة وهى إحدى قرى محافظة الشرقية، ومركزها فاقوس^(٣)، وأبليل وهى مجاورة لطرايبة ونتو^(٤).

وكان موسم الارتباع يستمر حوالى ثلاثة أشهر، فهو يبدأ عادة آخر الشتاء، وقد "تدلت الجوزاء وذكت الشعرى"^(٥) وينتهى فى أوائل الصيف، وكان فرصة كبيرة للاتصال المباشر بين العرب والمصريين، إذ كان يتم بالتدريج فى هذه الهجرة السنوية الداخلية، ويتم تبادل الصلات والمؤثرات بين العرب والمصريين. وظلت الهجرات العربية تفد إلى مصر حتى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤١م) إذ شهد عهده تطورا هاما ترك أثر فى تاريخ البلاد، فقد بدأت هذه لقبائل تفقد امتيازاتها العسكرية والإدارية والمالية^(٦)، إذ كانوا يأخذون العطاء من بيت المال^(٧)، ويبدو أن الولاة قد راعوا أن يكون العطاء مجزيا بحيث يغنى العرب عن الاشتغال بحرف أخرى، والتفرغ للجهاد.

ويذكر البلاذرى أن العطاء كان يصرف للجند شهريا، قال: "أن عمر بن الخطاب صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أنا أجرينا عليكم اعطائكم

١ - محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ص ٢٢؛ ويذكر المقرئى: "وكان إذا جاء وقت الربيع كتب لكل قوم بريعتهم ولبنهم إلى حيث أحبوا، وكانت القرى التى يأخذ فيها معظمهم منوف وسمنود وأهناس وطحا، وكان أهل الراية متفرقين" انظر: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٠، ٢٦١.

٢ - اندثرت هذه القرية، ويدل على موقعها التلول التى بأحواض أتريب الواقعة فى الجهة الشمالية من بندر بنها. انظر: محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ص ٤٢١.

٣ - أبليل بالقرب من صا الحجر وطرايبة بمركز فاقوس مديرية الشرقية، وقد اندثر مكانها، ويعرف مكان أبليل اليوم "بتل بلیم" المحرفة من أبليل، ويقال له أيضا تل البطيخ بجزيرة فى بحيرة المنزلة شرقى صان الحجر على بعد ٣١ كم. انظر محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ص ٤.

٤ - هى قرية آثارها باقية إلى اليوم تعرف باسم تل المقدام بأراضى كفر المقدام بمركز ميت غمر. انظر، محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ص ٥٢. انظر: ملحق الدراسة، خريطة شكل (٤).

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٠.

٦ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ١١١.

٧ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

وأرزاكم في كل شهر، وفي يديه المدى والقسط، قال فحركهما، وقال: فمن انتقصهم فعل الله به كذا ودعا عليه^(١).

كذلك تذكر المصادر أنه في عهد عمر بن عبد العزيز كان يصرف العطاء في مواعده، فإذا مات صاحب العطاء يأخذه ورثته^(٢).

وكان الناس في الديوان مرتبين حسب النسب^(٣)، وحسن الأثر في الدين، ثم روعي في التفضيل عند انقراض أهل السوابق التقدم في الشجاعة والبلاء في الجهد^(٤).

وكان الحد الأعلى من العطاء الذي يدعى "شرف العطاء" ألفين وخمسمائة درهما^(٥)، وكان يعطى لأهل الأيام والفتوح الأولى، ولا يورث، كما كان لنساء

١ - البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٤٧.

٢ - يذكر ابن سلام: "إن المبلغ المحدد من العطاء كان يورث إلى أن أنكر عمر بن عبد العزيز الوراثة" وقال: "قطع الوراثة واعم الفريضة" إلا أنه خشي أن يستن به في قطع الوراثة، ولا يستن به في عموم الفريضة، فترك الأمر كما كان. انظر: ابن سلام: الأموال، القاهرة، بدون، ص ٢٣٦-٢٤١؛ البلاذري: مصدر سابق، ص ٤٤٧.

٣ - الديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، وفي تسميته ديوانا وجهان: أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرأهم يحسبون مع أنفسهم، فقال ديوانه أي مجانين فسمى موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا فقل ديوان، والثاني أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين فسمى الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور، ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم فقل ديوان. انظر الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٩٩؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ١٢، ص ١٠٦-١١٠.

٤ - يذكر البلاذري: "أن عمر بن الخطاب استشار المسلمين في تدوين الديوان فقال على بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئا، وقال عثمان: أرى مالا كثيرا يسع الناس، وأن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ من لم يأخذ حسب أن ينتشر الأمر، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جنت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جند فنون ديوانا وجند جندا، فأخذ يقوله... فقال: اكتبوا الناس على منازلهم فبدعوا ببني هاشم، اتبعوهم أبا بكر وقومه ثم عمر وقومه على الخلافة، قالوا لما أجمع عمر على تدوين الديوان وذلك في المحرم سنة عشرين بدأ ببني هاشم في الدعوة. انظر البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤٣٥-٤٣٧؛ الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٩٩-٢٠٣؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ١٠٨؛ أبي الفدا: المختصر، ط بيروت، ج ١، ص ١٦٠؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٣٣٤، ٣٣٥.

٥ - ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٤٢.

العرب عطاء يبلغ مائتي درهم لكل امرأة، كما خصص للأطفال دون السابعة عشرة "مائة درهم سنويا تدفع عند الفطام"^(١).

وكان عمر بن الخطاب لا يفرض للمولود شيئا حتى يفطم إلى أن سمع امرأة ذات ليلة، وهي تكره ولدها على الفطام، وهو يبكي إذ سألها عنه: فقالت: ان عمر لا يفرض للمولود حتى يفطم فأنا أكرهه على الفطام حتى يفرض له، فقال: يساويل عمر كم احتقب من وزر وهو لا يعلم، ثم أمر عمر مناديه فنادى: الا تعجلوا أولادكم بالفطام، فأنا نفرض لكل مولود في الإسلام وقد فرض للمولود مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم"^(٢).

وفي عهد عثمان بن عفان كان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار، وذلك عندما كان الجيش يستعد لغزو أفريقية مع عبد الله بن سعد^(٣).

وقد تم اختلاط العرب بالمصريين في خلافة المعتصم العباسي، إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان وليا للعهد تنطوي على الاعتماد على الأتراك، وعدم الثقة بالعرب^(٤)، فلما بويغ بالخلافة أرسل إلى والي مصر كيدر بن نصر ابن عبسد الله (٢١٦-٢١٩هـ / ٨٣١-٨٣٤م) يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع اعطيائهم فتم ذلك^(٥).

ويظهر أن الاختلاط في ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب، وبين أهل البلاد^(٦)، بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند، لم يكن له رد فعل عنيف، فعندما قطع كيدر العطاء، ثار يحيى بن الوزير الجروي في جمع من لخم^(٧) وجذام، وقال: "هذا أمر لا نقوم في أفضل منه، لأنه منعنا حقنا وفيتنا" ولكن لم

١ - البلاذري: فتوح البلدان، ج١، ص ٤٥٨، ٤٥٩.

٢ - الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٠٢؛ ضياء الدين اللبس: الخراج، الأجلو ١٩٦١، ص ١٤٥، ١٤٦.

٣ - الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٢.

٤ - عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، الأجلو ١٩٧٣، ج١، ص ٢٨٨.

٥ - الكندي: الولاة، ص ١٩٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣؛ المقرئ: الخطط،

ج١، ص ٩٤؛ انظر: إهمال العباسيين العصبية العربية، والابتعاد عنها، والعمل على أضعافها،

والاعتماد على عصبية أخرى؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص ١٥٦.

٦ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج١، ص ١١١.

٧ - الكندي: الولاة، ص ١٩٣، ١٩٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

يتبعه أكثر من خمسمائة رجل، وانتهت ثورتهم بأسر زعيمهم فى سنة ٢٦٩هـ/٨٣٤م ففرق عنه أصحابه^(١).

ولم يكثرث العرب بتلك الثورة، ولا بضياغ امتيازاتهم الطبقيّة، إذ لم تعد مصالحهم مجرد مصالح عسكرية، سياسية تستهدف الحكم والسلطان وإنما أصبحت مصالح اقتصادية.

وقد اضطر العرب إلى الانتشار فى الريف والاختلاط بالمصريين والفتراوج والمصاهرة ومن ثم بدأت حركة الاندماج بين العرب وبين المصريين^(٢)، التى كلن لها أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية والإسلام^(٣).

وتتحدث المصادر الإسلامية ابتداء من القرن الثالث عن الألقاب العربية، وقد بدأت تتغير فبدلا من الانتساب للقبائل، نسبوا إلى أسماء وطنهم فى مصر، ومدنها، وأقاليمها، فمثلا نو النون المتصوف المعروف فى شاهد قبره سنة ٢٤٥هـ— نو النون المصرى^(٤).

وبدأت منذ العصر العباسى أيضا ظاهرة أخرى وهى اتجاه الكثير من القبائل العربية التى لم ترض بالاستقرار، ولم ترد أن تترك حياة البداوة إلى الهجرة فى حركات مطردة نحو صعيد مصر، ثم نحو حدود النوبة، ثم داخل بلاد النوبة والسودان^(٥).

الخلاصة أن العرب فى مصر لم يكونوا فى عزلة عن أهلها فقد تعاملوا معهم، ولا يمكن إغفال دور الدعوة إلى الإسلام بينهم، وقد أتاح إسلام من أسلم منهم الفرصة لمزيد من التقارب، حتى إذا رفع اسم العرب فيها من الديوان، كانوا قد انتشروا واستقروا، وصار تعاملهم مع المصريين على أسس راسخة.

١ - الكندى: الولاة، ص ص ١٩٣، ١٩٤.

٢ - المقرئى: البيان والأعراب، ص ص ٥٠، ٥١؛ وأيضا الخطط، ج ١، ص ص ٨٠، ٨١.

3- Wiet: Précis de L'histoire d'Egypte T II. PP. 136-137.

٤ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٢، ص ص ٣٢٠، ٣٢١؛ ابن الوردى: تنمة المختصر فى أخبار البشر، ط بيروت، ص ٣٤٢؛ ابن جبير: الرحلة، بيروت ١٩٦٤، ص ص ٢٣-٢٦؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ١١١.

٥ - سوف نتعرض لطبيعة الهجرات العربية إلى النوبة والسودان فى القسم الثانى من الدراسة. انظر: حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ص ١١٢، ١١٣.

الفصل الثالث

انتشار الإسلام: والثقافة العربية في مصر

– انتشار الإسلام:

- الدعوة إلى الإسلام.
- انتشار الإسلام التدريجي.
- انتشار اللغة العربية وتعريب مصر.

– الثقافة العربية في مصر ودور مدرسة الفسطاط:

- النشاط الثقافي لمدرسة الفسطاط (العلوم الدينية)
- تأثر مدرسة الفسطاط بالمذاهب الفقهية الأربعة.
- ذو النون المصري رائد التصوف في مصر.
- العلوم العربية الأخرى (التاريخ- الشعر- النحو).

الفصل الثالث

انتشار الإسلام، والثقافة العربية في مصر

الدعوة إلى الإسلام :

كان للفتوحات الإسلامية أثر ملحوظ في سرعة وصول الدعوة الإسلامية إلى كافة المناطق التي تم فتحها^(١)، فقد تمكن الدعاة من بث الدعوة بين الناس والتي هي أحسن من غير إكراه في الدين، فلم يلبث أن أعتنق البعض الإسلام، وتبعهم غيرهم على مر الأيام^(٢)، حتى أصبح المسلمون في مصر وفي غيرها أغلبية^(٣).
فعالمية الإسلام فرضت على المسلمين القيام بالدعوة إلى الإسلام، والعمل على إعلام الناس كافة به^(٤)، فقد بعث الله تعالى رسوله برسالة الإسلام إلى الناس كافة لدعوتهم إلى الإسلام بالحسنى، ومن غير إكراه^(٥).
وقد تسامح المسلمون مع أهل البلاد المفتوحة، واحترموا عقيدتهم^(٦) وفيما يتعلق

١ - ساويرس: سير الإباء البطارقة، جـ ١، ص ١٦٤، محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية، ص ٣٣، شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامي، ص ١٠٩.

2- Miline: A history of Egypt under Roman Rule, London, 1924, P. 215;
زبيدة عطا: إقليم المنيا في العصر البيزنطي في ضوء أوراق البردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م، ص ٨٣.

٣ - المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٩٢، ٩٤، سيدة كاشف: تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومي، مجلة الجمعية التاريخية، المجلدان التاسع والعاشر ١٩٦٠-١٩٦٢، ص ١٣.

٤ - أنظر: محمد عبد العال: الإسلام في غرب القارة الأفريقية جنوره الأولى ووسائل انتشاره، معهد الدراسات الأفريقية ١٩٨٦م، ص ٢، أحمد أمين: فجر الإسلام، جـ ١، ط ١٠، النهضة المصرية ١٩٦٥م، ص ص ٨٥، ٨٦، أنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧-٣٠.

٥ - الآيات القرآنية: التي تنص على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، سورة الأعراف، آية ١٥٨، وقوله سبحانه " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا " سورة سبأ، آية ٢٨، وقوله تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " سورة النحل، آية ١٢٥.

٦- المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٩٢، علي عبدالواحد وافى: الحقوق الإنسانية في الإسلام، ط ٥، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٢٠، محمد عبدالعال: مرجع سابق، ص ٣، أنولد: مرجع سابق، ص ١٥٧، سعيد عاشور: الإسلام والتعريب، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني ١٩٧٩، ص ١٧٥.

بمصر فقد تضمنت معاهدة عمرو بن العاص مع المصريين ما نصه: التعهد بتحقيق الأمان للمصريين على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم^(١).

وقد اعترف المصريون بسماحة الإسلام والمسلمين، يؤكد ذلك ما ذكره أحد أساقفة الكنيسة المصرية فقد قال: ان العرب الذين فرضوا سيادتهم علينا يحترمون الديانة المسيحية ورجالها، ولا ينتهكون من حرية ديننا مطلقا^(٢).

وقد اتسم الإسلام بالبساطة، وعدم التعقيد، ولم يجعل للكهنة سلطانا على المسلم، بل جعله متصلا بالله دون واسطة، واتسمت سيرة الفاتحين بالعدل والرافة، والتسامح على خلاف ما شهدته مسيحيو مصر في أيام الحكم البيزنطي^(٣).

وهكذا وجد الإسلام طريقة بسرعة إلى قلوب المصريين، وأقبل كثير منهم على اعتناق الإسلام، ولم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار^(٤).

كانت السياسية الإسلامية قبل الفتح تخير أهل الأمصار المفتوحة بين ثلاثة أمور: الإسلام أو الجزية أو الحرب، وراعوا في تقدير الجزية على حسب ثروة الفرد فالغنى لا يجبي منه مثل فقير أو متوسط الحال، وبتمام الفتح أو التوصل لصلح يكون الخيار بين الإسلام أو الجزية فقط^(٥).

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٠، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ١٩٩-٢٠٠، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٣٣٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٤، ٢٥.

٢ - محمد عبد العال: مرجع سابق، ص ٤، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ١٨٨-١٩١.

٣ - ساويرس: سير الآباء البطارقة، ج ١، ص ١٠٥، ١٠٦، أرنوك: الدعوة، ص ١٢٣، بنلر، مرجع سابق، ص ١٣٥، محمد عز الدين روز، عروبة مصر، ص ٩٥.

Marcel: Egypt depuis la conquete des Arabes Jusque à la domination, Français, P. 12:

Father C. Anwati: Op. Cit., P. 29.

٤ - دى كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، القاهرة ١٨٩٨م، ص ٤٤، ٤٥.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٥، ٦٦، الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٤٤، ١٤٥.

المقريري: النقود الإسلامية، ط النجف ١٩٦٩، ص ٢٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص

ص ١٢، ١٣، ابن ياسر: بدائع الزهور، ج ١، ص ١٠٢.

انتشار الإسلام التدريجي في مصر:

أقبل المصريون على اعتناق الإسلام، وأخذ عددهم يتزايد تدريجياً، كلما تقدم العهد بالعرب في مصر حتى صار من بقى منهم على دينه المسيحي قليل العدد على انه يمكن القول بأن الإقبال على اعتناق الإسلام، كان على نطاق أوسع في عصر الولاة عنه في عصر الدول المستقلة- أى الطولونية والإخشيدية والفاطمية - التى أصبح فيها القبط أقلية^(١).

وأيا ما كان الأمر، فإن من أسلم من المصريين أصبح له ما لغيره من المسلمين وعليه ما عليه، فبإسلامهم انضموا إلى صفوف المسلمين، وشاركوهم فى الجهاد^(٢)، ولم يقتصر اعتناق الإسلام على العامة منهم، بل كان كثير من رجال الدين المسيحي ممن اعتنقه ومن هؤلاء يوحنا أحد رهبان سيناء، الذى كان يعتنق المذهب الملكاني، ولكنه تركه، واعتنق الإسلام، وحمل السلاح إلى جانب المسلمين، وكان يشتد على المسيحيين أكثر من الملكانيين أو اليعاقبة^(٣).

ولعل صدق مشاعر قبط مصر نحو العرب، وأخذهم عهد الأمان، هو ما ذكرته المصادر العربية والمسيحية من خروج سبعمائة راهب من وأدى هبيب ، طالبين من عمرو بن العاص أن يكتب لهم عهداً وأماناً ، وقد حدث هذا بالفعل وأخذوا يتوارثونه جيل بعد جيل^(٤).

كان اعتناق الإسلام يبرز فى فترة أكثر من غيرها، وان كنا لا نستطيع أن نحدد عدد من كان يتحول إلى الإسلام فى عصر كل والى أو خليفة، هذا بجانب أن فكرة إحصاء سكان مصر سواء من المسلمين أو المسيحيين المصريين أو اليهود، لم تكن تتم دائماً فى تلك المرحلة المبكرة التى اتسمت بتحويلات كبيرة فى مصر، وان كان التدوين الخاص بالقبائل قد وجد مع الفتح^(٥)، وأحصى الرهبان فى عصر

١ - ساويرس: سير الالباء البطارقة ، ج ١، ص ١٦٤، حسن محمود: مصر الطولونية، مكتبة النهضة، القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٤، وأيضاً: حسن محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ط الأولى، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢٢٦.

2 - Chronique de Jean. PP. 440. 465

3 - C.F Hardy: Christian Egypt. Churches and People, New YorkK 1952. P. 189

٤ - ساويرس: سير الالباء البطارقة، ج ١، ص ١٢٧، ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١ ص ١٨.

٥ - البلائرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ص ٤٣٦، ٤٣٧، الكندى: الولاة، ص ص ٧٠، ٧١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢، ابن اياس: بدائع الزهور، ص ١، ص ١٢٥.

الولاة الأمويين^(١)، ولكن نلاحظ أن هذا الإحصاء كان يتم في عصور مختلفة ومتباعدة.

وهناك من يرى أن التحول إلى الإسلام من جانب أهل الذمة كان من أهم عوامله الرغبة في التخلص من الأعباء المالية، وفي مقدمتها الجزية المفروضة عليهم^(٢)، وصحيح أن إسلام الذمي يخلصه من الجزية، لكنه يفرض عليه نوعاً آخر اختص الله به المسلمين هو وجوب الزكاة^(٣)، وعلى ذلك فإن القول بدخول الذمي في الإسلام من أجل التخلص من عبء مالي لا أساس له من الصحة، لأن الإسلام أعطى الفرصة لمن يريد اعتناقه أن يكون ذلك عن اقتناع كامل وليس بالإكراه أو الضغط.

لقد شجعت الخلافة الإسلامية أهل الذمة على اعتناق الإسلام، وبخاصة منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ - ١٠١ هـ / ٧١٧-٧١٩ م) حين أعلن في جميع الأمصار الإسلامية ومنها مصر، أن من يعتنق الإسلام يعفى من أداء الجزية^(٤)، ونتيجة لهذه السياسة المالية كتب والي مصر آنذاك حيان بن سريج إلى عمر بن عبد العزيز يقول: "أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية، حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار، وتمت عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل"^(٥).

فكتب إليه الخليفة "ضع الجزية عن أسلم، قبح الله رأيك، فإن الله أنما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هادياً، ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمري أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه"^(٦).

١ - المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٣.

2 - Father C. Anawati: Op Cit., P. 28; Fowler: Christian Egypt, London, 1901, P. 58.

٣ - محمد ابن اندريس الشافعى: الأم، ط بولاق ١٢٢١ هـ، جـ ١، ص ٢١١، أثبتت أوراق السبردى أن الولاة في مصر كانوا يقومون بجباية فريضة الزكاة وتسليم الأهالي ايصالاً أو براءة، ولدينا ايصال يرجع إلى القرن الثانى الهجرى سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م، عن زكاة بعض الأشخاص.

C.F: Grohmann: Arabic Papyri. Vol. III. P. 177.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٦، المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٧٨.

٥ - يشير المقرئى الى أن الخليفة أمر رسوله بضرب حيان بن سريج عشرين سوطاً أدباً له على قوله.

انظر: المقرئى، الخطط، جـ ١، ص ٧٨، ابن النقاش: المذمة في استعمال أهل الذمة، مخطوط بـ ٨٢.

الكتب، رقم ٣٩٥٢، ٤٣١٥ تاريخ، ص ٨٢.

٦ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٧٨.

وكان حفص بن الوليد الحضرمي (١٢٥هـ - ١٢٦/٧٤٣-٧٤٤)، من أكثر الولاة المسلمين تشجيعاً لأهل الذمة على اعتناق الإسلام، يقول ساويرس: "وقد أعلن حفص أن كل من يتخلى عن دينه، ويصير مسلماً، لا يؤخذ منه بعد جزية^(١)، وبلغ عدد من أسلم في عهده حوالي أربعة وعشرين ألف قبطياً^(٢)."

على أنه يمكن القول بأن رفع الجزية عن أسلم أساسى، لأنه لا جزية على مسلم، فإذا كان عمر بن عبد العزيز أو غيره قد أمر بإعفاء من أسلم من الجزية، فذلك رجوع إلى الأصل والأساس، وأبطال ابتدعه بعض الولاة من عدم إسقاط الجزية على من أسلم.

ولاشك أن الثورات المناهضة التي قام بها الأقباط في عصر الولاة الأمويين والعباسيين (في الفترة ما بين سنتي ١٠٧-٢١٦هـ / ٧٢٥-٨٣١م)، والتي كان الولاة المسلمون ينجحون في القضاء عليها بسرعة كان يتبعها غالباً، تحول كثيرون من مسيحي مصر عن دينهم، واعتناقهم الإسلام^(٣).

وقد بلغ انتشار الإسلام مداه، بعد ثورة البشموريين^(٤) في سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م، في عهد الخليفة العباسي المأمون^(٥)، وهي آخر ثورات القبط في عصر الولاة، بل وفي عصر الدول المستقلة، إذا أصبح المسلمون بعدها أغلبية بعد أن أسلم عدد كبير من القبط، وفي ذلك يقول المقرئى: "ومن حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر، ولم يقدر أحد منهم، بعد ذلك على الخروج على السلطان، وغلبهم المسلمون على عامة القرى، فرجعوا من المحاربة إلى المكيدة، واستعمال المكر والحيلة، ومكيدة

١ - ابن المقفع: سير الالباء البطارقة، م ١، ج ٢، ص ١٧٢، أنولد: الدعوة، ١٢٥.

٢ - ساويرس: سير الالباء، م ١، ج ٢، ص ١٧٣.

٣ - انظر: الكندى: الولاة، صفحات ٧٣، ٧٤، ٨١، ٩٤، ٩٦، ١٠١، ١٠٢، ١١٦، ١١٧، ١١٩، المقرئى: الخطط، ج ٢، صفحات ٢٦١، ٢٦٢، ٢٨١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣.

٤ - أطلق على المنطقة التي اندلعت فيها ثورة القبط منطقة البشمور أو البشرد، وهي المنطقة الرملية الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد والتي عرفت قديماً باسم بيكولى Bucolies. انظر صفاء حافظ: الموانى والثغور المصرية، ط الكويت ١٩٨٦، ص ٥٦.

٥ - الكندى: الولاة، ص ١٩٠-١٩٢، المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٩٤؛ أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٦.

المسلمين و عملوا كتاب الخراج^(١).

ولكن يبدو أن انتشار الإسلام في مصر لم يكن بوجه عام نتيجة اضطهادات أو إرغام على اعتناق الإسلام، ولسنا نستطيع أن نخرج بغير هذه النتيجة إذ قرأنا ساويرس أسقف الأشمونيين، الذي لم يكن ليغفل تفصيل الكلام على أى اضطهاد يصيب المسيحيين في مصر^(٢).

ولا ريب أن فريقا من القبط أقبلوا على اعتناق الدين الإسلامي عن إيمان واقتناع ولعل فريقا منهم كان قد مل الخلافات الدينية التي كانت تقسم العالم المسيحي في ذلك الوقت، والاضطهاد الذي كان يتعرض له أصحاب المذهب اليعقوبي^(٣).

هكذا تتابعت موجات الداخلين في الإسلام من المسيحيين المصريين، وشهد النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، انتشارا واسعا للإسلام في مصر، حتى إذا كانت أمارة أحمد بن طولون على مصر في سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، كان أكثر مسيحي مصر قد تحولوا إلى الإسلام، وصار المسلمون الأغلبية العظمى بين السكان^(٤)، وصار أهل الذمة أقلية قليلة، ومن ثم أخذت الصبغة الإسلامية تشكل المجتمع المصري^(٥)، وتطبعه بطابعها في العادات والتقاليد، وفي الحياة الاجتماعية بصفة عامة، وأكبر دليل على زيادة عدد المسلمين وتناقص عدد الذميين آنذاك، تضائل حصيلة الجزية، فلم تعد بابا أساسيا من أبواب الدخل في مصر، منذ العصر الطولوني، إلى جانب اختفاء ثورات القبط^(٦)، التي كانت من مميزات عصر الولاة الأمويين والعباسيين^(٧).

١ - المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٩٤، وانظر كذلك بتشر: تاريخ الأمة القبطية، م ٢، ط القاهرة ١٩٥٠.

ص ٢٢٥، منسى القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٢٤، ص ٤٧٩.

٢ - سيدة كاشف: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع، ص ١٣.

٣ - المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٨٨.

4 - Father. C. Anwati: Op. Cit., PP. 32-34.

احمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية في مصر، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤٦، ٤٧.

٥ - حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، العصر الطولوني، ص ٥٤.

٦ - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٨٢.

٧ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٢، ج ٢، ص ٤٩٤.

ويؤكد ذلك ما أشار إليه المقریزی من انحطاط جباية خراج مصر، فبعد أن كانت في إمارة عمرو بن العاص، اثنا عشر مليون دينار^(١)، وفي ولاية خلفه عبد الله بن سعد بن أبي السرح أربعة عشر مليون دينار^(٢)، انحطت كثيراً عن هذا المقدار، حتى وصلت إلى ما يتراوح بين ثلاثة وأربعة مليون دينار في القرن الثالث الهجري^(٣).

وهذا يعتبر دليلاً على تناقص أهل الذمة الذين يؤدون الجزية، وصارت موارد البلاد تعتمد إلى حد كبير على خراج الأرض الذي يؤديه الذمي المحتفظ بدينه، والذي اعتنق الإسلام أيضاً، وتطور نظام جباية الخراج في مصر، واتبع نظام قبالات الأراضي^(٤)، وكان ذلك نتيجة مباشرة لتحول كثير من أهل الذمة إلى الإسلام، وانتشار المسلمين في القرى المصرية واشتغالهم بالزراعة إلى جانب القبط المحتفظين بدينهم، وما حدث نتيجة لذلك من اختلاط العرب بالقبط، وما كان يتم من تزوج المسلمين من أهل الكتاب^(٥).

ومن دراستنا لأوراق البردي العربية في القرن الأول الهجري نجد أن فيها أسماء المسيحيين في العقود الرسمية، وفي المعاملات المختلفة ثم تقل هذه الأسماء بالتدريج وتغلب الأسماء الإسلامية ابتداء من القرن الثالث الهجري، وهو القرن الذي

١ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٢، ج ٢، ص ٤٩٤.

٢ - انظر: قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٢٣٩، المقریزی: الخطط، ج ١، ص ٧٨، ٧٩، ضياء الدين الريس: الخراج، ص ٢٣٧، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١ ص ١٠١: سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٢١٧.

C. Anawati: Op. Cit., P 28.

٣ - البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٢٣، ٢٢٦، ضياء الدين الريس: الخراج، ص ١٥١، ١٥٢.

٤ - أثبت الدكتور راشد البراوي أن الفاتحين من العرب تركوا الأرض للمصريين وفرضوا عليهم الضريبة العقارية، وأن نظرية اعتبار الأرض وقفا وإنزاع المصريين في مركز المنتفعين أو المستأجرين نظرية لا تستند إلى أساس سليم، وأن المصريين كانوا يتصرفون في هذه الأراضي التي تحت أيديهم بالبيع والتوراث والهبه والوقف. معنى هذا أنهم يمتلكون الأرض ملكية مطلقة (رقبة ومنفعة) ولم يكن للحكومة من حقوق على الملكيات الخاصة سوى حق السيادة العليا. انظر راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ط الأولى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م ص ص ٢٥، ٢٧.

٥ - حسن محمود: مصر الطولونية، ص ٥٤، حسن محمود والشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٢٢٦.

وضحت فيه التأثيرات الإسلامية في البلاد^(١).

ونلاحظ من دراستنا لوثائق دير سانت كاترين أن أهل الذمة من الأقباط واليهود، كان يطلق على من يعتنق الإسلام منهم "المسالمة" ومفردها "أسلمى" و"مسلمانى" وهو لفظ يطلق على كل من اعتنق الإسلام حديثاً من النصارى أو اليهود، وفي بعض الأحيان أطلق لقب "المشرف بالإسلام" على من يعتنق الإسلام من أهل الذمة، وذلك بعد عصر الولاة^(٢).

كما أن هناك عوامل أخرى جديرة بالاهتمام إذ أطاحت عملية استضافة السكان القبط للمسلمين طبقاً للشروط التي أقروا بها منذ البداية، وخروج العرب إلى الريف للارتياح أطاحت فرصاً للاحتكاك والاختلاط بين الجانبين وقيام الدعاة بدورهم فى بث الدعوة ونشر الإسلام^(٣).

على أن أهم عوامل تعريب مصر وانتشار الإسلام هو توافد القبائل العربية، واستقرارهم فى كثير من المدن والقرى^(٤)، واختلاطهم بالأقباط اختلاطاً كبيراً، مما أدى إلى انتشار الإسلام، واللغة العربية بين الأهالى وبالتالي تعريب البلاد^(٥).

ويعتبر المؤرخ ماكمايكل (MacMichael) عن ذلك، بقوله: "أنه ما ان حلت سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م حتى أصبح المسلمون أغلبية فى مصر، وازداد إقبال القبائل العربية على الاستقرار والتمركز فى كثير من القرى والاشتغال بالزراعة، بعد أن كان ذلك قاصراً على المدن الكبرى فقط^(٦)".

وسبق ان أوضحنا أماكن انتشار القبائل العربية واستقرارها، وكان ذلك له أثر كبير فى المجتمع المصرى، فقد هجرت القبائل العربية حياتها الأولى التى كانت

١ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ١، وثيقة رقم ٢٦، ص ٤٦، وثيقة رقم ٣١، ص ٥٣. حيث نجد الوثيقة الثانية مؤرخة من سنة ١١٦-١١٩هـ وهى بحروف عربية مما يدل على بداية انتشار الأسماء المسيحية.

٢ - وثائق سانت كاترين: رقم ٢٦٥ (وهى وثيقة بيع) وتاريخ هذه الوثيقة سنة ٨٩٥م، قاسم عبده قاسم: أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، ص ١٧١.

3 - Father. C. Anawati: Op. Cit., P. 32.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٠، المقرئى: البيان والاعراب، ص ص ٥٠، ٥١، وأيضاً: الخطط، جـ ١ ص ص ٨٠، ٨١.

٥ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ص ٨١، ٨٢.

6 - C.F: MacMichael: A history of the Arabs in the sudan, Vol I, Cambridge, 1922, P. 163. C. Anawati: Op. Cit., PP. 32- 33.

تعتمد فيها على العطاء الذى كان مقررا لهم فى الديوان^(١) وأخذت تسعى إلى كسب عيشها بالعمل بالزراعة وغيرها، وتعاملوا مع المصريين وشاركوهم أعمالهم، مما يعتبر تحولا كبيرا فى حياة تلك القبائل، وازدياد إقبالهم على الارتباط بالأرض^(٢). وهكذا كان إسقاط العرب من الديوان، وقطع عطائهم دافعا على مزيد من الاختلاط والتداخل^(٣)، مما أدى إلى ظهور المجتمع المصرى العربى الإسلامى، فبعد ان كان العرب يعيشون فى نطاق ضيق، وكان تأثيرهم ضئيلاً، أصبحوا منذ ذلك الوقت يختلطون بالمصريين اختلاطاً كاملاً، ويمتزجون بهم مما كلن له أثره فى النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية واللغوية والأدبية، وبمرور الوقت ترك العرب الانتساب إلى قبائلهم، والافتخار بأصولها، وبالانتساب إلى الجهة أو الإقليم الذى عاش فيه الشخص، ففى شواهد القبور التى اكتشفت فى أسوان والفسطاط كلن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد ان اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتسب إليه المتوفى^(٤).

انتشار اللغة العربية وتعريب مصر:

وقد تبع انتشار الإسلام فى مصر انتشارا اللغة العربية أيضاً، لان من يعتنق الإسلام كان عليه أن يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن وأداء الصلاة.

وكان المسلمون قد سمحوا للمصريين باستمرار استخدام لغتهم القبطية بالكتابة باللغة المستعملة فى الديوان، وهو أمر لم تسمح به بيزنطة إلا فى أواخر عهدها بمصر.

ولم تكن اللغة القبطية مستعملة كلغة رسمية عند الفتح الإسلامى، بل ان الصلوات فى الكنائس كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية، وكانت اليونانية لغة

١ - الكندى: الولاة، ص ١٩٣، المقريرزى: الخطط، ج ١، ص ٩٤.

٢ - المقريرزى: الخطط، ج ١، ص ٨٢.

٣ - الكندى: الولاة، ص ١٩٣، المقريرزى: الخطط، ج ١، ص ٩٤.

4 - C.F: Wiet: Catalogue Générale du Musée Arabe du Caire Steles Funéraires, T. I. PP. 2-13.

سيدة كاشف: دراسات فى المجتمع المصرى الإسلامى، ص ٢.

الوثائق والإدارة منذ العصر البطلمي^(١).

لقد كان طبيعياً أن تنتشر لغة العرب بين المصريين، وأن يتطور الأمر فتصبح اللغة العربية لغة البلاد الرسمية بدلا من اللغة اليونانية أو القبطية، وكان ذلك في الواقع نتيجة لانتشار الإسلام بين المصريين.

وهكذا كان انتشار اللغة العربية في مصر، مصاحبا لانتشار الإسلام، حتى أصبحت تلك اللغة لغة التخاطب، والكتابة والعلم^(٢).

ومما لا شك فيه أن انتشار اللغة العربية بين المصريين كان تدريجيا، بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة لانتشار الإسلام، ومن الملاحظ أن المصادر التاريخية المختلفة لم تحدد بدايات استخدام المصريين المسيحيين واليهود اللغة العربية في حياتهم اليومية^(٣).

ويمكن القول أن من أسلم من أهل النمة قد اقبلوا على تعلم اللغة العربية منذ اعتناقهم الإسلام حتى يتمكن كل منهم من تفهم دينه الجديد، ومعرفة شرائعه وأداء الصلاة إلى جانب قراءة القرآن^(٤).

ولاشك أن الاختلاط بين المسلمين وأهل النمة^(٥) أتاح للطرفين تبادل الأفكار واللغات، ويبدو أن بعض المصريين كانوا قد أتقنوا اللغة العربية، وتشير بعض المصادر أن أول نقل في الإسلام بين لغة إلى لغة هو نقل كتب الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي لخالد بن يزيد بن معاوية على يد جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كانوا ينزلون مصر^(٦).

والدليل على أن إرهابات حركة التعريب قد بدأت منذ الفتح، هو وجود برديتان عربيتان ترجعا إلى عام ٢٢هـ/٦٤٢م.

١ - انظر: جورجى صبحى: قواعد اللغة المصرية القبطية، ط المعهد العلمى الفرنسى، ١٩٢٥م، ص ٦، يس عبد المسيح: اللهجات القبطية واثارها الأدبية، ص ٤٩.

٢ - زكى محمد حسن: مصر والحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٤٢م، ص ٢٤٠.

٣ - إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٢٩م ص ٢٢٠.

٤ - ابن النديم: الفهرست، القاهرة، ص ٥١١-٥١٢.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٧٠، المقرئى: الخطط، ج ١ ص ٢٩٢، السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥١.

٦ - ابن النديم: الفهرست، ص ٥١١، ٥١٢، توفيق سلطان: التعريب فى العصرين الأموى والعباسى، مجلد ٢٤، ١٩٧٧م، ص ٣، ٤.

- البردية الأولى قصيرة وناقصة، ليس فيها من الكلمات التي يمكن قراءتها إلا القليل مثل (ونصف) و (فى) و (سنة اثنتين وعشرين) بحروف عربية^(١).
- أما البردية الثانية فهي مكتوبة باللغتين الإغريقية والعربية، والجزء الإغريقي منها ترجمة للأصل العربي^(٢) وهي طويلة نسبياً وكاملة نصها:
- ١- بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اخذ عبد الله (-) به.
 - ٢- ابن جبر^(٣) واصحبه من الجزر من اهنسى اخذنا.
 - ٣- من خليفة تذرق ابن أبو ق- (ير) الأصغر ومن خليفة اصطفن ابن أبو قير الأكبر خمسين شاه.
 - ٤- من الجزر وخمس عشرة شاه أخرى اجزرها اصحب سفنه وكتبه وثقله فى
 - ٥- شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين^(٤).
- وكتب (ابن حديدو)^(٥).

1 - Grohamann: The problem of dating Early Qurans Der Islam., Berlin 1958, XXX III/3. P 220.

2 - Grohamann: From the World of Arabic Papyri, Al Maaref Press Cairo, 1952, P. 113
لقد تم اكتشاف هذه البردية فى سنة ١٨٧٧م فى مصر، وهى محفوظة الآن فى المكتبة الوطنية فى فيينا فى مجموعة رينر، تحت رقم ٥٥٨ لوحة "X 1 A"

Ibid . P. 113

٣ - قراها المنجد "جبر" صلاح الدين المنجد: دراسات فى تاريخ الخط العربى منذ بدايته الى نهاية العصر الاموى، ط الاولى، بيروت ١٩٧٢م، ص ٣٧. ويظهر أن الأمر قد اختلط على المنجد إذ أن عبد الله بن جبر كان صحابياً شهد العقبة وبدرًا، وكان أمير الرماة يوم أحد واستشهد فيها. (خير الدين الذركلى: الإعلام، ط الثالثة، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٠٣، والظاهر أن المقصود بعبد الله بن جبر فى البردية هو الذى وردت ترجمه له عند العسقلانى والسخاوى: عبد الله بن جبر بن عتيك الأنصارى الممنى. روى حديث أبو العميس عن عبد الله بن عبد الله بن جبر عن ابيه ان النبى صلى الله عليه وسلم عاد جبراً انظر: العسقلانى: تهذيب التهذيب، الطبعة الأولى، ط الهند ١٩٠٨م، ج ٥، ص ١٦٧. السخاوى: التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، تصحيح وتحقيق محمد حامد الفقى، القاهرة ١٩٥٧م، ج ٢، ص ٢٨١. ويرى جروهمان أن عبد الله بن جبر كان قائد الكتبية العربية التى ذهبت لفتح مصر سنة ٦٤١م - ٦٤٢م.

Grohamann. A.: From the World of Arabic Papyri, pp. 114-115.

Ibid P 114.

٤ - قراها جروهمان "اثنتين".

٥ - قراها المنجد "حنيدو" المنجد: مرجع سابق، ص ٣٧.

وتعتبر هذه البردية نموذجا حسنا للكتابات العربية المبكرة، فهي تضم اغلب الحروف العربية بضروبها المختلفة^(١).

ولدينا وثائق بردية تدل على انتشار اللغة العربية في مصر منذ القرن الأول الهجري، حيث أصبحت اللغة العربية ليست لغة الكتابة والمخاطبة فحسب، بل دخلت في صميم الحياة الاجتماعية للمجتمع الإسلامي المصري، فهناك عقد زواج مكتوب بالحروف العربية، ومؤرخ منذ عام واحد وتسعين هجرية^(٢)، يدل على أن التعريب قد بدأ قبل ذلك، ولم يمنع ذلك من وجود وثائق بردية كانت تكتب بحروف عربية، ويونانية وقبطية، وترجع إلى القرنين الأول والثاني الهجريين^(٣).

ان سياسة تعريب الإدارة الحكومية في مصر^(٤)، دفعت الكثيرين من أهل الذمة إلى الإقبال على تعلم العربية، حتى يمكنهم الاحتفاظ بوظائفهم، نذكر من هؤلاء الشماس بنيامين الذي تقرب من الأصبع بن عبد العزيز، الذي عهد إليه أبوه عبد العزيز بن مروان بكثير من أمور مصر^(٥)، فقد أطلع هذا الشماس على كثير من

١ - نلاحظ في هذه البردية: ليس بينها حرفي (ض) و(ظ)،

C. F. Grohamann: From the World of Arabic Papyri. P. 114.

٢ - بردية غير منشورة، مسجلة تحت رقم ٢٥٢٩٥، المتحف المصري الإسلامي بالقاهرة وهي ضمن مجموعة د/هنري أمين عوض.

٣ - انظر: أدولف جروهمان: أوراق البردي العربية، جـ ١ ص ٣٥/١١، حيث أورد بعض القطع المؤرخة من عهد الوليد بن عبد الملك من ١٩ شوال سنة ٨٦ هـ إلى ١٥ جمادى الثاني ٩٦، (١٤ أكتوبر سنة ٧٠٥ م/ ٢٦ فبراير سنة ٧١٤ م)، وقد كتبت هذه القطع بالعربية واليونانية معا، كما أورد بعض القطع غير المؤرخة مكتوبة باللغتين أيضا (جـ ١ ص ٣٩، ٤٩)، كما أورد وثيقة مكتوبة بالقبطية واليونانية والعربية (جـ ٢ ص ٩١ وما بعدها) وهي عبارة عن اخطارات بالتظلم من ١٠١ سطرا موزعة كالتالي: سطور ١ - ٨٠ قبطية، سطور ٨١-٩٢ يونانية، سطور ٩٣-١٠١ عربية، وانظر كذلك: سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص ١٤١، دينيت: الجزية والإسلام، ص ١٠، ١١.

٤ - الكندي: الولاة، ص ٥٨، ٥٩، المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٩٨، ابن ايساس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ١٢٥، وقد حل الأقباط في إدارة البلاد محل الروم الذين غادروا مصر، والذين كانوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها، كما ظلوا في وظائفهم العامة كما كانوا قبل الفتح سواء بسواء، فكان منهم حكام المحافظات ورؤساء الدواوين وصغار الموظفين ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس استقباه المسلمون في عمله، وآخر اسمه شنودة وكلت إليهما حكومة الريف، وثالث تولى حكومة الفيوم، انظر: أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص ٣١، ٣٢، سيدة كاشف: مرجع سابق، ص ٢٥٩.

٥ - ساويرس: سير الأباء البطارقة، جـ ١، ص ١٣٩-١٤٠.

أسرار مسيحي مصر، بل انه قام بترجمة الإنجيل من اللغة القبطية إلى العربية، وذلك بناء على طلب الأصبغ، وكتب له عدة مؤلفات عربية في الكيمياء، والعلوم الدينية حتى يكون على بينة من علوم أهل الذمة^(١).

ويعتقد إزاء هذه الحركة العلمية التي قام بها الأصبغ من ترجمة المؤلفات المسيحية إلى العربية أنها مقدمة لتعريب الدواوين، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للبلاد.

وفي إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر، أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بترجمة النصوص التي اعتاد أن يكتبها صناع أوراق البردي في مصر على ما يقومون بصناعته من هذه الأوراق، بالكتابة في رؤوس الطوامير (الصحف) عبارات تنسب الربوبية إلى المسيح، كما ترسم في صدرها الصليب. فلما تبين لعبد الملك معناها قال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام^(٢). وأمر عبد الملك أن يكتب في مكانها آية: "قل هو الله أحد"، وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بذلك^(٣)، وقد مهد ذلك كله فيما بعد لأن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد بدلا من اليونانية، وأن تكون أيضا لغة التخاطب بين أهل مصر جميعا.

وقد استمرت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في الدواوين حتى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م)، ويؤيد ذلك أوراق البردي التي يرجع تاريخها إلى عهد الوليد^(٤).

-
- ١ - المصدر السابق جـ ١، ص ١٤٠، بشر: تاريخ الأمة القبطية، ج ٢ ص ١٦٧.
 - ٢ - انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ج ١ ص ٤٥٣، ابن خلدون: العبر، ج ١ ص ٤٦٣، ٤٦٤، المقريزي: النقود الإسلامية، ص ١١، ١٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي: ج ١، ص ٤٤٩، توفيق سلطان: التعريب في العصرين الأموي والعباسي، المجلد ٢٤، ص ١١، ١٢، إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي، ص ٢٤٢.
 - ٣ - البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤٥٣.
 - ٤ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢١٠، جروهمان: أوراق البردي العربية، ج ١، (طراز رقم ٦ مؤرخ ٨٦-٩٦هـ)، ص ١١، عبد المنعم ماجد: علم البردي العربي لأول مرة، بحث منشور في ندوة الدراسات البردية، جامعة عين شمس ١٩٨٢، ص ١-١٠.

وقد أدت عملية تعريب الدواوين في مصر إلى نقل كثير من المصطلحات اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية^(١)، ومن ثم صارت للعرب السيادة اللغوية إلى جانب السيادة السياسية والحربية، وبدأت اللغة العربية تنتشر في جميع المدن والقرى المصرية، وأصبحت لغة الإدارة والحكم، وبالتدريج صارت لغة الثقافة، ولغة التخاطب فضلا عن أنها لغة السياسة والدين.

ونلاحظ أن تعريب الدواوين في سنة ٨٧هـ / ٧٠٥هـ لم يقض نهائيا على استخدام اللغة اليونانية في كتابة الوثائق الرسمية، فكان من الضروري أن تكون هناك مرحلة انتقال يتم بعدها توقف استخدام اللغة اليونانية في الأعمال الرسمية، فقد استمرت اليونانية تدون بها الوثائق إلى جانب اللغة العربية طوال عهد إمارة كل من عبد الله بن عبد الملك، وقرّة بن شريك، ويؤيد ذلك كثير من الأوراق البردية التي ترجع إلى الفترة ما بين ٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م^(٢).

وبالرغم من أن اللغة العربية، أصبحت اللغة الرسمية في الدواوين فإنه من الواضح أنه حتى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، لم تصبح لغة التخاطب في الحياة اليومية، إذا كان لا يزال يجهلها كثير من القبط، بدليل أنه حينما قبض مروان بن محمد- آخر الخلفاء الأمويين على البطرك انيا خيال، وبعض الأساقفة، لوحظ

١ - من الكلمات القبطية التي وردت في وثائق البردي:

- كلمة "بقط" بمعنى عقد ايجار.

- كلمة "حالوم" نوع معين من الجبن.

- هذا إلى جانب أسماء الإعلام بمختلف أنواعها.

- كلمات تمل على أنواع من الطعام غير معروفة عند العرب مثل "بصرة" وعيش "بتاو" وجبنه "حالوم"، وأسماء لأنواع من السمك والحيوان مثل "ملوحة" و"بورى" و"شلبة" و"انومة" و"تمساح" و"بس" ونباتات وغير ذلك.

أنظر: جروهمان: أوراق البردي العربية، ج١، ٢، ٣، احمد مختار: مرجع سابق، ص١١٦، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ٣٤، سيدة كاشف: عبد العزيز بن مروان، القاهرة ١٩٦٧، ص١٤٥، وأيضا: الوليد بن عبد الملك، القاهرة ١٩٦٢م، ص١٨٤، توفيق سلطان: التعريب في العصرين الأموي والعباسي، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، م(٢٤) لعام ١٩٧٧م، ص٩.

٢ - أنظر: جروهمان: أوراق البردي العربية، ج١، طراز رقم (٦) ص١١، طراز (٢١) ص١٣، طراز (٢٢) ص١٤، طراز (٣١) ص١٦، طراز (١٨) ص١٧، طراز (٥٠) ص١٨، طراز (٥١) ص١٩ إلى غير ذلك.

أنهم لا يفهمون العربية، ولا يمكنهم الحديث بها، وكان مروان بن محمد يصحب معه بعض التراجمة الذين تولوا ترجمة الحديث الذي دار بين مروان وبين البطرك المذكور^(١).

ويذكر الكندي: "أن الخليفة المأمون مر في طريقة بقرية طاء النمل، فلم يدخلها، وكانت ملكا لعجوز قبطية تسمه مارية، فخرجت هذه المرأة تتأدى على الخليفة، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة، فوقف لها، وكان لا يمشى أبدا، إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس^(٢)".

لقد ظلت اللغة القبطية مستخدمة في الحياة الاجتماعية في مصر طوال القرن الثالث الهجري بدليل أن هناك بردية مؤرخة في ذى القعدة سنة ٢٣٩هـ — ٨٥٣م، تحوى عقد بيع، وتشير إلى أن أحد النصارى قد أدلى بشهادته على هذا العقد وكتبت شهادته، واسمه باللغة القبطية^(٣).

وقد أخذت اللغة العربية تجد طريقها بين أهل الذمة، حتى صارت الأغلبية منهم تجيدها قراءة وكتابة، وتتحدث بها في العصر الطولوني يدلنا على ذلك ما جاء في بعض الأوراق البردية، فهناك بردية مؤرخة في سنة ٢٧٤هـ / ٨٨٧م، وفيها أن احد القبط قد أدلى بشهادته، وجاء في هذه البردية: "إقرار دانيال بجميع ما في هذا الكتاب، بعد ان قرىء عليه حرفا حرفا، فأقر بفهمها ومعرفته بما فيه^(٤)".

على ان هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهى أن حركة التعريب في المجتمع المصرى لم تتعارض مع الاحتفاظ بالتقافات القديمة وبالأسماء القبطية.

فلدينا وثيقة عقد زواج، مؤرخة سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م، تبدأ بالبسملة: "هذا ما أصدق يحنس بن شنودة، الساكن مدينة أشمون دروا ابنت شنودة، الساكنة مدينة كذا،

١ - ابن المقفع: سير الأباء البطارقة، م ١، ج ٢ ص ص ١٩٧، ١٩٨.

٢ - الكندي: الولاء، ص ١٩٤، المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٤٩٤، حسن محمودة: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ١١٤.

٣ - عقد بيع (تاريخ) رقم ١٨٦٥ مؤرخ في شهر ذى القعدة سنة ٢٣٩هـ، الأسطر ٢٧-٢٩ مكتوبة باللغة القبطية، وقد كتب متن العقد ليسع بن عيسى. انظر: جروهمان: أوراق البردى، ج ١، ص ١٤٦-١٥٢.

٤ - جروهمان: أوراق البردى، ج ٢، ص ١٧٠.

عندما خطبها إلى نفسها، وهى امرأة أيم بالغ تلى "....." الله وحده لا شريك له وإحسان صحبتها ، وقد أوصل يحنس بن شنودة الدينرين^(١).

وفى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، أصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة لكل المصريين على السواء، من أسلم منهم ومن لم يسلم ويؤيد ذلك الحقائق الآتية:

- ظهور مؤلفات باللغة العربية لمؤلفين أقباط لم تعرف لهم مؤلفات بغير العربية، فقد كتب سعيد بن البطريق تاريخه المعروف باللغة العربية وهو من أقدم تواريخ الكنيسة المصرية، وله مؤلفات فى الرد على النساطرة واليعاقبة^(٢).

كما كتب معاصره ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين تاريخه بال لغة العربية، وهو المعروف باسم " سير البيعة المقدسة" أو "سير الإباء البطارقة"، وله عدة مؤلفات منها كتب دينية وأخرى فى التاريخ، وله رد على ابن البطريق (الملكانى) دفاعا عن اليعقوبية^(٣).

كذلك أوراق البردى الطيبة التى نشرها Chassiant تستعمل بكثرة مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية، وأحيانا بحروف عربية، لقد كتبها مؤلفون أقباط فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، استعملوا كلتا اللغتين القبطية والعربية، ولكن بشكل يجعلنا نقول أنهم كانوا على علم باللغة العربية أكثر من علمهم باللغة القبطية، وقد كانوا كثيرا ما يفضلون استعمال المصطلح العربى على مقابلة اليونانى أو القبطى^(٤).

كل هذه المؤلفات باللغة العربية مما يؤكد انتشار اللغة، وانتشار الإسلام من جهة أخرى.

١ - نفسه: أوراق البردى، جـ ١، طراز رقم (٤٠)، ص ص ٨٥، ٨٦.

٢ - شيخو: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، بيروت، ١٩٢٤، ص ٤، حسن محمود: انتشار الإسلام،

جـ ١، ص ١١٥، فييت: القاهرة، ص ص ٢٤، ٢٥، أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية، ص ٥٢،

عبد المنعم ماجد: تاريخ الدولة العربية، جـ ١، ص ص ٤٠، ٤١.

٣ - شيخو: مرجع سابق، ص ١٧ سيدة كاشف تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ص ٨ .

٤ - أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص ٥٣.

أما اليهود فقد استخدموا لغتين العربية، والعبرية^(١)، والواضح أن لغة الحياة اليومية كانت هي العربية، بينما ظلت العبرية مرتبطة إلى حد كبير بالنواحي الدينية، كما كان الشعر اليهودي في غالبيته، وقليل من النثر، يكتب بالعبرية، بينما كان معظم النثر وأقل الشعر يكتب بالعربية، وفيما عدا بعض التعبيرات العبرية الخاصة والمفردات التي وجدت طريقها إلى اللغة العربية، فقد استخدم اليهود العربية حتى في شروح التوراة والتعليق على التلمود بعكس يهود البلاد المسيحية الذين لم يستخدموا في كتاباتهم الدينية سوى العبرية، وفي رأى بعض الباحثين أن ذلك يرجع إلى أن الكتابة العربية آنذاك كانت هي الشيء الطبيعي والأقل جهداً، كما أن اللغة في المؤلفات العلمية لا تحمل مفهوماً أيديولوجياً كما هو الحال في الإبداع الفني مثل الشعر^(٢)، علماً بأن الأسباب المباشرة لتلك الظاهرة تكمن في حقيقة سيادة اللغة العربية في ذلك الحين.

وثمة دليل قوى على تسيد اللغة العربية بين يهود مصر في تلك الفترة هو أن ما ورد في وثائق الجنيزة كان عربياً، إلا أنه كتب بحروف عبرية أو على حد تعبير بعض الباحثين "بالعبرية اليهودية التي كانت لغة يهود مصر"^(٣).

ونسلم في ذلك الوقت عن بعض مشاهير المتقنين من اليهود مثل ما شا الله (١٥٤-٢٠٥هـ/٧٧٠-٨٢٠م) وهو فلكى مشهور يحتمل أن يكون مصرياً^(٤) ويمكن القول أنه حوالى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، كانت دراسة العبرية، والأدب العبري قد ازدهرت في مصر، مما مهد لظهور "سعديا الفيومي" أول من نقل التوراة من العبرانية إلى العربية، ووضع شروحا وتفسير عليها بالعربية،

١- انظر: اوراق الجنيزة فقد استخدم فيها لغتين العبرية والعربية. جوايتساين: دراسات في التاريخ الإسلامى، ص ص ١٥٠، ١٥١، توفيق سلطان: التعريب، ص ٥.

2- C.F: Ibrahim S. Halkine: The Arab Jewish literature "the jews" their history, Culture and Religion" Vol I. PP. 1116: 1146;

عطية القوصى: اليهود في ظل الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٧٨م، ص ١٢٧.

٣ - انظر: حسنين ربيع في كتابه:

Financial System of Egypt: PP. 3- 4,

وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانى الحجاز واليمن فى العصور الوسطى/

ج ٢، ط الرياض ١٩٧٩، ص ١٣١-١٤٤.

4 - Mann, J. : the jews in Egypt and palastine under the Fatimid Caliphs, V. 1, Oxford 1969, PP. 14 - 15.

ويعتبر أول فلاسفة اليهود الرباينين^(١) وهكذا أرسخت اللغة العربية، وأصبحت لغة المصريين جميعا عربا أو مصريين، وأصبحت الطابع المميز للثقافة الإسلامية في مصر زمن عصر الولاة^(٢).

مدرسة الفسطاط العربية نشأتها ونموها:

بعد استقرار العرب في مصر، واختطاط مدينة الفسطاط^(٣)، صارت المدينة إحدى المراكز العلمية في الدولة العربية الإسلامية^(٤).

وكانت بداية الحركة العلمية فيها مثل سائر مراكز الثقافة الإسلامية الأخرى، فقد بدأت دينية، لأن القرآن الكريم كان هو محور الحياة الدينية والدينية. وقد أجمع العلماء على فرض تعليم القرآن^(٥)، ولذلك كانت النهضة العلمية دينية في بدايتها تتمثل في علوم القرآن الكريم بمعناها الواسع مثل القرآن الكريم، وتفسيره والحديث وروايته، ثم الفقه، أو "استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والسنة النبوية، ثم علم قراءات القرآن الكريم^(٦).

وكانت المدينة مركز الإشعاع العلمي، وجامع عمرو بن العاص ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة واليه يلجأ الناس للاستفتاء، واليه يفتد الطلاب لتلقى العلوم، ومنه

١ - "الجاون سعديا" مصرى الموطن ينتسب الى مدينة الفيوم، وكان معاصرا لرأس الجالوت داوود بن زكى، وذلك فى خلافة المقتدر العباسى، وهناك خطابات وجدت فى الجنيزة للجاون سعديا أرسلها إلى مصر من بلدة سورا سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م تفيد تعيينه جاعونا على أكاديمتها. كذلك وجدت خطابات أرسلها إلى داخل مصر لبعض أصدقائه.

C.F: Mann : Texts and studies in Jewish history and literature, New York, 1972. PP 73- 75.

٢ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج١ ص ١١٥، انولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٢.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩١، أبى الفدا: المختصر، ج١، ص ص ١٦٣، ١٦٤، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٢٦، المقرئ: الخطط، ج١، ص ٢٨٦، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٩٩، ليو الأفرقي: وصف أفريقيا، ط الرياض ١٣٩٩هـ، ص ٥٨٦.

٤ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٣٨.

٥ - طائش كبرى زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم، تحقيق كامل بكري واخرون، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ج٢، ص ٢٥٩، صحيح البخارى، ج١، ص ٢٧.

٦ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ١٨٣.

يتخرج خيرة العلماء والفقهاء^(١).

وكان نواة الحركة العلمية في مدينة الفسطاط الصحابة الذين جاءوا مع جيش الفتح أو بعده، واستقروا بالمدينة بعد أن اختطوا مساكنهم حول المسجد الجامع^(٢).

ويشير ابن دقماق إلى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص أمير مصر يأمره أن يقرب دار ابن ملجم من المسجد ليعلم الناس القرآن والفقهاء ففعل عمرو^(٣).

وقد حظيت الفسطاط بعدد كبير من الصحابة^(٤) الذين نزلوا مصر معلمين^(٥).

النشاط الثقافي لدرسة الفسطاط:

العلوم الدينية:

تعتبر وثيقة عبد الله بن لهيعة (٩٧-١٧٤هـ/٧١٥-٧٩٠م) أقدم وثيقة إسلامية، تحوى بعض أسماء من الصحابة الذين استقروا في مصر، ابتداء من القرن،

١ - إذ كان المتقدمون يجلسون للعلم بالجامع العتيق، فإن فكرة بناء المدارس لم تحدث في الفسطاط إلا على يد بني أيوب، انظر: الفلقشندي: صبح الأعشى ج-٢، ص ٢٤٢، ٢٤٣، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٢٤٧ جاستون فييت: القاهرة، ص ٢٥.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٢، ٩٣، المقرئ: الخطط ج-٢ ص ٣٣٢، ابن أبياس: بدائع الزهور، ج-١، ص ٢٣.

٣ - ابن دقماق: الانتصار، ج-٤، ص ٦.

٤ - انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٢، ٩٣، وقد أفرد السيوطي أسماء هؤلاء الصحابة في فصل خاص، نقل معظمه من كتاب محمد بن الربيع الجيزي، وزاد عليه السيوطي. حسن المحاضرة، ج-١، ص ٩٩-١٤٠.

٥ - حدثنا علي بن سعيد قال: يا بن أبي عمر قال: أخبرنا سفيان بن عيينه عن إبراهيم بن ميسرة قال: سمعت مجاهدا يقول: صليت خلف مسلمة بن مخلد فقرأ بسورة البقرة، فما ترك ألفا ولا واوا، انظر الكندي: الولاة، ص ٣٩، وقد أثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله "إلا أني إنما أبعث عمالي ليعلموكم دينكم، ويعلموكم سنتكم، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ولا يأخذوا أموالكم".

الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٣٠، ٣١.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٥٠.

الأول الهجرى إلى أوائل القرن الثالث الهجرى، وهى سلسلة أحاديث بأسانيد كاملة^(١).

وعبد الله بن لهيعة يعود معظم الرواية إليه، فالحديث مساق إليه عن تلميذه عثمان بن صالح الذى توفى فى أوائل القرن الثالث الهجرى^(٢).

وبجانب عبدالله بن لهيعة، ظهر الليث بن سعد^(٣) (٩٤-١٧٥هـ/٧١٣-٧٩١م) وهو إمام الديار المصرية فى العلم والحديث، وتشير بعض المصادر إلى أن الليث بن سعد كان يضارع الإمام مالك، فقد أثر عن الإمام الشافعى قوله: "كان الليث أفه من مالك، إلا أن أصحابه ضيعوه"^(٤) "أى أن أصحابه الذين أخذوا عنه لم يدونوا مذهبه، وكان أجل تلاميذه عبدالله بن وهب، وعبدالله بن عبدالحكم وأولاده، إذا تفقهوا عليه، وعلى الإمام مالك، ولكنهم أثروا إظهار مذهب مالك"^(٥).

١ - Raif Georges khoury: "Abd Allah Ibn Lahia Juge et grand maitre de L'Ecole Egyptienne Avec édition de L'unique Rouleau de Papyrus conservé à Heidelberg. Wiesbaden (codices Arabici Antiqui Iv).

وثيقة عبد الله بن لهيعة التى وصلت إلينا وسلمت من الفناء طولها ١٨٩سم وهى مكتوبة على الوجه والظهر، وهى تحتوى على ٢٢٤ سطرا عربيا، لم ينشر منها إلى الآن الاسطر الإسناد الأول سنة ١٩٠٦، نشرة بيكر فى كتابه قرّة بن شريك، أنظر:

Carl Heinrich Becker: Papyri schott- Reinhardt in der universitäts- Bibliothek in Heidelberg. L. Heidelberg 1906, Arabische Papyri des Aphroditas fundes In: Zeitschrift für Assyriologie, 206. 1907, 68- 104.

٢ - عبد الله بن لهيعة. هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عتبة بن لهيعة الحضرمى الغافقى المصرى، كان مكثرا من الحديث والايثار والرواية، وكان أبو جعفر المنصور قد ولاد القضاء بمصر ١٥٥هـ/٧٧٢م، وصرف عنها فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وهو أول قاضى حضر لنظر هلال شهر رمضان، أنظر:

أحاديث ابن لهيعة. ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص ٢٥٧، ٢٥٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص ص ٣٨، ٣٩.

٣ - الليث بن سعد: أبو الحارث الليث بن سعد عبد الرحمن إمام أهل مصر فى الفقه والحديث، كان مولى قيس بن رفاعه، وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى، وهناك اختلاف عن أصل موطنه، فقيل من أصبهان، وقيل من قلقيسندة، وهى قرية من الوجه البحرى بالقاهرة، بينها وبين القاهرة مقدار ثلاثة فراسخ، لنظر الكندى: الولاة، صفحات ٨٩، ٩٠، ١٢٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ص ١٢٧- ١٢٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٢، ص ٢٦، ابن لياس: بدائع الزهور، ج١، ص ١٢٨.

٤ - ابن قيم الجزوية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ط الثانية، القاهرة ١٩٥٥، ص ٧٢-٧٥.

٥ - الشيرازى: طبقات الفقهاء، بغداد، المكتبة العربية ١٣٥٦هـ- ص ٥٧، للنووى: تهذيب الأسماء واللغات، القاهرة، القسم الأول، ج٢، ص ٧٤، ابن فرحون: الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب، ط الأولى، مصر ١٣٥١هـ، ص ١٢٢-١٢٤، ابن حجر: الرحمة الغيثية بالترجمة لليثية، القاهرة ١٣٠١هـ، ص ٦.

يقول يحيى بن بكير: "الليث أفقه من مالك، لكن الخطوة كانت لمالك"^(١) ومما يدل على عظم مكانة الليث بين تلاميذه.. ان رجلا قال أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب: بل كان يسمع الليث يجيب فيجب هو، والله الذي لا اله إلا هو ما رأينا أحدا قط أفقه من الليث"^(٢).

وكان لجهود الليث بن سعد العلمية أثر كبير في قيام نهضة فقهية كان هو على رأسها^(٣)، فقد كان كبير الديار المصرية وعالمها الأنبل، حتى ان نائب مصر وقاضيه، إذا رابه من أحد أمر كاتب فيه الخليفة فيعزله، وقد طلب منه المنصور أن يعمل نيابة الملك فامتنع^(٤).

كذلك تشير الوثيقة إلى أن عبد الله بن وهب^(٥) (١٢٥-١٩٧/٧٤٣-٨١٢م) صاحب كتاب (الجامع في الحديث، وأحد اعلام المدرسة المالكية.

هكذا يتثنى ان كلا من عبد الله بن لهيعة، وصديقه الليث بن سعد، احتلا مكانة رفيعة بين علماء وفقهاء العصر، فقد وضعوا أساس المدرسة المصرية في الحديث والتاريخ، فأليهما يرجع الفضل الأول في جمع التراث المنسوب للصحابية والتابعين وتابعى التابعين، ولتلامذتهما من بعدهما عبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك خاصة، فكل ما صنفاه من الكتب في الحديث والتاريخ فقد أغلبه، فلم يبق إلا ما حفظته كتب العصور اللاحقة لهما.

١ - ابن حجر: المصدر نفسه، ص ٦.

٢ - نفسه، ص ٩؛ الأفضل أبو الربيع بن علي: شيوخ ابن وهب وأخباره، ميكرو فيلم بمعهد المخطوطات، رقم ٦٢١ تاريخ، ورقة ١٩ب.

٣ - انظر أهمية الليث بن سعد في بعض المصادر القديمة، وخاصة في بردية ابن لهيعة: C.F: Al-Layth Ibn Saed (94/713-175/791), grand maitre et mécène de L'Egypte, vu à travers quelques documents islamiques anciens. In journal of Near Eastern studies 40 (1981) (Arabic and Islamic studies in Honor of Nabia Abbott. Part one) 189- 202.

٤ - الذهبي: تذكرة الحفاظ، ط حيدر آباد الهند، ١٢٢٣هـ، ج ١، ص ٢٨٠، ٢٨١، أحمد أمين: فجر الإسلام، ج ١، ص ١٩١.

٥ - هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم، القرشي بالولاء الفقيه المالكي المصري مولى ربحانه مولاة أبي عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهرى، كان أجد ائمة عصره، وصحب الإمام مالك بن أنس عشرين سنة، وصنف "الموطأ الكبير والموطأ الصغير"، وقال مالك في حقه عبد الله بن وهب إمام. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٦، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ٣٩، ٤٠، انظر كذلك بردية ابن وهب في الحديث.

David-Well: Le Djami 'd' Ibn Wahb. Le Caire (Publications de L' Institut Francais d' Archeologie Orientale du Caire), 1939-1948.

وليس من قبيل الصدفة أن مؤلفي هذه النصوص القديمة مرتبطون بصورة أو بأخرى بعضهم ببعض، فمصر لم تكن فقط بلد ورق البردي^(١) الذي دونت عليه تلك المؤلفات القديمة، بل أصبحت ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، حلقة وصل بين العالم الإسلامي في الشرق وبين المغرب والأندلس، ومحط رجال عدد كبير من العلماء المسلمين، فأصبحت كتب وهب بن منبه يرويها راوي مصري^(٢) أخذها عن بعض أفراد عائلة القاضي اليمنى بطريقة أو بأخرى، وعائلة أبي رفاعه وأبيه وثيمه أصلها من بلاد فارس، وكان وثيمه - المؤلف الأول لكتاب البدء وقصص الأنبياء. أتى من بلاد فارس، وسكن الفسطاط حيث قادة البحث عن الكتب القديمة في هذا المجال من التاريخ، إلى ما تركه وهب بن منبه أو صنفه من بعده أحد أفراد أسرته، وقد وصلنا منه بعض الشيء في بردية حديث داوود^(٣).

وأما مؤلف كتاب الزهد أسد بن موسى (١٣٢-٢١٢هـ/٧٥٠-٨٢٧م) الأموي الأصل - فجاء أيضا هاربا من اضطهاد العباسيين متكرا إلى الفسطاط أيضا، وزار الليث بن سعد وتلمذ على عبد الله بن لهيعة^(٤).

١ - انظر: الثعالبي: اللطائف ومحاضرات الأوائل ومسامرات الأواخر، ط بولاق ١٨٨٣، ص ٣٩، عبد المنعم ماجد، علم البردي العربي، بحث منشور في ندوة الدراسات البردية - جامعة عين شمس ١٩٨٢، حسن رجب: البردي، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م، ص ٩، ولیم نظیر: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص ١١٠، محمد الصغير: البردي واللوتس في الحضارة المصرية القديمة، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ص ٦.

٢ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ٣٥، ٣٦.

٣ - في حديث داوود، انظر: كتاب وهب بن منبه:

Khury (R. G): Wahb. B. Munabbih.

I.: Der Heidelberger papyrus Heid Arab 23. Leben und werk des Dichters Wiesbaden "Codices Arabici Antiqui 1" 1972, 23- 115.

٤ - أسد السنة: أسد بن موسى بن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم القرشي الذي ولد بمصر سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، اشتهر برواية الحديث بالفسطاط، وبسبب اهتمامه بالحديث اكتسب اسمه من هذه الخاصية، فأصبح مشهورا بين العلماء بأسد السنة. انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٦٢، ابن حجر: تهذيب التهذيب، ط بيروت، ١٣٢٥هـ، ج ١، ص ٢٦٠.

Khoury (R. G): Asad. B. Musa (132-212/750-827): kitabaz- Zuhd. Nouvelle edition revue, corrigée et Augmentée de tous les certificats de Lecture d'après les deux Copies de Berlinet de Damos. Avec étude Sur L'auteur. Wiesbaden. (Codices Arabici Antiqui 11) 1976.

وكان لابن لهيعة مكتبة في بيته جمع فيها الكتب، وكان يتردد عليها أئمة الفكر المصري في ذلك العصر مثل عبدالله بن وهب^(١)، وعبد الله بن المبارك^(٢) وآخرون.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص مؤسس مدرسة مصر الدينية^(٣)، قد أخذ عنه المصريون أكثر من مائة حديث^(٤)، وقد حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل^(٥) - وبفضله انفردت مدرسة القسطنطين التي اتخذ فيها دار له^(٦)، بأول صحيفة مدونة في التفسير في عصر كان فيه التدوين مشحوبا بالكثير من الغموض^(٧).

١ - وصلتنا لعبد الله بن وهب بردية عظيمة تعتبر أطول ما بين أيدينا من هذا النوع على ورق البردي،

وهي جامع ابن وهب في الحديث. نشر المستشرق الفرنسي J. David Well

Le Djami "d" Ibn wahb - Le Caire publications de L' Institut Francais d' Archeologie orientale du caire) 1939 - 1948.

٢ - عبد الله بن المبارك: هو مولى لبنى تميم، ثم لبنى حنيفة، وكنيته أبو عبد الرحمن. قال الشيرازي: تفقه بمالك والثوري. وكان أولا من أصحاب أبي حنيفة، ثم تركه، ورجع عن مذهبه، وقد روى في حياته أكثر من خمسة وعشرين ألف حديث، أنظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج٣، الرباط، ص ٣٦ - ٤٥.

٣ - السيوطي: طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، ط القاهرة ١٩٧٣، ص ١٠، سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٣١٥، أحمد أمين: فجر الإسلام، ج١، ص ١٩٠.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٥٤، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج١، ص ٢٩.

٥ - ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٢ ط القاهرة، ص ٩٥٧، ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة ١٩٣٨، ج٢، ص ٣٤٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، القاهرة ١٩٦٢، ج٣، ص ٥٧.

٦ - ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٦.

٧ - في البداية كان الاهتمام بتدوين القرآن الكريم وعدم الانشغال بغيره ضمانا لعدم الخطأ أو الخلط فلما تم ذلك جاء الاهتمام بتجميع الأحاديث ومن بعد ذلك غيره، أنظر: ابن عبد البر: مختصر جامع ييلن العلم وفضله، القاهرة، ص ٣٤، ٣٥، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استنبول ١٩٤١، ج١، ص ٢٥، ابن قتيبة: المعارف، ط دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١١٦، أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، بيروت ١٩٥٤، ص ٤٢، ٤٥.

وكان السبب المباشر للتدوين هو الخوف من ذهاب العلم بوفاة السرواة، وأول من نبه إلى ذلك أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز: "فقد أمر واليه بالمدينة أبا بكر بن عمر وابن حزم بالنظر إلى ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكتبه لخوفه من دروس العلم وذهاب العلماء..... وأمر ولاته ان يفشوا العلم، واجلسوا حتى يعلم من لا يعلم. فان العلم ليهلك حتى يكون سرا^(١)."

على أن التدوين بالمعنى الحقيقي ابتداء بتدوين الحديث، فكان أول من دون العلم محمد بن شهاب الزهري المتوفى ١٢٤هـ/٧٤١م^(٢)، ثم شاع أمر التدوين في الأمصار الإسلامية قبيل منتصف المائة الثانية من الهجرة، وقد اشترك بعض أعلام المدرسة الدينية بمدينة القسطنطين في تلك الحركة التي كان لها أثر بعيد في حفظ العلم^(٣)، وشيوع المؤلفات العلمية في الأمصار الإسلامية بعد ان كان العلماء يقتصرون على الحفظ، فكان أول من صنف ويوب سعيد بن عروبة المتوفى سنة ١٥٥هـ/٧٧١م، والربيع بن صبيح المتوفى بالبصرة سنة ١٦٠هـ، ومعمار بن راشد الصنعاني المتوفى سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م باليمن^(٤).

وبعد ذلك صنف خثيم، والليث بن سعد، وعبدالله بن لهيعة، ثم ابن المبارك، وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه^(٥).

وكان لجهود علماء مدينة القسطنطين مثل ابن وهب والليث بن سعد وابن لهيعة أثر بعيد في المساهمة في الحركة العملية "فقد كان ابن وهب يفوق بتصنيفه جماعة من الفقهاء المصنفين، وله من تصنيفه نحو مائه جزء"^(٦).

١ - البخاري: الصحيح - كتاب العلم، جـ ١، ص ٣٦.

٢ - ابن قتيبة: المعارف، ص ٤٨٨ الغزالي: أحياء علوم الدين، ط بولاق، جـ ١، ص ٧٩، ابن عبد البر: مختصر جامع بيان العلم، ص ٢٧.

٣ - المقرئ: الخطوط، جـ ٢، ص ٣٣٢.

٤ - الغزالي: أحياء علوم الدين، ط القاهرة ١٣٥٦هـ، جـ ١، ص ٣٩، المقرئ: الخطوط، جـ ٢، ص ٣٣٢، حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ ١، ص ٨٠.

٥ - السيوطي: تاريخ الخلفاء، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٢٦١.

٦ - محمد مصطفى الماحي، وآخرون: شعراء مصر من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الفاطمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ١٣.

وكان لشيوع تلك المصنفات أثر في ظهور طريقة أخرى للتحصيل والدراسة وهي طريقة الإملاء التي كانت أعلى مراتب التعليم في مدرسة القسطنطينية، فكثيرا ما كان المتكلمون واللغويون في القرن الثالث الهجري يتبعون طريقة الإملاء وكانت مجموعة الدروس التي تلقى بطريقة الإملاء تسمى الإمالي^(١)، فكان الربيع بن سليمان أول من أملى الحديث بجامع أحمد بن طولون^(٢).

وكان للعلوم التي سادت في الفترة المبكرة من تاريخ الحياة العلمية في مدينة القسطنطينية طابع مميز انعدم معه التخصص، فكان العالم الواحد يجمع بين أنواع مختلفة بين صنوف العلم، فلم يكن هناك من تخصص في الفقه فحسب أو الحديث أو التاريخ، بل كان العالم يلم بفروع مختلفة من العلوم^(٣).

فكانت حلقة الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م بالمسجد الجامع بمدينة القسطنطينية - تدور على كثير من العلوم العربية " فكان يبدأ حلقاته بدروس القرآن، ثم يأتي إليه طلاب الحديث، وفي الضحى تدور حلقاته حول علوم اللغة والعروض والشعر والنحو^(٤).

وقد بدأت دعوة التخصص بين العلماء منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، يقول ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م): "من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا، ومن أراد أن يكون أديبا فليوسع في العلوم وأن يأخذ من كل شيء أحسنه"^(٥).

١ - السيوطي: المزهري في علوم اللغة، ج٢، ص ١٩٩.

٢ - نفسه، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٧.

3- C. F: Ency. of Isl. art. "Masdjid". Vol. 3, P. 365.

٤ - ياقوت: معجم الأديباء، القاهرة ١٩٣٨م، ج١٧، ص ٢٩٩-٣٠١، ابن حجر: توالي التأسيس بمعالي

ابن إبريس، بولاق ١٣٠١هـ ص ٦٢، النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ق ١، ص ٤٩، ٥٠، ابن

خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص ٣٠٥.

٥ - ابن قتيبة: المعارف، ص ٣٧٥، ابن عبر البر: جامع بيان العلم، ج١، ص ١٣٠، ابن جماعة: تنكرة

السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، الهند، ١٣٥٣هـ ص ١٢، ١٤.

وقال يوسف بن عدى (المتوفى سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦ م، "أدركت الناس فقيها غير محدث، ومحدث غير فقيه، خلا عبد الله بن وهب، فأنى رأيت فقيها محدثا، زاهدا صاحب سنة وأثار"^(١).

وهكذا ظهر التخصص عند العلماء ، فقد خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعة من العلوم الدنيوية.

وقد كان للعلوم الدينية المنهج العلمى السليم الذى يؤدى إلى ضبط وتحقيق ما يتم تصنيفه، فهناك الجرح والتعديل وهناك الإسناد كما هو متبع فى علم الحديث^(٢). وقد اهتمت الدراسات العلمية ، بالفسطاط بدراسة القرآن وحفظه ما يتصل به من علوم، وبذلك تهيأت السبل أمام دارس القرآن والتفسير. فبالإضافة إلى تشجيع الولاة، وأولى الأمر، كانت هذه الدروس تلقى على الطلبة الراغبين فيه دون مقابل، لأن العلماء الدينين كانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على القرآن أجرا^(٣).

تأثر مدرسة الفسطاط بالمذاهب الفقهية الأربعة:

تأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى، ففى ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية، وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والأدباء والشعراء، وإقبال نخبة من العلماء على تعريب الكتب الأجنبية ودراساتها^(٤)، فكان سيبويه المصرى يتمثل بأقوال فلاسفة الإغريق^(٥).

المدرسة الحنيفة :

نشأت فى العصر العباسى مذاهب لم يشتهر بعضها، ولا يزال بعضها الآخر قائما حتى اليوم، واهم المذاهب التى ذاعت فى العصر العباسى المذاهب الأربعة

١ - ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٢٣.

٢ - عبد المنعم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى ، ط الثالثة، الأنجلو المصرية، ١٩٧١، ص ٦٥.

٣ - ابن قتيبة: المعارف، ص ١٧٥، ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص ١٢، ١٤، طاش كبرى زاده:

مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٣١، الخربوطلى: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٨٤.

٤ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٠٥، سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص ٣٢.

٥ - ابن زولاق: اخبار سيبويه المصرى، ط الأولى، القاهرة ١٩٣٣، ص ٥.

وأقدمها مذهب الإمام أبي حنيفة^(١) إذ يعد صاحبه أمام أهل الرأي والقياس^(٢). وكان المذهب الحنفي مختصا بأهل العراق، وقد احتضنت هذا المذهب دار الخلافة ببغداد، وتوازره وتعضده، يقول المقرئزي: "قلما قام هارون الرشيد في الخلافة وولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبي حنيفة بعد سنة سبعين ومائة، فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضي أبو يوسف وأعتنى به"^(٣)، وكان أهل مصر لا يعرفون هذا المذهب حتى ولي قضاؤها إسماعيل بن اليسع الكوفي من قبل الخليفة العباسي المهدي سنة ١٦٤هـ/٧٨١م فكان أول قاضي حنفي بمصر، وأول من أدخل إليها مذهب أبي حنيفة^(٤).

ومن أشهر من تولى القضاء بمصر على مذهب أبي حنيفة القاضي بكار بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠هـ، والذي كان له باع طويل في الفقه والحديث، وولى من قبل المتوكل سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م، وكانت مدة ولايته أربعة وعشرون سنة^(٥). كذلك من فقهاء الحنيفية بمصر أبو جعفر الطحاوي المصري (٢٣٧هـ-٣٢١هـ/٨٥١-٩٣٣م)، إذ كان حنفيا، يتفقه على مذهب أهل العراق، وكان أوحده زمانه علما وزهدا، ويعتبر إمام المصريين في المذهب الحنفي لكثرة تلاميذه، وخصب إنتاجه، وقد انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر^(٦).

١ - الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص ٥٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٢، صفحات ١٢، ١٣، ١٤، ١٥.

٢ - وقد ولد الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠هـ، وقيل سنة ٦١هـ، وتوفي ببغداد سنة ١٥٠هـ. انظر: الشيرازي: المصدر السابق، ص ٥٧، القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج ١، ص ٩٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤٠٥.

٣ - المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٣.

٤ - الكندي: الولاية والقضاء وزيل قضاء مصر، ص ٥٠١، المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٣٤، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ٦١، ٦٢.

٥ - الكندي: الولاية والقضاء، ص ٤٨٥، ملحق قضاء مصر، ص ٥٠٥، ٥١٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٨٠، ٢٨١.

٦ - الذهبي: العبر في خبر من غير، تحقيق فؤاد سيد، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، ج ١، ١٩٦٠، ص ١٨٦.

ورغم إيثار الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفي إلا أن قضاة مصر في العصر العباسي لم يكونوا كلهم ممن يتبعون هذا المذهب^(١).

المدرسة المالكية بالفسطاط :

اشتهر المذهب المالكي لتوفر أصحاب مالك بمصر^(٢)، ويعد ثاني المذاهب الأربعة في القدم، ويمتاز مذهبه باعتقاده، على الحديث أكثر من أبي حنيفة، ويذكر للإمام مالك أنه كتب بيده حوالي مائة ألف حديث^(٣)، ولهذا يقال لأصحابه أهل الحديث^(٤).

يقول المقرئزي: "أن أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى، مولى جمح، وكان فقيها.. روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد، وتوفي بالإسكندرية سنة ثلاث وستين ومائة، ثم نشرة بمصر عبد الرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب مالك بمصر، لتوفر أصحاب مالك بمصر، ولم يكن مذهب أبي حنيفة يعرف بمصر^(٥).

ولكن ابن فرحون يشير إلى أن أول من أدخل علم مالك بمصر هو عثمان بن الحكم الجذامي، فهو من أصحاب مالك، يروى عن مالك وموسى بن عقبة، وابن جريح، وروى عنه ابن وهب، وتوفي سنة ١٦٣هـ^(٦).

١ - الكندي: الولاة والقضاة، ص ٣٨٣، ٣٩٣، محمد كامل حسين: مرجع سابق، ص ٦٢، ٦٣ سيدة كاشف: مرجع سابق، ص ٣٢٦.

٢ - ينسب المذهب المالكي إلى الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحموي المنفي. شيخ الأئمة وإمام دار الهجرة، الذي ولد سنة ٩٢هـ، وتوفي سنة ١٧٩هـ بالمنية المنورة. انظر: المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٣٤. وانظر كذلك: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج ١ ص ١٠٤-١١٣، ابن كثير: البداية والنهاية، ط مصر ١٩٣٢. ج ١٠، ص ١٧٤، للذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٠٧، وأيضا: العبر، ج ١، ص ١٧٤، للذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٠٧، وأيضا العبر: ج ١، ص ٢٧٢، ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٥، ابن فرحون: الديباج للمذهب ص ١٧، ١٨، محمود مصطفى: الألب العربي في مصر، القاهرة ١٩١٧، ص ٨٧، أحمد أمين: فجر الإسلام، ج ١، ص ٢٤٧.

٣ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج ١ ص ١٣٣.

٤ - أحمد تيمور: نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة، القاهرة ١٣٥١هـ، ص ١٩.

٥ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج ١ ص ١١٤، المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٣٤.

٦ - ابن فرحون: الديباج للمذهب، ص ١٨٧، ١٨٨.

ومن تلاميذ مالك الذين كان لهم دور في نشر مذهبه "عبد الله بن وهب بن مسلم الفهرى، المتوفى بمصر سنة ١٩٧هـ/٨١٢م^(١).

وقد كانت لابن وهب شهرة علمية فائقة، فقد جمع بين الفقه والحديث والعبادة^(٢)، وانتقل إلى المدينة المنورة سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وتلمذ على الإمام مالك، وقال: "صحبت مالكا عشرين سنة، وقالوا: لم يكتب مالك بالفقه لأحد إلا إلى ابن وهب وكان يكتب إليه"^(٣).

وكان أبرز أصحاب مالك الذين وضعوا الشروح والتعليقات على مدوناته عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقى^(٤) الذى ولد سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م، وكان عريفا للعتقاء بمصر فنسب إليهم، وقد ابتدأ حياته العلمية بمصر متلمذا على بعض أعلام المدرسة المالكية بها مثل عثمان بن الحكم الجذامى، وعبد الحكم بن أعين، الليث بن سعد^(٥).

وكذلك من تلاميذ الإمام مالك بمصر أشهب^(٦) "أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داوود بن إبراهيم القيس ثم الجعدى الفقيه المالكى المصرى، تفقه على الإمام مالك، ثم على المدنيين والمصريين. قال الإمام الشافعى ما رأيت أفقه من أشهب لو لا طيش فيه، وكانت المناقسة بينه وبين ابن القاسم، وانتهت الرئاسة إليه بمصر بعد ابن القاسم"^(٧).

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ ص ٣٦، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٣٢، الذهبى: ميزان الاعتدال، القاهرة ١٣٢٥هـ، ص ٥٥٢، وأيضا: تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٢٠٤.

٢ - الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٢٠٤.

٣ - ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٤١، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٣٢.

٤ - الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٣٥٦، ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٧١، ابن فرحون: المصدر السابق، ص ١٤٦.

٥ - وينسب عبد الرحمن إلى جماعة العتقاء، وهم قبائل كانوا يقطعون الطريق على النبى صلى الله عليه وسلم ومن يأتى إليه، فبعث الرسول إليهم فاتى بهم أسرى فاعتقهم فقبل لهم العتقاء.

انظر: ابن فرحون: الديباج، ص ١٤٧، ومحمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ٤٤.

٦ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٣٨، الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٣٥٦، ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج ٦ ص ٧١، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ٢٤٧.

٧ - الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٧٨، ابن فرحون: الديباج، ص ٩٩.

وانتهت رئاسة المالكية بمصر بعد وفاة أشهب إلى بنى عبدالحكم" وهم أسرة
اشتهرت بالمال والجاه العريض ما لم يبلغه أحد^(١).

المدرسة الشافعية وأثرها في قيام الحركة العلمية بمدينة الفسطاط:

لم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم الشافعي^(٢) محمد بن إدريس إلى
مصر مع عبد الله بن العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن
العباس في سنة ثمان وتسعين ومائه^(٣) في عهد والى مصر العباس بن موسى
العباسي، وتولى نشر مذهبه في الفسطاط بنفسه^(٤)، وكانت فترة بقائه بمصر أربع
سنوات إلى حين وفاته ٢٠٤هـ/٨١٩م^(٥).

وكانت حلقة الشافعي العلمية مكانها الذي اشتهر بها في جامع عمرو^(٦) وتسمى
"زاوية الخشابية" فيما بعد.

ومن اخلص تلاميذه، أبو محمد بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي
بالولاء المؤذن المصري، فهو صاحب الإمام الشافعي، وقد روى أكثر كتبه، وقال
الشافعي في حقه "الربيع روايتي، وقال ما خدمني احد ماخدمني الربيع، وكان يقول

١ - ابن خلكان: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٤، ٣٥، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٢٤،
محمد كامل حسين: أئمة مصر الإسلامية، ص ٤٤.

٢ - الإمام الشافعي صاحب المذهب المقرون باسمه وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن
عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، القرشي المطلبى
الشافعي، نزيل مصر المولود سنة خمسين ومائة بغزة ببلاد الشام، وصل إلى مكة فسكنها ثم تردد على
الحجاز والعراق وغيرها، حتى استقر به المقام الأخير بمصر، أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان،
جـ ٤، ص ١٦٢، الذهبي: تذكرة الحفاظ، جـ ١، ص ٣٦١، ابن حجر: تهذيب التهذيب، جـ ٩، ص ٣٥،
العبر، جـ ١، ص ٣٤٣، محمد مصطفى الماحي، شعراء مصر، ص ١٢.

٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ١٦٢، المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٢، ابن تغرى
بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ١٧٦، ١٧٧، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ١٤٢،
محمود مصطفى: الأدب العربي في مصر، ص ٨٩.

٤ - ابن حجر: تولى التأسيس، القاهرة ١٣٠١هـ، ص ٧٧.

٥ - الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٥٣، ١٥٤، المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٢، ابن الوردي:
تنمة المختصر، جـ ١، ص ٢٢٢.

٦ - المقرئ: الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٢، ابن دقماق: الانتصار، جـ ٤، ص ٩١.

له: ياربيع لو أمكننى أن أطعمك العلم لأطعمتك، وهو آخر من روى عن الشافعى بمصر^(١).

لقد أثر الشافعى فى مدرسة الفسطاط فقها وعلماء، وكان مجلسه حافلا بمختلف فروع العلوم والآداب العربية الإسلامية، وذلك لجمعه علوم متعددة مثل اللغة والنحو والعروض إلى جانب الحديث والفقه والتفسير التى كان قد بلغ فيها شأنا عظيما^(٢). إن المدرسة الشافعية استطاعت أن تنافس المدرسة المالكية بمصر، وقد هيات الشافعية جوا جديدا فى العلم لم تعهده مصر من قبل، إذ استطاعت ان تناقش المذاهب الأخرى وان تناظرها ، فابتدأت أذهان المصريين تتنبه لهذه المجادلات العنيفة والمناظرات العلمية^(٣).

وتوفى الإمام الشافعى فى مصر فى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م بمصر عند عبد الله بن عبد الحكم ودفنه بنو عبد الحكم فى قبورهم، وظلت هذه المقبرة موضع تكريم، حتى عنى صلاح الدين بنشر مذهبه^(٤).

وقد سار مريديه على نفس منهجه، ومن أبرزهم بمصر "البويطى" يوسف بن يحيى ويكنى أبا يعقوب يوسف بن يحيى القرشى - أبو يعقوب البويطى المصرى

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٩١، ٢٩٢، ابن حجر: توالى التأسيس، ص ٤٢، السبكي: طبقات الشافعية، ج ٢، القاهرة ١٣٢٤هـ، ص ١٣٢، الشيرازى: طبقات الفقهاء، ص ٧٩.

٢ - اثر عن الشافعى قوله: "من حفظ القرآن نيل قدره، ومن تفقه عظمت قيمته ومن حفظ الحديث قويته حجتة، ومن حفظ العربية والشعر رق طبعة" أنظر: ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ٢٢٩، السبكي، طبقات الشافعية، ج ١ ص ٢٤١، ابن الوردى: تنمة المختصر، ص ٣٢٢، ومما يذكر فى مجالس العلم التى كان يعقدها الشافعى عقب صلاة الصبح "إذا طلعت الشمس ختم دروسه فى علوم القرآن، وابتدأ درس الحديث فإذا ارتفعت الشمس أنهى دروس الحديث وجلس للمناظرة، واستقبال طلاب الفتوى، فإذا ارتفع الضحى، انصرف هؤلاء وتفرغ لمجلسه الأدبى ليحضر إليه أهل العربية أو العروض والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار" أنظر: ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ج ١٧، القاهرة ١٩٣٨، ص ٣٠٣، ابن حجر: توالى التأسيس، ص ٦٢، النووى: تهذيب الأسماء واللغات، ج ١ ص ٤٩، ٥٠.

٣ - ابن خلدون: المقدمة، الفصل الثامن، ٤٥٦، ٤٥٧، ابن الوردى: تنمة المختصر، ص ٣٢٢، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ٥٢، ٥٣.

٤ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٦٥، ابن الزيات: الكواكب السائرة، القاهرة ١٩٥٧، ص ٢١٣، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ٢٢٩، محمود مصطفى: الأدب العربى فى مصر، ص ٩١.

الفقيه، "وكان من أصحاب الشافعي رضي الله عنه والخليفة بعده في الحلقة ، وكان صالحا متعبدا زاهدا^(١)".

كذلك من تلاميذ الشافعي في مصر الإمام المزني- أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني- صاحب الإمام الشافعي، وهو من أهل مصر وكان زاهدا^(٢).

مدرسة الحنابلة

كان المذهب الحنبلي رابع مذهب أهل السنة والجماعة التي انتشرت في العالم الإسلامي^(٣)، ولم تكن في مدينة الفسطاط في عصر الولاة مدرسة خاصة بالفقهاء الحنابلة على غرار المذاهب الأخرى، ويرجع هذا إلى قلة الفقهاء الحنابلة بالديار المصرية ، وعدم انتشار هذا المذهب بمصر إلا في القرن السابع الهجري وما بعده، وذلك لان الإمام "أحمد بن حنبل، كان في القرن الثالث ، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع^(٤)".

هكذا نرى أنه أصبح بمصر في ذلك العهد مذهبان يتعادلان هما المالكي والشافعي في فترة عصر الولاة.

ذو النون المصري والتصوف في مصر:

ومن الجوانب الفكرية التي شهدتها مدينة الفسطاط ظهور علم التصوف الذي بدأ في فترة مبكرة، يقول السيوطي: "سليم بن عتر بن حجيره التجيبي المصري- قاض مصر وناسكها من الطبقة الأولى من التابعين، شهد خطبه عمرو بالجاييه، وكان يسمى بالناسك لكثرة فضله وشدة عبادته^(٥)".

١ - ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج٩ ص٤٢٧، السبكي: طبقات الشافعية، ج١ ص٢٧٦، الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٧٩.

٢ - ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص٦٦، ابن حجر: توالي التأسيس، ص٤٠، محمود مصطفى: الأدب العربي في مصر، ص٩٣، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص٥٦، ص٥٧.

٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٦٢، ٦٤ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج١ ص٤٣١، ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج١، ص٧٢، الشيرازي: طبقات الفقهاء، ص٩١، محمود مصطفى: الأدب العربي في مصر ص ٩٨.

٤ - ابن خلدون: المقدمة، فصل علم الفقه وما يتبعه من فرائض، ص٤٨٨، محمود مصطفى: مرجع سابق، ص٩٨.

٥ - السيوطي: حسن المحاضرة، در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة ج١، ص٢١٨.

والحياة الصوفية بمدينة الفسطاط، أصبح لها نظامها وتعاليمها وتقاليدها الخاصة بفضل أحد الزهاد من مدينة اخميم "مواطن أهل الحكمة والمعرفة وهو ذو النون المصري الأخميمي^(١) - أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم وقيل الفيض بن إبراهيم المصري، المعروف بذي النون - أحد رجال الطبقة الثالثة^(٢)".

يقول نيكلسون أن ذا النون المصري أول من وضع الأسس الأولى للصوفية في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية^(٣)، "وقد كان ذو النون أوجد وقته علما وورعا وحالا وأدبا^(٤)".

ولم ينفصل ذو النون عن المناخ العلمي السائد في عصره، فكان له نظر في العلوم الدينية، فقد اشتغل في أول أمره بعلم الحديث، "فهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك^(٥)".

انصرف ذو النون عن الاشتغال بعلوم الحديث، ويبدو أن سلوك أهل الحديث لم يرق إلى ما تصبوا إليه نفسيته الزاهدة، فقد سئل عن سبب تركه الاشتغال بالحديث فقال: "للحديث رجال وشغلى بنفسى استغرق وقتى والحديث عن أركان الدين ولولا نقص دخل على أهل الحديث والفقهاء لكانوا أفضل الناس في زمانهم، إلا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون به دنياهم فحجبوهم واستكبروا عليهم، وافتتوا لما رأوا حرص أهل العلم والمتفقيين عليها، فخانوا الله ورسوله، وصار ثم كل من تبعهم في عنقهم، جعلوا العلم فخا للدين وسلاحا يكسونها به بعد أن كان سراجا للدين يستضاء به^(٦)".

١ - السلمى: طبقات الصوفية، ط الأولى، مصر ١٩٥٣م، ص ١٥، أبو نعيم الاصبهاني: حلية الأولياء، ط القاهرة ١٩٢٨م، ج ٩، ص ٢٣١، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٥، ٣١٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٢٠، السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢١٨، ابن الجوزى: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢٢٨.

٢ - حول أصله قال أبو عمر الكندى في كتاب أعيان الموالى، ومنهم ذو النون المصري بن إبراهيم الأخميمى، كان أبو إبراهيم عبدا نوبيا. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٥، ٣١٦، ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص ٢٢٨، ابن لياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٥٣.

٣ - نيكلسون: في التصوف الإسلامى وتاريخه، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١١٢.

٤ - السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢١٨.

٥ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٥.

٦ - الشعرانى: الطبقات الكبرى المسماء "بلوائح الأنوار في طبقات الأخبار، القاهرة ١٢٩٦هـ، ج ١، ص ٧٠، ١٤٩، السمعانى: انساب العرب، ليدن ١٩١٢، ص ٣٢٤، ٣٢٥.

يقول أبو المحاسن أن "ذو النون المصري كان أول من تكلم في الأحوال ومقامات أهل الولاية، وأنه انتقل إلى القسطنطينية وكانت له بها مجالس علم^(١)" وقد بدأت خصومة الفقهاء للصوفية تشتد وخاصة في خلال محاكمة ذي النون المصري الذي كانت أراؤه موضع نقد الفقهاء فاتهموه بالزندقة وأنكر عليه أهل مصر ذلك، أي أقواله الفلسفية في التصوف "وقالوا: أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة، وسعوا به إلى الخليفة العباسي المتوكل على الله، ورموه عنده بالزندقة، وأحضر من مصر على البريد فلما دخل سر من رأى عاصمة العراق في ذلك الوقت" وعظه فبكى المتوكل ورده مكرما^(٢).

وكان ذو النون حجة في الإقناع مما جعله يؤثر في نفس المتوكل فيطلق سراحه، وقد بلغ من منزلته عند الخليفة المتوكل "أنه إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكي ويقول: "إذا ذكر أهل الورع فحي هلا بذى النون"^(٣).

لم يقتصر نشاط ذو النون على وضع أسس علم التصوف، بل كانت له علوم ومعارف أخرى، فقد ألحقه القفطي "بطبقة جابر بن حيان في انتحال صناعة الكيمياء، وتقلد علم الباطن والإشراف على كثير من علوم الفلسفة"^(٤).

وكان ذو النون من أوائل الصوفية الذين استعملوا كلمة الحب وتوسع في معنى الحب الإلهي وفسره تفسيراً لا يزال أساساً من أسس الصوفية، وتكلم في الأحوال والمقامات، وأول من وسع الكلام عن الولاية^(٥).

وكانت لدى ذي النون المصري مكانة عظيمة في قلوب المصريين "فقيل أنه لما توفي سنة خمس وأربعين ومائتين هجرية بالجيزة لم يتمكنوا من نقل جثمانه عبر

١ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٢٠، ٢٢١.

٢ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣١٥، ٣١٦.

٣ - قال اسحاق بن إبراهيم السرخسي بمكة: سمعت ذا النون وفي يده الغل وفي رجله القيد وهو يساق إلى المطبق والناس يبكون حوله وهو يقول: هذا من مرأب الله تعالى ومن عطاياء، وكل فعالة عذب حسن طيب، ثم أنشد:

لك من قلبى المصون كل لوم على فيك يهون
لك عزم بأن اكون قتيلا فيك والصبر عنك ما لا يكون

أنظر ابن خلكان: ج ١، ص ٣١٦.

٤ - القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٨٥.

٥ - محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ٦٦.

الجسر المقام على النيل خشية أن ينقطع من كثرة تراحم المشيعين، فهربوا وحملوه في قارب تفاديا للزحام^(١).

وهكذا كانت لدى النون مكانة مرموقة في عالم التصوف، وكان له أتباع ومريدين ساهموا في قيام حركة صوفية قوية بمصر^(٢).

العلوم العربية الأخرى بمدرسة الفسطاط

شهدت مدينة الفسطاط تطور عدد من العلوم العربية، شارك فيها العلماء من محدثين وفقهاء، وأسهموا في تسجيل أحداث التاريخ المصري، ورواية سيرة الرسول ومغازيه^(٣)، لهذا اقترنت الروايات التاريخية برواية الحديث.

مدرسة كتابة التاريخ الإسلامى فى مصر:

يعتبر يزيد بن أبى حبيب الأزدي المتوفى سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م، من أوائل الذين شاركوا برواياتهم فى التاريخ المصرى، اذ يبدو أنه كان على دراية واسعة بأحداث التاريخ المصرى، لذلك أننا نجد رواياته متناثرة فى كتاب "فتوح مصر وأخبارها" فعنه روى ابن عبد الحكم ومما رواه: "أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمه إلى صدره^(٤)"، وغير ذلك من أحداث الفتح الإسلامى لمصر، وما يتعلق بعدد جنود عمرو، ثم المدد الذى أرسله الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة الزبير بن العوام^(٥)، وعن عقد الصلح مع المقوقس، وموقف الروم من هذا الصلح^(٦)، وكانت له روايات خاصة بتاريخ مصر القديم^(٧).

١ - ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ١، ص ١١٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٢٠، الشعرانى: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٠، ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص ٢٣٣.

٢ - السلمى: طبقات الصوفية، ص ٦٧.

٣ - انظر بردية مغازى رسول الله، تسب الى وهب بن منبه:

Raif Georges Khoury: Wab. B. Mounabbih. I: Der Heidelberger papyrus Heid Arab 23. Leben Und Werk des Dichaers Wiesbaden (Codices Arabici Antiqui 1) 1972, 33- 115.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٨.

٥ - المصدر نفسه، ص ٥٥-٦٢.

٦ - المصدر نفسه، ص ٧٢.

٧ - المصدر نفسه، ص ٢٨.

وكان ليزيد بن أبي حبيب، والليث بن سعد، وابن لهيعة أثرا كبيرا في أحداث تاريخ مصر، فقد كان عبد الرحمن بن عبد الله بن لهيعة الحضرمي الحافظ المتوفى سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م منزلة في الفقه والحديث والأخبار^(١)، فأكثر مادة ابن عبد الحكم مأخوذة من رواياته^(٢).

أما الليث بن سعد، فقيه مصر ومحدثها، "تشير بعض المصادر إلى مشاركته في حركة التدوين فكان من أوائل من دونوا العلم"^(٣).

وروى عن الليث بن سعد بعض العلماء الذين أسهموا بدور كبير في مجال الدراسات التاريخية فكان ممن روى عنه من تلاميذه المصريين عبد الله بن وهب (المتوفى سنة ١٩٧هـ/ ٨١٢م) ويحيى بن حسان وعبد الله بن عبد الحكم، وسعيد بن عفير، ويحيى بن بكير، وعبد الله بن صالح كاتبه، وهم من أبرز علماء مدرسة القسطنطينية، وغالب هؤلاء التلاميذ هم شيوخ الإمام أحمد (المتوفى سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، والبخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) ومسلم (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)^(٤).

هكذا بدأ التدوين التاريخي في مدينة القسطنطينية بما كتبه بعض علماء المدرسة الدينية من أئمة الحديث والفقه، فكان أول مؤلف وصل إلينا من تأليف "أبي محمد عبد الله بن عبد الحكم بن إعين بن الليث المتوفى سنة ٢١٤هـ/ ٨٢٩م"^(٥). فقد ألف كتابا في سيرة عمر بن عبد العزيز^(٦)، باعتباره أول خليفة ولد بمصر ونشأ بها، ويمكننا اعتبار سيرة عمر بن عبد العزيز بمثابة مقدمات لبداية كتابة التاريخ في مصر.

١ - ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها وخواصها، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، برقم ٣٥٩١ تاريخ منقولة عن نسخة خطية بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٦٩٩٣ تاريخ ورقة ١٨، وأيضا: مختصر تاريخ مصر ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ٢٧١٧ تاريخ، ورقة ١٠.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦.

٣ - ابن حجر: الرحمة الغيثية، ص ٩٢٨، الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٢٤، السمعاني: الأنساب، ص ٤٥١، إبراهيم العدوي: ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، الأنجلو ١٩٦٣م، ص ٤٨.

٤ - أبو نعيم الإصبهاني: حلية الأولياء، ج ٧، ص ٣٢٤، ابن حجر: الرحمة الغيثية، ص ٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٢٧، ١٢٩.

٥ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٤، ابن فرحون: الديباج المذهب ص ١٣٤.

٦ - يقول النووي: أنه مجلد مشتملا على جميل سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه، وفيه من النفائس مالا يستغنى عن معرفته والتأدب به "النووي: تهذيب الأسماء واللغات، ج ٢، ص ٢٧، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٣٤.

عبد الرحمن بن عبد الحكم ..

نشأ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم في أسرة عريقة اهتمت بالدراسات الفقهية، وتوارث أفرادها المذهب المالكي^(١)، اهلته هذه البيئة لدراسة الحديث، وترجع شهرته إلى كتابه "فتوح مصر وأخبارها" وقد رواه عنه علي بن قديد^(٢).

وكان ابن عبد الحكم أول مؤرخ مصري ألف في تاريخ مصر بطريقة الرواية المسندة^(٣). إذ يعتبر كتابه مصدرا لمن جاء بعده من مؤرخي مصر الإسلامية مثل الكندي في كتابه "الولاة والقضاة" وابن زولاق في كتابه "فضائل مصر" وغيرها.

المدرسة الأدبية في القسطنطينية:

الشعر

شارك أعلام مدينة القسطنطينية في علوم اللسان العربي (اللغة والنحو والبيان والأدب^(٤))، وكان للشعراء الواقدين دور كبير في ازدهار الحياة الأدبية في مصر منذ بداية عهدها بالإسلام^(٥).

وابن جذل الطعان من الشعراء البارزين في فترة الفتح، وكان شاعرا قبليا يدافع عن قبيلته، وكانت له مقالات ومحاورات مع أحد شعراء خولان إحدى القبائل

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢ ص ٢٤، ٢٥.

٢ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٤، ص ١٦٥.

٣ - كان عبد الله بن عبد الحكم والد المؤرخ أول من كتب التاريخ بمصر وكان كتابه الموسوم "سيرة عمر بن عبد العزيز" عبارة عن مجموعة غير مرتبة من الآثار براوية ابنه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، القاهرة ١٩٦٢، ج٣، ص ٧٦. أما ابنه عبد الرحمن فقد كان أول مؤرخ مصري باعتباره قد دون حوادث خاصة بتاريخ مصر: محدودة في كثير من الأحيان بالتوقيات الزمنية "التاريخ" الذي صار عنصرا حيويا في الكتابة التاريخية، انظر: السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، القدس، ١٣٤٩هـ، ص ٧، الكافيجي: كتاب المختصر في علم التاريخ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢٨ تاريخ، ورقم ٥ أ).

٤ - حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١ ص ٥٥.

٥ - محمد كامل حسين: مرجع سابق، ص ١٢٦.

العربية التي نزلت بمصر، واتخذت موطنها جنوب حصن بابليون، وكان رائم بن ثعلبة قد نزل معهم فقال ابن جذل الطعان قصيدته التي جاء فيها^(١).
ومن القصائد الأولى التي رويت بمصر قصيدة أبي مصعب قيس بن سلمة البلوي التي هجا بها أشراف مصر، وأعجب بها معاوية بن أبي سفيان^(٢).
وقد نظم بعض الشعراء القصائد في بعض المناسبات الهامة إذ مدح عبد الرحمن بن قيسيه بن كلثوم التجيبى أباه لتبرعه بمنزله في الفسطاط ليكون مسجدا جامعاً للمسلمين^(٣).
ومن الشعراء القبليين الذين جعلوا أشعرهم وقفا على القبيلة ابن نعيم التجيبى الذى نزل بمصر مع قبيلته تجيب أثناء الفتح، ولذا افتخر بفتح حصن بابليون^(٤).
وكان بين الولاة من أحب الشعر ورواه، ومنهم من كان شاعرا كالوالى عقبة بن عامر^(٥) (٤٤-٤٧هـ/٦٦٤-٧٦٧م).

١ - من مبلغ خولان عنى رسالة
بأن أخانا رائم الخير فيكم
الى مالك ينمى إذا عد أصله
يربضها أبنا فراس بن مالك
مقيم بلا تنسب بأزل المهالك
كناحه أهل المكرمات الموالك
ورد عليه شاعر خولان ينقض قوله ويفتخر بخولان، انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٥، ١٢٦.

٢ - وليس بماجد الجدات قيس
واعرض نفحة اليربوع عني
أشار بكفه اليمنى وكانت
ولكن حضر ميات قماء
يزيد بعد ما رفع اللواء
شمالا لا يجوز لهما عطاء
انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٤، محمد كامل حسين: مرجع سابق، ص ١٢٦، ١٢٧.
٣ - مدح أباه بقوله: وأبوك سلم داره وأباحها
لحياء قوم ركع وسجود
ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٦٥، المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٤٦، محمد مصطفى الماحى: شعراء مصر، ص ٢٣.

٤ - وجاء فى قصيدته:
وبابليون قد سعدنا بفتحها
وقيسية الخير ابن كلثوم داره
فكل مصل فى فنانا صلاته
وحزنا لعمر الله فينا ومغنا
أباح جماها للصلاة وسلمنا
تعارف أهل المصر ما قلت فاعلما
انظر: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٢٤٦.

٥ - الكندى: الولاة، ص ٣٧، محمد كامل حسين: مرجع سابق، ص ١٢٨، ١٢٩.

ويعد عهد عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م) من أزهى عصور الحياة الأدبية في مصر، فقد كانت العاصمة في عهده ملاذا لكثير من الشعراء الوافدين الذين كانوا لهم أثر كبير في النهضة الأدبية "فقد كان عبد العزيز بن مروان جوادا ممدحا، ذو مروءة وكرم"^(١).

ومن أبرز الشعراء الذين وفدوا إلى مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان عبيد الله بن قيس الرقيات^(٢)، الذي نظم قصائد في أعماله العمرانية^(٣)، وكرمه^(٤). وكان عبدالعزيز نفسه "قصيحا" ثقة قليل الحديث، وكان يلحن في كلامه، ثم تعلم العربية فأحسن تعلمها^(٥)، وهو معدود في الطبقة الثالثة من تابعي أهل الشام^(٦).

وكان لجوده وكرمه أثر كبير في أن سعى إليه عدد كبير من الشعراء ولازمه كثير منهم، ونظموا في مدحه والإشادة به، ومن أشهر هؤلاء الشعراء أيمن بن خزيم بن فاتك^(٧)، ونصيب بن رباح بن مروان^(٨)، (المتوفى سنة ١٨٠هـ)، وكثير عزه- أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر أبو صخر الخزاعي^(٩) الذي أقام بمصر مدة يمدح عبد العزيز بن مروان.

١ - انظر: الكندي: الولاة والقضاة، ص ٥٢.

٢ - الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٥٠، المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٠٩.

٣ - يصف مدينة حلوان التي شيدها عبد العزيز بن مروان:

سقى لحوان ذى الكروم وما	صنف من تينه ومن عنبه
نخل موافر بالغناء من البرنى	غلب يهتز في شربه
اسود سكانه الحمام فنما	تنفك غربانه على رطبه.

انظر: الكندي: الولاة، ص ٥٠، المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٠٩.

٤ - قال ابن قيس الرقات:

تكون جفانه رنما	فمصبوح ومغتبوق
إذا ما أزحفت رفق	جنت من دونهم رفق

انظر: الكندي: الولاة، ص ٥٢.

٥ - المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٠٩.

٦ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١، ص ١٧٢.

٧ - الكندي: الولاة، ص ٥٢.

٨ - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج ١، ص ٩٢، الاصفهاني: الاغانى، ج ١، ص ٢٤٢.

٩ - الاصفهاني: الاغانى، ج ٩، ص ٢٤.

وفي عصر الولاة العباسيين ظهر كثيرون من الشعراء من أبناء القبائل العربية التي استقرت بمصر، وقد رسم هؤلاء بشعرهم صورة صادقة للبيئة الاجتماعية، ومن أبرز هؤلاء سعيد ابن عفير، كما كان الليث بن سعد يحسن النحو، ويحفظ الشعر^(١)، وكان ورش المقرئ يحسن الشعر^(٢).

وكان عمرو بن الحارث الانصارى - عالم مصر ومحدثها أخطب أهل عصره ومن أحسنهم شعرا^(٣).

وقد وفد الى الفسطاط في فترة حكم الولاة العباسيين كثير من الشعراء المتكسبين، وكان هدفهم من المجيء اما رغبة في تولي المناصب، وأما طمعا في العطاء، مثلما حدث في ولاية يزيد بن حاتم^(٤) (١٤٤-١٥١هـ / ٧٦١-٧٦٩م) إذ تقاطر إليه عديد من الشعراء، ومنهم بشار بن برد الذي مدحه لجوده وكثرة عطاياه^(٥).

وفي أواخر القرن الثاني الهجرى شهدت مصر نشاطا أدبيا واسعا، فقد زار مصر أبو نواس - الحسن بن هانى - الذي جاء إليها يمدح أميرها الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل الخليفة العباسى الرشيد، وشارك في الحياة الأدبية في مصر^(٦).

وفي أواخر القرن الثاني الهجرى امتزجت الدراسات الفقهية والدينية بالدارسات الأدبية، وشهدت جوانب المسجد الجامع وأروقته نهضة أدبية عظيمة بعد رحيل الإمام الشافعى سنة ١٩٨هـ^(٧)، وقد ظلت الحياة الأدبية مزدهرة

١ - الذهبى: تذكرة الحفاظ، ج١، ص ٢٢٦.

٢ - ياقوت الحموى: معجم الأبناء، ج١٢، ص ١١٦.

٣ - ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج١، ص ١٤، الزركلى: الإعلام، ج٢، ص ٧٣١.

٤ - الكندى: الولاة، ص ١١١.

٥ - بعد ان صرف يزيد بن حاتم عن ولاية مصر سنة ١٥٢هـ، القطع الشعراء عن الرحلة إلى مصر لفترة من الزمن. انظر: الاصفهاني: الأغاني، ج٣، ص ١٢٤.

٦ - قال أبو نواس: انه لما قدم من الخصيب وجد مجلسه غاصا بالشعراء المصريين الجالسين، فقال وهنا أيها الأمير جماعة من الشعراء هم أقدم منى وأسن فإنهم لهم في الانشاد، فأن كان شعري نظير أشعارهم انشدتك والا امسكت. انظر: ابن منظور: أخبار أبي نواس، ص ٢٢٤، المقرئ: الخطط، ج١، ص ٣٠٥، محمد كامل حسين، مرجع سابق، ص ١٢٤.

٧ - ياقوت الحموى: معجم الأبناء، ج١٧، ص ٢٩٩، ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ١٤٠.

بمصر حتى نهاية عصر الولاة، وكان بعض المصريين يقرضون الشعر ويلمون بغريبة^(١).

النحو واللغة..

اللغة والنحو من أبرز علوم اللسان العربي التي ازدهرت بمصر^(٢)، وقد تأثرت مصر بأنواع الثقافات التي كانت موجودة بعواصم الدولة الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بالدارسات العربية.

ومنذ البداية كان معلموا القرآن والسنة النبوية هم أساتذة العربية الأول بمصر^(٣) وكان أول هؤلاء القراء "عبد الرحمن بن هرمز مولى ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب الذي كان أحد الحفاظ والقراء"، إذا أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس، وكان يكتب المصاحف ويقرأ القرآن^(٤)، وقد أخذ عن أبي الأسود علم العربية^(٥)، وتكاد تجمع المصادر على أن كل القراءات في مصر رواية عن نافع بن أبي نعيم فقيه أهل المدينة الذي بعثه الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها قراءة القرآن والسنة^(٦)، وكان ورش المقرئ من أجل تلاميذه "فقد انتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية"^(٧).

ونبغت طائفة من فقهاء ومحدثي الفسطاط في اللغة والنحو، فقد كان الليث بن سعد عربي اللسان، فصيح البيان، يحسن القرآن والنحو^(٨)، وكان أحمد بن صالح أحد الحفاظ إماما في القراءات والنحو^(٩)، وكذلك أحمد بن يحيى الوزير بن سليمان

- ١ - ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١٨، ص ٦٠.
- ٢ - جرجي زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، ج٢، ص ١٤٨.
- ٣ - شوقي ضيف: المدارس النحوية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٣٢٧.
- ٤ - الذهبي: تاريخ الإسلام، القاهرة ١٢٦٨هـ، ج ١ ص ١٩٥، السيوطي: بغية الوعاة، ص ٣٠٣.
- ٥ - القفطي: أنباء الرواة على أنباء الفحات ط دار الكتب ١٩٥٠م، ج ١، ص ١٥، السيوطي: بغية الوعاة، ص ٣٠٣، الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين: القاهرة ١٩٥٤، ص ١٩، ٢٠، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ٥٣، حفي ناصف: تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص ٨٤، ٨٥.
- ٦ - ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٧٠.
- ٧ - ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١ ص ١١٨.
- ٨ - السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١ ص ١١٨.
- ٩ - القفطي: أنباء الرواة، ج ١، ص ٥٢.

التجيبى (١٧١هـ/٢٥٠هـ) شيخا مبرزاً من شيوخ مصر حافظاً نحويًا^(١). وكان للشيوخ الوافدين على مصر أثر كبير فى تعميق اثار اللغة العربية بما لهم من ملكات لسانية قوية، ومن أبرزهم محمد ابن إدريس الشافعى الذى كان حجة فى اللغة والنحو^(٢).

ومن أئمة اللغة الذين وفدوا على الفسطاط "عبد الملك بن هشام الذى كان إماماً فى اللغة والنحو والعربية"^(٣)، وقد التقى ابن هشام بالشافعى فى المسجد الجامع، وقد التف حوله المصريون الذين عرفوا قدره، فاتخذوه أستاذاً لهم، مثل الربيع بن سليمان، وسرج الغول عالم مصر باللغة^(٤).

ولم تلبث الدارسات اللغوية والنحوية بمصر أن تطورت فى القرن الثالث الهجرى على يد أسرة مصرية كان لها أكبر الأثر فى وضع أساس علم النحو فى مصر، وهى أسرة بنى ولاد، وكان رأس هذه الأسرة "الوليد بن محمد التميمى المعروف بولاد المصادرى المتوفى سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م"^(٥)، فعلى يديه تكونت المدرسة التى تعد النواة الأولى لدراسة النحو فى مصر.

كذلك من النحاه البارزين فى مصر "أحمد بن جعفر أبو على الدينورى، المتوفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م"، فقد ألف كتاباً فى النحو سماه المذهب^(٦).

هكذا أسهم هؤلاء النحاه فى ازدهار حركة النحو واللغة، وكان لهم الفضل فى شيوع المؤلفات اللغوية والنحوية بها.

١ - السيوطى: بغية الوعاة، ص ١٧٤.

٢ - السبكى: طبقات الشافعية، ج ١ ص ٣٧٤، ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ج ١٧، ص ٢٩٠، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٣٤.

٣ - القفطى: أنباء الرواة، ج ٢، ص ٢١١، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣، ص ١٧٧.

٤ - ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ج ١٧، ص ٢٩٩، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ١٣٣، السيوطى: بغية الوعاة، ص ٢٥٢.

٥ - كان ولاد بصرى الأصل، نشأ بمصر، ورحل إلى العراق، وسمع بها العلماء، ورحل إلى المدينة، وسمع ولاد بالخليل بن احمد، وسمع منه ولازمه ثم انصرف إلى مصر، انظر: القفطى: أنباء الرواة، ج ٢، ص ٣٥٤، السيوطى: بغية الوعاة، ص ٤٠٥، الزبيدى: طبقات اللغويين والنحويين، ص ٢٣٢، شوقى ضيف: المدارس النحوية، ص ٣٢٨.

٦ - القفطى: أنباء الرواة، ج ١، ص ٣٣، ٣٤، السيوطى: بغية الوعاة، ص ١٣٠، ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ج ٢، ص ٢٤٠، حاجى خليفة: كشف الظنون، ج ١، ص ١٠٨.

لقد أظهرت الثقافات العربية في مصر تفوقها بهؤلاء العلماء الذين جعلوا من مصر الإسلامية منارا يهتدى إليه الكثير من العلماء الوافدين، لكي تتوطن الثقافة العربية في مصر، وتنتشر على نطاق أوسع بين أهل البلاد، ومن ثم كان ظهور مدارس مصر الإسلامية، وتفوقها على جميع المدارس الإسلامية الأخرى^(١).

١- القلقشندي: صبح الاعشى، ج٢، ص ٣٤٢، ٣٤٣، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج١، ص ١٢٤.

الفصل الرابع

تخطيط المدن الإسلامية

- الفسطاط، العسكر، القطائع.
- دراسة خطط المدينة الإسلامية.
 - الدروب والأزقة.
 - أبواب الدروب.
 - السقائف والرحاب.
 - الأزقة.
 - إنارة الدروب والأزقة.
 - المسكن الإسلامي.
 - العمارة الدينية الإسلامية.
 - المساجد.
 - المرافق العامة.
 - الأسواق.
 - الحمامات.
 - وسائل الانتقال.

الفصل الرابع

تخطيط المدن الإسلامية

تخطيط المدن :

لا ريب في أن دراسة التطور الاجتماعي في مصر في عصر الولاة يستتبع بالضرورة دراسة تخطيط المدن مثل الفسطاط والعسكر والقطائع ، فقد اعتاد العرب أن يؤسسوا في الأقطار التي يفتحونها عواصم جديدة، يختارون مواقعها بما يتفق ومصالحهم العامة والخاصة.

وقد أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط^(١) سنة ٢١هـ/٦٤٢م بعد فراغه من الفتح الأول لمدينة الإسكندرية^(٢).

وقد تعددت آراء المؤرخين في الأسباب التي دعت عمرو بن العاص إلى اختيار هذا الموضع مكانا لعاصمة مصر الإسلامية، فالدولة لم تكن قد وطدت

١ - اسم فسطاط الراجح أن أصله غير عربي، وأنه مشتق من اللفظ اليوناني *qsatov* "فساطن" وذلك اللفظ اشتق من اللفظ اللاتيني *l'ossatum* الذي كان يطلقه الرومانيون على معسكراتهم الحربية، وتؤيد أوراق البردي ذلك القول، ففي إحدى الأوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ سنة ٩٠هـ، وفي أخرى متشابهة سنة ٩١هـ نجد اسم باب اليون *qsatov* والفسطاط، فاسم فسطاط كان موجودا قبل تأسيس الفسطاط، وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحربي. انظر: جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن، ص ص ١٥، ١٦، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي، ص ٢٢٣؛ ويذكر بتلر: أن كلمة فسطاط مشتقة من اللفظ الروماني *l'ossatum* مستندا على كتاب سفوكليز "القاموس البيزنطي" أن العرب يحتمل أن سمعوا بهذا اللفظ في الشام، كما سمعوه عند حصن بابلين، وأكثر ما يطلق على ما يتصل بالمدن المحصنة، ولعل هذا الاتصال هو الذي جعل بعض العرب يذهب إلى أن الفسطاط معناها المدينة انظر: المسعودي: مزوج الذهب، ج ١، بيروت ١٩٧٢م، ص ٤٠٥؛ خطط المقرئ، ج ١، ص ٢٩٦؛ ليو الأفريقي: وصف أفريقيا، ص ٥٨٦؛ مصطفى طه: مصر الإسلامية، ج ١، ص ٥٩؛ علي بهجت: حريات الفسطاط، دار الكتب ١٩٢٨، ص ١٠، ١١؛ بتلر: فتح العرب، ص ٢٥٠.

٢ - تاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه، فالبلانري يذكر أنه كان بعد فتح بابليون في حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية عندما أبي عمر أن يبيع لعمرو المقام في الإسكندرية انظر: البلانري: فتوح البلدان، ج ١، ط بيروت ١٩٧٨، ص ٢٢١، ٢٢٢؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٢٢٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٨٦؛ ابن ظهيرة: الفصائل الباهرة، ص ٩٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية، ص ٤٠؛ بتلر: مرجع سابق، ص ٥٠؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص ٦٦؛ جاستون فييت: القاهرة ص ١٥؛ جمال الشيال: الفسطاط، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد ١٢، سنة ١٩٥٨، ص ١٣٤.

دعائم سلطاتها بعد، كما أنه لم يستتب لها الأمر في البلاد التي تحيط بالبحر الأبيض المتوسط الذي يفصل بينها وبين أقوى عدو لها، وهو الدولة البيزنطية، فضرورات الدفاع حدثت بالفاتحين إلى البعد عن الساحل^(١).

ويذكر ابن عبد الحكم إلى "أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها، هم أن يسكنها، وقال مساكن قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمون ماء؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو أنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف، فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى القسطنطينية^(٢).

فالمؤرخون المسلمون يرجعون عدم اختيار الإسكندرية عاصمة للعرب إلى خوف عمر من ركوب البحر^(٣)، ولكن الواقع أن الإسكندرية متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم^(٤)، على غرار مدينة القسطنطينية التي يسهل منها الإشراف على الصعيد الأعلى والصعيد الأسفل.

وترجع المصادر^(٥) سبب اختيار هذه المدينة إلى عنصر الصدفة المحضة، ذلك أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه لفتح الإسكندرية بعد استيلائه على حصن

١ - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٤٠، ٤١؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص ٦٦؛ جاستون فييت: القاهرة، ص ١٥؛ أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، نقله للعربية أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٦٥؛ سعد زغلول: تاريخ الإسكندرية من الفتح الإسلامي إلى بداية العصر الفاطمي، من كتاب تاريخ الإسكندرية وحضارتها منذ أقدم العصور ١٩٦٣، ص ٢١٨؛ صفاء حافظ عبد الفتاح: الموانئ والثغور المصرية من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، ص ٣١، ٣٢.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩١؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ١، ط القاهرة ١٩٥٣م، ص ٣٩، ٤٠؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٩٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٣٠، ١٣١؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٣١٩؛ السيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق، ص ٣٩؛ عبد المنعم ماجد: مرجع سابق، ص ٢٢٤؛ سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٢٤١.

٣ - لمزيد من المعلومات عن البحرية الإسلامية في عهدها الأول انظر: سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص ٦١-٦٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ٣٩، ٤٠.

٤ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ط ليدن ١٩٦٧، ص ٥٩، ٦٠؛ سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٢٤٢.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩١؛ الكندي: الولاة، ص ٩، النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٣١٩؛ ابن نقيم: الانتصار، ج ٤، ص ٢٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٢٦.

بابلليون "أمر بنزع فسطاطه"، وكان قد تركها بجوار الحصن أثناء الحصار، فإذا فيه يمام قد فرخ، فقال عمرو: لقد تحرم منا بمتحرم، فأمر به فاقرن كما هو، وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الإسكندرية فقالوا أين ننزل؟ قالوا الفسطاط، لفسطاط عمرو الذي كان خلفه وكان مضروباً^(١).

"وقال الجوهري: الفسطاط بيت من شعر. قال ومنه فسطاط مدينة مصر^(٢)، وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط، ولذلك قيل لمصر فسطاط، وقال الزمخشري: الفسطاط اسم لضرب من الأبنية، والذي عليه الجمهور، أنه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص يعني خيمته^(٣)".

وهذه الروايات أقرب إلى الخيال منها للحقيقة، لأن المواقع معروفة وأن تغيرت أسماؤها بتغير الزمان، ولا بد أن العرب تنهبوا إلى أهمية موقع هذه المدينة التي اتخذوها عاصمة لمصر^(٤)، إذ يمتاز موقعها بتوسطه بين مصر السفلى

١ - ويذكر الكندي: "بعد ما شرع عمرو في الاستيلاء على الحصن أجمع على المسير إلى الإسكندرية فسار إليها في ربيع الأول سنة عشرين، وأمر بفسطاطه أن يقوض فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه فقال: لقد تحرمت بجوارنا، أقرأوا الفسطاط حتى تتقف وتطير فراخها. فأقرأوا الفسطاط" انظر: الكندي: الولاة، ص ٩؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٦٢؛ ابن خلدون: العبر، م ٢، ق ٥، ص ٩٧٢.

٢ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٢٢٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٩٦.

٣ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٢٢٦، ٢٣٠.

٤ - يذكر د. جمال الدين الشيال في مقال له بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية عدد ١٢ سنة ١٩٥٨م، ص ١٢١. أنه "كان في مصر وقت الفتح مدينتان هامتان أحدهما الإسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى، وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحب السيادة، وبابلليون وتعتبر العاصمة الثانية، وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلي والبحري، ولوقوعها على شاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال بواسطة هذا النهر بكل أطراف القطر المصري وتوسطها بين النيل غربا وبين جبل المقطم شرقا، ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان لحكمهم.. فاتخذوا منف عاصمة لهم. وكانت هليوبوليس حاضرة مصر لمدة طويلة" وهو يعتقد في ذلك على ابن دقماق، ج ٤، ص ٢، الذي ينقل عن ابن سعد "كانت مبانيها في قديم الزمان متصلة بمبان عين شمس" كما يعين ابن النفية في كتاب البلدان موقع الفسطاط بالنسبة للمدينتين بقوله: "وعين شمس على ثلاث فراسخ من الفسطاط ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ثلاث فراسخ" كما يذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك: "عين شمس ومنف قريتان قد ضربتا كانتا متنزها لفرعون. وعين شمس عن شمال الفسطاط ومنف عن جنوبه" ويؤكد هذا الرأي قول المقرئ: "وكان بجوار هذا الحصن (بابلليون) من بحرية أشجار وكروم صار موضعها للجامع العتيق، وفيما بينها وبين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى" انظر: المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٠٥؛ ابن النفية: مختصر كتاب البلدان، ص ٥٩، ٦٠، ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣١١؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٨٦؛ جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج ١، دار المعارف ١٩٦٧، ص ٣٦، ٣٧.

ومصر العليا، وله عدة مزايا تجارية وسياسية وحرية^(١).
ويشير المقریزی إلى أن إنشاء مسجد عمرو بن العاص الجامع كان نواة تأسيس مدينة الفسطاط فيقول: ".... ولما افتتح عمرو مدينة الإسكندرية الفتح الأول، نزل بجوار هذا الحصن، واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق، واختطت قبائل العرب من حوله، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط، ونزل الناس بها^(٢)".
وقد اتفق المؤرخون على أن جامع عمرو بنى على شاطئ النيل^(٣)، وهو اليوم يبعد عنه بنحو خمسمائة متر؛ وكذلك قصر الشمع كان على شاطئ النيل، وكان بابه الغربى أو باب الحديد مطلا على النيل مباشرة، ومنه خرج المقوقس ليحتمى بجزيرة الروضة كما ذكر المقریزی^(٤)، وعلى هذا الباب وجد المقوقس السفن التى عبر عليها النيل.

وثمة نقطة ثالثة تساعد على تحديد موقع المدينة وأقصد القنطرة الأولى التى أقيمت على الخليج فى سنة ٦٩هـ/٦٨٨م، قال المقریزی: "أنها كانت قائمة فى المكان الواقع بين قناطر السباع، وقنطرة السد^(٥)، ومن هذا نعرف شاطئ النيل فى سنة ٦٩هـ كان يمتد بين الموقعين المذكورين^(٦)".

-
- ١ - سيدة كاشف: مرجع سابق، ص ٢٤٣.
 - ٢ - المقریزی: الخطط، ج ١، ص ٢٨٦.
 - ٣ - انظر المقریزی: الخطط، ج ١، ص ٢٤٣، وذكر المقریزی أيضا "وكان بجوار الحصن (يعنى قصر الشمع) من بحرية وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق، الخطط، ج ١، ص ٢٨٦، ج ٢، ص ١٣٢.
 - ٤ - أورد المقریزی خبرين مختلفين عن رحيل المقوقس، الخطط، ج ١، ص ٢٨٦، ٢٩٠.
 - ٥ - المقریزی: الخطط، ج ٢، ص ١٤٦.
 - ٦ - على بهجت: حفريات الفسطاط، دار الكتب المصرية ١٩٢٨م، ص ٤٢١ وبذكر جورج سكاتلون الأثرى: "ويبدو أن أى سعى لتصوير الوضع الجغرافى "للخطط" الأولى لمدينة الفسطاط، وهو أمر من قبيل المستحيل، ولقد كانت محاولة كازانوفا فى هذا الصدد مجرد تكهات، معتمدة على الاعتماد على ابن نقماق، والمقریزی؛ بلا أى استناد إلى مصدر أثرى محدد. أما الحفريات التى أجراها على بهجت فقد اقترنت بهذا التصور، وأن لم تتقيد به تماما، على أنه إذا - أمكن إجراء أى حفريات أخرى فى المنطقة مهتدية بالأساس العلمى، ففى إمكانها أن تمدنا بحقائق أكيدة عن وقائع التعاقب الزمنى لأى موقع بذاته، وبهذا يمكن أن نميز المراحل الأموية والعباسية من الطولونية، وأن نفرق بين هذه جميعا وبين المرحلة الفاطمية على أساس فحص الشوارع والأرضيات والقنوات وشبكات المجارى وذلك بدراسة طبقات الأرض، كذلك فإن أنماط العمارة ودرجات الفاعلية فى فنون البناء يمكن الربط بينها وبين المصنوعات ذات المغزى من الوجهة العلمية، وتكمن وسانلنا فى التحقيق من هذه الوقائع الأثرية فى دراسة الفروق

ويضيف المقرئى: "أن موضع مدينة الفسطاط حين اختطها العرب كان فضاء ومزارع بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم، وليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة، وكان بجوار هذا الحصن من بحرية وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم، صار موضعها الجامع العتيق، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس للنصارى^(١)".

وكانت خطط القبائل قائمة حول المسجد الجامع، وعلى مقربة من قصر الشمع^(٢)، وكانت هذه الخطط تمتد من النيل غربا حتى عين الصيرة شرقا، ومن جبل يشكر شمالا حتى الشروق وجبل الرصد (إسطبل عنتر) جنوبا^(٣).

وقد اتسعت المدينة، وكثر فيها العمران، وتغيرت أحوالها وتطورت مع الزمن وبنيت فيها القصور والدور، فقد بنى عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وفى ولايته على مصر زمن عثمان بن عفان (٢٥-٣٥هـ / ٦٤٥-٦٥٥م)، قصر الجن^(٤)، كما بنى ابن ملجم الدار المبنى وجهها بالحجارة^(٥)، وبذلك صارت الفسطاط عاصمة لمصر الإسلامية، وقلبها النابض، ومركز النشاط العقلى.

يقول المقرئى: "تداولت عليها ولاية مصر بعد ذلك فاتخذوها سريرا للسلطنة، وقد تضاعفت عمارتها الفسطاط، فأقبل الناس من كل جانب عليها، وقصروا

البارزة أو المتركمة أى التى تبدو لنا فى حالة موقع كثر استعماله لأغراض شتى والتى تظهر فى أرضيات الشوارع الحجرية - وسائل حفظ المياه - تخطيط الشوارع محتويات القنوات والمستودعات التى أوقف استخدامها، أو التى ظلت على حالها دون مؤثرات خارجية، كل هذا من الدلائل المتجمعة الناشئة عن تحليل المواقع، إنما تسمح لنا بأن نميز بين موقع ظل على الدوام مأهولا بسكانه، وبين تلك المواقع التى لم تستغل فى يوم من الأيام، والتى تركت فى شكل خرائب" انظر "جورج سكانلون: إعادة النظر فى المعالم الأثرية، دار الكتاب، القاهرة ١٩٧٠م، ص ٣٥٥، ٣٥٦.

١ - انظر: المقرئى: الخطط، ج١، ص ٢٨٦؛ مصطفى العبادى: ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربى، المجلة التاريخية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م، ص ٩٤.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩١-١٢٠؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، القاهرة ١٩٢٥م، ج ٢، ص ٤٤؛ ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣-٥.

٣ - عبد الرحمن زكى: خطط الفسطاط، فيما كتبه عبد الرحمن بن الحكم، مقال بالمجلة التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم، إعداد مجموعة من الأساتذة، المكتبة العربية، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٥٧-٥٩).

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ط بيروت ١٩٠٨، ص ٤٩٦.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٢.

أمانهم عليها، إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون فبنوا إلى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع^(١).

العسكر :

كان أمراء مصر ينزلون بالفسطاط طوال عصر الخلفاء الراشدين، حتى نهاية الدولة الأموية^(٢)، وشرع العباسيون في بناء مدينة العسكر^(٣)، وهي موضع إحدى خطط الفسطاط القديمة بالحمراء القصوى، وقد أنشأت العسكر في هذا الموضع "أما لرغبة العباسيين في أن يتخذوا لأنفسهم مقرا لم يسبق إليه غيرهم، وأما لأن مروان بن محمد كان قد خرب جانبا كبيرا من الفسطاط^(٤)"، فقد أنشئت العسكر بعد تغلب العباسيين بقيادة صالح بن على العباسي على آخر خلفاء بنى أمية (مروان بن محمد) سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م^(٥) والغرض من إنشائها كان لإيواء عسكر العباسيين ولذا سميت بالعسكر، وكان حدها من الجنوب عند كوم الجارح، ومن الشمال قناطر السباع، ومن الغرب قنطرة السد، ومن الشرق تلال المقطم، وبنى هناك دارا جديدا للأمارة، ومسجدا جامع عرف بجامع العسكر^(٦).

وقد نزل ولاة مصر العباسيون في العسكر بعد تأسيسها، يقول الكندي: "أن موسى بن كعب بن عيينة الذي ولي مصر من قبل، أبو جعفر المنصور سنة ١٤١هـ/٧٥٨م نزل العسكر، وجعل وجوه الجند يفدون عليه ويروحون^(٧)". وكان بعض الأمراء يسكنون مدينة الفسطاط إلى جانب العسكر، يقول المقرئى: "... بعد بناء العسكر بظاهر الفسطاط. نزل فيه أمراء مصر وسكنوه، وربما سكن بعضهم الفسطاط^(٨)".

١ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٨٥، ٢٤٠؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ ٤، ص ٣.

٢ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٣٣١.

٣ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٣٠٤؛ جمال محرز: منازل الفسطاط، دار الكتاب ١٩٧٠م، ص ٣٢٧.

٤ - زكى محمد حسن: الفن الإسلامى فى مصر، جـ ١، ص ٥٦.

٥ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٣٣١.

٦ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٣٠٤.

٧ - الكندي: الولاة، ص ١٠٧.

٨ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٨٥.

ورغم بناء العسكر فإن مدينة الفسطاط نالت اهتمام الولاة العباسيين، ففي ولاية والي العباسي يزيد بن حاتم الذي ولي مصر من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٤٤هـ/٦٧١م شكت المعافر إلى يزيد بن حاتم بعد الماء عنهم، فابتنى يزيد بن حاتم فسقية المعافر، وأجرى إليها الماء من ساقية أبي عون وانفق فيها مالا عظيماً^(١)، وما لبثت الفسطاط أن استردت أهميتها الأولى كحاضرة لمصر بعد تأسيس العسكر بقليل فقد ورد كتاب أبي جعفر على يزيد بن حاتم يأمره بالتحول من العسكر إلى الفسطاط سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م^(٢).

ويذكر المقرئ^(٣) أنه في ولاية السرى بن الحكم سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م، أن الناس في البناء فيه (يعني العسكر) وصار مملوكا بأيديهم، واتصل بناؤه ببناء الفسطاط والواقع أن العسكر كانت امتداداً طبيعياً للفسطاط من ناحية الشمال الشرقي، فقد كان يطلق على شرطتها اسم الشرطة العليا باعتبارها تقع شمالاً، في حين كان يطلق على شرطة الفسطاط اسم الشرطة السفلى، لأنها تقع جنوباً^(٤)، مما يشهد باتصال العمارة بينهما، ولم يتغير من وضع المدينة (الفسطاط) شيئاً يذكر سوى انتقال دار الأمانة إلى العسكر^(٥).

القطائع :

كانت القطائع هي الضاحية الثانية لمدينة الفسطاط، وكان موقعها في الامتداد الواقع نحو الشمال الشرقي من المدينة، وقد أسس أحمد بن طولون هذه المدينة سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م في المنطقة الواقعة بين جبل يشكر حد الفسطاط الشمالي، وبين سفح المقطم، وكان هذا الموقع يعرف بقبة الهواء^(٦). فأمر ابن طولون بحرث قبور

١ - الكندي: الولاة، ص ١١١، ١١٥.

٢ - الكندي: الولاة، ص ١١٥؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٨٧.

٣ - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٠٤.

٤ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٤، ٢٩٩، د. سيدة كاشف: مصر في عهد الإخشيديين، ط الثانية، القاهرة ١٩٧٠م، ص ١٨٤.

5 - M. Sohenhiem: Encyclopaedia of Islam, History of the town of Fustat. Vol. I, P. 817.

٦ - الكندي: الولاة، ص ٢١٥؛ البلوي: سيرة ابن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٩٤٠، ص ٥٢؛

المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣١٥؛ ابن أبياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٦٢.

اليهود والنصارى وبنى موضعها، ثم بنى الجامع على جبل يشكر^(١).
وقد اختلفت هذه المدينة عن مدينة القسطاط في تخطيطها، فقد قسمت على
أساس الطوائف والحرف^(٢) "فكانت كل قطعة تعرف باسم من اتخذها، قطيعة
للسودان، وقطيعة للروم، كما جعل قطائع خاصة للحرف، مثل سوق الصيادين،
ويجمع فيه البزازين والعطارين، وسوق الشوائين وسوق الطبّاخين يجمع فيه
الصيارفة والخبازين" .. ثم لكل صنف من جميع البضائع أفرد له سوقا حسنا، وأمر
غلمانه أن يختطوا به" ويعد تخطيطها أصبح يطلق على مدينة ابن طولون اسم
القطائع^(٣).

والقطائع، والعسكر من قبل ما هي إلا ضاحيتين للقسطاط أو امتداد لها^(٤)،
"فكان العسكر قد اتصل بناؤه ببناء القسطاط"^(٥)، وعندما بنى أحمد بن طولون
القصر والميدان تقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم، فاختطوا
وبنوا حتى اتصل البناء لعمارة القسطاط^(٦).

ويشير المقرئى أثناء حديثه عن القسطاط إلى اعتبار مدينة القطائع جزءا
مكملا لها، وأحد ضواحيها فيقول: ".... وتضاعفت عمارتها، يعنى القسطاط" وأقبل
الناس من كل جانب، وقصورا أمانهم عليها إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون،
فبنوا جانبها المنازل المعروفة بالقطائع^(٧) ويقول فى موضع آخر "وكان خارج

١ - اختلف المؤرخون فى سنة بنائه، فيذكر الكندى أنه ابتدئ فى بنائه سنة أربع وقضى فى ست وستين
ومائتين (الكندى: الولاة، ص ٢١٩)، بينما يذهب كل من ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢٢٢ وابن
تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٠، أنه قد شرع فى بنائه سنة ٢٥٩هـ، ويذكر المقرئى ان
بنيانه بدأ سنة ٢٦٢هـ، وقضى سنة ٢٦٥هـ. المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٥. وكانت رواية
المقرئى هى الاصبوب، فقد وجدت لوحة حجرية مثبتة على إحدى دعائم المسجد، ومنقوشة بالخط
الكوفى جاء فيها (أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون... ببناء هذا المسجد المبارك الميمون من خالص
ما أقاء الله عليه وطيبة لجماعة المسلمين، ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة فى شهر رمضان من سنة
خمس وستين ومائتين (مايو ٨٧٩م)، زكى محمد حسن: الفن الإسلامى فى مصر، ج ١، ص ٣٧.

٢ - القلقشندى: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٢٣٢.

٣ - البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٥٤.

٤ - عبد الرحمن زكى: القسطاط وضاحيتاها - القطائع والعسكر، ص ٨٩.

٥ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٠٤.

٦ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٥؛ البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٥٣.

٧ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٤٠.

الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلا في ميل يسكنها جنده وتعرف بالقطائع^(١) وبعد اتصال العسكر، ثم القطائع بالفسطاط، صارت منهم جميعا عاصمة كبيرة واحدة لمصر^(٢)، وكان اسم مصر يطلق على مدينة الفسطاط باعتبارها عاصمة البلاد^(٣).

الدروب والأزقة:

يذكر ابن عبد الحكم في معرض حديثه في خطط القبائل العربية في الفسطاط أسماء بعض الدروب مثل درب حوى البحرى^(٤)، وبعض الدروب كانت تأخذ نسبتها إلى أسماء الدور المشهورة بها أو نسبة إلى بعض من اشتهر من أهلها بحرفة معينة مثل درب السراجين^(٥)، ودرب الزجاج^(٦).

هذا ويذكر ابن دقماق والمقرئى أسماء دروب أخرى بالفسطاط مثل درب بادی، ودرب عمار، ودرب البقالين، ودرب الحبالين، ودرب الإعلام، حيث كانت تنصب عليه البنود في الأعياد^(٧).

ويصف المقرئى درب الفسطاط وأزقتها بالضيق الشديد فيقول: "وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة"^(٨).

والمواقع أن الحفريات التي قام بها على بهجت كشفت عن مجموعة مختلفة الاتساع والامتداد من الطرقات لا يزيد عرض أكبرها عن ستة أمتار، وأضيقتها لا يتجاوز مترا ونصف متر، ومن العسير التوفيق بين الدروب والحواري التي كشفت، وبين ما ذكره كل من ابن دقماق والمقرئى لأن المنطقة التي تم الحفر فيها كانت خرابا وقت أن كتب ابن دقماق والمقرئى كتابيهما في خطط الفسطاط^(٩).

١ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤١.

٢ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٣.

٣ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٦ جمال محرز: منازل الفسطاط، ص ٣٢٤.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٠.

٥ - المصدر السابق صفحات ١٠٨، ١١٢، ١١٩، ١٢١، ٢٤٤.

٦ - المصدر نفسه، ص ١١٦.

٧ - ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢٥، ٢٦ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٤٢.

٨ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٣٩.

٩ - على بهجت: حفريات الفسطاط، ص ٣٧، ٣٨.

ويعتقد أن تسمية طرقات الفسطاط باسم شارع أو حارة أو درب أو زقاق ترتبط بعرضها واتساعها، فالأكثر اتساعا سمي شارعاً، والأقل حارة والأقل درباً، والأقل من الدرب اتساعاً أطلق عليه اسم زقاق.

أبواب الدروب:

كانت القاعدة المتبعة في مصر الإسلامية منع السير في الطرقات ليلاً بإغلاق أبواب الدروب، وفي ولاية يحيى بن داود والى مصر من قبل المهدي (١٦٢هـ - ١٦٤هـ / ٧٨٨-٧٨٠م) "منع من غلق الدروب بالليل، ومن غلق الحوانيت، حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب، ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها، وقال: من ضاع له شيء فعلى أداؤه^(١)".

ويذكر أبو المحاسن أنه: "كان يمنع الناس من غلق الدروب والأبواب، وغلق الحوانيت^(٢)، حتى جعلوا عليها (شرائح^(٣)) القصب".

معنى ذلك أن دروب مصر كان لها أبواب تغلق ليلاً، إذ أثبتت الحفريات ذلك، وعثر على عتبة باب من "قبيل عتبات الأبواب التي كانت تغلق في ذلك العهد، وكان لهذا الباب مصراعان بدليل بقاء سكرجيته على أصلها منقورتين في الحجر^(٤)".

وأظهرت حفريات الفسطاط أن تلك الدروب وغيرها من الطرقات لم تكن مبلطة، إذ لم يعثر مطلقاً في أى موقع من مواقع المدينة على أثر للبلاط، أو أية مادة أخرى فرشت بها الأرض^(٥)، كما لم تثبت الحفريات ما إذا كانت الدروب يعلوها قباب أو سقائف، وأن كان ابن دقماق يتحدث كثيراً عن السقائف مثل سقيفة الزوايا التي تعلو سوقة ابن العجمية، وسقيفة مسجد العتبة^(٦)، كما يبدو من رواية ابن دقماق أن بعض الدروب المسدودة كانت مسقوفة كسقيفة الكباد^(٧).

١ - المقرئى: الخطط، ج١، ص ٣٠٧.

٢ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٢، ص ٤٤.

٣ - شرائح: جمع شريحة وهى باب من القصب يعمل للدكاكين انظر: الكندى: الولاة، ص ١٢٢.

٤ - على بهجت: حفريات الفسطاط، ص ٣٨.

٥ - المرجع نفسه، ص ٣٩.

٦ - ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٤٦.

٧ - المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٦.

كما يذكر ابن عبد الحكم أسماء بعض السقائف مثل سقيفة تركي^(١)، وأن لم يفسر لنا سبب تسميتها بذلك، وسقيفة الغزل^(٢)، ولكنه يضيف أن سقيفة جواد كانت تفصل ما بين خطة غافر عن يسارها، وخطة الصدف عن يمينها^(٣)، ويذكر أن سقيفة ينة التي تنسب إلى ابن ينة من الفرس، وموقعها بخطة الحمراء^(٤).

والرحاب هي اتساع عند ملتقيات بعض الدروب^(٥)، ولم يذكر ابن عبد الحكم سوى رحبة واحدة، وهي رحبة السوسى "ولبنى شبانة المسجد الذى فى رحبة السوسى"^(٦) ولم يذكر سبب تسميتها بذلك الاسم، بينما يحدد ابن دقماق أسماء بعض الرحاب مثل "رحبة دار الأنماط" التي تقع أمام الدار المشهورة بدار الأنماط^(٧)، و"رحبة عقيل" و"رحبة أبى رجب" ويبدو أن هذه الرحاب لم تكن من السعة بحيث يمكن أن تطلق عليها اسم "ميدان".

أما الأزقة، فتشير البرديات العربية إلى أسماء بعضها، فهذه بردية ترجع إلى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) تحوى أسماء بعض الأشخاص، وكشف بحساب السلع، نلاحظ فيها ذكر "زقاق الكناديل"^(٨).

ويذكر ابن عبد الحكم أسماء بعض الأزقة المشهورة بالقسطاط مثل "زقاق القناديل"^(٩) الذى كان يطلق عليه زقاق الإشراف، لأن دار عمرو كانت على طرفه مما يلي المسجد الجامع، ودار كعب بن ضنة على طرفه الآخر مما يلي سوق بربر. ويذكر الكندى زقاق أشهب^(١٠) الذى تقع على جانبيه كل من خطى غافق والأزد،

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٠.

٢ - المصدر نفسه، والصفحة .

٢ - المصدر نفسه، ص ١٢١.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٩.

٥ - على بهجت: خفريات القسطاط، ص ٣٨.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٠.

٧ - ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣٥، ٣٦، ٣٧.

٨ - أنولف جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ٦، رقم (٤٠٢) ص ١٣٢.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٠٩.

١٠ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١١، ١١٢، "وكانت توضع القناديل على أبواب دور الإشراف التى بالزقاق، ولذا سمى بزقاق القناديل" المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٣٩، ويذكر ابن دقماق أن سبب تسمية زقاق القناديل بذلك الاسم بأنه كان يرسمه قنديل على باب عمرو، انظر: الانتصار، ج ٤، ص ١٣.

وزقاق البلاط^(١)، وزقاق أبي حكيم^(٢)، وزقاق حمد^(٣) وزقاق أبي رفاعه^(٤)، وزقاق الرواسين^(٥)، وزقاق الزمامرة^(٦)، وزقاق السعي^(٧) وزقاق عبد الملك بن مسلمة^(٨)، وزقاق بنى عبس^(٩)، وزقاق المكي^(١٠)، وزقاق الموزة^(١١)، وزقاق وردان^(١٢)، ويشير ابن دقماق الى "زقاق الصنم"^(١٣) وسبب تسميته بهذا الاسم وجود صنم به كان يسمى "سرية أبي الهول" ويتفق هذا مع ما رواه ابن الفقيه عن وجود تمثال من الحجر لامرأة بالقسطاط^(١٤)، وما رواه المقدسي من أن "قى القسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها صخرة من حجر"^(١٥).

إنارة الدروب والأزقة :

لقد عرفت مصر الإسلامية استخدام المشاعل في الإنارة وبخاصة في دروبها وشوارعها^(١٦) عرفت باستخدام فوانيس الإنارة في عهد محمد بن طفج الإخشيد، فيذكر القلقشندي أن "أول من حمل الشمع معه على البغال في الليل من ملوك الديار المصرية محمد بن طفج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفراش

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٠٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ١١٩.

٣ - المصدر نفسه، ص ١٢١.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١١٨.

٥ - المصدر نفسه، ص ١٢٠.

٦ - المصدر نفسه، ص ٦٤.

٧ - المصدر نفسه، ص ١١٧.

٨ - المصدر نفسه، ص ١١٥.

٩ - المصدر نفسه، ص ١٢٦.

١٠ - المصدر نفسه، ص ١١٧، ١١٨.

١١ - المصدر نفسه، ص ١٢١.

١٢ - المصدر نفسه، ص ١١٩.

١٣ - ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢١، ٢٢.

١٤ - ابن الفقيه: كتاب البلدان، ص ٦٠.

١٥ - المقدسي: احسن التقاسيم، ط لينن، ص ٢١١.

١٦ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ١، ص ٤١٦.

راكب أمامها، وهو يلتفت في كل قليل يصلحها، فأبدلها الملوك بعده. بهذه الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام ملوك الديار المصرية في الليل^(١).

المسكن :

عندما استقرت القبائل العربية المهاجرة في خططها بالفسطاط، أخذ هؤلاء العرب في بناء المنازل أو الدور على حسب رواية ابن عبد الحكم^(٢)، فيذكر أن عبد الله بن عمرو بن العاص اختط "هذه الدار الكبيرة التي عند المسجد الجامع وهو الذي بناها هذا البناء، وبنى فيها قصرا على تربع الكعبة الأولى" وهذا يدل على بساطة البناء ويتفق هذا مع الدور المكتشفة في أعمال التنقيب^(٣).

كما يدل تعدد أبواب بعض الدور التي تطل على شوارع مختلفة على اتساع الرقعة التي بنيت عليها مثل دار العمدة التي ذكرها ابن عبد الحكم، وذكر أن "بابها في زقاق القناديل، وبابها الآخر مما يلي دار البركة من هناك راجعا إلى سوق بربر إلى قصر ابن جبر"^(٤).

وظاهرة تعدد أبواب المنزل انتشرت في الفسطاط، وهناك أكثر من وثيقة بردية تدل على أن المنزل كان له أكثر من باب^(٥).

وفي دراستنا لأوراق البردي العربية نستطيع أن نعرف المواد التي كانت تستخدم في بناء المنازل بمصر، ففي وثيقة مؤرخة في شهر رجب سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م خاصة بعقد بيع أحد المنازل في مدينة الفيوم، يذكر المتعاقد أن: "جميع هذا المنزل المحدود الموصوف في باطن هذه الحجة بحدده، وحدوده وعيونه وسبله وأرضه وسمايه وطوبه وخشبه وأبوابه وحجارتة، وكل حق هوله داخل فيه وخارج منه شرا ثابت"^(٦).

١ - المصدر نفسه، ص ٤١٦.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٧.

٣ - المصدر نفسه، ص ٩٧؛ جمال محرز: منازل الفسطاط، ص ٣٢٧.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٠٩.

٥ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ج ١، عقد بيع رقم ١٩٠٣، مؤرخ في شهر جمادى الآخرة سنة

٣٤١هـ (الوحدة ١٢)، عقد بيع رقم ١٩٠١ مؤرخ في شهر شعبان سنة ٣٤١هـ، (الوحدة ١١)، ص

ص ١٦٣، ١٦٤، عقد بيع رقم ١٧٩٤ مؤرخ في شهر رجب سنة ١٤٠٦هـ، (الوحدة ١٣)، ص ١٦٦.

٦ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ج ١، عقد بيع رقم ١٧٩٤ (الوحدة ١٣)، ص ص ١٦٦، ١٦٧.

وبالمقارنة فيما جاء فى البرديات، وما اكتشفت حديثا فى الفسطاط^(١) وجد منزل مشيد من الحجر والآجر، حسن البناء لا يزال يحتفظ ببعض قاعاته وحجره ومرافقه الصحية، والدور الأول مشيد من الحجر غير المنتظم وبعض الآجر، وواضح أنه لم يكن للسكن، مما يؤيد قول البعض من أن الأدوار الأرضية بالفسطاط لم تكن للسكنى^(٢).

وترجع أهمية هذا المنزل إلى أنه بثبت صحة ما ورد من بعض الأوصاف عن منازل الفسطاط^(٣).

- وجود منازل من أكثر من دور.
- أن الأدوار الأرضية لبعض هذه المنازل لم تكن للسكنى.
- وجود مزروعات فى الأدوار العليا.
- استخدام الأقبية والقبوات للتغطية^(٤).

وقد لوحظ أن كل دار تحوى على فئتين متجاورين، الفناء الأول تحيط الأروقة بثلاثة من جوانبه، والرواق يفضى إلى قاعة كبيرة، تكتنفها جرتان أو أكثر ويبدو أن نظام الدار ذات الفئتين المستقلين اللذين تحيط بكل منهما قاعات وملحقات أملت ظروف احتجاب النساء عن الغرباء فخصص لهن فناء مستقل بملحقاته، وجعل الفناء الآخر لرب الدار والغرباء^(٥).

هذا وكانت معظم دور الفسطاط فى بادئ الأمر ذات طابق واحد، إذ لم يكن هناك داع للارتفاع بالمسكن رأسيا لتوفر المساحة الأفقية، ويضيف ابن عبد الحكم

١ - اكتشفت البعثة الأثرية عام ١٩٦٤ م منزلا بمدينة الفسطاط يعد المثل الوحيد إلى الآن فهو من أكثر من دور، فى حين أن المنازل السابق الكشف عنها لم يكن باقيا منها الا تخطيطها وارتفاع بسيط جدا لجدرانها. انظر جمال محرز: منازل الفسطاط، ص ٣٢٨.

٢ - يذكر المقرئى: "وتكون بها الدار سبع طبقات وستا وخمسا، وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس، ومعظم بنياتهم بالطوب، وأسفل دورهم غير مسكون". انظر المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٤١، آدم متر: الحضارة الإسلامية، ج ١، ٢، ط القاهرة ١٩٤٧م، ص ١٩٩.

٣ - جمال محرز: منازل الفسطاط، ص ٢٣.

٤ - جمال محرز: منازل الفسطاط، ص ٢٣.

٥ - على بهجت: حفریات الفسطاط، ص ٥٢.

سببا آخر^(١)، إذ يذكر أن خارجة بن حذافة "أول من بنى غرفة بمصر، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فكتب إلى عمرو بن العاص: "أنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه، فاذا أتاك كتابي هذا فأهدمها"^(٢).

يتضح من هذا أن التقاليد الإسلامية في صدر الإسلام، كانت ترى في ذلك استعلاء على الناس غير محبب، إلا أنه بمضى الوقت صار تعدد الطوابق أمرا معتادا، فيذكر ابن عبد الحكم أن معاوية بن أبي سفيان جعل دار الرمل للمسلمين، تنزلها ولاتهم، ولم يكن بنى منها الا سفلها حتى بنى علوها القاسم بن عبد الله ابن الحجاب^(٣).

ويصف ابن حوقل الفسطاط بقوله: "والدار تكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات، وربما سكن في الدار المائتان من الناس، وبالفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز بن مروان كان يسكنها ويصب لمن فيها في كل يوم مهدنا هذا أربع مائة راوية ماء، وفيها خمسة مساجد وحمامان، وغير فرن لخبز عجيين أهلها... وأكثر سفل دورهم غير مسكون"^(٤).

كما وصفها ناصر خسرو بقوله: "وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات وسمعت من ثقات أن شخصا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار وحمل إليها عجلا رباه فيها، حتى كبر ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر"^(٥).

والخلاصة :

أن الدور في أيام عمرو بن العاص أى في الفترة التي تلت الفتح مباشرة كان تصميمها يميل إلى البساطة، وعدم الإسراف، حتى أن دار عمرو نفسه وصفت بالدار

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٠٤.

٢ - المصدر نفسه، والصفحة .

٣ - المصدر نفسه، ص ١٠١.

٤ - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٦؛ أدم مئز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ٢، ص ١٩٩.

٥ - ناصر خسرو: سفرنامه، نقله للعربية يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ٥٨.

الصغرى^(١)، وكانت من الطوب اللبن^(٢).

نستنتج أيضا أن المسلمين منذ أول العصر الإسلامي كانوا حريصين غاية الحرص على المحافظة على حرمان الناس داخل بيوتهم^(٣)، وأن المنازل منذ العصور المبكرة لم تكن لها نوافذ أو شبابيك كبيرة تطل على الطرق والشوارع. كذلك كانت المنازل في أول الأمر تتكون من طابق أرضي واحد، ثم أخذت تتعدد طوابقها بعد الفتح بفترة ليست طويلة وفي خلافة عمر بن الخطاب نفسه^(٤)، غير أن النوافذ في الطوابق العليا كانت صغيرة، وجلساتها - أي حافتها السفلى - مرتفعة عن أرضية الطابق بأكثر من مترين حتى لا يتمكن شخص متوسط الطول من أن يطل منها على الجيران، حتى ولو وقف على كرسي^(٥)، كل ذلك يدل على أن بناء المنزل كان يخضع لقيود فرض على الناس العمل بها، وكان على الوالى أن يراعى تطبيقها ويلزم الناس باحترامها^(٦).

ومنذ بداية العصر الأموي (٣٨هـ - ١٣٢هـ / ٦٥٨ - ٧٤٩م) أصبح هناك ميل إلى الضخامة والفخامة، وشيدت بعض الأبنية في ذلك العصر بحيث بلغت من الكبر والزخرف حدا عظيما^(٧)، بعد أن كان التقشف والاعتدال والبساطة سمة من سمات البناء بعد الفتح مباشرة، فنجد أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد أضاف إلى الدار الصغرى السابقة التي بناها والده، أو بنى مكانها بمعنى أصبح دارا كبيرة كانت تمتاز بالتأنق والاتساع في أرجائها حتى سميت بالقصر.

١ - فريد شافعى: العمارة العربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٥٣؛ عبد الرحمن زكى: خطط القسطنطينية، ضمن دراسات عن ابن عبد الحكم، ص ٦٤؛ محمود الحسينى: التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، كلية الآثار ١٩٨٧ م، (رسالة غير منشورة)، ص ٤٨٠.

٢ - عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وأثارها من جوهر القائد حتى الجبرتي المؤرخ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦، ج ١، ص ١٤.

٣ - ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٣٥٨.

٤ - محمود الحسينى: التطور العمرانى، رسالة دكتوراة، ص ٤٨٢؛ محمود عكوش: مصر فى عهد الإسلام، ص ٢٥٥.

٥ - فريد شافعى: مرجع سابق، ص ٣٥٤؛ عبد الرحمن زكى: خطط القسطنطينية، ص ٦٤.

٦ - محمود الحسينى: مرجع سابق، ص ٤٨٢.

٧ - على بهجت: حفريات القسطنطينية، ص ١١.

كما بنى عمر بن مروان بن الحكم قصرا آخر امتاز بصفات مشابهة من التأنق والاتساع^(١).

أما بالنسبة لتصميم الدور والمنازل التي تعود إلى فترة ما قبل العصر الطولوني، يذكر الدكتور فريد شافعى - اعتمادا على بقايا المساكن المبكرة في العالم الإسلامي - أنها كانت تبنى على نمونجين أساسيين أحدهما سامى والآخر عراقى^(٢).

وتشير أوراق البردى العربية إلى عبارة أسفلها وعلوها، التي وردت في معظم عقود العقارات منذ نهاية القرن الثانى للهجرة^(٣)، فقد وردت بشأنها تفسيرات متعددة^(٤)، ويرى جروهمان أن هذه العبارة تختلف عما يماثلها في الوثائق الديموطيقية واليونانية، ولكنها تعادل عبارة "أرضها وسماؤها"^(٥)، ويبدو أن المقصود بهذا التعبير هو الفضاء الذى يعلو العقار، وقد صيغ هذا التعبير زيادة في الاحتياط حتى إذا ما رغب الملك الجديد في تعلية العقار بالبناء لا يجد صعوبة تواجهه ممن يحيطون به من جيران وعقارات^(٦). أن تأكيد هذه العبارة لدليل قاطع على تعدد طبقات المسكن عندما يريد صاحبه فى البناء بشرط إلا يعلو بعضها عما يجاورها.

العمارة الدينية الإسلامية :

المساجد^(٧) من أهم عمارة المدينة الإسلامية، وأهم ما تتمثل فيها العمارة العربية،

١ - فريد شافعى: مرجع سابق، ص ٣٥٥.

٢ - فريد شافعى: مرجع سابق، ص ٣٥٤.

٣ - انظر: مجموعة بردى دار الكتب المصرية بالقاهرة (عقود بيع) أرقام ١٧٩٢، ١٧٩٤، ١٧٩٦، ١٨٩٩، ١٩٠١، ١٩٠٤، ١٧٩٨، ١٧٩٧.

٤ - هذه الآراء نقلها جروهمان عن:

E. Carusl. M.Y. Berchem

فى أوراق البردى العربية، ج ١، ص ١٣٧، ١٣٨، وانظر كذلك

A Dietrich: Arabic Papyri aus der Hamburger Staats universitat Bibliothek & 61/23-29.

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ١، ص ١٣٧، ١٣٨.

6 - Grohmann. Heischelheim: Die Arab papyri aus der giessner univers Biblio, 1960, P. 29-30.

٧ - المسجد: هو الموضع الذى يسجد فيه، قال الزجاج. كل موقع يتعبد فيه فهو مسجد. والجامع نعت للمسجد، وإنما نعت بذلك لأنه علامة الاجتماع وما كانوا فى الصدر الأول يفردون كلمة "الجامع" وإنما كانوا تارة يقتصرون على كلمة المسجد، وطورا يضيفونها إلى الصفة فيقولون "المسجد الجامع" أو مسجد الجامع" ويطلق هذا الاسم عادة على المسجد الكبير لأنه مكان اجتماع الناس. انظر: المقريزى: الخطط، ج ٢ ص ٤٠٨.

فقد حرص المسلمون على بناء المساجد الجامعة عند إنشائهم المدن^(١).
ويعتبر مسجد البصرة أول مسجد انشئ بعد الفتح ١٤هـ/٦٣٥م في أول مدينة
أسست في الإسلام^(٢)، وفي مدينة القسطنطينية أسس أول مسجد بمصر الإسلامية وهو
مسجد عمرو بن العاص، أو المسجد الجامع أو المسجد العتيق أو تاج الجوامع^(٣)،
وكان بنائه ٢١هـ/٦٤٢م^(٤).

يشير ابن عبد الحكم إلى موضع المسجد فيقول: وقد شيد على الشاطئ الشرقي
للنيل من بحريه، وهي الجهة الشمالية، وأن ما حوله كان حدائق وأعنابا^(٥)، وكانت
المسافة بينه وبين شاطئ النهر حوالي مائتي متر، إلا أن المسافة الآن بين الجامع
وبين شاطئ النهر حوالي خمسمائة متر لانحسار ماء النهر^(٦).

وكان المسجد في بدايته بسيط البناء^(٧)، طوله خمسين ذراعاً في عرض
ثلاثين، ولم يكن بجدرانه شيء من البياض أو الزخرف، وكانت أرضيته مفروشة
بالحصباء^(٨)، وكان الطريق يحيط به من كل جهة، وجعل له عمرو ستة أبواب، في
الجهة الشرقية المواجهة لداره بابان، ومثلها في الجهة البحرية والشمالية، وبابان
في الجهة الغربية، وكان سقفه مطأطأ جداً، وفي فصل الصيف يجلس الناس بفنائمه
في كل ناحية^(٩).

- ١ - على حسن الخربوطلي: العرب والحضارة، ص ١٥٠.
- ٢ - البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٤٦، ٣٥١؛ المقرئ: الخطط، ج ٢ ص ٢٤٦.
- ٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩١، ٩٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٦٥؛
القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٣٧؛ المقرئ: الخطط، ج ٢ ص ٢٤٦.
- ٤ - ابن دقماق: الانتصار، ج ١، ص ٥٩؛ المقرئ: الخطط، ج ٢ ص ٢٤٦؛ ابن تغري بردي: النجوم
الزاهرة، ج ١، ص ٦٧؛ أبو الفدا: المختصر، ج ١، ص ٧٢؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص
١٠٣، ١٠٤.
- ٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩١، ٩٢، ويشير البعض من المؤرخين إلى موضعه كان خطه القيسية بن
كلثوم التجيبى انظر: القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٢٥٤؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٤٦.
- ٦ - فريد شافعي: العمارة العربية في مصر "عصر الولاة" ج ١، ص ٢٦٣.
- ٧ - لم يكن لمسجد عمرو في البداية محراب مجوف، بل عمدة قائمة بصدر الجدار. انظر: ابن عبد الحكم:
فتوح مصر، ص ٩١، ٩٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٦٥؛ القلقشندي: صبح
الاعشى، ج ٣، ص ٣٣٧؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٠٣، ١٠٤.
- ٨ - المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢٤٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٦٧؛ ابن ظهيرة:
الفضائل الباهرة، ص ١٠٤.
- ٩ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٣٧.

وأول من زاد في جامع عمرو مسلمة بن مخلد الأنصاري وإلى مصر^(١) من قبل معاوية في سنة (٥٣هـ/٦٧٢م)، وبنى به أربعة صوامع في أركانه الأربعة، ولم يغير في البناء القديم، وإنما زاد من جهة الشمال رحبة واسعة وقيل أنه زاد كذلك في شرقية حتى ضاق الطريق بينه وبين دار عمرو، وفرشه بالحصر، وفي سنة (٧٩هـ/٦٩٨م) أمر عبد العزيز بن مروان بهدم جدرانه وزيادته في كل من وجهتيه الغربية والشمالية^(٢).

وفي سنة ٨٩هـ/٧٠٧م في ولاية عبد الملك أمر برفع سقف المسجد^(٣) وفي سنة ٩٢هـ/٧١٠م قام قرّة بن شريك وإلى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد وإعادة بنائه، وادخل فيه جزءا من دار عمرو بن العاص والطريق الذي كان يفصل بينها وبين المسجد^(٤)، كما أمر بعمل محراب مجوف بجدار القبلة في موضع المحراب القديم، ومن ثم عرف باسم محراب عمرو^(٥)، كما نصب له منبرا خشبيا ونزع المنبر القديم^(٦).

وعبد الله بن ظاهر وإلى مصر من قبل المأمون من أهم الولاة الذين أدخلوا زيادة في المسجد الجامع سنة ٢١٣هـ/٨٢٧م، فتضاعفت مساحته من الناحية الغربية، فأدخل فيه الزقاق المعروف بزقاق البلاط، وجزء كبير من دار الرمل^(٧). وترجع أهمية مسجد عمرو بن العاص رغم تأسيس جامعي العسكر^(٨) وجامع

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٣١؛ الكندي: الولاة، ص ٢٨، ٣٩، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٦٨.

٢ - الكندي: الولاة، ص ٥١؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٠٥.

٣ - الكندي: الولاة، ص ٦٠؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٦٦، ٦٧.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٣١؛ الكندي: الولاة، ص ٦٥؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٠٤، ١٠٥.

٥ - المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢٤٦.

٦ - حول المبنى وبنائه. انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٢؛ الكندي: الولاة، ص ٦٥؛ ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٦٧.

٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٣٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٦٥.

٨ - جامع العسكر. انظر المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢٦٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٣٠.

ابن طولون^(١)، إلى نه ظل مكان الصلاة الجامعة للمسلمين^(٢).

وقد وصفه الرحالة المقدسى حين زار مصر فى منتصف القرن الرابع الهجرى بقوله: "بأنه أعمر موضع فى مصر"^(٣)، ولم تقتصر أهمية مسجد عمرو بن العاص على أداء الشعائر الدينية بل كان دار عبادة وإدارة وقضاء، ثم مدرسة جامعة تعقد فيها مجالس العلوم والآداب على اختلافها، يقول الطبرى: "أن ولاة الخلفاء الراشدين اتخذوا من المساجد أماكن مختارة يصرفون فيها شئون الحكم ويحفظون فيها أموال المسلمين"^(٤).

مساجد القبائل :

كان بجانب المسجد الجامع الذى أنشأه عمرو فى الفسطاط عدة مساجد أخرى أنشأتها القبائل المختلفة فى خططها، فيذكر ابن عبد الحكم أن أول مسجد خاص عرفته الفسطاط كان "فى أصل حصن الروم" عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس، وكان يسمى مسجد القلعة^(٥). وهناك مساجد أخرى أنشئت بالفسطاط مثل مسجد بادي^(٦) الذى يقع فى خطة قبيلة غافق، ومسجد إبراهيم القراط^(٧) فى خطة قبيلة "دهنة" إحدى بطون غافق، مسجد سييان^(٨)، ومسجد أحذب^(٩) الذى كان يجاور خطة قبيلة الصدف، ومسجد القرون الذى كان يقع

١ - جامع ابن طولون: انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص ٢٦٤؛ القلقشندي: صبح الاعشى،

جـ٢، ص ص ٣٤٠، ٣٤١؛ المقرئى: الخطط، جـ٢، ص ٢٦٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١،

ق ١، ص ص ١٦٢، ١٦٤؛ ابن جبير: الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص ٢٦.

٢ - المقرئى: الخطط، جـ٢، ص ٢٤٦، ٢٤٨، ابن جبير: الرحلة، ص ٢٢.

٣ - المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٩٩.

٤ - الكندى: الولاة، ص ٤٤٣؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص ١٩١؛ القلقشندي: صبح

الاعشى، جـ٢، ص ٣٣٨؛ المقرئى: الخطط، جـ١، ص ٢٥٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١،

ق ١، ص ١٠٤؛ على الخربوطلى: العرب والحضارة، ص ١٥٥.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٢.

٦ - المصدر نفسه، ص ١٢٢.

٧ - المصدر نفسه، ص ١٢٢.

٨ - المصدر نفسه، ص ١٢١.

٩ - المصدر نفسه، ص ص ١٢١، ١٢٢.

جنوب سوق وردان في خطة بلى^(١)، ومسجد عبد الله ابن عبد الملك بن مروان^(٢). كما يشير ابن عبد الحكم إلى مسجد سمي مسجد الأبيض "وكان قاضي الفسطاط يجلس فيه للقضاء سنة ١٤٤هـ/٧٦١م^(٣) ومسجد لخم^(٤)، ومسجد عنزة من ربيعة^(٥)، ومسجد مهرة، ومسجد ذى أصبح وهمدان بالجيزة^(٦)، وأصبحت هذه المساجد تعرف فيها بعد باسم مساجد الصلوات الخمس^(٧)، حيث أصدر مسلمة بن مخلد أو امره سنة ٥٣هـ إلى القبائل بأن تبنى كل منها منارة لمسجدها^(٨). ويشير ابن عبد الحكم إلى أن مساجد الإسكندرية خمس "مسجد موسى النبي عند المنارة أقربها إلى الكنيسة^(٩)، ومسجد سليمان ثم مسجد ذى القرنين أو الخضر عليهما السلام"، ولكنه لم يشير إلى موضع مسجد عمرو بن العاص بالإسكندرية^(١٠).

المرافق العامة :

الأسواق :

يشير ابن عبد الحكم إلى الأسواق التي وجدت مع خطط القبائل نفسها بين الدور العامرة بسكانها، وأنها لم تكن في أماكن معزولة خاصة بها، وكان أكثرها ازدهار القريبة من المسجد الجامع^(١١) بالفسطاط، ومن أمثلة ذلك سوق "بربر" الذي كان يقع في خطة غفار قريبا من الزقاق المشهور بالفسطاط بزقاق القناديل، وكان إلى جواره كثير من الدور المشهورة مثل نور مطر، ودار النخلة، وهي خطة

- ١ - المصدر نفسه، ص ١٢٥.
- ٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، صفحات ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ٢٣٧؛ الكندي: الولاة، ص ٥٩، ٤٠٦، ٤٠٧؛ ابن زولاق: اخبار سيويه المصري، ص ٤٤، ٤٦.
- ٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٤٣.
- ٤ - المصدر نفسه، ص ١١٩.
- ٥ - المصدر نفسه، ص ١١٦، ١١٨.
- ٦ - ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ١٢٧.
- ٧ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٦٥.
- ٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٣١؛ الكندي: الولاة، ص ٣٨.
- ٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤١؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٠٢.
- ١٠ - ابن عبد الحكم: نفس المصدر السابق، ص ٤١، ٤٢، ١٣٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ص ٤٨، ٤٩.
- ١١ - ابن عبد الحكم: نفس المصدر السابق، ص ١٠٩، ١١١، ١١٩؛ جمال محرز: منازل الفسطاط، ص ٣٢٦.

كعب بن ضنه، ويذكر الكندي أنه "سمى بسوق البربر لنزول قوم من البربر على كعب بن ضنه فنسب الموضع اليهم"^(١).

وكذلك سوق وردان^(٢)، الذي كان يقع بين دور مسلمة بن مخلد الانصارى، وأبى رافع وعقبة بن عامر، ودار الزبير بن العوام، وأيضا سوق الحمام^(٣)، الذي يقع بين خطط عبادة بن الصامت، وابن رمانة، ودور بنى وردان، وسوق القناديل الذي يقع على الجانب الشمالى لمسجد عمرو، وهو من أشهر أسواق الفسطاط^(٤).

ويذكر ابن دقماق^(٥) أنه كان بجوار المسجد الجامع عدة سويقات مثل "سويقة دار فرج" الواقعة فيما بين رحبة دار جوهر وباب مسجد عمرو "وسويقة مسجد العيثم"، وسويقة مسجد القرون فى ظاهر مسجد القرون الذى يقع فى خطة الحمراء الوسطى^(٦) وسويقة مسجد عبد الله فى الظاهر جنوب الطريق المؤدى إلى المسجد الجامع، وكانت هذه السويقة شرقى مسجد عبد الله^(٧).

يقول ابن عبد الحكم^(٨): "كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب أنا قد اختططنا لك دارا عند المسجد الجامع، فكتب إليه عمر أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين... فجعلت سوقا فكان يباع فيها الرقيق.

وتشير أوراق البردى العربية إلى كثير من أنواع السلع التى كانت تباع فى أسواق مصر الإسلامية، فهناك خطاب خاص ببيع جارية نوبية من الرقيق، يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى^(٩). وهذا دليل واضح على

١ - ابن عبد الحكم: نفس المصدر السابق، ص ١٠٩، ١١١، ١١٥، ١١٩، ٢٣٠، الكندي: الولاة، ص ٢٠٥.

٢ - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص ١٠٠، ١٠١، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٣٢، الكندي: الولاة، ص ١١٣.

٣ - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص ٦٣، ١٠٤، ١١٣، الكندي: الولاة، ص ١١٣.

٤ - الكندي: الولاة، ص ٢٦٢، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١١٩، العمرى: مسالك الابصار، ج ١، ص ٢٢٤.

٥ - ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣٣.

٦ - المصدر نفسه، ص ٨٦.

٧ - الكندي: الولاة، ص ٤٧، ٤٠٨.

٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٢.

٩ - أدولف جروهمان: أوراق البردى، ج ٥، (خطابات للتموين رقم ٢٩٥) (الوحدة ٦) ص ٣٥.

وجود سوق للرقيق مع بداية وضع خطط القبائل في مصر لبيع وشراء الرقيق، حتى وقت ازدهاره في عهد أحمد بن طولون^(١).

و"دار الأنماط" المتخصصة في بيع الأقمشة الحريرية، وعديد من البضائع الواردة من البلاد المختلفة^(٢)، ودليلنا على ازدهار الحركة التجارية هو ما نستمدّه من المراسلات البردية، فهناك وثيقة ترجع إلى القرن الرابع الهجري^(٣) (التاسع الميلادي) بشأن طلب شراء ثياب.

- بسم الله الرحمن الرحيم احب ان تشتري لى اعزك الله إذا رزقك الله السلامة وبلغك.

- باربعة طرز حفيه مليح الرقعة رطب خليع فيه بقيا ألبس ابراسى بثلثة دنانير^(٤).

- كل أعجب إلى إن شاء الله وثوب شى جديد خفيف واسع العرض.

- من تسعة أشبار بوجه ولا شبت خفيف الوقع رقيق الحواشى مليح.

- مطور بسواد أو بجمرة طياز رقيق شطوى^(٥) إن شاء الله وثوب تربولى.

- معسولة إن شاء الله.

وتحدد لنا هذه الوثيقة أسماء بعض الأسواق التي كانت مشهورة بصناعة النسيج وهي بلدة شطا في الدلتا، وهي المشهورة بنسيجها الرفيع^(٦).

ويشير الكندى إلى أسواق السلع الغذائية مثل سوق السماكين لتجارة السمك، وسوق الزياتيين لتجارة الزيت^(٧).

١ - الكندى: الولاة، ص ٥٦٩.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص ١٠٠، ١٠١؛ العمرى: المسالك، ج ١، ص ٢٣٤.

٣ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ٥، (خطابات تموين رقم ٢٠٨)، ص ص ٧٠، ٧١.

٤ - الكلمات (حفيه، الرقعة، رطب، خليع فيه، بقيا، اللبس، منقوطة في الأصل، كلمة (حفيه) يحتمل أنها نسبة إلى نسيج صنع في (الحفا) غربى حلب انظر: ياقوت الحموى: معجم، ج ٢، ص ٢٩٦، أو أن تكون منسوبة إلى آلة يستعملها تسمى (حف) وهي نوع من المشانع التي يستخدمها الحائك في إعداد هذا النوع من النسيج. انظر: جروهمان: أوراق البردى العربية، حاشية ص ص ٧١، ٧٢.

٥ - شطا مدينة عند تيس وإليها تنسب الثياب الشطوية، انظر المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٢٦.

6 - Maspers G. Wiet, Matericau, Pour Servir a la geographie de L'Egypte, P. 112.

٧ - الكندى: الولاة، ص ٥٦٩.

وكانت الأسواق تأخذ أسماء بعض الجنسيات مثل سوق المغاربة، وسوق العراقيين، وسوق البربر لنزول عدد من البربر على كعب بن ضنه فسمى السوق باسمهم^(١) ويصف الرحالة الذين زاروا القسطنطينية ما كانت تتمتع به أسواقها من عمارة وإزدهار حيث "تكثر بها المتاجر والأسواق والمعاشية وساحلها كثير المراكب وسكانها كثيرون"^(٢).

الحمامات :

قال ابن الأخوة^(٣)، خير الحمامات ما قدم بناؤه، واتسع هواؤه وعذب ماؤه...، فالحمام يشتمل على منافع ومضار، فأما منافعه فتوسيع المسام واستفراغ الفضلات، وتحبس الطبع إذا كانت سهولته عن هيضة وتنظيف الوسخ والعرق، فتذهب الحكمة والجرب، والأعياء، وترطب البدن، وتجود الهضم، وأعظم مضارها صب الماء الحار على الأعضاء الضعيفة وقد يستعمل على قرب عهد بالشبع بعد الهضم الأول فإنه يرطب البدن ويسمنه ويحسن بشرته.

ويذكر ابن عبد الحكم أن القسطنطينية عرفت الحمامات، وأن أقدم تلك الحمامات حمام الفار الذي بناه عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد سمي بهذا الاسم لصغر حجمه، إذا ما قورن بحمامات الروم الكبيرة^(٤).

وقد كان الحمام في بداية الأمر منفصلاً عن البيت، ولم يكن جزءاً منه، وكان استعماله لعامة الناس مثل حمام سوق وردان^(٥)، وحمام سهل^(٦)، وحمام زيان بن عبد العزيز^(٧)، وحمام الكباش^(٨) وحمام الحمراء^(٩).

١ - المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

٢ - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩٨.

٣ - ابن الأخوة: معالم القرية، ص ٢٤٠، ٢٤١؛ جاستون قيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص ٢٠٠.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٩٦.

٥ - المصدر نفسه، ص ١٠٠، ١٣٧.

٦ - المصدر نفسه، ص ١١٢، ١٢١.

٧ - المصدر نفسه، ص ١١٤.

٨ - المصدر نفسه، ص ١٣٦.

٩ - المصدر نفسه، ص ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٩.

وسائل الانتقال :

كانت الدواب وسيلة الانتقال الرئيسية فى مصر ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمير المسرجة فى ذهابهم وأيابهم من البيوت إلى السوق، وفى كل حى على رأس الشوارع حمر كثيرة فيها برادع مزينة يركبها من يريد نظير أجر زهيد^(١).

فكان أكثر الحمير للانتقال مألوفاً فى ذلك العصر بين سكان المدن ولا سيما الفسطاط، أما فى الريف فكان معظم أهل الطبقة الوسطى يمتلكون الحمير لهذا الغرض، وكان لكثير من أهل الطبقة الوسطى فى المدن لهم حمير ينتقلون بها ويعيرونها أصدقاءهم فى بعض الأحيان^(٢).

كما كانت السفن تستخدم فى الانتقال من الفسطاط إلى جزيرة الروضة، وكذلك إلى الجزيرة، يقول ابن حوقل: "والفسطاط على شمال النيل، وهى مدينة حسنة ينقسم النيل لديها قسمين، فيعدى من الفسطاط إلى عدوه أولى فيها أبنية حسنة، ومسكن جليلة تعرف بالجزيرة، ويعد إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة. ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم الثانى كالجسر الأول إلى أبنية جليلة، ومسكن على الشط الثانى تعرف بالجزيرة"^(٣).

ويشير ابن الفقيه إلى وسائل المواصلات فى مصر بقوله: "وقالوا ولنا الحمير المرسية والبغال المصرية، والخيال العتاق والمطايا من الإبل"^(٤) وهى التى كانت تستخدم فى نقل المسافرين والتجار.

وتشير أوراق البردى العربية إلى استعمال السفن فى شحن السلع، فهذه وثيقة ترجع إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، خاصة بخطاب شحن سفينة من أدفو إلى الفسطاط^(٥).

١ - ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٦١، ٦٢.

٢ - ابن زولاق: أخبار سيوية المصرى، ص ٥٠؛ وينكر القلقشندى: حول وسائل المواصلات فى مصر؛ والخيول المسومة والبغال النفسية، والحرر الفارمة مما ليس له نظير فى إقليم من الأقاليم "القلقشندى: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٣١٠؛ جاستون قيت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص ٦٩، ٧٠.

٣ - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٤٦.

٤ - ابن الفقيه: مختصر تاريخ البلدان، ص ٦٩.

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ٥، لوحة ١٢٠، ص ١٢٥، ١٢٦.

الفصل الخامس

العادات الاجتماعية الخاصة عند العرب

- الزواج فى ضوء أوراق البردى العربية.
- الولادة والتسمية.
- الختان.
- الملابس وتطورها فى مصر.
- الطعام والشراب.
- المآتم والأحزان.

الفصل الخامس

العادات الاجتماعية الخاصة عند العرب

الحياة الاجتماعية الخاصة عند العرب المسلمين :

الزواج في ضوء أوراق البردي العربية :

أقرت الشريعة الإسلامية أشياء من العرف والعادات^(١) التي كانت موجودة عند العرب قبل الإسلام، وأبطلت أشياء أخرى^(٢).

أما ما أقرته الشريعة فهو يتفق وكريم العادات وفضائل الأخلاق. فقد كان العرب في جاهليتهم - بل وشعوب أخرى^(٣) - يحرمون على الرجل أن يتزوج بأمه، وبنته وأخته وعمته، وخالته، وبنت الأخ، وبنت الأخت، فجاء الإسلام، وأقرهم على هذا العرف، وأيد هذا التحريم في قوله تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ"^(٤)، كذلك كان كثير من العرب لا يجمعون بين الأختين، فأقر الإسلام هذا العرف، وكانوا يكرهون زواج أكبر الأبناء بزوجة أبيه بعد وفاته، بل كثيرا منهم كانوا يمقتون هذا الزواج ويبغضونه، ولذلك سموه زواج المقت، وأطلقوا على الأبن الذي يولد نتيجة هذا الزواج (المقتى)^(٥)، فأقر الإسلام هذا العرف، "وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا"^(٦).

١ - أحمد فهمي أبو سنة: العرب والعادة في رأى الفقهاء، مصر ١٩٤٧، ص ٩، ص ١٠.

٢ - ابن نجيم: الاشباه والنظائر على مذهب أبى حنيفة النعمان، القاهرة ١٢٩٨هـ، ج ١، ص ١٢٦ وما بعدها؛ ابن عابدين: رسائل ابن عابدين، ط الأستانة سنة ١٣٢٥هـ، ج ٢، ص ١١٥.

٣ - انظر: الزواج ومقارنته بقوانين العالم، لزهدي يكن، حيث أورد أمثلة متعددة لما كانت عليه الشعوب من عادات وتقاليد تتصل بمسألة الزواج. زهدي يكن: الزواج ومقارنته بقوانين العالم، بيروت ١٩٥٢م.

٤ - سورة النساء ٢٣/٤.

٥ - عبد السلام الترماني: الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، عالم المعرفة، العدد (٨٠)، ١٩٨٤م، ص ٥٣.

٦ - سورة النساء ٢٢/٤، وانظر كذلك تفسير ابن كثير، ط بيروت ١٩٦٩م، ج ١، ص ٤٦٨.

حقيقة أن العرب عرفت أنواعاً أخرى من الزواج مثل نكاح الاستبضاع^(١) ونكاح الخدن^(٢)، وزواج المتعة^(٣)، وزواج الشغار^(٤)، وتعدد الزوجات، وقد حرمت الشريعة الإسلامية هذه الأنواع من الزواج لمضارها الاجتماعية والخلقية واختلاط الأنساب، وعدم موافقة هذه الأنواع من النكاح للفطرة السليمة.

أما تعدد الزوجات فقد قيدته الشريعة بأربع زوجات فقط^(٥)، وأباحته لضرورات أحصاها فقهاء الشريعة، وضعت شروطاً له من أهمها العدل بين الزوجات، ومع كل هذه الشروط والقيود نجد أن الإسلام يحث على الاكتفاء بزوجة واحدة يتضح لنا ذلك في قوله تعالى "إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ"^(٦).

كانت هذه أنواع الزواج عند العرب في جاهليتهم، فما هو نظام هذا الزواج، وما هي الطريقة التي كان يتم بها؟

نستطيع أن نستخلص من رواية أم المؤمنين عائشة (رضي) أن جماهير من العرب كانت تتبع نفس النظام الذي ساد في الدولة الإسلامية، فالمرأة تخطب إلى وليها، وتعطى صداقها، ففيما ترويه عائشة قولها:

"كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء، منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها"^(٧).

١ - نكاح الاستبضاع: وهو أن يقول الرجل لامرأته إذ طهرت من حيضها: ارسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويفعل ذلك رجاء نجابة الولد، فيأمرها بالاستبضاع من ذي شهرة أو فصاحة أو نحوهما. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٤١.

Huart: histoire des Arabes. Paris, 1912, P. 18.

د. عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، ص ٥٤، عبد السلام الترماني: الزواج ص ١٧.

٢ - نكاح الخدن: وهو أن يكون لها خليل في السر يعاشرها معاشرة الأزواج، وقد حرمه الله تعالى بقوله: "مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مَتَّحِذَاتٍ أَخْذَلْنَ" سورة النساء ٢٥/٤، عبد السلام الترماني: الزواج، ص ٢٣.

٣ - نكاح المتعة: وهو التزوج بالمرأة لمدة معينة، وقد أبيح في صدر الإسلام للضرورة القصوى مرة أو مرتين في المغازي خوف الزنا، ثم حرمه الله تعالى بتاتاً. انظر: يكن: الزواج، ص ٦، ٧، انظر موقف الإسلام من نكاح المتعة. عبد السلام الترماني: الزواج عند العرب، ص ٥٤: ٦٠.

٤ - الصنعاني: سبل السلام، ج ٣، ط الرياض ١٩٧٧م، ص ٢٠٠.

٥ - انظر: قوله تعالى: في سورة النساء ٣/٤ "فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ".

٦ - سورة النساء ٣/٤.

٧ - راجع البخاري (باب النكاح) وأبو داود (باب النكاح).

ففى عصر الجاهلية القريبة كان الزواج مشافهة، فلم يعرف العرب عقود الزواج المكتوبة، وكان الزواج يتفق عليه بين ولى الزوجة وكان فى الأغلب أباهما. وبين وكيل الزوج. وكان فى الأغلب كذلك أباه. وفى حالات نادرة جدا كان الزوج يتولى بنفسه اتمام إجراءات الزواج مع ولى الزوجة، ولكنه لا يتم إلا فى حضور عدد من الأهل والأصدقاء فى حفل يقام لهذا الزواج، وهكذا كان العقد غير مكتوب. وظلت هذه الطريقة سائدة حتى نهاية القرن الثانى واولى القرن الثالث الهجريين (٨-٩م) الميلاديين^(١).

أما فى مصر خاصة فالبعض يذكر أن عقود الزواج عرفت منذ فجر التاريخ، ويستدلون على ذلك بأن أول عقد زواج عثر عليه يرجع تاريخه إلى سنة ٣٦٥ ق.م، وأن النص المدون فى هذا العقد يعطى بيانا عن قيمة الهبة المالية من الزوج لزوجته، وهو ما يعبر عنه بالصداق فى الشريعة الإسلامية^(٢).

ووثائق البردى الخاصة بعقود الزواج فى مصر الإسلامية ترجع إلى عصور زمنية مختلفة، تنحصر فيما بين نهيات القرن الأول والقرن الرابع الهجريين، وعلى سبيل المثال:

- عقد زواج رقم ٢٥٢٩٥، ومؤرخ فى سنة ٩١هـ/٧٠٩م^(٣).
- وعقد الزواج رقم ١٥٩ مؤرخ فى شهر ربيع الأول ٢٥٩هـ/يناير ٨٧٣م^(٤).
- وعقد الزواج رقم ١٢٨ مؤرخ فى شهر شوال ٢٦٤هـ/يونية ٨٧٧م^(٥).

١ - انظر: زواج محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) قبل الرسالة من خديجة بنت خويلد وعدم وجود عقد زواج تحت أيدى الباحثين، وزواج على بن أبى طالب من فاطمة (رضى) وعدم وجود عقد زواج مكتوب. ابن كثير، ج٧، ص٢٤٣؛ السمرقندى: تحفة الفقهاء، ج١٧٤-١٧٨.

٢ - انظر: بردية (Prisse Papyrus) يرجع تاريخها إلى حوالى ٤٥٠٠ عام، وتتحدث عن الأسرتين الخامسة والسادسة للوزير بتاح حتب فى الأسرة الخامسة، وتوضح علاقة الزوج بزوجته. حسن رجب: البردى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ص١٢٩، حسن كمال: الطب المصرى القديم، ج٣، ٤، مجلد ٢، ١٩٦٤، صفحات ٦٧، ١٧٥، ١٨٨؛ شفيق علام: الزواج فى مصر القديمة، مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس ديسمبر ١٩٨١م.

٣ - بردية غير منشورة، رقم ٢٥٢٩٥، متحف الفن الإسلامى، (مجموعة هنرى أمين عوض) انظر: ملحق الدراسة، شكل رقم (٣).

٤ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، عقد زواج رقم ١٥٩، ص٧٣-٧٨.

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، عقد زواج رقم ١٢٨، ص٧٨-٨٤.

- وعقد الزواج رقم ٨٦+١٤٠ مؤرخ في شهر شعبان ٢٧١هـ/ يناير ٨٨٥م^(١)
 - وعقد الزواج رقم ١٢١ مؤرخ في شهر جمادى الآخر ٢٧٩هـ/ أغسطس ٨٩٢م^(٢).
 - وعقد الزواج رقم ١٧٣ مؤرخ في شهر رجب سنة ٢٩٩هـ/ فبراير - مارس ٩١١م^(٣).
 - وعقد الزواج رقم ١٤٤ يرجع تاريخه إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادي^(٤).
 - وعقد الزواج رقم ١١٦ يرجع تاريخه إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادي^(٥).
 - وعقد الزواج رقم ١٠٨ يرجع تاريخه إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادي^(٦).
- بالإضافة إلى مجموعة غير قليلة من عقود الزواج في مجموعة الإرشيدوق رينر (Rainer) الموجودة بالمكتبة الأهلية بفينا (البرتينا) من ضمنها عقد الزواج رقم ٩١٣، ويرجع تاريخه إلى عهد الخليفة العباسي القاهر بالله (٣٢٠-٣٢٢هـ/ ٩٣٢-٩٣٤م)، وأخرى مجموعة برديات جامعة هايدلبرج، وكذا مجموعة برلين وغيرها^(٧).

وكانت معظم عقود الزواج التي تحت أيدينا متقاربة إلى حد كبير في صيغتها وطريقة كتابتها.

فصيغة العقد نفسه تكاد تكون واحدة في معظم العقود، فبعد البسملة تأتي الصيغة الشرعية للعقد من حيث أداء الصداق المترتب على الإيجاب والقبول، والتعبير الشائع في هذه العقود هو "هذا ما أصدق فلان بن فلان ثم يذكر النسب (القرشى أو المصرى)، ويذكر اسم المدينة التي يسكن فيها العريس، ثم يلحق اسم العروس صاحبة الصداق واسم أبيها أو وليها في الزواج، ويبين حالتها إن كانت إيماناً (ثيباً) أو بكراً، ويذكر قيمة الصداق، ويحدد المعجل منه وهو الذى يدفع

-
- ١ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، عقد زواج رقم ٨٦+١٤٠، ص ٨٥-٨٨.
 - ٢ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، عقد زواج رقم ١٢١، ص ٨٨-٩٢.
 - ٣ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، عقد زواج رقم ١٧٣، ص ١١٢-١١٣.
 - ٤ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، عقد زواج رقم ١٤٤، ص ٩٢-٩٤.
 - ٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، عقد زواج رقم ١١٦، ص ١٠٣-١٠٤.
 - ٦ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، عقد زواج رقم ١٠٨، ص ١١٣، ١١٤.
 - ٧ - أحمد الشامي: أوراق البردى العربى، مجلة المؤرخ العربى، العدد التاسع، بغداد، ص ١٢٩.

للزوجة عن طريق وليها ساعة العقد أمام الشهود، كما يحدد المؤجل منه ويبين كيفية سدادها، هل سيؤديه الزوج إلى زوجته بالتقسيط، أو دفعة واحدة بعد أجل معلوم كما يتضح ذلك في النماذج الآتية:

عقد زواج رقم ١٥٩

- بسم الله الرحمن الرحيم
- هذا ما أصدق إسماعيل مولى أحمد بن مروان القرشي بمدينة اشمون عايشة.
- أبننت يوسف الساكنة... عندما خطبها إلى نفسها وهى امرأة أيم بعد ان فوضت.
- أمرها إلى جدها يعقوب بن اسحق ... وأشهدت له شهود.
- بتوكيلها إياه فقبل وكالتها وانفذ نكاحها وأصدقها إسماعيل مولى.
- أحمد بن مروان القرشي أربعة دنائير مثاقيل طراجياد وازنة يعجل لها.
- إسماعيل دينرين مثقالين نقدا حالا معجلا ويبقى لعايشة ابنت يوسف.
- على زوجها إسماعيل مولى أحمد بن مروان دينرين مؤخرين إلى خمسة سنين.
- أولهم شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائتين وشرط إسماعيل مولى.
- أحمد بن مروان لامرأته عايشة تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة.
- كما أمر الله عز وجل وسنة محمد صلى الله عليه وسلم على..
- الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان وشرط إسماعيل.
- مولى أحمد أن كل امرأة يتزوجها على امرأته عايشة أبننت يوسف.
- زمام تلك المرأة بيد عائشة تطلق كيف شاءت من الطلاق.
- وولى عقده هذا النكاح يعقوب بن اسحق فقبل الوكالة وانفذ.
- النكاح ورضى إسماعيل بالمهر المعجل والمؤخر والشروط والمسلمات.
- فى هذا الكتاب والزم ذلك نفسه فى صحة عقله وبدنه وجواز.
- أمره لا علة به ولا مرض ولا غيره فى شهر ربيع الأول سنة تسع.
- وخمسين ومائتين وشهد على ذلك.

عقد زواج رقم ١٢٨ ...

- الله ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها منها وعليه أن يتقى الله فيها.
- ويحسن صحبتها بالمعروف كما أمر الله تعالى الذى لزم ذكره وجل ثاوه وسنة نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه.
- وسلم.... وولى عقده نكاح عباسه ابنت سري أبوها سري بن عبد الله فازوجها.

- على نفس الشروط المسماه في هذا الكتاب وبه حضر محمد بن راشد
.....
.....
- شهد عبد الله بن اسحق البزاز على اقرار محمد بجميع ما في هذا الكتاب.
- شهد - فلان بن فلان - على اقرار سري بن عبد الله بن يحيى الطحان الولي
وعلى اقرار محمد بن راشد الجزار بضمانه.
- وكتب في شوال من سنة أربع وستين ومايتين.
- ثم تتوالى بقية الشهود على هذا العقد حتى بلغ عددهم تسعة عشر شاهدا.

ويشترط لصحة عقد الزواج ..

- توافق إرادتي المتعاقدين على وجه ينتج عنه أثره الشرعى، وهذا ما يعبر عنه بالإيجاب من جانب الزوج، والقبول من جانب الزوجة، وهذه الإرادة يعبر عنها بالمشافهة لفظا وبالكتابة تحريرا، وبالإشارة المتداولة عرفا^(١).
- اتحاد المجلس أى لا يكون هناك فاصل زمنى بين الإيجاب، والقبول، بل ينبغى أن تتم موافقة كل من العروسين فى مجلس واحد، وأن يكون العروسان سامعين لكلام بعضهما، وعدم مخالفة الإيجاب للقبول.
- أن يشهد على العقد شاهدين من العدول.
- أن لا يكون هناك مانع شرعى بين المتعاقدين^(٢).

الصداق (المهر)^(٣) :

نتعرض إلى جانب آخر من جوانب عقود الزواج التى تحت ايدينا وهو المهر أو الصداق، وقد وردت كلمات متعددة فى القرآن الكريم، وفى الأحاديث الشريفة تعريفا لهذا المدلول فى قوله تعالى:

١ - السمرقندى: تحفة الفقهاء، جـ ٢، ص ١٧٤-١٨٠؛ ابن قيم الجوزية: فتاوى رسول الله، القاهرة ١٩٨٠،

ص ٦٩؛ الشوكانى: فتح القدير الجامع بين فنى الراوية والدراية فى علم التفسير، بيروت، (باب النكاح).

٢ - ابن قيم الجوزية: فتاوى رسول الله، ص ٧١؛ ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير، جـ ١، ص ٣٧١-

٣٧٥؛ عبد السلام: الزواج، ص ١٠٤-١١٤، يكن: الزواج، صفحات ٩٥، ١٧٧، ١٧٨.

٣ - المهر. كلمة من أصل سامى (موهار Mohar) وانتقلت إلى العربية باسم (مهر) وكانت تعنى ثمن

المرأة: انظر: سفر التكوين: ٣٤: ١٢؛ عبد السلام: الزواج، ص ١٩٩.

"وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ"^(١)، ولدينا أمثلة لهذه المهور في عصور مختلفة، فالصداق الذي قدمه محمد بن عبد الله (ص) قبل الإسلام إلى زوجته خديجة بنت خويلد كان خمسمائة درهم^(٢)، وكذلك عندما تزوج رسول الله (أم حبيبة) زملة بنت أبي سفيان، التي أسلمت مع زوجها عبد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة، وبقيت هي على الإسلام، ففقدت أهلها وزوجها، وعلم رسول الله، فأرسل إليها يخطبها لنفسه وتزوجها، وقد أصدقها النجاشي عنه أربعمائة دينار^(٣).

وهكذا كانت مهور معظم زوجاته بعد البعثة^(٤)، وفي عقود الزواج المكتوبة على ورق البردي نجد أن أقل صداق كان ديناراً واحداً^(٥)، وأعلى قيمة للصداق كانت ثمانين ديناراً^(٦).

ولا يشترط أن يكون الصداق ديناراً أو درهماً أو أية عملة أخرى، بل يجوز أن يكون سلعة تباع وتشترى ولها ثمن معلوم، مثل القمح أو الشعير أو التمر، وأن كان العرف قد جرى على أن يكون الصداق (مالاً)^(٧)، فنلاحظ في العقد المؤرخ في شهر ذي القعدة سنة ٢٣٩هـ بأن الزوج أعطى زوجته يونة داره عوضاً عن بقية صداقها ومقداره دينار واحد، وعلى ذلك اعترفت يونة ابنت حليصا ببراءة ذمة زوجها من الدينار الذي هو بقية الصداق^(٨).

١ - قرآن كريم سورة النساء: ٢٤/٤.

٢ - اثني عشر أوقية ونصف الأوقية من الفضة (الأوقية ٤٠ درهماً).

٣ - انظر: ابن الجوزي: تنوير الغبش، ص ١٢٣؛ عبد السلام الزواج، ص ٢٥٦.

٤ - ابن عبد البر القرطبي: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٨، ص ٢١، ١٦١.

٥ - يقدر الدينار باثني عشرة درهم، انظر: جروهمان: أوراق البردي العربية، ج ١ عقد زواج رقم ١٥٧ + ١٤٢ + ١٤٣ (لوحة ٦) ص ٩٦، ٩٧؛ عقد زواج رقم ١٤٥ (لوحة ٥)، ص ١٠٠، ١٠١.

٦ - عقد زواج - دار الكتب المصرية - رقم ١٧٣٥/٣ تاريخ ؛

عقد زواج - دار الكتب المصرية - رقم ١٧٣٥/٤، وفي عهد بني العباس ارتفعت مهور الخلفاء والأمراء إلى مائة ألف دينار، وبهذا القدر من المهر تزوج الخليفة المعتضد قطر الندي بنت خماروية بن أحمد بن طولون، أمير مصر سنة ٢٨٢هـ. انظر: المسعودي: مروج الذهب، ج ٤، ص ١٤٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٤٠٤، ٤٠٥؛ مصطفى بدر: مصر الإسلامية، ص ١٤٣.

٧ - الصنعاني: سبل السلام، ج ٣، ص ٢٦٥، ٢٦٦؛ ابن قيم الجوزية: فتاوى رسول الله ص ٦٨، ٦٩.

٨ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ج ١، طراز رقم ١٨٦٥، ص ١٤٦، ١٤٧.

ويشترط الإمام مالك إلا يقل ما يؤدي منه عن ثلاثة دراهم، (٤/١ دينار)، بينما الإمام الشافعي يجعل الصداق عشرة دنانير (١٢٠ درهما) على أن يؤدي نصفها معجلاً^(١)، ومع كل أقوال الفقهاء فما هو ثابت ومدون في عقود الزواج على ورق البردي يختلف معظمه تماماً عنها، فعقد الزواج رقم ١٤٥ كان المهر ٤ دنانير^(٢)، عجل الزوج ديناراً واحداً وأجل الثلاثة الباقية، وعقد الزواج رقم ١٥٩ اثبت المهر فيه أربعة دنانير كذلك^(٣)، عجل الزوج منها دينارين وقسط المؤجل (دينارين) على خمسة سنوات، وعقد الزواج رقم ١٢٨ كان الصداق عشرة^(٤) دنانير كلها معجلة كما يفهم من السطر السابع من العقد^(٥).

وفي كل الحالات كان لابد من النص في العقد على موافقة الزوجة على الزواج ورضاها بالمبلغ المقدر للصداق، ومن الحالات النادرة جداً التي صادفناها في عقود الزواج دقة الموثق في تحرى شروط صحة العقد، حيث أخذ هذا الموثق شهادة مكتوبة بتوقيع عدد من شهود العقد اثبت فيها انهم يعرفون العروس فاطمة بنت^(٦) أبى بكر ابن على الرديثى، وانها بكر وبالح وحررة ومسلمة وخالية من موانع الزواج، ولم يسبق لأحد أن عقد عليها بالزواج حتى تاريخ يوم العقد، (السابع مسن شهر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ / ديسمبر ١٢٤٢م، وأن شقيقها أحمد هو ولى تزويجها وأن الزوج الراغب في عقد زواجها وهو عبد الملك بن شجاع بن طرخلن كفاء لها^(٧)).

ويتضمن غير قليل من عقود الزواج المدونة على ورق بردي بعض الشروط الخاصة لمصلحة الزوجة كأن تكون العصمة بيدها، وهو ما يعبر عنه الفقه بـ (تمليك المرأة أمرها)، من هذه الشروط ما ورد في عقد الزواج رقم ١٥٩ (س- ١٢-١٤) المؤرخ في ربيع أول ٢٥٩هـ / ٨٧٢م، حيث اشترطت الزوجة أن أية

١ - الصنعاني: سبل السلام، ج-٣، ص ٢٦٦؛ جروهمان: أوراق البردي، ج-١، ص ٧٦.

٢ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ج-١، ص ١٠٠.

٣ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ج-١، ص ٧٣.

٤ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ج-١، ص ٧٨، ٧٩.

٥ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ج-١، ص ٧٦، ٧٧.

٦ - فى الأصل (أبو).

٧ - عقد الزواج رقم ١٧٣٥/٤ تاريخ (مجموعة دار الكتب المصرية).

زوجة أخرى يتزوجها زوجها بعدها تكون عصمتها بيدها هي، أن شأئت ابقتها وان شأئت طلقها^(١). وفي بعض العقود يكون شرط الزوجة هو الطلاق للزوجة الثانية، والعق للجارية إذا اتخذها زوجها سرية عليها^(٢).

ومن الشروط التي كانت تدون في عقد الزواج حرية الزوجة في التصرف فيما تملك، وعدم تدخل الزوج فيما تتصرف فيه "ان شأئت باعت وان شأئت وهبت وان شأئت تصدقت"، كذلك يسمح الزوج لأهل زوجته بزيارتها في بيتها، ولا يمنع زوجته من زيارة أهلها^(٣).

ومن الملاحظ في عقود الزواج المدونة على ورق البردي أن وصية الزوج بزوجه، وحسن معاملته لها، ووجوب طاعة الزوجة لزوجها، كانت ضمن النصوص الثابتة التي تكتب في العقد، وتدعم بذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على ذلك^(٤).

الشهود :

لهذه الكلمة الكثير من المعاني في اللغة^(٥)، وقد وردت في القرآن الكريم في عدة مواضع، وبمعاني مختلفة مثل قوله تعالى: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً"^(٦).

والحقيقة أن رجال الفقه لا يختلفون في وجوب شهادة الشهود على عقد الزواج، مستنديين إلى ما سبق ذكره من آيات قرآنية وأحاديث نبوية^(٧).

١ - جروهمان: أوراق البردي العربية، ج١، ص ٧٤.

٢ - عرفت نساء العرب فيما قبل الإسلام مثل هذه الشروط، فكان يحق للمرأة أن تطلق زوجها أو تطلق نفسها من زوجها، وكانت علامة ذلك أن تحول المرأة مدخل الخباء (الخيمة) إلى عكس الاتجاه الذي أقيمت عليه الخيمة أولاً، فكان الزوج يمتنع عن الدخول، ويعلم أن زوجته قد طلقته أو طلق نفسها منه. انظر: أحمد الشامي: تاريخ العرب والإسلام، الأنجلو ١٩٨٢م، ص ٥٩.

٣ - في بيان ما يجب عليها من تسليم النفس، وما لها من حق المنع. انظر: السمرقندي تحفة الفقهاء، ج٢، ص ٢١٠-٢١٣.

٤ - راجع العقود رقم ١٢١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٧، مجموعة دار الكتب المصرية.

٥ - لها غير قليل من المشتقات مثل: شهد، مشاهد، شاهدة، شهود، شهيد.

٦ - سورة النور ٤/٢٤، ابن كثير: مختصر، ج٢، ص ٥٨٣.

٧ - يكن : الزواج، ص ١٣٦.

وقد ذكرت أن حضور رجل من أهل الزوج، ورجل من أهل الزوجة عقد الزواج يكون الشهود عدول، وكان على القاضي أن يتأكد من توفر هذه الصفة فيهم، يدلنا على ذلك ما ذكره الكندى عندما تعرض لذكر قاضى مصر غوث بن سليمان فى خلافة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٣-٧٧٤م)^(١) وكان من أعوان القاضى من يتولى عملية التحرى عن الشهود وعرف صاحب هذه الوظيفة باسم (صاحب المسائل)^(٢)، وكان بعض القضاة ينتخبون الشهود العدول، الذين يبقون إلى جوار القاضى ما ظل على ولاية القضاء^(٣)، إذ عليهم التحرى عن الأمور التى سيتولون الشهادة فيها، وقد تمتع هؤلاء بمنزلة كبيرة.

أما عدد الشهود الذين يشهدون على عقد الزواج فكانوا اثنين طبقا للشرع ولم يمنع ذلك زيادة عددهم إلى أكثر من ذلك، ففي أحد العقود بلغ عددهم ثلاثة وعشرين شاهدا كما يتضح من العقد (رقم ١٢٨)^(٤).

وقد بقيت عقود الزواج المكتوبة على ورق البردى تكتب بأيدي من جيد صياغتها لعدم وجود نظام ثابت للتوثيق، فالذى تولى كتابة عقد الزواج رقم ١٧٣٥/٣ (مجموعة دار الكتب) كان والد العروس، والعقد مؤرخ فى جمادى الآخرة سنة ٦٤١هـ / نوفمبر ١٢٤٣م، وفى عقد الزواج رقم ١٨٧١ كان كاتب العقد أحد الشهود.

نخلص فى كل ما تقدم إلى أن أقدم عقود الزواج المكتوبة عرفت فى مصر منذ القرن الأول الهجرى، فلدينا أقدم زواج إسلامى تم فى مصر، ومؤرخ من سنة ٩١هـ / ٧٠٩م^(٥). وهو يعكس مدى حالة المجتمع المصرى عقب الفتح الإسلامى من تسجيل عقود الزواج، وقد استخدمت هذه العقود عدة قرون، ولكن لم يكن تحريرها وتوثيقها أمرا واجبا فى كل الأحوال، إذ كانت بعض العقود تتم من غير

١ - الكندى: الولاة والقضاة، ص ٣١٦.

٢ - ظهرت هذه الرتبة منذ منتصف القرن الثانى للهجرة، راجع دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢، ص ١٢٤؛ وترجمة الضبى فى تهذيب التهذيب للعسقلانى، ج ٥، ص ٢٥٠.

٣ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ١٢٨.

٤ - عقد رقم ١٢٨ بتاريخ شوال سنة ٢٦٤هـ. انظر: جروهمان: أوراق البردى، ج ١، ص ٧٨.

٥ - بردية غير منشورة. عقد زواج رقم ٢٥٢٩٥، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، انظر: ملحق الدراسة شكل رقم (٢).

تدوين وذلك إلى أن صدرت لائحة ترتيب المحاكم الشرعية بالأمر العالي من الدولة العثمانية بتاريخ ٢٥ ذى الحجة ١٣١٤هـ/ ٢٧ مايو ١٨٩٧م، وتنص على تحرير عقود الزواج على يد القاضى الشرعى^(١).

زواج المسلم من أهل الكتاب :

وأباح الإسلام الزواج من نساء أهل الكتاب بالنص القرانى: "الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ"^(٢).

وبذلك تكون كل مؤمنة بكتاب سماوى، إذا كانت محصنة، أى عفيفة حلا للمسلم يمكنه أن يتزوج منها.

والواقع أن زواج المسلمين من الذميات بدأ فى مصر منذ بدأ العرب ينزلون الريف، والقرى المصرية، ويعملون فى زراعة الأراضى^(٣)، كما أن القبط الذين اعتنقوا الإسلام اختلطت أنسابهم بأنساب المسلمين العرب بعد نكاحهم المسلمات^(٤).

ونستدل على ذلك بعقد الزواج المؤرخ فى آخر صفر سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م، "ذكر حق يونة ابنت حليصى على زوجها يزيد بن قاسم"، ونلاحظ على شهادة الشهود هى اختلاط الأسماء القبطية والإسلامية، فقد شهد على العقد حوالى ثلاثة وعشرون شاهدا^(٥).

وهناك أيضا عقد زواج إسلامى من العصر الطولونى، اسم الزوج يحنس بن شنودة من مدينة الاشمونين، والزوجة اسمها دروا ابنة شنودة^(٦)، فالواضح هنا بأن

١ - كمال صالح البناء: قوانين الإجراءات فى مسائل الأحوال الشخصية، مصر ١٩٥٨م، ص ص ٣٦، ٣٧.

٢ - سورة المائدة: آية (٥).

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٠؛ المقرئى: البيان والأعراب ص ص ٥٠، ٥١؛ حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، ص ٢١٧.

٤ - يذكر المقرئى "بعد نزول العرب باريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات" انظر: الخطط، ج ١، ص ٨٢.

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ١، عقد زواج رقم ١٨٧١ (الوحة ٧)، ص ١٠٥-١١٠.

٦ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ١، عقد زواج رقم ١٤٠+٨٦ (الوحة ٤)، ص ٨٥-٨٨.

دخول أهل الكتاب في الإسلام كان يتبعه الاحتفاظ بأسمائهم القديمة، فلم يتخلصوا منها حتى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى.

ويصور أبو صالح الأرمنى تلك العلاقة الطيبة التى جمعت بين المسيحيين والمسلمين فى مصر، وخاصة فى الاحتفال بالأعراس لدى المسلمين، فيذكر "وفى أعراس المسلمين وأفراحهم يحضروا النصارى ... ويمشوا قدام العريس فى أسواقها وشوارعها وصار هذا عندهم عرف وعادة مستقرة إلى عصرنا نحن^(١).

أما عن إعداد العروس للاحتفال بزفافها، فتعطينا الوثائق البردية مادة طيبة عن مستحضرات التجميل التى تهيأ بها العروس، فهذه وثيقة محفوظة الآن فى مجموعة الأرشيدوق "رينر" فى فينا، تتضمن بيان بعض حوائج تتجمل بها وتستخدمها إحدى العرائس فى القرن الرابع الهجرى/ الحادى عشر الميلادى عبارة عن:

الحنا وماء الورد والخروب والزعفران للحمام^(٢).

فضلا عن نعل من نعال السند المشهورة "حذاء ذو رباط" تنيسى "مصنوع فى تنيس" بربع دينار^(٣).

ومن الروائح التى كانت تتعطر بها المرأة فى مصر ماء الورد والياسمين، فقد جاء فى بردية ترجع إلى القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى ذكر "قارورة ماء ورد جيد جورى"^(٤) وماء الورد الجورى كان يصدر إلى مصر، بالإضافة إلى ما تنتجه مصر من زيت الورد فى الفيوم.

١ - أبو صالح الأرمنى، تاريخه، ص ١٢٩.

2 - Papyrus Erzherzog Rainer: Fuher durch die Ausstellung (P.E.R.F) P.256. NI014 wien. (1894).

برديات الارشيدوق رينر. دليل المعرض فينا ١٨٩٤م (P.E.R.F.)

رقم ١٠١٤ س ٨ (أشياء مطلوبة لعروس) انظر: جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ٦، ص ١٩٥؛ حسن رجب: البردى، ص ١٥٠.

٢ - حول صناعة النعال السندية انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٢؛ ابن الأخوة: معالم القرية، ص ٢٤١، ٢٤٢.

٤ - جورى "مدينة جور" فى إقليم فارس وهى على بعد عشرين فرسخا من شيراز بوردها قانى الاحمرار. جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ٦، ص ١٨١، الماء ورد الذى كان يصنع هناك (الماء ورد الجورى) فاق كل المنتجات الأخرى من هذا النوع، وكان يصدر بالبحر ويوزع على الأقطار الأخرى منها مصر، انظر أيضا جروهمان: أوراق البردى، ج ٦، ص ١٨١ بردية رقم (٦٩٨).

وكذلك أشارت البرديات العربية، إلى زيت الياسمين (زنبق) وهو الذى يصنع خاصة فى دمياط من الياسمين الأبيض المعروف فى مصر، وقد كانت النساء والعرائس يستعملونه عطرا، ويفضلونه على غيره، وكان الزنبق يستعمل كأحد العناصر التى تدخل فى تركيب العطر المسمى "سك" Sukk^(١).

ويقول ابن الجوزى^(٢): "ومن الحجارة التى قد عمم نفعها حجارة الكحل المسمى بالانمد وهى حجارة شديدة السواد" فالكحل من أدوات الزينة عند المرأة وقتذاك، ومن الطبيعى أن يصل إلى مصر عبر التجار، ويذكر المسعودى أن "معدن الزمرد فى عمل الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط"^(٣).

وتختلف مظاهر الاحتفالات بليلة العرس "الزفاف" بين جموع العامة، والطبقة العليا من الارستقراطية الحاكمة^(٤)، إذ اهتمت المصادر الإسلامية بوصف حفلات الزواج لدى الطبقة الحاكمة من الأمراء، وخاصة منذ القرن الثالث الهجرى، بوصف مظاهر الأبهة والبذخ عند الطولونيين فى الاحتفال بزواجهم^(٥)، فقد استطاع خماروية بما هياه له بيت المال أن يبذل الأموال الضخمة عند زواج ابنته أسماء المعروفة بقطر الندى إلى الخليفة العباسى المعتضد، فيذكر ابن دقماق^(٦) أنه: "حمل معها ما لم يرمثله ولا سمع به الا فى وقته"، ويذكر المقرئى^(٧) أنه: "لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها فكان من جملة دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب"، وقد أمر خماروية أن يبني لابنته

١ - هذه البردية ترجع إلى القرن الثالث أو الرابع الهجرى تحت رقم (٣٢٦). جروهمان: أوراق البردى، ج٥، ص ٨١-٨٢، وثائق البرديات - بدار الكتب المصرية، طراز رقم ١١٨، ويذكر القلقشندى: عن وجود الآس، والورد، والبنفسج والنرجس والياسمين، والنسرين واللينوفر والريحان الفارسى ويكثر فى الإسكندرية؛ القلقشندى: صبح الاعشى، ج٣، ص ٣٨.

٢ - ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص ٦٠؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ص ١٨، ١٩.

٣ - المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ص ٤٤٢، ٤٤٤.

٤ - انظر الاحتفالات بالأعراس لدى الطبقة الحاكمة. جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج٥، ص ١٦٨-١٧٠.

٥ - ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٦٧.

٦ - المسعودى: مروج الذهب، ج٤، ص ١٤٥؛ ابن دقماق: الانتصار، ص ٦٧.

٧ - المقرئى: الخطط، ج١، ص ٣١٩.

على رأس كل مرحلة قصرا أو مكانا للراحة تنزل فيه في طريقها إلى بغداد، وقد بلغ مقدار صداقها مليون درهم^(١)، حتى حصل من قام بإعداد جهازها على أربعمئة ألف دينار^(٢).

وكان من عادات القوم وتقاليدهم في الحفلات والمناسبات السعيدة أن ينثروا النقود على الحاضرين، وقد عرفت مصر هذا التقليد في العصر الطولوني والإخشيدى في المآدب التي يقيمها الأمير أو تقام له^(٣).

وقد أقيمت في قصر خماروية الحفلات والمآدب بمناسبة هذا الزواج^(٤)، واجتمعت النساء في أحسن ملابسهن الحريرية، وظهرن في أجمل حليهن، وارتدت قطر الندى ثوبا من الحرير الأبيض، ووضع على رأسها إكليل من الذهب، وطرحة مرصعة بالجواهر، وعلى أذنهما قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب، وفي أصابعها الخواتم، وفي معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر، وزين وجهها بالأصباغ المختلفة، فبدت في أحسن زينة.

ومد السماط، وزين بالأزهار ذات الرائحة الذكية والألوان المختلفة وجلست العروس في صدر السماط، وجلست أمها عن يمينها وجدتها عن يسارها، ووضععت في طرفي السماط قطعتان كبيرتان من الحلوى، ونثرت عليه صحاف ملأى بلألوان الطعام المختلفة^(٥).

وخرجت قطر الندى في موكب اشترك الأهالي في توديعها، يتقدمهم الأمير خماروية ممتطيا فرسه ويحف به حرسه المختار يلبسون الاقبية ويتقلدون السيوف المحلاء بالذهب، ويتبع الموكب جيش من المصريين والأتراك يحملون الدروع والسهام، ومن السودانيين يرتدون الأردية والعمائم السود^(٦).

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ٤٠٤.

٢ - ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٦٧.

٣ - انظر: المقرئ: الخطط، ج١، ص ٣٣١؛ ابن سعيد: المغرب، ص ١٧٩؛ سيدة كاشف: دراسات في المجتمع المصري، ص ٢٠.

٤ - ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ٦٧ وما بعدها.

٥ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ١٧٤.

٦ - المقرئ: الخطط، ج١، ص ٣١٩.

ويلاحظ أن من مراسيم الزواج أن يأكل العروسان طعاما من صحن واحد^(١) فعند زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم حبيبة عند النجاشي الذي دفع صداقها إلى خالد بن سعيد فقبضها ثم أراد الحاضرون أن يقوموا فقال: أجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج^(٢).

الولادة^(٣) والتسمية:

الحمل هو الصفة المطلوبة في المرأة، لأن الانسال هو الغاية من الزواج وفي ذلك يقول الرسول: "انكحوا فاني مكاثركم"^(٤)، ويروى أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وأنها لا تلد فأتزوجها، قال لا ثم أتاه الثانية فنهاء ثم أتاه الثالثة، فقال تزوجوا الودود الولود فاني مكاثركم^(٥)، وقد كان العرب يؤثرون المرأة الولود ويسمونها الضانية^(٦).

ويذكر ابن الفقيه: "أن نساء أهل مصر والقيط ضد نساء خراسان، لأن نساء خراسان يلدن أنكرا، نساء القبط لا يكاد يرى منهم الامينات وتلد الاثنتين والثلاثة والأربعة، ولا نعلم ناسا في الأرض أكثر ذكرانا من آل أبي طالب^(٧)"، فالمرغوب

- ١ - عبد السلام الترميني: الزواج عند العرب، ص ٢١٩.
- ٢ - ابن الجوزي: تنوير الغيش، ص ١٢٤؛ وانظر كذلك وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرس، ترجمة زينب بنت جحش، ووليمة العرس والأطعام فيها، محمد السفاريني الحنبلي: ثلاثيات مسند الإمام أحمد، ط الأولى ١٢٨٠هـ - دمشق ج ١، ص ص ٢٤١، ٢٤٢.
- ٣ - وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الأدمي من بطن أمه، من الرفق في إخراجها من رحمها وتهينة أسباب ذلك، وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر، لما اتهم الظاهرات بعضهن على عورات بعض، وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة انظر: ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٧٢٥؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٤٣١.
- ٤ - (انكحوا) أي الود وقدّر المفعول بقرينة فاني مكاثركم انظر ابن ماجه: السنن تحقيق محمد قواد عبد الباقي: ط بيروت ١٩٨٧م، ج ١، (كتاب النكاح) ص ٥٩٨.
- ٥ - روى هذا الحديث أبو داود والنسائي، وقد وثق وهو ضعيف، انظر: الشوكاني نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، ط بيروت ١٩٧٣، ج ٥، ص ٢٢٢.
- ٦ - الضانية: المرأة الكثيرة الأولاد: يقال ضننت المرأة تضنوا إذا كثرت أولادها، والضن هو الولد وجمعه (الضنى) لسان العرب ضنا، الترميني: الزواج، ص ٢١٩.
- ٧ - ابن الفقيه: مختصر تاريخ البلدان، ص ٧٥.

فى الحمل عند العرب هو الولد الذكر، لأنهم قوم عصبية وحروب، ورغبتهم فى الذكر مستمدة من طبيعة حياتهم، ولذلك كان العربى فى الجاهلية يغضب إذا ولدت زوجته البنات وقد يهجرها كما فعل أبو حمزة الضبى^(١).

وكانت القابلة هى المسئولة عن القيام بتوليد من حان وقتها، وكانت معظم المولدات من الجوارى السمرات^(٢).

وقد زاد العرب فى مصر باطراد حتى تضاعفوا حوالى سبع مرات فى أقل من نصف قرن^(٣)، وطبيعى أن تكون كثرة التناسل هى أول عوامل هذه الزيادة.

ويحذر عمرو بن العاص فى خطبة الارتباع فيقول: "يا معشر الناس إياى وخلال أربعا فانها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى المذلة بعد العزة إياى وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال ثم أنه لابد من فراغ يؤول إليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها^(٤)". أى أنها دعوة إلى عدم الانشغال، وعدم تضييع الفراغ فى ذلك، ليكون هناك وقت يأخذ فيه نصيبا من العلم والعبادة.

ومع الزيادة المستمرة فى النسل اضطرت الحكومة الإسلامية فى مصر زمن معاوية بن أبى سفيان إلى تخصيص شخص فى كل قبيلة من قبائل العرب فى الأمصار لتسجيل المواليد^(٥)، يكون له نصيب من الديوان.

يقول ابن عبد الحكم: "كان معاوية بن أبى سفين قد جعل كل قبيلة من قبائل العرب رجلا فكان على المعافر رجل يقال له الحسن يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود، وهل نزل بكم نازل، فيقال: ولد لفلان غلام، ولفلان جارية، فيقول سموهم فيكتب^(٦)". فكان إذا فرغ من القبائل كلها

١ - عبد السلام الترماني: الزواج، ص ٢٢٠.

٢ - ابن الجوزي: تنوير الغبش، ص ٤٢.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٥، ١٠٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ص ١-٧٥؛ عبد الله خورشيد: مرجع سابق، ص ٥٣.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٧٢، ٧٣.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٠٢.

٦ - المصدر نفسه، ص ١٠٢.

أتى إلى الديوان حيث يسجل أسماء القادمين الجدد ليخصص لهم نصيب في العطاء^(١).

وقد انتبه الكندي إلى أثر هذين العاملين في النمو السريع لقبيلة قيس بعد أن هاجرت إلى مصر عام (١٠٩هـ/٧٢٧م) فقال أنهم "توالدوا وقدم عليهم من قدم"^(٢). وقد فرض عمر بن الخطاب العطاء للمولود في بداية الأمر "يفرض للمولود إذا ولد في عشرة، فإذا بلغ أن يفرض له الحق بالفريضة، فلما كان معاوية فرض ذلك للفتيم"^(٣).

وقال البلاذري: "وأمر عمر فكتب له عمال أهل العوالي، فكان يجرى عليهم القوت، ثم كان عثمان فوسع عليهم في القوت والكسوة، وكان عمر يفرض للمنقوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم، فإذا بلغ زاده، وكان إذا أتى باللقيط فرض له مائة، وفرض له رزقا يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصى بهم خيرا ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال"^(٤).

أما عن أسماء المواليد في مصر الإسلامية، فواضح من دراسة الأوراق البردية^(٥)، أن الأسماء التي جاءت في هذه الوثائق تشهد باحتفاظ أغلب المصريين بالأسماء القبطية أو بقايا المصرية القديمة أو بالأسماء المقتبسة من اليونانية والرومانية، بعكس شواهد القبور التي تغلب عليها الأسماء العربية^(٦).

ويعتقد أن السبب في هذا أن الأوراق البردية التي وصلت إلينا ترجع إلى أماكن متفرقة في الريف المصري، ولا سيما مصر الوسطى والصعيد، أما شواهد القبور فمعظمها من جبانة القسطنطينية والعسكر والقطائع، حيث كان الأكثرية من العرب الوافدين على مصر أو ممن تناسلوا عنهم.

١ - المصدر نفسه، والصفحة .

٢ - الكندي: الولاة، ص ٧٧.

٣ - في رواية أخرى: "أن عمر كان لا يفرض للمولود حتى يفطم، ثم نادى مناديه لا تعجلوا أولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الإسلام". انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٤٤٥.

٤ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٣٨.

5 - Grohmann: Arabic papyri in the Egyptian Library. Vol I, II, IV.

6 - Wiet (Gastion): Catalogue General du Musée, Arab du Cairo, Stele Funeraires. Tomes I-V. Le Caire, Wiet: L'Egypte Musulmane, (Precis de L'hist. d'Egypte t-II) PP. 136-137. Le Caire 1932.

كذلك أخذت المسميات العربية في الانتشار بين من أسلم من المصريين^(١) هذا بجانب احتفاظ بعضهم بأسمائهم القبطية أو المصرية القديمة^(٢). وأخذت الأسماء العربية أحيانا شكل الحروف التي يزاولونها في مصر مثل الطحان، الجزار^(٣) والسماك^(٤) وهذا يعطينا مؤشرا على بداية التعريب الحقيقي للمسميات في مصر.

ختان الأطفال :

جاء الإسلام بقواعد متكاملة، كان بعضها معمولا به، ومنها عادة الختان إذ ترجع إلى العهد المصري القديم^(٥)، ودعاه "بالتطهير"^(٦)، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اختتن إبراهيم خليل الرحمن بعدما اتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم"^(٧) وكان الذي يقوم بعملية الختان عند الرجل يسمى الحجام حيث يستعمل من الأدوات آلة الختان وهو الموس والمقص^(٨).

- ١ - جروهمان: أوراق البردي العربية، جـ ١، ص ٧٣.
- ٢ - انظر: عقد الشراء المؤرخ ذى العقدة ٢٢٨هـ، وهو باسم عبيد الله بن بطرس الادفوى المشتري من النصر بن النصر بن عبد الله الزيات. وثيقة غير منشورة، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، رقم ٩٨١٨، وكذلك هناك عقد شراء باسم على بن عبد الله المشتري من ورثة بشنده بن عيسى الشماس، ومؤرخ شهر ربيع الأول ٢٤٦هـ، وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامى، رقم ٩٨١٧. انظر: ملحق الدراسة شكل رقم (٤)، رقم (٥).
- ٣ - جروهمان: أوراق البردي، جـ ١، ص ٧٩.
- ٤ - المرجع نفسه، والجزء، ص ١٦٧.
- ٥ - عبد العزيز صالح: التربية والتعليم في مصر القديمة، ط القاهرة ١٩٦٦، ص ١٩؛ حسن كمال: الطب المصري القديم، جـ ٣، ٤، مجلد ٢، القاهرة ١٩٦٤، ص ٧٢، ١٤٥.
- ٦ - عبد السلام الترماني: الزواج، ص ٢٢٣.
- ٧ - "هذا الحديث متفق عليه الا أن مسلما لم يذكر السنين" انظر: الشوكاني: نيل الأوطار، جـ ١، (باب الختان) ص ١٢٧؛ وقال أبو حنيفة الختان سنة مؤكدة، وليس بواجب، وبعض أصحابه يقول أنه واجب، وليس بفرض، ودليلنا ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل أسلم: (ألق عنك شعار الكفر واختن) ولأنه قطع شئ من البدن في حق الله تعالى، فوجب أن يكون واجبا كالقطع في السرقة فإذا ثبت هذا فصفة الختان في الرجل أن يقطع منه الغلفة التي توارى الحشفة. انظر: ابن الاخوة: معالم القرية، ص ٢٥١.
- ٨ - والحجامة عظيمة المنفعة وهى أقل خطرا من القصاد، وينبغي أن يكون الحجام خفيفا رشيقا خبيرا بالصناعة، فيخف بيده في الشروط، ويستعجل ثم يعلق المحجمة، وعلامة خفة يده الا يوجع المحجوم، المصدر نفسه، ص ٢٥١.

وكان يصاحب الختان إعلان الأفراح في مصر، وإقامة الولائم، والمنشدون من حول المختون، فعند ولاية عنيسة ابن اسحق على مصر في سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م، ومع قدوم عيد الأضحى المبارك "أراد طهور ولديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد والفرح، واحتفل بذلك احتفالا كبيرا، حتى بلغ به الأمر أن أرسل إلى حامية ثغرى دمياط وتيس، فأحضر سائر من كان بهما من الجند والخرجية والزراقيين وغيرهما، وكذلك من كان بثغر الإسكندرية من المذكورين، فرحلوا إليه بأجمعهم وقد هجم الروم على دمياط فوجدوا البلد خاليا من الرجال والمقاتلة^(١)" ومثل هذا كان يحدث في الاحتفال في سار الكور المصرية عند ختان الأولاد.

الملابس وتطورها في مصر :

أتت القبائل العربية إلى مصر وهي ذات مستويات حضارية متعددة، وطرز من الأنسجة والألبسة متنوعة، لأن أكثرهم كانوا بدوا، ولدينا بعض التفاصيل عن ألبستهم التي حفظها اللغويون، والمؤرخون.

يقول ابن خلدون عن الحياكة والخياطة^(٢): "هاتان الصناعتان ضرورتان في العمران، لما يحتاج إليه البشر من الرقة، فالأولى تنسج الغزل من الصوف والقطن سدوا في الطول والحاما في العرض لذلك النسج فيتم بالالتحام الشديد منها قطع مقدرة، منها الأكسية من الصوف الاشتغال، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس، والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد: تفصل أولا بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو حبكا أو تتييتا أو تفسخا على حسب نوع الصناعة، وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري، لما كان أهل البدو يستغنون عنها، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالا، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها^(٣)".

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يهتم باللباس كما يهتم بنظافة ثيابه وبساطتها، وقد حفظت كتب الحديث والسيرة النبوية معلومات عن البسة الرسول.

١ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ق ٣، ص ص ٢٩٥، ٢٩٦.

٢ - ابن خلدون: المقدمة، ص ٤١١.

٣ - المصدر نفسه، ص ٤١١، سعد الخادم: تاريخ الأزياء الشعبية، دار المعارف ١٩٥٩م، ص ٢٥.

وقد ذكر ابن الجوزي "أخبرنا الرواة عن عائشة (رضي) قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله (ص) ينتظرونه على الباب فخرج يريدونهم، وفي الدار ركوة فيها ماء فجعل الرسول (ص) ينظر في الماء ويسوي شعره ولحيته فقالت عائشة: يا رسول الله وأنت تفعل هذا قال نعم إذا خرج الرجل إلى أخوانه فليهيئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال^(١)".

وكان النبي (ص) يلبس القطن والكتان واليمن، وكانت له قلنسوة اسماط^(٢)، وكانت فيها نقبة^(٣) "كما كانت له ملحفة مصبوغة بورس أو بزعفران^(٤)" كما ذكر عن النبي (ص) "أنه كان يرقع ثوبه وأنه قال لعائشة (رضي) لا تخلعي ثوبا حتى ترقعيه، كما ذكر أن الخليفة عمر (رضي) كان في ثوبه رقاع^(٥)".

وقد روى أن رسول الله (ص) "ترك عشرة أثواب، ثوب حبرة^(٦) وازارا عمانيا وثوبين صحاريين، وقميصا صحاريا وقميصا سحاليا^(٧) وجبة يمانية، وملحفة مورية وخميصة وكساء ابيض وقلانس صغارا ثلاثا أو أربعا^(٨)" وذكر أن رسول (ص) سجي حين مات ببرد حبرة^(٩)، فقد أرسل المقوقس، ضمن هداياه إلى الرسول الثياب البيض، التي بقي منها، فكفن فيها رسول الله^(١٠) كما روى أن النبي لبس خفين أسودين ساذجين^(١١).

- ١ - ابن الجوزي: ابليس، ط النهضة مصر ١٩٢٨م، ص ٢٠١.
- ٢ - اسماط - غير محشوة - ابن سيدة: المخصص، ط بيروت، ج ١، ص ٨٢؛ دوزي: المعجم المفصل، ط بغداد ١٩٧١، ص ١٩.
- ٣ - البلاذري: أنساب الإشراف، ج ١، ص ٥٠٧.
- ٤ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٠٧؛ سعاد ماهر: مخلفات الرسول في المسجد الحسيني، دار مطابع الشعب، القاهرة ١٩٦٥، ص ٧٨.
- ٥ - ابن الجوزي: تلبس ابليس، ص ١٨٦.
- ٦ - الحبرة: أي ثوب موشى وهو من التحبير أي التزيين، ابن سيدة: المخصص، ج ١، ص ٧٢.
- ٧ - السحل - ثوب من القطن - ضرب من برود اليمن. ابن سيدة: المخصص ج ١، ص ٦٧.
- ٨ - البلاذري: أنساب الإشراف، ج ١، ص ٥٠٧؛ سعاد ماهر، مخلفات الرسول في المسجد الحسيني، ص ٧٨.
- ٩ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٢٦٤.
- ١٠ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٥٢، ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٩٢؛ دوزي: المعجم المفصل، ص ١٧.
- ١١ - ابن الجوزي: تلبس ابليس، ص ٢٠٠؛ دوزي: المعجم المفصل، ص ١٩.

وكان العرب في صدر الإسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف في الطعام، والتواضع في اللباس، "فكان الخليفة من الراشدين يمشى في الأسواق، وعليه القميص المرقوع إلى نصف ساقه، أو ثوب من كرياس^(١) غليظ، وفي رجليه نعلان من ليف، وحمائل سيفه من ليف، وكان عمالهم في الامصار، إذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبه من الصوف وتعمم بعمامة دكناء، واحتذى خفين ودخل عليه^(٢)".

فعندما شدد عمرو وجنده الحصار على حصن بابلين، وطلب الرومان المعتصمون بالحصن التفاوض، ومنحهم الامان أجابهم عمرو إلى طلبهم، على أن يؤدي كل واحد منهم للمسلمين "دينارا واجبة وبرنسا وعمامة وخفين^(٣)".

واستضاف الرومان عقب هذا الصلح، جند عمرو بن العاص فقدموا عليهم، وقد ارتدوا البرود، ثم استضاف عمرو الرومان ومن معهم من القبط، وأمر أصحابه بلبس الأكسية، واشتمال الصما^(٤).

فالبرانس من الأكسية الخارجية، وهي كل ثوب رأسه منه ملتزق به دراعه كانت أم ممطرا أو جبة^(٥)، والبرنس قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها في صدر الإسلام، وأنه من البسة الرجال وبعض النصوص تقول أنها من البسة النساء أيضا^(٦)، أما قماشها فيكون من الخز، وتكون ألوانها غامقة "فقد ذكر برنس خز أدكن^(٧)".

أما العمامة التي كان يرتديها العرب المسلمون فهي من البسة الرأس للرجال، قال عمر بن الخطاب "العمائم تيجان العرب" والعمامة هي مايلات على الرأس

١ - الكرياس والكرياسة - ثوب فارسي. انظر: ابن سيدة: المخصص: ج١، ص ٦٧.

٢ - جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، القاهرة ١٩٢٥، ص ٦٠٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج١، ص ٢١٦؛ المقرئ: الخطط، ج١، ص ٢٩٠.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٦.

٥ - ابن سيدة: المخصص، ج١، السفر الثالث، ص ٨١.

٦ - سيد أمير على: تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٨٣، ص ٣٨٩.

٧ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٤، قسم ٢، ص ٣٦.

تكويرا ويقال "تعمم بها واعتم وانه لحسن العمة" وقد تكون تحتها قلنسوة أو لا تكون^(١).

وكانت العمائم في صدر الإسلام متنوعة من حيث حجمها وأشكال تكويرها ولبسها وقد أوردت كتب الحديث والسيرة تفاصيل عن عمائم الرسول فقد روى أن الرسول كان يعتّم بعمامة معروفة باسم السحاب، وقد تنازل عنها للإمام علي. قال الإمام علي: "عممني رسول الله (ص) فسدلها بين يدي، وقيل أيضا "اعتّم فسدل عمامته بين كتفيه"^(٢).

ونوع آخر من العمائم اسمه (الكور) وهو "لوت العمامة وادارتها على الرأس" ويقال "قد كارها كورا وكورها"^(٣).

ويشير ياقوت الحموي إلى العمائم البورية^(٤) "بأنه في مدينة بورة على ساحل بحر مصر قرب دمياط، تنسب إليها العمائم البورية" كما تشير أوراق البردي العربية إلى العمائم الفائقة التي كان يرتفع سعرها في مصر، كما كان في خراسان والعراق، والعمامة السوسية، والعمائم القطن والكتان، والعمائم الخز، ومما يذكر عن العمائم القطن، والكتان أنه كان يصل ثمنها في مصر كل واحدة منها بدينار (أو درهم)^(٥).

أما عن البرود التي كان يرتديها جند عمرو بن العاص^(٦)، فيذكر دوزي "أن البرد كان معروفا كثيرا لدى فلاحى مصر فى الأزمنة الغابرة - بناء على مشاهدات أسير مسيحي وصف رحلته - وأن فلاحى هذا القطر، يرتدون فوق

١ - ابن سيدة: المخصص، جـ ١، السفر الثالث، ص ٨٢.

٢ - فنسك: المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى جـ ٤، القاهرة ١٣٦٤هـ، ص ٣٤٤.

٣ - ابن سيدة: المخصص، جـ ١، السفر الثالث، ص ٨٢.

٤ - انظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٥٠٦.

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ١، وثيقة رقم ٥٥٢ قطعة ب، ص ٩٤.

٦ - اختلف اللغويون فى تعريفهم البردة ومزج كثير منهم بين شكلها وقماشها وألوانها، وقد جمع ابن منظور كثيرا من ارائهم فقال البردة كساء يلتحف به، وقيل إذا جعل الصوف شقة ولها مدب، فهى بردة. وقال الأزهري: وجمعها برد. وهى الشملة المخططة. قال الليث "وأما البرد فكساء مربع أسود فيه صفر تلبسه الأعراب" انظر: ابن منظور: لسان العرب، جـ ١، القاهرة ١٩٤٧، ص ٥٣؛ دوزي: المعجم المفصل، ص ٥٥، ٥٦.

قميصهم الواسع الفضفاض بردة طولها عشر أذرع وعرضها ذراعان يلقون بها أجسامهم ويلتحفون بها في الليل^(١).

وقد عرف العرب المسلمون أنواعا عديدة من الأكسية منها.. العباءة.. التي هي من ألبسة الرجال، وهي ليست من لباس الأغنياء^(٢)، والعباءة هي الثوب الخاص بالبدو، وتكون قصيرة مفتوحة من الجهة الأمامية لا أكمام لها، ولكن تستحدث فيها تقويرات لأمرار الذراعين، وتكون في الغالب منسوجة من نسيج غليظ مثل الصوف المبروم، وتكون مخططة على سطور بيضاء وسوداء^(٣).

وكذلك كان من الأكسية الأزار، وهو قطعة قماش تلف على الجسم، ويختلف طول الأزار، فكان للنبي (ص) أزار من نسيج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين^(٤).

والمشهور عن الأزار أن يلف على أسفل البدن لفا، ويلفح به أعلاه ويعقد عند المحزم عقده يسمى موضعها (الحزمة) والأزار ألبسة الرجال والنساء^(٥).
وألوان الأزار الأكثر شيوعا الأبيض ثم الأزرق ثم اللون الذي تغلب عليه الحمرة والصفرة.

ويصنع الأزار من الصوف، والقصب والخز أو من القماش الرخيص ويسمى بالفوطة^(٦).

وكذلك من الأكسية القباء: "وهو لباس خارجي للرجال فارسي الأصل، وهو يطوى تحت الابط بصورة منحرفة"^(٧).

وكانت أكمامه ضيقة في زمن الرسول، والقباء فيه شق من خلفه "وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عليه فروج من حرير"^(٨) "ومن أنواع القباء أيضا

١ - المرجع السابق، ص ٥٧.

٢ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤، ص ٦٢.

٣ - دوزي: معجم أسماء الملابس عند العرب، ص ٢٣٨.

٤ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣ ص ١٧، ١٨.

٥ - مصطفى جواد: مجلة التراث الشعبي، أزياء العرب الشعبية، العدد الثامن، ١٩٦٤، ص ٥.

٦ - ابن منظور: لسان العرب، ج ٨، ص ٣٧٣.

٧ - ابن الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين. بغداد - مطبعة البصري، ١٩٦٦م، م ٢، ص ١٧٧.

٨ - الفروج: هو القباء الذي فيه شق من خلفه. ابن سيده: المخصص ج ١، ص ٨٦.

القباء المحشو^(١).

وكذلك البرنكان، ضرب من الثياب يلبسه من الاعراب البدو، عبارة عن برنكان من صوف سميك لونه لون البن الغامق طوله خمسة أو ستة أذرع، وعرضه ذراعان، وهذا زيهم في النهار، أما في الليل فهو فراشهم وغطاؤهم، ويلبسون هذا الثوب بضم نهايته العاليتين بمعونة سيخ من حديد أو خشب، وبعد أن توضع هاتان النهايتان على الكتف اليسرى يطوى الرداء طيات حول الجسم^(٢).

وكذلك الجبة ضرب من مقطعات الثياب، والجبة أو الجباب من الثياب المفصلة، والمخيطه، ولها أكمام تحيط باليد، وكانت تلبس فوق القميص^(٣).

والطيلسان نوع من الكساء يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء والقضاء يوضع على الرأس ويدلى طرفه من الخلف إلى ما بين الكتفين^(٤).

أما عن اشتمال^(٥) الصما فهي من الالبسة الخارجية، وهي شديدة الشبه بالبردة، ولكنها مخططة، وحواشيها غير منسوجة، وأنها تلبس على البدن فتكسوه كله، وقد لا يجعل تحتها لباس^(٦).

وكان الرسول (ص) يرتدى شملة من النسيج الخشن، وهو ما نسميه عادة بالبردة المكونة من قطعة كبيرة من النسيج الصرخی السميك وهي شهباء اللون، وروى أن أبا بكر (رضي) لبس الشملة لزهده وتواضعه^(٧).

ويذكر ابن عبد الحكم في خطبة عمرو بن العاص عقب الفتح " فقام عمرو

١ - المحشو: هو ثوب واسع، وقيل هو الثوب المبطن. ابن سيدة: المخصص، جـ ١، ص ٨٦.

٢ - دوزي: المعجم المفصل، ص ص ٦٢، ٦٣.

٣ - ابن الجوزي: تلبس إبليس، ص ١٨٤.

٤ - الهمذاني: المقامات: ط بيروت، ص ٢٠٠.

٥ - المشمل ثوب يشتمل به واشتمل بالثوب إذا أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده، والشملة الصماء التي ليس تحتها قميص أو سراويل، وكرهت الصلاة بها. وقد نهى الرسول عن اشتمال الصماء واشتمال الصماء هو أن يشتمل بالثوب حتى يجال جسده، ولا يرفع منه جانباً، يخرج من يده وهو التلحف. انظر ابن سيدة: المخصص، جـ ١، السفر الثالث، ص ٩٧؛ فنسك: المعجم المفهرس، جـ ٣، ص ١٨١.

٦ - ابن سيدة: المخصص، ص ٩٢.

٧ - دوزي: المعجم المفصل، ص ١٩.

بن العاص على المنبر... عليه ثياب موشية كأن به العقبان تأتلف عليه حلة و عمامة وجبة^(١).

ويذكر البلاذري أنه عندما كان يتم توزيع العطاء على المسلمين، أحصى المسلمون فالزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف، و برنسا أو عمامة، وسراويل، وخفين في كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا^(٢).

وهذا يوضح أن مصر لها شهرة في صناعة النسيج "القباطي".

أما عن البسة القدم: وهى الخف "والخفاف قد تكون ساذجة أو ملونة^(٣)" أما ألوانها فقد تكون سوداء ومنها الخف الذى لبسه الرسول، وقد تكون حمراء أو صفراء، ويروى أن الصحابة كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الأحمر والصففر، ويقولون هو من زينة آل فرعون أى أنها من مظاهر الترف^(٤).

ويتحدث ابن اياس عن صنع الخفاف فى مصر فيقول: "وبها طير الحواصل وهو البجع الذى يعمل من جلده خفاف، ومن حواصله فراء، وتقوم مقام الفراء الفنك وهو غاية فى الدفء^(٥)".

أما عن النعال فقد عرفها المصريون القدماء^(٦) وأخذها منهم العرب^(٧) ويشير ابن عبد الحكم إلى صناعة النعال السندية التى كانت تعمل على باب دار ابن هجالة "وهى الدار الملاصقة بمسجد الزنج"^(٨).

أقبل المسلمون فى العصر الأموى على المنسوجات يسرفون فى اقتنائها، ويحملون النساج على التسابق فى أجادة نسجها، وابتداع الأنواع المختلفة منها، هذا

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٧٢، ٧٣.

٢ - البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢١٦.

٣ - جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٣، ص ٦٠٩.

٤ - ابن الجوزى: تلبيس ابليس، ص ١٩٩.

٥ - ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٤.

٦ - كان المصريون القدماء يصنعون النعال من مواد مختلفة منها الحلفاء، والبردى، وسعف النخيل او النوج، والقش والجلد، وقد احتفظت النعال المصرية بشكلها البسيط الذى عرفت به، وقد استخدم البردى بوفرة فى صناعة النعال أما بمفرده أو مع غيره من النباتات السالفة الذكر، انظر: محمد الصغير: البردى واللوتس، رسالة ماجستير، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٩٧-١٩٩.

٧ - انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ١٠٤؛ نوزى: المعجم المفصل، ص ١٢٧.

٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٢.

وقد استمر التطور في الألبسة العربية في زمن الأمويين نظراً لرقى مستوى المعيشة، فازداد استعمال الألبسة المترفة، كما دخلت أساليب متنوعة من البلاد المفتوحة إلى المجتمعات العربية^(١).

ويذكر أنه في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان الذي عهد لابنه عبد الله امرة مصر بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان في سنة (خمس وثمانين هـ/ سبعمائة وأربعة ميلادية) أصدر أوامره بمنع أهل مصر من لبس البرانس^(٢).

ويذكر أن في أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك عملت الجيب الموشاه، ولبس الناس جبابا وأردية، وسراويل وعمائم وقلانس^(٣)، وفي أيام هشام بن عبد الملك عمل نوع من الخز أقبل الناس على استعماله، وقيل أن هشام أحب الوشي، وأكثر من لبسه، فاجتمع عنده "اثنا عشر ألف قميص وعشرة آلاف تكة حرير"^(٤).

أما النساء في مصر في العصر الأموي "فقد لبسن الغلالة"^(٥)، وتكون معصفوة وفي زمن الأمويين حدث شيء من التطور في الملابس يمكن إيجازه كما يلي:
- زادوا من طول القلانس^(٦) - أدخل على الأزار شيء من التطور بنوع من الخياطة^(٧) - زادوا من طول الأكمام^(٨).

وفي العصر العباسي ازداد الاهتمام بالملبس والتفنن فيه، وهذا أدى إلى أن يصبح اللباس الواحد له أشكال متعددة، فقد تفنن الناس بالقلنسوة الطويلة في شكلها ولونها وطريقة وضعها وزخرفتها، "وكان العباسيون من أرباب المراتب زيهم السواد بالأقبية المولدة والخفاف ولهم منازل في شد المناطق والسيوف وتقلدها"^(٩).

١ - رشارد ايتكنهاوزن: فن التصوير عند العرب، ترجمة عيسى سليمان؛ وسليم طه التكريتي، وزارة الاعلام ١٩٧٣م بغداد، ص ٣٤.

٢ - الكندي: الولاة والقضاة، ص ٥٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢١٠.

٣ - محمد عبد العزيز مرزوق: المنسوجات الأثرية، بغداد ١٩٦٥م، ص ١١٩.

٤ - تكة: التكة رباط السراويل وجمعها تكك. ابن سيدة: المخصص، ج ١، ص ٨٤.

٥ - الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب أو الدرع، ولا يكون إلا رقيقاً. الهمداني: المقامات، ص ١٤٩.

٦ - الأصفهاني: الأغاني، ج ٢، ص ٣٤٢.

٧ - مصطفى جواد: مجلة التراث الشعبي، عدد ٨، ص ٦.

٨ - الكم من القميص. مدخل اليد ومخرجها انظر: ابن سيدة: المخصص، ج ١، ص ٨٥.

٩ - الصابي: رسوم دار الخلافة، مطبعة العاني بغداد ١٩٦٤م، ص ٩٠.

وقد أمر أبو جعفر المنصور أصحابه بلبس السواد والقلائس الطوال، حتى دخل عليه أبو دلامة فأنشد من الشعر^(١):

وكنا نرجى منحة من أماننا فجاءت بطول زاده فى القلائس^(٢)
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس
وقد اختلفت القلائس من حيث طولها وشكلها فى العصر العباسى،

ويذكر الكندى أن أول من خطب فى السواد عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وإلى مصر من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور^(٣).

وفى ولاية يحيى بن داوود الخرسى سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م من قبل المهدي، أمر أهل مصر من الإشراف والفقهاء والأعيان، أن يلبسوا القلائس الطوال، ويدخلوا بها عليه فى يوم الاثنين والخميس بلا أردية^(٤).

وقد ظلت القلائس الطوال مستعملة فى مصر عند الإشراف والفقهاء، وأهل البيوتات حتى عام ٢٣٠هـ/٨٤٥م، إذ يذكر الكندى: "أنه كان زى أهل مصر وجمال شيوخهم وأهل الفقة والعدالة منهم لباس القلائس الطوال، كانوا يبالغون فيها، فأمرهم ابن أبى الليث بتركها ومنعهم لباسها، وإن يشبهوها بلباس القاضى وزيه^(٥)"، ولذا فقد القى الشيوخ بقلائسهم حتى قيل بأن الصبيان والرعاك كانوا يلعبون بها فى الطرقات^(٦).

ويذكر المسعودى^(٧) أن المعتصم أعاد لبس القلائس تشبها بملوك الأعاجم،

١ - النويرى: نهاية الأرب، جـ٤، ص٣٦.

٢ - القلائس.. هى لباس مستدير مبطن من الداخل يوضع على الرأس، ويصنع من القماش أو الجلد، وتختلف القلائس بشكلها وهى تتنوع بحسب المناسبة التى تتخذ لها، كالقلائس المجالسية وهى التى تلبس فى مجالس المنادمة، وتكون موشاة ومذهبة كقلنسوة الوليد بن يزيد، وكان الناس لا يلبسون القلائس لوحدها بل يجعلون فوقها العمائم، وقد اعتبر ذلك من السنة، وكان الاعتناء بالقلنسوة كالاقتناء بالعمامة، وأن كانت الأخيرة أكثر شيوعاً. انظر: الاصفهاني: الاغانى، جـ٧، ص٨٩؛ الهمذاني: المقامات، ص١١٩.

٣ - الكندى: الولاة والقضاة، ص١١٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص١٧.

٤ - الكندى: الولاة والقضاة، ص١٢٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٤٤.

٥ - الكندى: الولاة، ص٤٦٠.

٦ - المصدر نفسه، ص٤٦٠.

٧ - المسعودى: مروج الذهب، جـ٨، ص٣٠٢.

فلبسها الناس اقتداء به، وسميت المعتصميات، فكان من زى أهل مصر في حوالي ٢٣٠هـ/٨٤٤م لبس القلانص الطوال^(١).

وفي عهد المستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ/ ٨٦٢-٨٦٦م، صغرت تلك القلانص^(٢).

أنواع الأقمشة التي عرفت في مصر :

كانت تنيس ودمياط تصنع الثياب الملونة والفرش^(٣)، إذ كان فيها خمسة آلاف مغزل تصنع بصفة خاصة أقمشة القصب^(٤) الملونة المستخدمة في صنع العمائم والقلانص وملابس النساء، وكانت من خصائص الصناعة في تنيس البدنة^(٥) التي يستخدمها الخليفة وهو رداء يخرج من المغزل كاملاً لا يتطلب تفصيلاً أو خياطة، وقد بلغ سعر الثوب المطرز بالذهب ألف دينار، والثوب غير المطرز بين مائة إلى مائتي دينار^(٦).

كذلك جاء في بردية ترجع إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادي ذكر "منديل تنيسي"^(٧)، وجبة خز خضراء ودراسة خز خضراء وخفتان خرا حمر، وكساء خرا أحمر، وسراويل وتكة^(٨) توضح إلى أي مدى بلغت مصر في تطور الملابس وصناعاتها في هذه الفترة.

- ١ - الكندي: الولاية، ص ٤٦٠.
- ٢ - المسعودي: مروج الذهب، ج ٨، ص ٤٠٢.
- ٣ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١٧٧؛ ابن أبياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٥، ٢٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٥٣، ٥٤.
- ٤ - القصب.. ثياب مصنوعة من الكتان، رفاق ناعمة، وغالي بعضهم فأدخل فيه مطروق الذهب والفضة انظر: ابن سيده: المخصص، ج ١، ص ٦٣.
- ٥ - البدنة: خرقة تخاط شبيه بالبرنس. ابن سيده: المخصص، ج ١، ص ٣٥؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١٧٧.
- ٦ - ابن أبياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٥، ٢٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٥٣، ٥٤؛ دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٣، ص ١٢١، ١٢٢.
- ٧ - تعني كلمة منديل عدة معان فهي تعني منديل، مشوش، وزرة عمامة (عمامة، شاش) منطقة، وبصفة عامة قطعة من كتان. انظر جروهمان: أوراق البردي العربية، ج ٦، ص ١٠٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٤٧١.
- ٨ - جروهمان: أوراق البردي، ج ٦، ص ٩٠.

وكان الصوف أهم المواد الأولية المستعملة في نسيج الأقمشة، وهو أقدم المواد التي استعملها الإنسان في النسيج، وقد ذاعت شهرة مصر في نسيج الأقمشة الصوفية، فقد كانت تنسج من صوفها المرعز^(١) العسلي غير المصبوغ. وقد قيل أن معاوية لما كبر سنه، كان في الشتاء لا يدفأ، فطلب من عامل مصر كساء منها "الصوف العسلي" يلتف بها حتى يدفأ^(٢).

وقد ذكر ابن عبد الحكم^(٣): "لما بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، نزل بهذه القرية، فسميت به، وكان يعمل بها الأكسية العسلية من صوف المعز، تغنى في الشتاء عن لبس الفراء".

والكتان^(٤) أهم المواد التي استخدمها العرب في النسيج، ومعظم الأقمشة الإسلامية القديمة منسوجة منه^(٥)، وقد أطلق المسلمون عليها أسماء مختلفة منها القصب والديبق^(٦).

أما القطن فلم يستعمل بكثرة، ولكنه كان معروفا في ذلك العصر، وقد استخدم في نسيج بعض القطع^(٧).

أما الحرير، فقد تقدمت صناعته على أيدي المسلمين في هذا العصر، إذ لم يحرم الإسلام ارتداء الملابس الحريرية، حيث أبيع استماله للنساء من غير قيد أو شرط ورخص للرجال في ارتداء الملابس الحريرية عند الضرورة، كما رخص أيضا لهم في استعمال الثوب إذا كان به من الحرير قدر أصبعين أو أربعة أصابع^(٨).

١ - المرعز: اللين من الصوف المنجد، والأكسية الصوف العسلي، التي كانت تعمل من صوف المعز

انظر: ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٦٩، ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٥.

٢ - ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٥.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٢؛ وانظر صوف القيس. المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٠٤.

٤ - يذكر ابن الفقيه: "قالوا والصوف والكتان لنا ليس لأحد من أهل البلدان مثلها" المختصر، ص ٦٩.

٥ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٩٢؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٤، انظر

ملحق الدراسة أشكال (٨)، (١٠).

٦ - قرية ديوق: هذه القرية من قرى دمياط، وإليها ينسب الثياب الديوقية، المنسوجة بالذهب، يبلغ الثوب مائة دينار، وكان الخلفاء يتغالون فيها، وإذ عمل بها العمائم الشرب المذهبة انظر: ابن الفقيه: المختصر، ص ٢٥٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٢؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٤.

٧ - نوزي: المعجم المفصل، ص ١٤.

٨ - محمد عبد العزيز مرزوق: الفن الإسلامي، ص ١٢٥؛ راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية، ص ٣٨.

وقد ظهرت طريقة جديدة في زخرفة الأقمشة، فإذا كان الثوب منسوجا من الكتان أو القطن أو الصوف يزين بأشرطة منسوجة من الحرير في الثوب نفسه^(١). هكذا يتضح التطور في الملابس العربية في مصر منذ نهاية القرن الثاني الهجري وبداية الثالث، فقد عاشت الطبقة الراقية مرفهة في ملابسها الذي يتألف من سروال^(٢) وقميص^(٣)، ودرعة^(٤)، وسترة وقفطان، وقباء، وقلنسوة بالإضافة إلى الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد في بعض الأحيان^(٥).

ولم يكن الأغنياء يتأنقون في ملابسهم فحسب، بل كانوا يتسابقون كذلك في الحصول على النادر والتمين منها، وكانت الفراء الغالية معروفة بين الأغنياء، ولم يكن لبسها وفقا على النساء، بل كان الرجال يلبسون المعاطف المصنوعة من الفرو^(٦).

والأوراق البردية كثيرا ما تشير إلى أثمان الملابس المصرية^(٧)، وأنواع منها مثل "الثياب البغدادية"^(٨)، والتي كانت لها شهرتها وقتذاك فمنها الأزرق والعمائم والمناديل التي وصلت إلى مصر لكي تقلدها في الصناعة. كذلك أشارت البرديات إلى عقاب طبرى، وتيجان، وديباج مع أثمانهما بالدينار^(٩).

وورد كذلك الخز، وهو نسيج حرير مصنوعا من سداة حريرية ولحمة صوفية، وهو نسيج مخملى ثقيل مثل القطيفة، ومصنوع من خيوط حريرية،

-
- ١ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٢؛ محمد عبد العزيز: الفن الإسلامي، ص ١٢٣-١٢٥.
 - ٢ - السروال: ان كلمة سروال مشتقة من الكلمة الفارسية شلوار وكانت مستعملة منذ العهود الإسلامية الأولى. انظر دوزي: المعجم المفصل، ص ١٩٨، ١٩٩.
 - ٣ - سعاد ماهر: مخلفات الرسول، ص ٨٥، دوزي: المعجم المفصل، ص ٣٠٢، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ١٣٩.
 - ٤ - ضرب من الثياب التي تلبس. وقيل جبة مشقوقة المقدم والمدرعة ضرب آخر لا تكون إلا من الصوف. ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٨٢.
 - ٥ - د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٢٢٤.
 - ٦ - ابن سعيد: المغرب، ص ١٥٠.
 - ٧ - جروهمان: أوراق البردي، ج ٦، ص ٩١.
 - ٨ - المرجع نفسه، ج ٥، ص ١٥٤.
 - ٩ - المرجع نفسه، ج ٦، ص ١٠١.

ويستعمل كملايس للتدفئة وقت البرد، وكان هذه النوع من النسيج له منزلة خاصة في بلدة السوس بإقليم فارس، ومعروفاً بـ "الثياب السوسية من الخز" ويذكر الخز أحياناً في أوراق البردي^(١).

وكانت النساء في مصر تفضلن لبس الثياب الزاهية الألوان، المصبوغة بالطيب والزعفران^(٢) في حين كان يفضل الرجال لبس الثياب المصنوعة من الكتان الناعم النقي اللون.

ومن ملايس النساء التي وردت في الوثائق البردية^(٣) "الغلائل القصبية" إذ جاء ذكرها في وثيقة ترجع إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهي ثياب تتحلى بها النساء، ومصنوعة من الأنسجة البيضاء الرقيقة، وهي من مميزات مصر^(٤). وتتغير أثمانها بشكل ملحوظ.

وإذا كانت مصر قد قطعت شوطاً كبيراً في صناعة النسيج فما زالت بين أيدينا قطعاً من الصوف، والكتان، بزخارف منسوجة، تمثل رسوم حيوانية أو نباتية أو آدمية، تظهر فيها تأثيرات ساسانية، وهي ترجع إلى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي^(٥)، وهذا يدل على وصول تأثيرات فارسية خاصة في خلافة المعتصم العباسي.

الطعام والشراب :

اختلفت الأطعمة عند العرب المسلمين من أطعمة قائمة على منتجات الحيوان والطيور إلى أطعمة قائمة على النباتات، فعند الفتح كان طعامهم الثريد^(٦) والعراق، إذ يقول ابن عبد الحكم^(٧) "قلما فرغ القبط من صنيعهم أمر عمرو بن العاص

١ - أوراق البردي العربية، مجموعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، وثيقة رقم ٨٣ على الظهر س ٦؛ جروهمان: أوراق البردي، ج ٦، ص ١٠٤.

٢ - آدم متر: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٥٩.

٣ - جروهمان: أوراق البردي العربية، وثيقة رقم ١٣٩، ج ٦، ص ٧٣.

٤ - المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٤١٠.

٥ - انظر: ملحق الدراسة، شكل رقم (٨، ٩).

٦ - الثريد: يصنع من اللحم، واللبن والخبز انظر: ثلاثيات مسند، ص ٢٠.

٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٦٠. وفي موضوع آخر يذكر ابن عبد الحكم "العرق من اللحم" انظر: فتوح مصر، ص ١٧٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٩٦؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٩٢؛ جرجي زيدان: تاريخ التمدن، ج ٥، ص ٩١.

بطعام، فصنع لهم، وأمرهم أن يحضروا لذلك. فصنع لهم الثريد والعراق.. فجعل الرجل من العرب يلتقم اللقمة العظيمة من الثريد وينهش من ذلك اللحم فيتطاير على من إلى جنبه".

وعرف العرب ما يستطاب من الطعام من الألبان والأجبان، إذ أن مصر بها من لحم الضأن، والبقر، والماعز مالا يعادله غيره في قطر من الأقطار من ناحية الطعم واللذة في المأكّل^(١).

ولذا فيمكن القول بأن العرب بعدما أخذوا في الاندماج مع المصريين، وخاصة بعد نزولهم للريف المصري، واتخاذهم الزرع معاشا، ألفوا عادات المصريين^(٢)، وخاصة في تربية الماشية من الأبقار العظيمة القدود، والأغنام المستطابة اللحوم، والغزلان والأرانب^(٣).

وتشير أوراق البردى العربية إلى مهنة الجزار الذي يتولى الذبح على الشيعة الإسلامية^(٤)، ففي العقد رقم ١٢٨، المؤرخ في شهر شوال سنة ٢٦٤هـ ورد اسم محمد بن راشد الجزار^(٥)، وكانت هذه الذبائح تذبح في المذبح، وليس على أبواب حوانيتهم حتى لا يضيق الطريق، وعدم تلويثه بالدم والروث، ومنعا من نجاسة ثياب الناس^(٦)، فضلا عن هذا فكان يفرد أمكنة للحوم الماعز عن لحوم الضأن، ولا يخلط بعضها ببعض، وينقطن لحم الماعز بالزعفران ليتميز عن غيره^(٧).

وتشير أوراق البردى العربية إلى مدى الإقبال على شراء اللحوم من الأسواق وما يدفع فيها ثمنها لذلك^(٨)، إذ تبين طبيعة المراسلات الخاصة بشراء اللحوم، ومدى

١ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣، ص ٢٠٩.

٢ - المقرئزي: الخطط، ج١، ص ٨٢.

٣ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣، ص ٣١٠.

٤ - انظر: حكم الشرع ابن الأخوة: معالم القربة، ص ١٦١.

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج١، ص ٧٩.

٦ - ابن الأخوة: معالم القربة، ص ١٦٣.

٧ - المصدر نفسه، والصفحة.

٨ - بردية ترجع إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي (رقم ٤١٧)؛ أوراق البردى العربية، ج٥،

ص ٥٥؛ بردية ترجع إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادي (رقم ٤٥٢)، أوراق البردى العربية،

ج٦، ص ١٩٠.

العرض والطلب من حيث المطالبة في سداد قيمة هذه اللحوم^(١).

- (بسم الله الرحمن الرحيم)
- (أدفع) إلى اشيم بن المحب في نفقته
- الـ (الشـ) هرين من اللحم رصل
- أن شاء الله وكتب في فمنوت
- سنة سبع ومائتى
- رطل

كذلك تشير الأوراق البردية إلى منتجات الحيوان^(٢) من إرسال الجبن، وهذا ما يظهر في الطراز رقم (١٦٥)، والذي يرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى^(٣)، ومن أنواع الجبن المشار إليها في هذه الفترة نوع من الجبن يسمى / (الجبن الجزائرى)، إذ يذكر النص المؤرخ في القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، "بسم الله الرحمن الرحيم: ادفع إلى غلام الدار ستة أرطال جبن منها رطلين جزائرى"^(٤)، ومن المعروف أن أهل مصر كانوا يكثر من أكل الألبان، وما يعمل منها، وخاصة الجبن^(٥) الذى كان يصدر إلى البلاد الشامية، ومنه الجبن الحالوم، والجبن الاقفهسى^(٦).

ويشير المقرئى إلى مآدب الطعام التى كانت تعد في أيام أحمد بن طولون فيقول: أن مطابخه التى أقيمت في كل يوم للصدقات في داره، وغيرها بذبح فيها البقر والكباش، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة في اثنين منها فالزوج والاثنان الآخران على قدر، وكانت تعمل في داره، وينادى من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر، وتفتح

١ - بردية رقم ١٨٣ بتاريخ التاسع من فمنوت ٢٠٧ هجرية (الخامس من مارس ٨٢٣ ميلادية، جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ٥، ص ١٤٨، ١٤٩).

٢ - بخصوص إنتاج الجبن في مصر انظر: جروهمان: أوراق البردى، جـ ٢، ص ٢١٠؛ وبخصوص الانواع المختلفة للرطل. انظر: جروهمان: أوراق البردى، جـ ٢، ص ١٧٢.

٣ - جروهمان: أوراق البردى، جـ ٥، ص ١٥٠، ١٥١.

٤ - المرجع نفسه، جـ ٥، ص ١٥٢.

٥ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٤٥.

٦ - ابن اياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٤٢.

الأبواب، ويدخل الناس الميدان وابن طولون ينظر الناس في المجلس الذى تقدم ذكره، ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون^(١).

هكذا تفنن العرب فى تذوق المأكولات المصرية بعدما كان طعامهم يعتمد على الثريد فى بداية الأمر، ويذكر عبد اللطيف البغدادى: "أنه من غريب الطعام المعروف فى مصر خلط الدجاج بأصناف من الحلوى مثل الفستق أو الخشخاش أو ماء الورد ثم يبتل، ويسمى الفستقية والبندقية والخشخاشية أو الوردية" وكثيرا ما يستعملون الفستق فى أطبختهم... ويتخذون منه هريسة ثم تسمى هريسة الفستق وهى لذيذة جدا، ومسمنة وموادها لحم الدجاج مسلوق منسر^(٢).

وقد عرف العرب أكل الأسماك إذ أن مصر بها كثير من البحيرات مثل "بحيرة الفيوم"^(٣) التى يكثر فيها أنواع الأسماك، وبحيرة بوقير^(٤)، وبحيرة نستروه^(٥)، ويذكر القلقشندي "وليس بها غير صيد السمك".

ويذكر ياقوت الحموى أن^(٦) "تنيس بها من السمك تسعة وسبعون صنفا" من هذه الأسماك سمك البورى نسبة إلى مدينة بورة التى تقع على ساحل بحر مصر قرب دمياط^(٧).

١ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢١٦.

٢ - عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ٤١، ٤٢.

٣ - وهى بالقرب من الفيوم بين الشمال والغرب منه. القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٢٠٢.

٤ - وهى بحيرة ماءها مالح تخرج من البحر الرومى بين الإسكندرية ورشيد. القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٢٠٢.

٥ - وهى بحيرة ماءها مالح بالقرب من البرلس فى آخر بلاد الأعمال الغربية، وهى قريبة من بلدة اسمها نستروه. القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٢٠٢.

٦ - ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٥٢.

٧ - المصدر نفسه، جـ ١، ص ٥٠٦.

يذكر القلقشندي أن بحيرة تنيس هى بحيرة متصلة بالبحر الرومى أيضا بأخر عمل الدقهلية والمرتاحية، وفيها مصب بحر أشموم المتفرق من الفرقة الشرقية من النيل، ولذلك يعذب ماؤها فى أيام زيادة النيل. انظر:

القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٢٠٢؛ المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٨١؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٤٢؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٥٤.

وذكر المسعودي: "أنه في نيل مصر ... ذلك السمك المعروف بالرعاد وهو نحو الذراع، إذا وقعت في شبكة الصياد رعدت يداه وعضداه^(١)".

ويذكر ابن الفقيه "أن بمصر الفرس الذي يكون في النيل يأكل التماسيح وغيره من الدواب، ويربى هذا الفرس، إذا كان فلوا في البيوت من النساء والصبيان، وفي سنة شفاء من وجع المعدة، والنوبة والحبشة تتعالج به لأنهم يأكلون الأطعمة الغليظة فيشرفون على الموت من وجع المعدة فيأخذون من هذا ويتعالجون به فيبرؤون^(٢)".

والأسماك من الأطعمة المحببة عند أهالي مصر، فقد لاحظ المقدسي^(٣) "أنهم إذا رأوا شاميا قد اشترى سمكا اتبعوه، فإذا رمى رؤوسها أخذوها" وهذا عند العوام نتيجة الحاجة إلى الطعام، ويذكر أيضا "من واظب في الفسطاط على أكل السمك جرب جربا لا يفارقه سبع سنين". وفي الحقيقة أن الأمر لا يعدو أن يكون إصابة بالحساسية أو أحد الأمراض الجلدية البسيطة التي تنتج عن أكل السمك وخاصة في الصيف^(٤).

ويشير المقرئ إلى أن كثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريا ومالحا^(٥).

ومن الملاحظ أن مهنة قلائين السمك قد وجدت في المجتمع المصري على حسب ما تشير إليه البرديات العربية^(٦)، إذ حملت إحدى البرديات اسم علسي بن السماك، ويفضل أهل مصر من أنواع الأسماك السمك المالح والمقلي في الزيت، وخاصة زيت القرطم، فإنه أطيب من زيت السلجم، هذا بالإضافة إلى السمك المشوي^(٧).

١ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٦٦، ٢٥١، ٢٥٢؛ المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٢٩٤، ٢٩٥؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٥٥، ٣٥٦؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٧؛ ابن أبيس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٣.

٢ - ابن الفقيه: المختصر، ص ٦٢.

٣ - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٠٥.

٤ - المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

٥ - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٤٥، ٤٦.

٦ - جروهمان: أوراق البردي، ج ١، ص ١٦٧.

٧ - ابن الأخوة: معالم القرية، ص ١٧٨، ١٧٩.

هذا وقد توفرت في البيئة المصرية الأطعمة النباتية فيقول القلقشندي: "أما زروعها فيزرع فيها من أنواع الحبوب المقتاتة وغيرها كالبر والشعير والذرة، والأرز والباقلی، والحمص والعدس والبسلا واللوبيا، والسسم^(١)".

وقد أقبل العرب على تناول الطعام البقولي خاصة من العدس، إذ يذكر الكندي، أن قضاء مصر سنة ٩٠هـ/٧٠٩م، كان يتولاه عبد الله بن عبد الرحمن بن حجية الخولاني، من قبل قرّة بن شريك، فنزل به صديق، وذلك بعدما انتهى من طعام الغذاء، ولكنه أمر جاريته بعدما سأل صديقه بإعداد الغذاء للصديق مرة أخرى، فأنت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء فقال: أبلل وكل^(٢).

ومن النباتات والخضروات التي تفنن العرب في طبخها القثاء على اختلاف أنواعها، والملوخيا، والقلقاس، والبادنجان، والبقول والفجل^(٣)، كذلك عرف في صعيد مصر الفلفل والخيار^(٤)، وقد جاء ذكر الخضروات في البردية المؤرخة في ١٨ صفر سنة ٢٨٨هـ/١١ فبراير ٩٠١ فهي عن بيع ٣¼ أردب من الفجل^(٥).

وفي الريف المصري كان الفلاحون يصنعون نوعا من الكعك يعمل من جريش الحنطة، ويجفف، وهو أكثر أكلهم طوال السنة كلها^(٦).

وكان الطحّانين يعملوا على غربلة الغلة من التراب وتنقيتها من الطين وتنظيفها من الغبار قبل طحنها، ولهم أن يرشوا على الحنطة ماء يسيرا عند طحنها، فإن ذلك يزيد الدقيق بياضا^(٧).

ودليلنا على قيام العرب المسلمين باتخاذ هذه المهنة في مصر، هو عقد الزواج المؤرخ في شهر شوال سنة (٢٦٤هـ/٨٧٨م)، فقد جاء في شهادة العقد سري بن

١ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣، ص٢٠٧؛ المقرئزي: الخطط، ج١، ص١٠١.

٢ - الكندي: الولاية والقضاة، ص٢٢١؛ ويذكر ابن ظهيرة: "أن أكثر الرهبان عمش العيون لمدامتهم أكل العدس" الفضائل، ص١٢٤.

٣ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣، ص٢٠٧؛ المقرئزي: الخطط، ج١، ص١٠٢، ١٠٣.

٤ - النويري: نهاية الأرب، ج١، ص٣٥٧.

٥ - جروهمان: أوراق البردي، ج٥، طراز رقم ٢٢٢، ص٣٠-٣٢.

٦ - يذكر المقرئزي: "وعند فلاحهم نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها" انظر: الخطط، ج١، ص٤٥.

٧ - ابن الأخوة: معالم القرية، ص١٥٢.

عبد الله بن يحيى الطحان^(١) وكذلك فى العقد المؤرخ فى القرن الثالث الهجرى، فقد جاء فيه "أبو شجاع الخباز"^(٢).

وتزيدنا الأوراق البردية وضوحا بشأن حركة الإمداد بالقمح^(٣) فى العقد المؤرخ من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى وخاصة فى الأشمونين ورد فى البردية^(٤).

- فانك تعلم أنا ايما ثمن.

- السوق نشترى.

- الخبز فلم تجئنا به.

- وتركتنا وانت.

- تعلم شدة حاجتنا.

- إلى وييه واحدة قمح^(٥).

وهناك كثير من الخطابات التى تشير إلى إرسال القمح، والتى ترجع إلى نهاية عصر الولاة^(٦)، ومحاولة نقله من أماكن زراعته إلى القرى والمدن التى تحتاجه لصناعة الخبز^(٧).

ومن الأطعمة التى عرفها العرب فى مصر النيدة، وهى تصنع من القمح، وهى غليظة القوام، متوسطة الحلاوة، وتباع بسعر الخبز^(٨).

ويذكر البلاذرى^(٩) بشأن توزيع العطاء، أن عمر بن الخطاب "أمر بجريب من طعام فعجن ثم خبز ثم برد بزيت، ثم دعا بثلاثين رجلا فأكلوا منه غذاءهم حتى

١ - جروهمان: أوراق البردى، جـ ١، عقد رقم ١٢٨، ص ٧٩.

٢ - المرجع نفسه، جـ ٦، عقد رقم ١٩٩، ص ٢٠٩.

٣ - المرجع نفسه، جـ ٥، طراز رقم ٦٢٠، ص ٣٨.

٤ - المرجع نفسه، جـ ٥، طراز رقم ٦٤٦، ص ٤١.

٥ - الوييه المصرية زنتها أربعون رطلا إلى أربعة وأربعين، ومازاد على ذلك بحسابه من الوييه يعلم قدر الاجرة على ذلك". انظر: ابن الأخوة: معالم القرية، ص ١٥٣.

٦ - انظر: جروهمان: أوراق البردى، جـ ٥، طراز رقم ٣١٢، ١٤١، (طراز رقم ٦٤٠) جـ ٥، ص ١٤٢.

٧ - المرجع نفسه، جـ ٥، (طراز رقم ٢٩٦)، ص ٨٧.

٨ - عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار، ص ٤١، ٤٢؛ ويذكر ابن اياس أنها عرفت فى مصر مع السيدة مريم "فألهمها الله أن غلت النيدة وأطعمت منها عيسى عليه السلام" انظر: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ٤٢.

٩ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٤٤٦.

اصدرهم ثم فعل بالعشى مثل ذلك، فقال يكفى الرجل جريبان كل شهر، فكان يوزق الناس الرجل والمرأة والمملوك جريبين كل شهر" ومن طرائف الطعام، أن الرجل إذا دعى على صاحبه يقول له: رفع الله جريك أى قطعهما عنك بالموت.

ويشير الكندى إلى الكرم الذى تحلى به عبد العزيز بن مروان من اغداقه فى الطعام على الفقراء، فيقول: "كان لعبد العزيز بحلوان ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، وهى ملأنة بالطعام تفرق على الفقراء والمساكين ومعها الخبز... وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر^(١)".

ويشير ابن اياس^(٢) إلى منافع الطعام من الخيار البلدى والقثاء والخس والفقوس، والفجل الذى له منافع مفيدة فى هضم الطعام، بالإضافة إلى أنواع من الخضروات منها الجزر، والكرنب، والقلقاس، والبول الأخضر والحمص، والسلق، والبامية، والملوخية، والرجلة^(٣).

كذلك الأطعمة التى تعتمد على النباتات الزيتية الزيتون الفيومى وهو غاية فى الكبر والطعم^(٤) والخس، والهجليج، والسسم والعرعر^(٥).

١ - ويذكر الشاعر فى هذا الكرم:

كل يوم كأنه يوم أضحى
وله ألف جفنة مترعات
وقال عبید الله بن قيس الرقيات:

أعنى ابن ليلى عبد العزيز بباب
اليون تعدو وجفانه رنما

الكندى: الولاة، ص ص ٥١، ٥٢؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٢؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٢٢.

٢ - ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٢.

٣ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٠٢، ١٠٣.

٤ - تلاحظ من دراسة الأوراق البردية، وخاصة فى الطراز المؤرخ من القرن الثالث أو الرابع الهجريين/ التاسع أو العاشر الميلاديين أن شجر الزيتون كان يزرع فى مصر، ولا سيما فى الفيوم، ويستخرج منه زيت الزيتون، ألا أن أجود أنواع زيت الزيتون كان على الرغم من هذا يرد من سورية، حيث كانت مدينة نابلس مركز الإنتاج زيت الزيتون أو يبدو أنه الزيتون الفلسطينى الذى جاء ذكره فى البرديات. انظر: أوراق البردى العربية دار الآثار المصرية بالقاهرة، طراز رقم ٩٤٦، س ٤، جروهمان: أوراق البردى، ج ٥، طراز رقم ٣٢٦، ص ٨٤؛ القلقشندى: "ولا يستخرج منه زيت البته، وإنما يؤكل ملحاً..." وقى موضع آخر ينكر: "بأنهم كانوا يستخدمون زيت الزيتون فى الطعام" انظر: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٣٠٨، ٣١٢؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٠٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٤.

٥ - ولیم نظیر: الثروة النباتية، ص ٩٥.

ومن الطبيعي أن هذا الطعام كان يوضع فيه ملح الطعام الذى كان يأتى من وادى هيبب، إذا كان يجلب منه الملح الأندرانى وهو على هيئة الواح من الرخام^(١).

أما عن التوابل المستخدمة فى نكهة الطعام، فإننا نجد الكثير من المعلومات عن هذه التوابل، وخاصة عن الكمون^(٢)، والكسبرة (كزبرة)^(٣) ومن الأعشاب التى تستخدم كمشروب فى مصر الكرويا والتى أشارت إليها المصادر البردية^(٤).

والحلوى التى عرفها العرب بحكم اندماجهم فى الحياة المصرية العسل الذى يستخرج من بنها، روى الليث بن سعد، قال: بارك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عسل بنها^(٥)، ويقول القلقشندي: "وأما أصناف المطعوم ففيها ما يستطاب من... العسل الذى لا يساوى حسنا، ولا يشبهه غيره من سائر الاعسال^(٦)".

وتشير البرديات العربية إلى مدى الحاجة فى طلب العسل الذى يصنع منه شراب يسمى الفقاع، فى وثيقة مؤرخة من القرن الثانى أو الثالث الهجريين/ الثامن أو التاسع الميلاديين^(٧).

ويذكر ابن الفقيه: "ومن مفاخرهم شراب العسل، وهو يختار على الخمر البابلى لذته وطيبه وشده أخذه وموضع الأعجوبة^(٨)".

ويقول القلقشندي عن الفاكهة: "ومن محاسنها أن فاكهتها لا يدوم نوع منها فى جميع السنة فيمل، بل يأتى كل نوع منها فى وقت دون وقت، فتتشوق النفوس إلى

١ - ابن اياس: بدائع الزهور، ج-١، ق ١، ص ١٨.

٢ - جروهمان: أوراق البردى، ج-٦، طراز رقم ٤٢٣، طراز رقم ٤٤٤، ص ١٨٣.

٣ - المرجع نفسه، ج-٦، طراز رقم ٤٢٠، ورقم ٤٢٣، ورقم ٤٢٦، ص ١٧٥، ١٨٢.

٤ - المرجع نفسه، ج-٦، رقم ٤٢٣، ص ١٨٣.

٥ - ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج-١، ص ٥٠١؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج-١، ق ١، ص ٤٢.

٦ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج-٣، ص ٢٠٩؛ ابن خلدون، العبر ج-٢، ص ١٤٦، ١٤٧.

٧ - نص البردية: بسم الله الرحمن الرحيم

- اخرج مما فى ايديك من العسل

- لعمل فقاع لابى ذكر ابقاه الله

- قس-ط واحد)

جروهمان: أوراق البردى، ج-٥، طراز رقم ٧٢، ص ١٤٧.

٨ - ابن الفقيه: المختصر، ص ٦٦، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١٢٢.

طلبه، ويكون لقدمه بهجة، ولا يعترض ذلك بدوام أجل الجنة^(١).
ويذكر النوبري أن في كل شهر من شهور القبط صنف من المأكول والمشروب والمشوم، فيقال: رطب توت، ورماني باب، وموز هاتور، وسماك كيهك، وماء طوبة، وخروف أمشير، ولبن برمها، وورد برمودة، ونبق بشنس، وتين بونة، وعسل أبيب، وعنب مسري^(٢).

وفي أرض الواحات يستطاب من الأطعمة التمر والزبيب والأعقاب^(٣)، وفي أسبوط يخرج منها سائر أنواع السكر، والسفرجل^(٤)، وهي التي استحسناها هارون الرشيد وفي أسوان التمور المختلفة، وأنواع الأرباط التي فاقت أرباط العراق^(٥).
ويذكر الاندلسي "أنه ليس نوع من أنواع التمر بالعراق إلا في صعيد قوص مثله، وفيه ما ليس في العراق، وأنه لا يوجد تمر يصير تمرا قبل أن يكون رطباً إلا بالصعيد^(٦)".

ومن ثمرة البسر، والرطب والتمر بأنواعها يستخرج منه العجوة^(٧). كذلك وجد في صعيد مصر من الفاكهة العنب الذي يبالغ في وصفه الاندلسي بالإضافة إلى الرطب الأخضر "عجيب المنظر، حسن المذاق"، وكذلك البطيخ كثير الحلاوة، والبطيخ الأخضر منه كبير الحبة، بحيث ما يكاد يستقل بحمل الحبة الواحدة إلا الرجل الشديد القوة^(٨).

ومن أنواع البطيخ الذي اختصت به مصر، البطيخ الصيفي الذي نقل من الهند إلى مصر، والبطيخ الغيتاوي، والبطيخ العبدلاوي نقل زراعته إلى مصر

١ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٢، ص٣٠٩.

٢ - النويري: نهاية الأرب، ج١، ص٣٥٦.

٣ - المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٤٤٧.

٤ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٩٣، ١٩٤؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٠.

٥ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٩١.

٦ - الاندلسي: الطالع السعيد، ج١، ص٢٦-٢٨؛ المقرئ: الخطط، ج١، ص١٨٩، ص٢٧، ٢٨، ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤١.

٧ - المقرئ: الخطط، ج١، ص١٨٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤١؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٥٤.

٨ - الاندلسي: الطالع السعيد، ص٢٦، ٢٨؛ المقرئ: الخطط، ج١، ص١٨٩.

عبد الله بن طاهر سنة مائتين من الهجرة فنسب إليه وقيل العبدلى، والبطيخ الضميرى^(١).

ومن المأكولات التى تغنى عن أكل الحلوى عند العرب التين البرشومى، والجميز والبرقوق، والنبق، واللوز الأخضر، والموز الدمياطى، والحمضيات منها الانزج، والحماض والكباد، والنانج، والليمون على اختلاف أنواعها^(٢)، وخاصة الليمون التفاحى "يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه"^(٣). ومن الفواكه الخوخ الزهرى، والعنب البحيرى، وهو أصدق حلاوة من العنب الشامى، وبها التفاح السكرى، والكمثرى البلدى، والرمال المنزلاوى، والخوخ المشعر الفولى وهو غاية فى الحسن^(٤).

وقد اختص ياقوت الحموى مدينة أسيوط بأنها مدينة السكر^(٥) إذ هو يستخدم كثيرا فى طعام المصريين على حسب ما تشير إليه البرديات، إذ تشير إحدى وثلاثى القرن الثالث الهجرى، وهى تختص بذاكرة حساب عن مأكولات طعام جاء فيها اللحم واللوز والزيت والسكر^(٦).

ومن تتبعنا لعادات أهل مصر فى المأكولات الشعبية، نجد أن الليث بن سعد فقيه مصر، كان يجلس بحضرته أصحاب الحوانيت والناس من عامة أهل مصر مهما كبرت حاجته أو صغرت، فكان فى استقبالهم ويطعمهم فى الشتاء الهرائس يعسل النحل، وسمن البقر، وفى الصيف اللوز بالسكر^(٧)، فالحلوى المصنوعة من

١ - ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٢، ١٤٦؛ ابن زهير: الفضائل الباهرة، ص١٣٤.

٢ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٣، ص٣٠٨؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤١.

٣ - المقرئى: الخطط، ج١، ص٢٧٣.

٤ - ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٠، ٤١.

٥ - ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١، ص١٩٣.

ويشير الكندى إلى زراعة القصب فى اصطبل قرّة بن شريك إذ يقول "فى سنة ٩٣هـ أحيا قرّة بن شريك الاصطبل من الموات وغرسه قصباً، فكان يسمى اصطبل قرّة، ويسمى أيضاً اصطبل القاسى يعنون القصب، كما يقولون قاسى مروان"

الكندى: الولاة، ص٦٥، ابن زهير: الفضائل، ص١٣٤.

٦ - جروهمان: أوراق البردى، ج٦، طراز رقم ١١٨، (٤١٧/٤١٨) ص١٦٨، ١٦٩.

٧ - ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٤، ص١٣١.

السكر عرفت منها أنواع عديدة مثل خبيص اليقطين، وخبيص الجزر والوردية المصنوعة من الورد، والزنجبيلة المصنوعة من الزنجبيل^(١).

ومن أطعمة العرب رغيف الصينية، وهو نوع من الفطائر الكبيرة المحشوة باللحم، والفسق، وهو غذاء مفرط في تكلفته بحيث يكون قاصرا على المترفين، فهو كما يذكر البغدادى "يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف إلى متصيداتهم النائية ومتنزهاتهم"^(٢).

وكان من أنواع الحلوى التى عرفت فى العصر الطولونى الفالوذج واللوزينج وتصنع بزيت اللوز والقطائف والهراثس من العصيدة^(٣).

ولم يكن خماروية بأقل من أبيه كرما، فقد بلغت نفقات مطبخه الذى عرف باسم مطبخ العامة ثلاثة وعشرون ألف دينار فى كل شهر، وقد عين لدار الحرم التى بناها لنساء أبيه الطهارة والخدم وأدر عليهن الأرزاق والأطعمة التى بلغت من الكثرة إلى درجة أن الطهارة كانوا يعطون ما بقى منها للعامة^(٤).

وفى ذلك العهد رخصت أسعار أنواع الاطعمة الممتازة مثل الفالوذج واللوزينج والقطائف والهراثس، وقطع الدجاج، ولحم الضأن أو الجدى فأصبحت تباع بدرهم واحد أو درهمين^(٥).

ومن الأطعمة التى عرفت فى عهد الأخشيديين "الحماضية" وهى تصنع من الحماض الذى يستخرج من الأترج، وهو نوع من البرتقال يلقى به فى العنب الأخضر ثم يضاف إليه ماء الورد^(٦)، كما كثرت فى الأسواق الأماكن الخاصة ببيع الشواء، وكان معظمه يباع نيئا ويخلط بلحم الماعز^(٧).

١ - عبد اللطيف البغدادى: الأفادة والاعتبار، ص ٤٢،

خبيصة البقطين: هى الحلوى التى تصنع من دقيق الحنطة، مع دهن اللوز أو الشيرج، يضاف إليها بعد الطبخ، وترفع على النار لتجمد. انظر: ابن الأخوة: معالم القرية، حاشية، ص ١٨١.

٢ - عبد اللطيف: الأفادة والاعتبار، ص ٤٣.

٣ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣١٨.

٤ - المصدر نفسه، والجزء، والصفحة.

٥ - ابن الأخوة: معالم القرية، ص ١٨١-١٨٤؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣١٨.

٦ - ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، نشر نكى محمد حسن، ج ١، القسم الخاص بمصر، ط جامعة القاهرة ١٩٥٣، ص ٣١.

٧ - المصدر نفسه، ص ٣٣.

ويذكر الثعالبي^(١) دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة يصفونها في قصائدهم شملت ألوانا من الشواء، والحلوى والشراب، وما تخلل الوليمة من ضروب اللهو والسرور، وسماع الموسيقى، والغناء، فضلا عن التفنن في تزيين السماط بالورد والرياحين.

وكان الأغنياء في عهد الأخشيديين يسرفون في تقديم ألوان مختلفة من الطعام في أوان جميلة من الخزف على درجة كبيرة من دقة الصنع وحسن الرنق^(٢)، ولا أدل على هذا من تطور صناعة الخزف في مصر تلك الأطباق التي ترجع إلى القرن الثالث الهجري بالمتحف الإسلامي المصري^(٣).
هكذا اندمجت التقاليد العربية في المأكول وتأثرت إلى حد بعيد بطباع المصريين.

الشراب :

"ومن محاسن مصر نيلها، وهو من أجل محاسنها في حلاوته وسرعة هضمه للأكل"^(٤).

إذا أن أهل مصر اعتمدوا في شربهم على مياه النهر، أما إذا انحسر فالاعتماد على مياه الآبار، وإلى ذلك يشير المسعودي بقوله: "صار شربهم من الآبار، وصار النيل على نحو يوم منهم"^(٥).

وإذا كان أهل مصر قد اعتمدوا في شربهم على ماء النيل، فقد عرف الأغنياء منهم، ولا سيما في العصر الإخشيدي، الماء المثلج، وكان الثلج بمصر يستعمل في تبريد الماء والمشروبات، ولكن الظاهر أنه لم يكن يصل إلى مصر كل يوم بانتظام^(٦).

١ - الثعالبي: بتيمة الدهر، جـ ١، القاهرة ١٣٥٢هـ، ص ص ٣٥٤، ٣٥٥.

٢ - ابن سعيد: المغرب، ص ٩.

٣ - انظر: (ملحق الدراسة، طبق من الخزف صنع في مصر يرجع إلى القرن الثالث الهجري)، متحف الفن الإسلامي بالقاهرة. شكل رقم (٧).

٤ - وقد ذكر المقرئ: "عذوبة طعمه وحسن أثره في هضم الغذاء وأحذاره عن المعدة بحيث أنه يحدث بعد شربه جشاء" المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٦٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٤٦؛ ابن ظهيرة: الفصائل الباهرة ص ١٣٧.

٥ - المسعودي: مروج الذهب، جـ ١، ص ١١٦.

٦ - الغزولي: مطالع البدر في منازل السرور، ط الأولى مصر ١٢٥٩/١٣٠٠هـ، جـ ٢، ص ٧١؛ ابن الأخوة: معالم القرية، ص ١٨٨.

ومن المشروبات التي عرفها العرب باستخدام ماء النيل "عصير الليمون" يقدم كمشروب ترفيهي بالإضافة إلى التداوي^(١) كعلاج لبعض الأمراض، وشراب الجلاب^(٢) وشراب اللينوفر^(٣) وشراب الورد الطرى، وشراب ورد مكرر، وشراب التفاح الساذج، وشراب التمر هندي، وشراب النعناع، وشراب الخل، وقد شملت شراب الجلاب وماء الفاكهة أو ماء الزهر، ومن الاشربة شراب الفقاع الذي ورد ذكره في الأوراق البردية، فهو يستخدم في هضم الطعام^(٤).

المآتم والأحزان :

انفردت جبانة مصر بإطلاق لفظ القرافة عليها، وأصبحت هذه التسمية علما على الجبانات في مصر دون غيرها من البلاد الإسلامية التي عرفت فيها أماكن دفن الموتى بالمقبرة^(٥)، وبالجبانة^(٦). وتقع قرافة مصر عند سفح المقطم^(٧)، وقد سميت بالقرافة نسبة إلى طائفة من

- ١ - ابن الأخوة: معالم القربة، ص ١٨٦؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٦.
- ٢ - شراب الجلاب: هو السكر إذا عقد بوزنه أو أكثر بماء الورد انظر ابن الأخوة: معالم القربة، ص ١٨٥.
- ٣ - شراب اللينوفر: فارسي معناه ذو الأجنحة، وهو نبت مائي له أصل كالجزر وساق أملس، ومنه البرى ويعرف بمصر بعرائس النيل ويستعمل لقطع الحمى والقروح انظر معالم القربة، ص ١٨٦.
- ٤ - المصدر نفسه، صفحات ١٨٨، ١٩٢، ١٩٧؛ جروهمان: أوراق البردي، ج ٥، طراز رقم ٧٣، ١٤٧.
- ٥ - القبر مدفن الإنسان، وجمعه قبور، والمقبرة موضع القبر، قال سيبويه المقبرة ليس على الفعل، وانته اسم، وقبره يقبره دفنه، وأقبره جعل له قبرا. انظر المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٢؛ ويذكر ياقوت الحموي: "والجبانة في الأصل الصحراء، وأهل الكوفة يسمون المقابر جبانة كما يسميها أهل البصرة المقبرة" انظر: معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٩.
- ٦ - مما تجدر الإشارة إليه أن الزميل ا.د. محمد حمزة إسماعيل قام بإعداد رسالة ماجستير في هذا الموضوع بعنوان: قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك "ماجستير غير مطبوعة، جامعة القاهرة ١٩٨٧م، وقد خصص فيها قدرا كبيرا عن تطور الجبانة منذ الفتح العربي الإسلامي حتى نهاية الفترة موضوع البحث، انظر كذلك: محمود الحسيني: التطور العمراني لعواصم مصر الإسلامية، ص ٥٤٣.
- ٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٦، ١٥٧، ابن الفقيه: المختصر، ص ٥٩؛ ويذكر ياقوت الحموي: "القرافة خطة بالقسطاط من مصر كانت لبنى غصن بن سيف بن وائل من المعافر؛ وقرافة: بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم، وهي اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جلييلة ومحال واسعة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين وترب للاكابر مثل ابن طولون" انظر: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١٧؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٣٠٥، ٣٠٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٣٢٤؛ المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١٢٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل، ص ١٩٢؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٠٨؛ ليو الأفريقي: وصف أفريقيا، ص ٥٨٥؛ على بهجت: حفريات القسطاط، ص ٣٣؛ محمد حمزة: مرجع سابق، ص ٥، ص ٧١.

قبيلة المعافر يقال لهم بنو قرافة نزلوا عند سفح الجبل^(١)، وتمتد المقابر فيما بين مصلى خولان إلى المعافر^(٢)، وقد خصص المسلمون في جنوبها جزءا لدفن موتى الأقباط^(٣).

ويشير المقرئى إلى القرافة بقوله: "فما كان منها في سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى، وما كان منها في شرق مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى، وفي القرافة الكبرى كانت مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت أرض مصر، واختط العرب مدينة الفسطاط، ولم يكن لهم مقبرة سواها^(٤)".

وتوصف هذه المقابر "بأنه ليس في الدنيا مقبرة أعجب منها، ولا أبهى ولا أعظم ولا أنظف من أبنيتها وقبابها وحجرها، ولا أعجب تربة منها كأنها الكافور والزعفران مقدسة في جميع الكتب، أو حين تشرف عليها تراها مدينة بيضاء، والمقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها^(٥)"، وهذا يوضح أن المسلمين قد اعتنوا بنظافة مقابرهم، والاهتمام بعمارته منذ أول اختطاط للمدينة.

ويصف المقدسى مقابر المسلمين بأنها كانت: "في غاية الحسن والعمارة ترى البلد غرباء، والمقابر بيضاء^(٦)".

ويصف الكندى أول قبر بيض في الإسلام بمصر، عند وفاة إبراهيم بن صالح العباسى (١٧٦هـ/٧٩٢م) "بعد ولايته الثانية على مصر سنة ست وسبعين ومائة،

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٢٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم، ص ٣٦.

٢ - على بهجت: حفریات الفسطاط، ص ٢٣.

٣ - المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٣، ٤٤٤؛ على بهجت: حفریات الفسطاط ص ٢٣.

٤ - المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٢، ويلاحظ أن القرافة الصغرى شهدت نشاطا عمرانيا ملحوظا في العصر الأيوبي خاصة زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) والملك الكامل محمد (ت ٦٢٥هـ/١٢٢٨م) وظهرت تسميتها القرافة الصغرى في العصر الأيوبي بعد أن أقبل الناس على البناء فيما حول قبر الإمام الشافعى في عهدى كل من السلطان صلاح الدين والكامل محمد وقد امتدت هذه القرافة في سفح المقطم، وعظم العمران بها، أما القرافة الكبرى فقد تلاشى أمرها إلى أن عاد إليها العمران من جديد في عهد الناصر محمد بن قلاوون. انظر محمد حمزة إسماعيل: قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، ص ٥٣، ٦٨.

٥ - المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٤.

٦ - المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٠٩.

كان مقامه بها شهرين وثمانية عشر يوما، فكان قبره أول قبر بيض في مقبرة مصر^(١).

وأول من دفن في قرافة مصر رجل من المعافر، يقال له عامر فقيـل عمـرت^(٢)، وقبر فيها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة نفر: "عمرو بن العاص السهمي، وعبد الله ابن حذافة السهمي، وعبد الله بن جزء الزبيدي، وأبو بصيرة الخفاري، وعقبة بن عامر الجهني، ويقال ومسلمة بن مخلد الأنصاري^(٣).

ويذكر المقرئ نـقلا عن القضاـعي: "أن أول من صلى عليه من الموتى داخل الجامع، أبو الحسن سعيد بن عثمان، صاحب الشرط، في النصف من صفر، وكانت وفاته فجأة، فأخرج ضحوة يوم الأحد السادس عشر من صفر، وصلى عليه خلف المقصورة، وكبر عليه خمسا، ولم يعلم أحد قبله صلى عليه في الجامع^(٤).

وعندما حضرت عمرو بن العاص الوفاة في ليلة عيد الفطر في سنة ثلاث وأربعين هجرية قال: أي بني إذا مت فكفني في ثلاثة أثواب أزرنى في أحدهم، ثم شقوا لي الأرض شقا وتسنوا على الثراب سنا فاني مخاصم^(٥)، وكان ابنه عبد الله ابن عمر قد غسله ثم أخرجه حين صلى الصبح، فوضعه بالمصلى ثم جلس حتى إذا رأى الناس قد انقطعوا من الطريق الرجال، والنساء قام فصلى عليه، ولم يبق

١ - الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٢٥.

٢ - النويري: نهاية الأرب، ج ١٩، ص ٣٢٤؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٣٦.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٧؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٠٨، ١٠٩؛ ابن جبير: الرحلة، ص ٢٢.

٤ - يذكر البلاذري "لما توفي سعد بن أبي وقاص، أرسل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمشوا بجنازته في المسجد، ففعلوا ذلك، ووقف بها على حجرهن، فصلين عليه، وخرجنه من باب الجنائز. فبلغهن أن الناس عابوا ذلك، وقالوا: ما كانت الجنائز تدخل المسجد، فبلغ ذلك عائشة، فقالت: ما أسرع الناس إلى عيب ما لا علم لهم به، ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سهيل بن البيضاء إلا في جوف المسجد" البلاذري: أنساب الإشراف، ج ١، ص ٢٢٤، ٢٢٥؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٢٤٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٦٨.

٥ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٩٤؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٥١؛ الكندي: الولاة، ص ٢٣؛ المسعودي: مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٣.

أحد شهد العيد الا صلى عليه ثم صلى العيد بالناس، وكان أبوه قد استخلفه على مصر^(١).

وقد عرف العرب عادة البكاء على الموتى، ويحكى أن عمرو بن العاص أوصى عندما حضرته الوفاة: "فإذا أخرجتموني فأسرعوا بى ولا تتبعنى نائحة ولا نار وشدوا على ازارى"^(٢)، ويذكر ابن ظهيرة: "أن عمرو لما اشتد به المرض سمع البكاء من داره، فقال أحضروا لى الساعة أربعة آلاف نفس بالسلاح، فلما حضروا قيل له: فما تصنع بهم؟ قال يكون ألف بباب المدينة، وألف على الجبل، وألف على الفج عند بنى وائل، وألف على الجيزة، فقال له ابنه: ولم ذلك؟ قال يمنعون عنى الموت، فقال: ومن يقدر على هذا؟ قال: فما هذا البكاء"^(٣).

كذلك قال عمرو بن العاص ولا تدخلن القبر خشبة ولا طوبة ثم إذا قبرتمونى فامكثوا عندى قدر نحر جزور وتفصيلها استأنس بكم^(٤).

ويذكر البلاذرى: "أن زينب بنت جحش قد أوصت أن تحمل على السرير الذى كان حمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحملت عليه، ومن ثم فقد أخذ الناس يحملون عليه موتاهم، حتى جاء مروان، ومنع أن يحمل عليه إلا الرجل الشريف، وصنع سررا لحمل موتى المسلمين، فكان فى وسطه ليف منسوج"^(٥).

وقد استن المسلمون الأوائل عادة الدفن فى نفس المسكن المقيمين به، فمما يذكر أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان قد ابنتى بمصر دارا قد أقام فيها حتى وافته المنية "فلم يزل بها حتى مات فدفن فى داره سنة سبع وسبعين هجرية فى خلافة عبد الملك بن مروان"^(٦).

١ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج-٧، ص ٤٩٤؛ الكندى: الولاة، ص ٣٤؛ المسعودى: مرج الذهب، ج-٢، ص ٢٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج-١، ق ١، ص ص ١١٧، ١١٨.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٥١؛ النووى: مختصر كتاب رياض الصالحين، ص ٧٨.

٣ - ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٢٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٥١.

٥ - البلاذرى: انساب الإشراف، ج-١، ص ٣٦، ٥٢٥؛ ويذكر القلقشندي أن: "أول امرأة حملت فى نعش

زينب بنت جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم" انظر صبح الاعشى، ج-١، ص ٤٣٥.

٦ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج-٧، ص ٤٩٥.

ويشير المسعودى إلى أن قراءة القرآن كانت ترتل فى البيوت والمنازل الخاصة، وقبل أن يسجى الميت إلى القبر، حيث تواجد المقرؤن داخل الجبانة^(١). وقد منع الرسول أن يناح على الميت^(٢)، وقد حاول ولاة مصر أن يمنعوا هذه العادات السيئة فى أثناء الجنازة، وفى حرب الخندق التى دارت بين مروان بن الحكم، وعبد الرحمن بن جحدم والى مصر لعبد الله بن الزبير سقط كثيرون من جيش أبى جحدم قتلى، ويقال أن أكثرهم كان من قبيلة المعافر بمصر، وعند دفنهم ارتفعت أصوات نسائهم بالبكاء والنواح^(٣)، وحاول مروان بن الحكم أن يمنعهن من ذلك دون جدوى، ولما مات عبد العزيز بن مروان خرجت وراءه النساء لابسات السواد نائحات صائحات^(٤) وحتى نهاية القرن الثانى كانت تلك العادة مستمرة، ولما مات القاضى البكرى "قاضى مصر سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م) خرجت وراء جنازته نادية، وقد شجعها أحد أبناء العرب على الاستمرار فيما تقول^(٥).

وفى القرن الثالث الهجرى رسخت تلك العادة رغم مجافاتها لروح الإسلام كما يقول آدم متر^(٦) فكان الرجال والنساء يرتدون الثياب السود على حد سواء، وينحصر الحداد فى أن تصبغ النساء القميص وخمار الرأس وحجاب الوجه والمنديل باللون الأزرق الغامق أو باللون الأسود على وجه التقريب مضافا إلى اللون النيلى، ويرتدين ملابس الحداد سبعة أيام أو خمسة عشر يوما أو أربعين يوما أحيانا^(٧).

ويذكر الكندى أنه حين تولى الحارث بن مسكين القضاء (عام ٢٣٧هـ/٨٥١م) من قبل أبى جعفر المتوكل "منع النداء على الجنائز^(٨)".

١ - المسعودى: مروج الذهب، ج٤، ص ١٥٩.

٢ - النووى: مختصر كتاب رياض الصالحين، ص ٧٧؛ ابن قيم الجوزية: فتاوى رسول الله، ص ٨٨.

٣ - المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٤٥٨، ٤٥٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٣٦، ٢٣٧.

٥ - الكندى: الولاة، ص ٤١٦، ٤١٧.

٦ - آدم متر: تاريخ الحضارة، ج٢، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

٧ - دوزى: المعجم المفصل، ص ٢٦.

٨ - الكندى: الولاة، ص ٤٦٩.

وفى ولاية يزيد بن عبد الله التركى من قبل المنتصر، سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م
"منع من النداء على الجنائز وضرب فيه"^(١).

وفى ولاية مزاحم بن خاقان على مصر سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م، نهى أن يشق
ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة، وعاقب بسبب ذلك
خلقا كثيرا وشدد على الناس^(٢).

كذلك نعرف أن والى مصر بعد سقوط الدولة الطولونية، وهو عيسى
النوشرى أمر فى سنة ٢٩٤هـ/٩٠٧م بمنع النواح والنداء على الجنائز^(٣)، ولكن
يبدو أن هذا المنع المتكرر لم يكن يستطيع القضاء على تلك العادات التى عرفها
الشعب المصرى منذ العصور القديمة^(٤).

١ - الكندى: الولاة، ص ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٠٨.
٢ - الكندى: الولاة، ص ص ٢١٠، ٢١١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ص ٢٢٧، ٢٢٨.
٣ - الكندى: الولاة، ص ٢٦٦.
٤ - عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، ج ١، القاهرة ١٦٧، ص ٣١٤-٣٢٤.

الفصل السادس

العادات الاجتماعية الخاصة لأهل الذمة

– المصريون المسيحيون:

- الزواج، الطلاق.
- الختان.
- الملابس.
- الطعام والشراب.
- المسكن.
- المآتم والأحزان.

– اليهود :

- المسكن.
- الملابس.
- الزواج.

الفصل السادس

العادات الاجتماعية الخاصة لأهل الذمة^٦

المصريون المسيحيون :

التزم المسلمون بتحقيق مبدأ حرية أهل الذمة في حياتهم الاجتماعية^(١)، كما يفهم مما أورده المؤرخون وعلى رأسهم المقرئزي^(٢)، من أن نصارى مصر كان لهم العديد من الكنائس والأديرة^(٣)، والقبور^(٤) في عدة أماكن بالفسطاط أثناء الفتح العربى وهذه الأماكن هى:

- قصر الشمع وحوله.

- شمال قصر الشمع وجامع عمرو بن العاص.

- جنوب وشرق الفسطاط^(٥).

ووجود هذه الكنائس والديارات فى هذه الأماكن تثبت وجود مساكن أهلة ومبان عامرة بالسكان من أهل الذمة فى المدينة قبل الفتح وأثنائه.

١ - يتضح هذا من خطبة عمرو غداة الفتح مخاطبا جنوده "... واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا"، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٤٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل، ص ١١٨، ١١٩.

٢ - حيث يذكر المقرئزي: "أعلم أن موضع الفسطاط... ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم... تم يقول بعد ذلك" وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التى كانت بجانبه وبين الجوف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر حيث جامع ابن طولون والكش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى كان يعرف فى أوائل الإسلام بالحمراء" انظر: المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٨٦.

٣ - مثل كنيسة أبى مينا التى شيدت فى عهد الوليد بن رفاعه فى سنة ١١٧هـ/٧٣٥م بالحمراء. انظر: الكندى: الولاة، ج ١، ص ٧٧، ٧٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٦٥.

٤ - بدليل أن عمرو بن العاص خصص للمقوقس مساحة من بركة الحبش لتكون جبانة للقبط يقول المقرئزي: "فكتب بذلك عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر بن الخطاب أنى لا أعلم شجر الجنة غير المؤمنين فاجعله لهم مقبرة ففعل فغضب المقوقس من ذلك وقال لعمرو ما على هذا صالحتى، فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى" الخطط، ج ١، ص ١٢٤، ج ٢ ص ٤٩٢؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٦٨، ج ٢، ص ٢٧.

٥ - محمود الحسينى: التطور العمرانى، ص ١٥٢.

وأشار ساويرس بن المقفع لما حدث أثناء القتال بين بنى أمية والجنود العباسيين، حيث نادى العباسيون بأن: "من كان نصرانيا، فليعمل الصليب على جبهته وثوبه وعلى باب بيته"^(١)، وهذا يدل على اعتناق كثيرين من الأقباط للإسلام، وقد ظلوا من غير شك في مساكنهم، ولتداخل تلك المساكن مع مساكن من ظل منهم على دينه، لهذا كان على المسيحيين أن يميزوا أنفسهم حتى لا يصيبهم مكروه، ومن ناحية أخرى يدل ذلك على أن القبط قد تشبهوا بالمسلمين في الملبس إلى درجة عدم إمكان تمييزهم.

وذكر ابن عبد الحكم أنه أحصى من بقى بمدينة الإسكندرية بعد الفتح من أهل الذمة فكانوا ستمائة ألف سوى النساء والصبيان، على الرغم مما ذكر من رحيل سبعين ألف يهودى عقب الفتح، وبلغ عدد المسيحيين من الروم مائتى ألف من الرجال رحل منهم ثلاثون ألفا، أما الباقي منهم فقد أرتضوا الجزية^(٢).

وقد اختلفت الروايات بشأن عدد الأقباط في مصر كلها، فقد تراوح تقدير عدد مسيحي مصر ما بين ستة وثمانية ملايين عقب الفتح^(٣).

ويذكر آدم متز أنه في القرن الثانى الهجرى كان خمسة ملايين من القبط يدفعون الجزية، والعدد الكلى خمسة عشر مليوناً من النصارى^(٤).

والحقيقة أن أقباط مصر كان لهم نصيب واضح في مشاركة العرب اجتماعيا، نذكر مثلا: أنه قد جرت العادة بين المسلمين في مدينة أسنا بصعيد مصر على أن يدعو في أفراح عرسهم بعض القبط الذين يحسنون الغناء والتلحين باللغة القبطية، ويشركونهم في احتفالاتهم، فيتقدم هؤلاء المغنيين القبط موكب العروس في شوارع المدينة وأسواقها^(٥).

كما كان سكان هذه المنطقة من المسلمين، يشاركون القبط في استقبال أسقفهم الجديد عند تعيينه. خارج المدينة (أسنا)، ويصلوا به إلى قلايته التى يسكن فيها طوال مدة توليه الأسقفية^(٦).

١ - ساويرس: سير الأباء البطارقة، جـ ١، ص ١٩٥.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٨٢.

٣ - المصدر نفسه، ص ص ٧٠، ٧١.

٤ - آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ص ٨٣، ٨٤.

٥ - أبو صالح الأرمنى: تاريخ كنائس وأديرة مصر، ص ١٢٩؛ ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص ١٧٠.

٦ - أبو صالح الأرمنى: مصدر سابق، ص ١٢٩.

ومن مظاهر الود والوفاق بين مسيحي مصر ومسلميها، أنه إذا أصاب أحدهم، مرض فإنهم يخرجون إلى جبل المقطم داعين بالشفاء، مثلما حدث عند مرض أحمد بن طولون^(١).

وتشير الوثائق البردية إلى مدى العلاقة الطيبة بين المسلمين والأقباط، وخاصة في الشهادة على عقود الزواج، ففي العقد المؤرخ في آخر صفر سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م باسم يونه ابنت حليصى وزوجها يزيد بن قاسم، وقع من الشهود داود بن سليمان، ولقمان بن سليمان، واليسلاخ بن عبد الوهاب^(٢)، والتوقيع على عقود البيع والشراء، وخاصة في العقد المؤرخ في ذى القعدة من عام ٢٣٨هـ/٨٥٢م، وهو عقد شراء باسم عبيد الله بن بطرس الأقفوى المشتري من النصر بن النصر بن عبد الله الزيات^(٣).

وهذه عقد شراء مؤرخ في شهر ربيع الأول سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م، باسم على بن عبد الله المشتري من ورثة بشندة بن عيسى الشماس^(٤)، ونلاحظ أن كثيرا من الوثائق البردية تشير دائما إلى عمليات البيع والشراء، وخاصة بين المسيحيين المصريين والعرب المسلمين حتى بعد عصر الولاة، ففي العقد المؤرخ في شهر شعبان سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م، بيع منزل يحنس بن شنودة إلى عبد العزيز بن مقبل، وكلاهما من سكان بعض قرى كورة الفيوم. وتتضمن هذه الوثيقة وصفا كاملا للمنزل وحدوده من كل جانب، وثمان البيع، وتوقيع من اشترك في الشهادة على عقد البيع من المسلمين والمسيحيين، وهذه الوثائق تدل على العلاقة الطيبة التي ربطت بين مسيحي مصر والمسلمين فيها، وتمتع هؤلاء المسيحيين بحرية البيع والشراء^(٥).

وإذا كان المسيحيون المصريون وقعوا بشهاداتهم على عقود الزواج، والبيع والشراء، فقد شاركهم المسلمون في الحرص على هذه العلاقة الطيبة، ودليلنا على ذلك العقد المؤرخ في شهر المحرم سنة ٣٤١هـ/٢٨ يونيو سنة ٩٥٢م، الذي

١ - ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٧٠.

٢ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ١، طراز رقم ١٨٧١، ص ص ١٠٥، ١٠٦.

٣ - وثيقة غير منشورة، متحف الفن الإسلامى، تحت رقم ٩٨١٨، انظر: ملحق الدراسة شكل (٤).

٤ - وثيقة غير منشورة، متحف الفن الإسلامى، تحت رقم ٩٨١٧، انظر: ملحق الدراسة شكل (٥).

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ج ١، طراز رقم ١٩٠١، ص ص ١٦٣-١٦٤.

تضمن شراء يحنس بن شنودة بن بطاقس بن مقطلنى أبنت شنوده بن أيوب من كورة الفيوم حصتها من المنزل المشاع بينهما، وقد وقع وشهد على عقد البيع عبد الصمد بن يوسف بن هرون^(١).

و الواضح من الروايات التاريخية أن معظم أغنياء مسيحي مصر، كانوا يتركزون في الريف المصري بصفة خاصة، حيث يشير ابن الداية إلى أحد هؤلاء الأثرياء فقال: "كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها، كثير المال فاشي النعمة، سمح النفس، وكانت له دار ضيافة وجرايات واسعة على نوى الستر بالفسطاط"^(٢).

ويقول ساويرس: "ولما صار جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينها وتدبير أمورها، كلهم نصارى، وهم الملاك النافذ أمرهم، طغوا وعتوا، وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر، وتكبروا وعزت نفوسهم، ووقع بينهم البغضة والحسد، وبين مقدميهم، وصار أكثر اهتمامهم بالأمور الدنيوية، والتفاخر والكبرياء على بعضهم البعض"^(٣).

وبجانب تمتع المسيحيين المصريين بحرية شعائهم الدينية منذ الفتح العربى، توثقت الروابط الاجتماعية، يتضح هذا من العلاقة التى تأصلت بين عمرو بن العاص والمقوقس الذى سمح له بالإقامة فى الكنيسة المعلقة، طوال حياته، ومدى شفاعته للمسيحيين الأرثوذكس لدى الإدارة الإسلامية "وكان المقوقس يحضر إلى عمرو إذ كانت له حاجة فيقضيها له"^(٤).

وأجمع مؤرخو الكنيسة فى مصر على أن ولاة مصر لم يتدخلوا فى شعائهم الدينية ، وتعيين البطارقة، بل تركوا لهم الحرية فى الاختيار وحدث هذا فى عهد

١ - جاء فى نص العقد: بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اشترى يحنس بن شنوده بن بطاقس من مقطلنى أبنت شنوده بن أيوب وهما جميعا من سكان طمطون من كورة الفيوم حصتها من المنزل المشاع بينها وبينه وهو السدس منها أربع أسهم من أربع وعشرين سهما بحده وحدوده ومدخله ومخرجه وسفله وعلوه داخل فيه وخارج منه حده القبلى منزل قبرى القبشاوى.

جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ١، طراز رقم ١٨٩٩، ص ص ١٥٣، ١٥٤.

٢ - ابن الداية: المكافاة، ص ص ٣٦، ٣٧.

٣ - ابن المقفع: سيرة الأباء، جـ ٣، ص ١٧٣.

٤ - ابن أبياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ١٠٩.

عبد العزيز بن مروان^(١)، الذى أطلق سراح الأب يوحنا، وسمح ببناء كنيسة فى حلوان^(٢).

وإذا كانت قد صدرت بعض المراسيم من قبل الخلافة، فهى مراسيم استثنائية، كما حدث فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان فى سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م، أثناء ولايته عقبة ابن مسلم التجيبى على مصر "وورد عليه كتاب الخليفة يزيد بكسر الأصنام والتماثيل، فكسرت كلها، ومحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها فى أيامه^(٣)" باعتبارها نوعا من الوثنية، وكان ما حدث فى ذلك الوقت شبيها بحروب الأيقونات فى الدولة البيزنطية^(٤).

كذلك عند ولاية على بن سليمان فى سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م من قبل الهادى "هدم الكنائس المحدثه بمصر فهدم كنيسة مريم الملاصقة لأبى شنوده، وهدم كنائس محرس فسطنطين، وبذل له خمسون ألف دينار فى تركها فامتنع^(٥)" وذلك تطبيقا للشروط التى أقربها أهل الذمة فى هذا الشأن.

ولكن موسى بن عيسى وإلى مصر من قبل هارون الرشيد سنة ١٧١هـ/٧٨٧م، أذن للنصارى فى بناء الكنائس التى هدمها على بن سليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة وقالوا: هو من عمارة البلاد، واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبني إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين^(٦).

وفى عهد المأمون العباسى، وعند محيئه إلى مصر سنة ٨١٣-٨٣٣م/١٩٨-٢١٨هـ^(٧)، أذن للنصارى ببناء كنيسة على جبل المقطم، كما سمح لأحد

١- ساويرس: سير الأباء البطارقة، ج١، ص ١٢٧.

٢- المصدر نفسه، ج١، ص ١٢٦؛ أرنولد: الدعوة، ص ٨٥.

٣- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١، ص ٢٥٠.

٤- هسى: العالم البيزنطى، ص ١٣٦؛ اسد رستم: حرب فى الكنائس، بيروت ١٩٦٨م، ص ٤٢-٤٦.

٥- الكندى: الولاة، ص ١٣١؛ المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٤٩٢، ٥١١.

٦- الكندى: الولاة، ص ١٣٢؛ المقرئى: الخطط، ج٢، ص ٥١١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة،

ج٢، ص ٦٦؛ أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٨٦.

٧- أرنولد: نفسه، ص ٨٦.

المسيحيين، ويدعى بكام ببناء عدة كنائس حسان ببلدة بورة في مصر^(١).

الزواج عند مسيحي مصر :

لاحظ ابن عبد الحكم تلك الحرية التي تمتعت بها المرأة الذمية، حيث يذكر: "أن نساء أهل مصر لم يصبرن عن الرجال فطفت المرأة تعتق عبدها وتتزوج به، وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال أن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن فأجابوهن في ذلك، فكان أمر النساء على الرجال^(٢)"، وفي موضع آخر يقول "أن نساء القبط على ذلك إلى اليوم أتباعاً لمن مضى منهم لا يبيع أحد منهم ولا يشتري إلا قال استأمر امرأتى^(٣)".

ولإتمام مراسيم الزواج هناك محظورات على حسب القواعد المعمول بها عند المسيحيين المصريين الأرثوذكس، فلا يجوز الاحتفال به في أيام الصوم الكبير، إذا يقول المقدسى: "ولا يحل لهم اللحم والجماع في الصوم^(٤)"، وإنما جرت العادة على أن يتم الزواج في بداية العيد.

وكان يجب على القسيس أن يتأكد من أن الزوجين يقبلان على الزواج بإرادتهما دون إرغام أو ضغط من أحد^(٥)، يقول المقدسى: "ولا يصح نكاحهم إلا بحضور شماس والعدول، والمهر^(٦)".

ويرتدى الجميع اكليروس الكنيسة يوم حفل العرس، اللون الأبيض، وكان من الملبوسات الخاصة بالزواج صليب من الذهب، وخاتم من الذهب، ومن عاداتهم أن

١ - ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٥٨، ولمزيد من المعلومات عن كنائس وأديرة مصر، انظر: مصطفى عبد الله شبحه: الزخارف الإسلامية في عمارة الكنائس الأثرية بمصر القديمة وما بها من التحف والآثار، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٨.

٣ - المصدر نفسه، الصفحة، المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٩.

٤ - المقدسى: البدء والتاريخ، ج ٤، ط باريس ١٩٠٧م، ص ٤٧؛ ابن المقفع: سير الأبناء، م ٢، ج ٣، ص ١٦٦؛ المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ص ٩٥، ٩٦.

5 - Butler: Ancient Coptic Churches, Oxford. 1884, T. 2, PP. 323-324;

مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطى، القاهرة، ص ١٧٤.

٦ - المقدسى: البدء والتاريخ، ج ٤، ص ص ٤٧، ٤٨؛ زكى شنودة: موسوعة تاريخ الأقباط، ج ١، ص ٢٧٠.

يعطى الزوج هذه الملبوسات للبطرك ليباركها، ويقوم عليها يطقوس الخدمة، قبل ليلة الاحتفال^(١).

وطبقا لشرائعهم لا يجوز أن يزيد عدد الزوجات عن واحدة^(٢)؛ هذا وأن كان المسيحيون في مصر يتشبهون أحيانا بغيرهم من عناصر المجتمع، فانتشرت بينهم عادة اتخاذ السراري إلى جانب زوجاتهم، وظهر ذلك في عهد البطرك سيمون في ولاية عبد العزيز بن مروان، وأن كانت الكنيسة قد وقفت موقفا متشددا من هذه الظاهرة، فكانوا يمنعون من يتخذ السراي من حضور القداسات، فلجأ هؤلاء إلى عبد العزيز، وشكوا إليه أن الأساقفة منعوهم من الزواج، مما اضطرهم إلى الانحراف الخلقي فغضب عبد العزيز بن مروان، وعقد اجتماعا حضره أربعة وستون أسقفا، على رأسهم البطرك أنبا سيمون، وبعد مناقشات وجدال تقرر حرمان هؤلاء من الكنيسة، أن لم يتخلوا عن السراي^(٣) وهذا يدل على أن والى مصر عمل على مساعدة الكنيسة في تنفيذ النظام الكنسي على المسيحيين.

ومع ذلك فيبدو أن هذه العادة استمرت بين المسيحيين في مصر حتى عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، إذ أن كثيرا من كبار المسيحيين ظلوا يتخذون عدة سراري، وينجبون منهم الأولاد، وقد انزعجت الكنيسة المسيحية في مصر، وهددتهم بالحرمان والمنع من القداسات، وأمرتهم بتقديم القربان على كل من يتخذ سرية لنفسه^(٤).

وكان حفل الزواج يتم بقراءة مزامير التوبة والغفران، ويشعل القسيس البخور، وبعد ذلك يبدأ جماعة المرنمين في الغناء، ويلى ذلك قراءة الإنجيل بالقبطية

١ - وفي اليوم المحدد للعرس يخرج العروسان كل منهما على انفراد، تتقدمهما الموسيقى، ويسيران في الطرقات حتى يصلوا الكنيسة المحددة لإقامة العرس فيها، ويتقدمهما الشماسة بالشموع الموقدة والأجراس، وفي داخل الكنيسة يجلس الزوج وسطه جماعة المرنمين، أما الزوجة فتجلس في الجانب المخصصة للنساء.

Butler: Op. Cit. T. 2, PP. 323-324.

٢ - المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص٤٨؛ المقرئ: الخطط، ج٢، ص٤٩٥، ٤٩٦.

٣ - ابن المقفع: سير الأباء، م١، ج٢، ص١٣٥، ١٣٦؛ الشماس منسى القصص: تاريخ الكنيسة القبطية، ص٤٠٨.

٤ - ابن المقفع: سير الأباء، م٢، ج٢، ص٩٢.

Le Synaxaire Arabe Jacobite, Redaction Copte Texte Arabe, T. 2, PP. 309-310.

ثم العربية ويقوم جميع الحاضرين بالصلاة^(١).

وكان الزوج أثناء ذلك الاحتفال، يرتدى قونية بيضاء من الحرير، تصل إلى القدم، ويشد وسطه بحزام جلد، وعلى رأسه غطاء أبيض، ثم يضع البطرك الخاتم في يده اليمنى ويباركه، وبعد ذلك يقف العروسان، وعلى رأسهما الصليبان الذهبية، ويعلن القسيس برائتهما، ويقدم العروس للعريس، ويمنحهما بركاته، ثم تضاء جميع أرجاء الكنيسة، ويعلن القداس، ويقدم القربان، وبعد الانتهاء من هذه المراسم يخرج العروسان من الكنيسة إلى منزلهما الخاص^(٢).

وعقود زواج الذميين سواء كانت مكتوبة باللغة المصرية أو بالإغريقية أو بالقبطية - وحتى المكتوب منها بالعربية منذ دخول العرب - كلها تحمل طابعا واحدا، وذلك تضمنها لبعض الشروط وخاصة المالية، والبرديات القبطية تظهر أنه حتى القرن الثامن الميلادي على الأقل لم تكن هناك سلطة أو رقابة عامة مختصة بشئون الزواج، كما يبدو أن نفوذ الكنيسة لم يكن حتى هذا التاريخ قد تغلغل في كل أركان الحياة، بل كان نظام الزواج يجري مجراه القديم الذي عهدناه منذ العصر الفرعوني^(٣).

أما عن وضع المرأة في المجتمع كما يبدو من خلال البرديات القبطية^(٤)، فيبدو أنه كان يمثلها عامة أحد الوالدين عند عقد قرانها، ولكن لدينا وثيقتين تبينان بجلاء أن الزواج عند الأقباط كان يعقد بناء على رغبة الزوجين.

وبذلك كانت المرأة تلعب دورها في عقد قرانها مثل الرجل تماما، إذ كانا هما الطرفين المتعاقدين، وهذا يتفق مع كفاءتهما القانونية التي كانت تتمتع بها منذ العصر الفرعوني، ولكي ندرك فكرة الزواج عند الأقباط ليس هناك أفضل من

1 - C. F: Butler: Op. Cit., PP.324-326.

2 - C. F: Butler: Op. Cit. PP. 324-326.

عبد السلام الترماني: الزواج عند العرب، ص ١١٣.

٣ - شفيق علام: حول الزواج في مصر القديمة، مجلة مركز الدراسات البردية، جامعة عين شمس، العدد الأول، ١٩٨٧، ص ٢٠.

٤ - برديات قبطية نشرت حديثا:

C. F: Balogh/ Kahle, Two Coptic Documents Relating to Marriage, in Aegyptus 33. 1933, 33 IFF; P kahle, Balaizah II (1954), P. 566 FF; L. Maccoull, Coptic Marriage Contract in: Actes dyxve Congres International de Papyrologie (Papyrologice Bruxell ensia 17), 20 Partie (Papyri inedit), 1979, IIG FF.

الرجوع إلى بردية من القرن الثامن الميلادي، وفيها يوجه الزوج حديثه إلى زوجته بدون وسيط أو ولي أمر، وبناء على ما جاء في البردية أعطاها مبلغا من المال كهبة (وتسمى تشاب^(١)) وهذه الهبة بهذا المصطلح نجدها في كثير من البرديات المصرية القديمة، وبعد ذلك تذكر البردية أن الزوج قد أخذ على نفسه حسن معاملة زوجته، وألا يطلقها^(٢) جورا وبدون مبرر، ومع ذلك فإمكانية الطلاق دخلت في الاعتبار، فلزوج ولزوجه حق تطليق الطرف الآخر، وتتص البردية على عقوبة مالية تقع على عاتق الطرف الذي يتسبب في الطلاق، وقيمتها كانت مرتفعة جدا، حيث تبلغ أكثر من سبعة أمثال الهبة التي أعطاها الرجل لزوجته عند عقد قرانهما، وهذه العقوبة المالية يرجح أنها من أصل بيزنطي^(٣)، وتذكر البردية أن أهل الزوج، (أبوه وأمه وأخوه الأكبر) قد حضروا للموافقة على عقد الزواج، وبهذا أصبحوا ضامنين لوفاء الزوج بالتزاماته المالية.

والبردية التي نحن بصدها توضح كذلك أن الطلاق عند الأقباط حتى القرن الثامن الميلادي، كان يحدث بكل بساطة عندما يفترق الزوجان، تماما كما كان عليه الحال في العصور السابقة^(٤).

وبخصوص الطلاق لدينا بردية قبطية هامة، وهي وثيقة طلاق، وقد وصلنا من هذا النوع برديات كثيرة منها المحرر بالديموطيقية ومنها المحرر بالإغريقية^(٥).

١ - شفيق علام: مرجع سابق، ص ص ٢٠، ٢١.

٢ - النصوص الواردة في الأناجيل المتداولة لا تجيز الطلاق إلا لعلّة الزنا، ولا يرتضى الكاثوليك أن يسموا الطلاق في هذه الحالة طلاقا، وإنما هو افتراق جسماني فحسب: "ودنا إليه الفريسيون ليجوبوه، وقالوا: هل يحل للرجل أن يطلق زوجته لكل علة، فأجاب قائلا: أما قرأتم أن الخالق من البدء خلقهما ذكر، وأنثى؟ وأنه قال: لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ويصيران كلاهما جسدا واحدا، ومن ثم فليساهما اثنين بعد، بل جسد واحد- فما جمعه الله فلا يفرقه إنسان".

انظر: فتحي عثمان: مع المسيح في الأناجيل الأربعة، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦، ص ٣٢٩، هذا تعارض مع ما جاء في دراسة البرديات، وخروج عن الكنيسة المصرية.

3 - A. Grohmann, Arabic Papyri in the Egyptian Library, I (Cairo 1934), PP. 65-121; II Cairo 1936), PP. 209-223; Grohmann, Arabische Papyri aus den Staatlichen Museen Zu Berlin, in Der Islam 22, 1953, PP. 1-68.

٤ - شفيق علام: مرجع سابق، ص ص ٢١، ٢٢.

5 - Papyrus Bodleian Library (Kahle Balaigah), 11, P. 566 FF).

ونص برديتنا القبطية التي ترجع إلى القرن السابع أو الثامن الميلادي تزيح لنا الستار عن عرف شائع منذ القرن السادس قبل الميلاد، وهو تحرير وثيقة، وأهم ما جاء فيها أن أحد الزوجين قد تخلى عن حقه في الحياة الزوجية، وأنه يسمح للطرف الآخر أن يتزوج من شخص آخر، وهذه البردية القبطية توضح أن الطلاق وقع بناء على رغبة الطرفين، وتنص على أن المرأة قد حلفت اليمين ووعدت بالالتصدي مستقبلاً لزوجها السابق إذا عقد زيجة أخرى، والا وقعت عليها عقوبة مالية كبيرة، ومعنى ذلك أنه كان في الإمكان عقد زيجة جديدة، وذلك مما يتعارض مع تعاليم الكنيسة وأوامرها. ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن البردية لا تذكر أسباب الطلاق، وهي وأن ذكرت أسماء بعض الشهود ألا أنها لا تشير إلى سلطة عامة أو مكتب عام لشئون الزواج والطلاق^(١).

وأسماء المواليد عند المسيحيين في مصر ارتبطت إلى حد كبير بأسماء القديسين والقديسات، ومن أوضح الأمثلة على ذلك اسم القديسة بربارة، إذ تشير بعض الروايات إلى أن نصف نساء أقباط مصر، اتخذن اسم بربارة، وذلك تيمناً بها^(٢). ومعظم المصريين بعد الفتح مسلمين كانوا أو أقباط احتفظوا بأسمائهم القبطية أو المصرية القديمة^(٣).

أما عن الختان في المسيحية، فقد جاء في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس: "ليس الختان شيئاً، وليست العزلة شيئاً بل حفظ وصايا الله"^(٤)، وعلى الرغم مما جاء في الكتاب المقدس، إلا أنه كان الكثير من المصريين المسيحيين اعتادوا تعميد أطفالهم قبل الختان^(٥)، ويفضلون أن يكون مع عيد الختان^(٦).

1 - Balogh/ Kahle, Two Coptic Documents, in: Aegyptus 33, 1953, PP. 335 FF.:

شفيق علام: مرجع سابق، ص ٢٢.

2 - Salamon: Un texte Arabe inedit Pour Servir a L'histoire des Chretiens d'Egypte, Le Caire, 1906: P. 18.

3 - Grohmann: Arabic Papyri, Vol. L, PP. 109-112.

٤ - الإنجيل: رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس. الاصحاح السابع، ١٨-١٩.

٥ - ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٢٩٨؛ وأيضاً تاريخ ابن الراهب، ص ص ١٣٨، ١٣٩؛ فتحى عثمان: مرجع سابق، ص ١٩٤.

٦ - يفضل كثير من المسيحيين المصريين ختان أطفالهم في عيد الختان، الذى كان يحل في سانس بؤنة، في نكرى ختان المسيح، وجدير بالذكر أن الأقباط دون غيرهم - كانوا يختنون أولادهم في ذلك اليوم تبركاً به. انظر: القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٢٧؛ بطرس الجميل: السنكسار، ج ١، ص ٢٤٠؛ مراد كامل: مرجع سابق، ص ١٧٥.

فالتعميد والتثبيت يتضمن تنصير الأطفال حديثي الولادة، ولم يحدث أن خالف القبط هذه التقاليد، أو تراجعوا عن القيام بها طوال عصر الولاة، كما أن مراسيم التعميد أو المعمودية لم تلغ إطلاقاً. ولا يجوز تعميد الأطفال في أيام الصوم الكبير والأسبوع المقدس، ولا في عيد القيامة^(١).

ويشير ساويرس إلى أن البطرك أنبا خريسطو دولس في عهد الخليفة المستنصر كتب قانوناً للكنيسة القبطية، ويتضمن هذا القانون، ألا يعمد ذكر وأنثى في معمودية واحدة، وأنه لا يجوز أن تتم المعمودية في يوم الجمعة الكبير، ولا في أيام الخماسين، وإذا عمد أحد الأطفال، فليصم إلى أن يتقرب إذا قدر، ولا يجوز معمودية بدون قربان^(٢).

ويشير المقدسى إلى سر المعمودية بقوله: "من ذكر أحكامهم لأبد من تنصير أولادهم، وذلك أنهم يعمدون إلى من يريدون تنصيره، فيغمسونه في ماء قد أغلى بالرياحين، وألوان الطيب في اجانة جديدة، ويقرؤون عليه شيئاً من كتابهم، ويزعمون أنه ينزل عليه روح القدس، ويسمون هذا العمل المعمودية"^(٣).

الملابس:

ومما لا شك فيه أن فرض قيود الملابس على أهل النمة، كانت ضرورة حتمية لتمييز المسلمين من غير المسلمين، فلا تكون هناك فرصة للاندساس بينهم، وليحتفظ العرب بهيبته بين الرعايا، وللتأكيد من أن المسلمين محافظون على أداء الصلاة في المساجد في مواعيدها جماعة، ومحاسبة المقصرين منهم. هذا بالإضافة إلى سهولة التعرف على أهل النمة، والتأكد من عدم مخالفتهم لما التزموا به، كأداء الجزية وغيرها.

ومما يذكر أن العهد الصادر من الخليفة عمر بن الخطاب إنما هو في أساسه موافقة على ما طلبه النصارى أنفسهم حال فتح مصر في رسالة إلى الفاتحين جاء

١ - المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٥،

Butler: Op. Cit., T. 2, PP. 363-371.

٢ - ابن المقفع: سير الأباء، م ٢، ج ٣، ص ١٦٦، ١٦٧.

٣ - المقدسى: البدء والتاريخ، ج ٤، ص ٤٦؛ المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٤٩٥.

فيها: "إنكم لما قد متهم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وأهالينا وأموالنا وأهل ملتنا، على أن تؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون، وعلى ألا نمنع أحدا من المسلمين أن ينزل كناستنا في الليل والنهار، وإن نضيفهم فيها ثلاثا... ولا نضرب فيها بالنواقيس الا ضربا خفيفا... ولا تؤدي فيها ولا في شئ من منازلنا جاسوسا لعدوكم، ولا تحدث كنيسة ولا ديرا ولا صومعة ولا قلاية، ولا نجد ما خرب منها... وأن نجز مقام رعوسنا، ونشد الزنار في أوساطنا... ولا تتشبه بالمسلمين في لباسهم ولا في هيئتهم ولا في سلوكهم، ولا في نقش خواتيمهم... ولا نتكنى بكناهم، وعلينا أن نعظمهم ونوقرهم... ولا نبيع خمرا ولا نظهرها... ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، فأن خالفنا فلانمة لنا ولا عهدا وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل الشقاق والعناد^(١)".

هذا وأن كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: " أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصبيهم، ويركبوا على الأكف عرضا ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي، ولا يضربوا على النساء ولا على الوالدان، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم^(٢)" فنلاحظ أن الأختام كانت مؤقتة خلال جمع الجزية، وذلك حتى لا يفلت أحد، وبالرجوع للنص الخاص بتقديم الذميين بطلب أن يطبق عليهم الشروط التي ارتضوها ومنها الملابس فالأمر لم يكن إلزامهم بتغيير هيئتهم، أو إلزامهم بإرتداء ملابس لم يتعودوه، وإنما الإبقاء على زيهم الذي حددوه في النص واعتادوا عليه من قبل.

هذه أول إشارة إلى ملابس أهل الذمة وهيئتهم في مصر حتى نهاية القرن الأول الهجري، فقد ارتضوا بشد المنطق - وهو حزام جلد - حول وسطهم، وأن يحلقوا مقدمة رؤسهم، وأن تكون أقدامهم من جانب واحد عند ركوبهم^(٣).

ويبدو أن المسيحيين طوال هذا القرن، كانوا حريصين على ارتداء ملابسهم الخاصة بهم، دون القيام بأدنى محاولة للتشبه بالمسلمين، وارتداء ملابسهم، فلما

١ - انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ط روضة الشام سنة ١٣٣٠، ج١، ص١٧٨.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٥١.

٣ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣، ص٣٧٨.

أصبح العرب على جانب كبير من الحضارة والتمدن، ورسخت أقدامهم في البلاد رأى المسيحيون أن يتشبهوا بهم، وتطلعوا إلى ارتداء ملابسهم.

ولذلك أصبح من الضروري أن يتيقظ الحكام والخلفاء لذلك، فيبادرون إلى وضع حد لهذه الظاهرة، وبدا ذلك واضحاً في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي اشتهر بتشدده في تطبيق الأحكام الإسلامية بشأن أهل الذمة، فنراه يكتب إلى عماله في مختلف الأقاليم الإسلامية بما فيها مصر بضرورة إلزام الذميين بعدم التشبه بالمسلمين في لباسهم^(١).

وتكثر الروايات التاريخية عن أوامر عمر بن العزيز، شأن ملابس أهل الذمة، ومنها أن الخليفة عمر بن عبد العزيز حرم على جميع الذميين لبس العمام، والتشبه بالمسلمين في لباسهم، وأنه منعهم من ارتداء ملابس الجند العرب، كما جاء في بعض كتبه إلى ولاته: "أن لا يمشين نصراني الا مفروق الناحية، ولا يلبس قباء، ولا يمشى الا بزناد من جلود، ولا يلبس طيلسانا، ولا سراويل ذات خذمة، ولا نعل لها عذبة، ولا يوجد في بيته سلاح الا أنتهب"^(٢).

وتلك الأوامر كانت نتيجة إهمال الذميين لبس الزنار أو المنطق الذي يشد أوساطهم، ويميز بينهم وبين أقدامهم على وضع العمام على رؤوسهم.

ثم أننا لم نجد في المصادر أية إشارة إلى ملابس النصاري في مصر منذ عصر المأمون حتى عصر الخليفة العباسي المتوكل على الله ٢٣٥هـ / ٨٤٩م الذي تشدد مع الذميين، وإلزامهم بكثير من الأمور، وهدد من يحاول عدم تنفيذها، فكتب في سنة ٢٣٥هـ إلى مختلف الأقاليم الإسلامية بما فيها مصر يوصي عماله بضرورة التمييز بين المسلمين وغير المسلمين في الملابس، والركوب^(٣)، وإلزامهم ببعض الأمور في هذا الشأن وتحذيرهم بمخالفة ذلك، وبعض هذه الكتب جاء فيها:

١ - ابن الأخوة: معالم القرية، ص ٩٣؛ ترتون: أهل الذمة، ص ١٢٨.

٢ - عبد الله بن عبد الحكم: سيرة عمر بن العزيز، القاهرة ١٩٥٤، ص ١٢٦؛ ابن كثير: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٢١.

٣ - ويذكر القلقشندي: تلبس النصاري واليهود ثياب العسلى، وأن لا يمكنوا من لبس البياض كى لا يتشبهوا بالمسلمين، وأن تكون ركبهم خشبا، وأن تهدم بيعهم المستجدة، وأن تطلق عليهم الجزية، ولا يفسح لهم في دخول حمامات خدمها من أهل الإسلام، ولا يستخدموا مسلما في حوائجهم لنفوسهم وأن المتوكل أول من ألزمهم ذلك. انظر: القلقشندي: صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٣٦٦؛ المقرئ: الخطط، ج ٢، ص ٤٩٤، وأيضا: القول الأبريزى، ص ٤٨.

"وقد رأى أمير المؤمنين، وبالله توفيقه وإرشاده، أن يجعل أهل الذمة جميعاً بحضرته في نواحي أعماله، أقربها وأبعدها، وأخصهم وأحسبهم، على تغيير طيالستهم التي يلبسها من لبسها من تجارهم وكتابهم وكبيرهم وصغيرهم، ملونة كالوان الثياب العسلية لا يتجاوز ذلك متجاوز منهم إلى غيره... ومن مصر عن هذه الطبقة من اتباعهم، وارذالهم، ومن سعد به حاله من لبس الطيالس، أخذ بتركيب خرقتين، صبغهما ذلك الصبغ، تكون استدارة كل واحدة منها شبرا تاما في مثله، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه تلقاء صدره، ومن وراء ظهره، أن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم تركيب انرة عليها تخالف ألوانها، ألوان القلانس، وترفع في أماكنها التي يقع بها منها، لئلا يلصق بها فيستتر ولا يكون ما يركب منها على احساك فيخفى، وكذلك في سروجهم باتخاذ ركب خشب لها، ونصب اكر على قرايسها^(١) تكون نائية عنها، ومرفقة عليها لا يرخص لهم في أزالتها عن أعلى قرايبهم، ومواخير سروجهم إلى جوانبها، بل يتفقد ذلك منهم ليتبع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه، ظاهراً، يثبت الناظر من غير تأمل، وتأخذه الأعين من غير طلب، وأن تؤخذ من أمهاتهم وعبيدهم من يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير مكان المناطق التي كانت في أوساطهم...^(٢)".

هكذا نرى أن أوامر عمر بن العزيز كانت لا تتعدى المنطق وقص مقام الشعر وغير ذلك، بينما المتوكل أمر بوضع علامات من الأمام والخلف والرأس، وحدد أوصاف ثيابهم.

والراوية الكنسية لا تعطينا تفصيلات عن مدى تطبيق أهل الذمة في مصر لهذه الأوامر، ولكن يعتقد انهم وضعوها موضع التنفيذ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الذميين في مختلف الأقاليم الإسلامية خاصة في العراق، واقتصرت الرواية على الإشارة إلى أن المتوكل أمر المسيحيين في مصر بعدم لبس الثياب ذات اللون الأبيض، وأن تكون ثيابهم مصبوغة^(٣).

١ - ابن زين القاضى: شروط النصارى، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٣٩٥٢، ١٣١٣ تاريخ، ورقة ١٤، ١٥.

٢ - ابن زين القاضى: شروط النصارى، ورقة ١٤، ١٥؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٩٢، ٩٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٥، ص ٢٨٥؛ ابن الاخوة: معالم القربة، ص ٩٣، ٩٤.

٣ - ابن المقفع: سير الأباء، م ٢، جـ ١، ص ٤، ٥.

كما أمر المتوكل نساء أهل الذمة بلبس أزار عسلى اللون^(١)، وتشير بعض المصادر إلى أ المرأة الذمية كانت تتدثر بالدثار الأصفر، حين تغادر بيتها إلى الخارج، وتضع المنطق حول وسطها^(٢)، وبعد بضع سنوات، وفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م ألزم الخليفة المتوكل أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين، وأمرهم بالاعتصاف على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين^(٣).

أما رجال اكليروس الكنيسة فكانت فكانت لهم ملابس كنسية خاصة بهم، منها البرنس، وهو رداء مدور واسع مفتوح من الإمام بلا أكمام، وهو من ضمن ملابس الخدمة^(٤).

والشملة، وهى تشبه العمامة التى كانت يلبسها رئيس الكهنة^(٥)، وأيضاً البليين أو الابهنس، فقد جاء فى الرواية القبطية عند الإشارة إلى القوانين التى وضعها البطرك بنيامين لدير أبى مقار، الا يصعد قس إلى هيكل هذا الدير إلا بعد أن يرتدى بلينة ولا يتقرب فيه قس ولا شماس إلا بعد ارتدائه الابهنسى أو بليين^(٦).

أما التوبية فهى عبارة عن رداء طويل يصل إلى القدم، محلى بالجواهر فى شكل علامة الصليب أو بخيوط من الحرير^(٧) والمنطق^(٨)، ويمكن القول أن المنطق كان من أهم أنواع الملابس التى تميز المسيحيين فى مصر عن المسلمين وأنه لم

١ - المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٤.

٢ - ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص ص ١٢١، ١٢٢.

٣ - ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٥، ص ٢٨٥؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٤.

٤ - القمص يوحنا سلامة: اللالى النفسية فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، جـ ١، ط ٣، مصر ١٩٦٥م، ص ٢٥٨.

Butler: Op. Cit., T. 2, PP. 98, 99.

٥ - القمص سلامة: اللالى النفسية، ص ٢٥٨.

٦ - ابن المقفع: سيرة الأباء، م ١، جـ ١، ص ١١٨.

٧ - التوبية: ويسمى اليونان استيخاره ومعناها فى الأصل اليونانى "خط"، وتشير إلى ثوب المسيح، الذى ألقى عليه اليهود القرعة، وإلى حلة المجد النورانية يشترك فى لبسها جميع خدام المذبح على اختلاف درجاتهم، وقد أشار معلموا الكنيسة بأن تكون واصله إلى القدمين.

انظر: اللالى النفسية، ص ٢٥٤، رؤوف حبيب: دليل المتحف القبطى، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٢٣.

٨ - ويسمى فى الاصطلاح الكنسى (حياصة) وهى عبارة عن حزام من الحرير أو القصب أو الفضة يلبسها رئيس الكهنة ليشد بها وسطه وقت الخدمة. انظر: اللالى النفسية، ص ٢٥٥.

Butler: Ancient Coptic Churches. T. 2, PP. 98, 99.

يكن خاص برجال الكنيسة وحدهم، ثم هناك الحبرية Chasnaleor Cope^(١) والبدرشيل^(٢) Stele، بينما تنفرد بعض الروايات بذكر ما يسمى الأكملـم Sleeves وهو غطاء للانزع، وتشير روايات أخرى إلى ما يسمى المانبل Maniple، وينفرد بلبسها أصحاب الرتب الكهنوتية بعد الشمامسة أو ما هم دونهم من الكهتوت^(٣).

أما ملابس الرهبان في الأديرة المصرية، فكانت عبارة عن ثوب قصير من الكتان بدون أكمام بحيث تصل إلى أسفل المرفقين، وكان الراهب يغطي كتفه ورقبته بفراء مدبوغ مصنوع من جلد الغنم أو الماعز^(٤).

أما الرداء الخارجي للراهب فيسمى اسكيم الرهبان^(٥)، وهو رداء قصير من الكتان تمر فوقه خيوط صوفية مجدولة تنزل من أعلى العنق وتتدلى على جانبي الرقبة، وتصل إلى الكتفين، وتخيظ بأسفل الإبطين بحيث يعقد طرفاها وتترك الأيدي طليقة، ويتصل بالاسكيم قلنسوة أو غطاء للرأس من الوبر، رسمت عليه بعض الصلبان.

وأخيرا يشد الراهب وسطه بمنطق من الجلد^(٦)، كما كان الراهب يمسك بيده عكازا ولا يرتدى الألوان المصبوغة.

وكان الرهبان وقت القداس يحرم عليهم تغطية رؤسهم أو لبس الصنادل أو ارتداء السراويل التي تغطي القميص فتصل إلى الأرض، ومن الواضح أن الرهبان

1 - Ibid: Op Cit., PP. 99. 100.

٢ - البدرشيل وهو ما يوضع حول العنق، وهو خاص بالشمامسة ويلبسه كبارهم على الجهة اليسرى تحت الانط اليسرى إلى الكتف اليمنى وطرقاد متدليان الواحد من الأمام والآخر من الخلف، وصغارهم يلبسونه على شكل صليب من خلف، انظر: اللالى النفسية، ص ٢٥٤؛ رؤوف حبيب: مرجع سابق، ص ١٢٣.

3 - Butler: Op. Cit., P. 98.

٤ - ساوبرس: سير الأباء، ٢، ج ١، ص ٦؛ حكيم أمين: دراسات في تاريخ الرهبانية والديرية المصرية، القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٤٤.

٥ - الاسكيم كلمة مشتقة من اللفظ اليوناني اسخيما ومعناه رداء الرهبان المتقدمين في الفضيلة. انظر: حكيم أمين: دراسات في تاريخ الرهبانية، ص ١٤٤؛ رؤوف حبيب: دليل المتحف القبطي، ص ١٢٣.

٦ - القمص يوحنا: اللالى النفسية، ص ٢٤٦-٢٤٩؛ حكيم أمين: دراسات في تاريخ الرهبانية ص ١٤٤، ١٤٦؛ وينكر ابن عبد الحكم عن ملابس رهبان الإسكندرية "وكان لباسهم فيها السواد والحمرة فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٤٢.

كانوا لا يبدون أى اهتمام بملابسهم، ولذلك كانت بسيطة ورخيصة إذ لا يعنون بحياتها^(١).

ويذكر المقریزی أن الراهب أنطونيوس المصرى، هو أول من ابتدأ بلبس الصوف^(٢).

الطعام والشراب :

كان للجماعات المسيحية فى مصر طابعها المميز، وهو الحرص الشديد على العادات والتقاليد، وخاصة فيما يتعلق بالدين، وما فرضته شرائعهم، ولذا فإن المصريين المسيحيين اقبلوا على الصيام، وخاصة فى مواسم الصيام الأربعة الرئيسية، وأولها الصوم الكبير، ويسمى أيضا صوم الأربعين المقدس^(٣)، ويكون هذا الصيام فى الأيام الخمس والخمسين السابقة لعيد الفصح، والصوم عندهم هو الامتناع طيلة أيام الصيام عن أكل اللحوم والأسماك والبيض والألبان ومنتجاتها، بينما يجوز لهم تنازل الخضروات والفواكه واليقول المعدة بالزيت^(٤).

وكان لدى المسيحيين عادة متأصلة وهى الذهاب إلى الكنيسة من غير تناول أى طعام على الإطلاق، إذ يتناولون وجبة المحبة بعد الصلاة، والانتهاء من القداس، وتتناوب العائلات كل بدورها فى إعداد لهذه الوجبة، وتقديمها للكنيسة^(٥). ويستعمل الزيت عادة فى الطعام، ولذلك قام الأب يوحنا فى عهد عبد العزيز بن مروان ببناء بيعة الشهيد مارى مرقس، وبنى لها طاحونة كعك ومعصرة زيت حار، وهو يستخدم كثيرا عند صومهم^(٦).

١ - حكيم أمين: مرجع سابق، ص ١٤٦.

٢ - المقریزی: الخطط، ج ٢، ص ٤٨٨.

٣ - أبى الفداء: المختصر، ج ١، ص ٩١؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ص ١٢٨؛ وقد سمي بصوم الأربعين لأن مدة هذا الصيام ينقص عددها إلى أربعين يوما فقط، ذلك إذا استخرجنا من المدة السابقة (٥٥ يوما) أيام الأحاد والسبوت من كل أسبوع والتي يجوز للقبط الصيام فيها، انظر:

Autefage: Les Captes. Lyon. 1885, P. 29-30.

4 - Ibid: PP. 29-30.

ابن المقفع: سير الأباء، م ١، ج ٢، ص ٢٦٠.

٥ - ابريس حبيب المصرى: قصة الكنيسة القبطية، ج ٢، ص ٥٠٤، ٥٠٥.

٦ - ساويرس: سير الأباء، م ١، ج ١، ص ١٢٦.

وكان الراهب يعيش حياة قاسية صارمة يقتات البقول كالقول والعفس إلى جانب الأسماك، ولا يمكنه تناول شئ من اللحوم فى طعامه إلا فى أيام الأعياد^(١).

وعند تقديم القربان يستخدمون الخبز من الدقيق، ويكون هذا الخبز عادة غير مختمر وبدون ملح، وخاليا من المواد الدهنية أيضا، ومختوما بختم باللغة القبطية فيه شكر لله^(٢).

أما الخمر اللازم للقربان، وهو من ضروريات القداس، فيصنع من عصير العنب أو الزبيب المجفف المنقوع فى الماء لبعض الوقت، وكانت الخمور تعد بكميات كبيرة تكفى السنة كلها، توزع على مختلف الكنائس فى جميع أنحاء مصر^(٣)، وفى بعض الأحيان تصدر تعليمات من قبل الإدارة الإسلامية فى مصر بمنع صنع النبيذ فى جميع أنحاء البلاد المصرية، وخاصة الفسطاط، وحذر من بيع وشراء الخمور، إلا أنه مع حرص الأقباط على تقديم القربان، عمدوا إلى عيدان النرجون، فكانوا ينقعونها فى الماء، ثم يعصرونها، ويكون هذا العصير عوضا عن الخمور المصنوعة من العنب والزبيب^(٤).

وكانت تستخدم فى أثناء القداس عدة أوان هى الكأس والصينية والقبة والملقعة والعلبة، وتسمى أيضا كرسى الكأس والحصيرة أو الطبق وتكون دائرية الشكل يتوسطها صليب كبير إلى جانب الصلبان الصغيرة فى الجوانب، وتعمل عادة من الحرير^(٥).

ويذكر أيضا أن هذه الأواني المستخدمة فى القداس كانت فى الغالب مصنوعة من الذهب والفضة، ولكنها فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى، استبدلت بالأوانى الزجاجية والخشبية بعد ذلك^(٦).

1 - Autefage: Les Coptes. P. 33.

٢ - ابن المقفع: سير الأباء، م ٢، ج ٣، ص ١٦٩؛ بشر: تاريخ الأمة القبطية، ج ٣، ص ٤٤.

3 - Butler: Op. Cit., P. 281.

القميص يوحنا: اللالى النفسية، ج ١، ص ٢٦٢.

٤ - ابن المقفع: سير الأباء، م ٢، ج ٣، ص ٥.

5 - Butler: Op. Cit., PP. 37-56.

6 - Butler: Op. Cit., PP. 38.

بشر: تاريخ الأمة القبطية، ج ٢، ص ١٧٦.

ومن الأطعمة التي تصنع خصيصا في الأعياد والمناسبات - عند خميس العهد - العدس المطبوخ (المقشور)، يقول النويرى: "يسمون هذا الخميس خميس العدس، وهم يطبخون فيه العدس المقشور على ألوان، ويسميه أهل الشام خميس الأرز، ومنها خميس البيض أيضا^(١)". وكانوا يذبحون الذبائح عند الاختفال بعيد القديس ميخائيل، واستمر ذلك طوال عصر الولاة^(٢).

وارتبطت بعض الأطعمة والحلوى بعيد الفيروز حتى أصبحت من ضروريات ذلك اليوم، وربما نشأت بسببها المشاكل داخل البيوت، ومن هذه الأطعمة والحلوى الزلابية والهريسة، كما جرت العادة بأكل بعض الفواكه في ذلك اليوم مثل البطيخ والخوخ والبلح... وغير ذلك مما تلزمه النساء لأزواجهن^(٣).

وفي عيد الغطاس يصنعون العصيدة التي شاركهم فيها العرب المسلمون ويزعمون أن من يأكلها يتقى البرد طوال العام^(٤).

المسكن:

وضحت الوثائق البردية مدى تمتع المسيحيين في مصر بحرية الامتلاك للمنازل وتبادلها، وخاصة أن هذا التبادل كان يتم بين العرب المسلمين، وبين أهل الذمة في مصر، أي أن المسيحيين قد اندمجوا مع العرب الفاتحين، فلم يكونوا مغلقين على أنفسهم بعيدين عن هذا المجتمع الجديد^(٥).

فقد أشار المقرئى إلى هذه الظاهرة من إقامة النصارى فى عدة أماكن بالفسطاط أثناء الفتح العربى، كما أشرنا من قبل^(٦)، وانتشرت دور المسيحيين بين دور المسلمين، فلم يكن هناك ما يميزها فى البداية عن دور العرب.

١ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩٢؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٢٧؛ ويقول عنه المقرئى: "(خميس العهد) ويسميه أهل مصر من العامة خميس العدس ويعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ويتهانون فيه، انظر: الخطط، جـ ١، ص ٤٩٥؛ أندم مئتر: الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ٢٠٨.

٢ - أبو صالح الأرمنى: تاريخه، ص ١١٦؛ المقرئى: القول الأبريزى، ص ٢٧.

٣ - ابن الحاج: المدخل إلى الشرع الشريف، جـ ٢، ط القاهرة ١٣٤٨هـ، ص ٤٩.

٤ - المصدر نفسه، والجزء ١، ص ٥٨، ٥٩.

٥ - انظر: وثيقة غير منشورة - متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، رقم ٩٨١٧، وثيقة غير منشورة - متحف الفن الإسلامى، برقم ٩٨١٨.

٦ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٨٦.

ويؤيد هذا القول أن العرب تركوا الحرية التامة فى إقامة المسيحيين المصريين بين دور المسلمين، حتى عند إنشاء المدن الجديدة، فيتحدث مؤرخ الكنيسة المصرية ساويرس بأن عبد العزيز مروان عند تشييده لمدينة حلوان، أمر الأب أسحق ببناء بيعة فى حلوان "لأن فى ذلك الموضع كان يمضى إلى الأمير عبد العزيز، وكان قد أمر أراخنة الصعيد، وسائر الكور أن يبنى كل واحد منهم لنفسه مسكنا بحلوان المدينة"^(١).

لكن موقف الإدارة الإسلامية تجاه أهل الذمة تغير منذ عهد الخليفة المتوكل على الله العباسى ٢٣٥هـ/٨٤٩م، فقد أمر "بهدم بيعهم المحدثه، وبأخذ العشر من منازلهم، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب"^(٢)، وذلك تفريقا بين منازلهم، ومنازل المسلمين.

كذلك فرض على أهل الذمة فى بناء دورهم بأن "لا يعلوا على المسلمين فى البناء ولا يساووه، بل يكونون أدون منهم"^(٣).

وقد خصصت فى الكنائس أماكن للسيدات، وذلك عندما تشد عليهم الأوامر من قبل الخلافة الإسلامية، ولذا جعلوا هناك ممرات مؤدية إلى المنازل مباشرة حرصا على سلامة السيدات، وكان هناك أشخاص مخصصين للحراسة، فإذا ما رأوا الجند أتين، أعطوا الإشارة فتسحب السيدات فى سكون إلى الممرات المؤدية إلى بيوتهن فى أمان^(٤).

ولكن يعتقد أن هذه الإجراءات كانت وقتية، ولم تدم طويلا، ودليلنا على ذلك الوثائق البردية التى تؤيد حرية أهل الذمة فى الملكية والبيع لمنازلهم دون تدخل من قبل الإدارة فى مصر، فقد استمرت هذه الظاهرة كما تشير الأوراق البردية^(٥) حتى بعد عصر الولاة.

١ - ساويرس: سير الأباء، جـ ١، ص ١٢٨.

٢ - ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٥، ص ٢٣٥، المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٤؛ القول الأبريزى، ص ٤٨؛ آدم متر: الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ٦٥.

٣ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ١٣، ص ٣٧٩؛ ابن الأخوة: معالم القرية، ص ٩٦.

٤ - ايريس حبيب المصرى: قصة الكنيسة، جـ ٢، ص ٥٠٦.

٥ - جروهمان: أوراق البردى، جـ ١، طراز رقم ١٨٩٩، ص ١٥٣، ١٥٤.

ففى العقد المؤرخ فى شهر المحرم سنة ٣٤١هـ/ ٢٨ يونية سنة ٩٥٢م، جاء فيه: "هذا ما أشتري يحنس بن شنود بن بطاقس من مقلنى أبنت شنودة بن أيوب، وهما جميعا من سكان ططون من كورة الفيوم^(١)"، وكثير من أوراق البردى تشير إلى حرية القبط فى التصرف فى منازلهم، وتوضح مدى العلاقة بينهم وبين المسلمين^(٢). ونستنتج من هذه الوثائق أن منازل النصارى فى مصر كانت تنتقل فى حرية تامة إلى أيدي المسلمين.

المآتم:

لقد جاورت مقابر المسلمين قبور النصارى منذ الفتح، بعد أن أقطع عمرو للمقوقس قطعة نحو بركة الحبش، كى تكون جبانة لدفن موتى النصارى^(٣). ويتحدث مؤرخ الكنيسة القبطية فى مصر ابن المقفع عن عادات دفن النصارى طبقا لطقوسهم، ففى أثناء أحداث فتح الإسكندرية وعودة الأب بنيامين، وجدوا رأس القديس مارى مرقس، فأوصى الأب بنيامين ببناء بيعة القديس مارى مرقس بالإسكندرية: "وعاد الأب البطرك إلى المدينة، والرأس فى حضنه يحملها، والكهنة قدامه بالقراءة والتسبيح، كما يشاكل استقبال تلك الرأس الشريفة الجليلة، وصنع تابوتا من خشب الساج، وقفلا عليه وجعل الرأس فيه^(٤)". نستنتج من هذا أن مؤرخى الكنيسة لم يتعرضوا فى كتاباتهم إلا عن سير القديسين والشهداء، فالمراسيم الجنائزية فى الأحوال المادية ليس من اليسير أن نجد لها فى كتاباتهم.

وهناك رواية أخرى لمؤرخ الكنيسة المصرية، عن مشاركة البطرك اغريغوريوس القبط فى أحزانهم، وخاصة جناز الأساقفة، فلما توفى أنبا سنبوب

١ - نلاحظ أن بحنس بن شنودة بن بطاقس هو المشتري فى عقدى البيع رقم ٥٨، ٥٩، واسم جدة فى العقد رقم ١٩٠٢ (تاريخ، مجموعة دار الكتب المصرية بطاقس، وقد ورد اسم مدينة ططون الواقعة جنوب الفيوم كثيرا فى أوراق البردى، انظر: جروهمان: مرجع سابق، ج١، ص ١٥٤).

٢ - جروهمان: أوراق البردى، ج١، طراز رقم ١٩٠١، ص ١٦٣.

٣ - يقول المقرئى عن إعطاء المقوقس: "فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى" الخطط، ج١، ص ١٢٤، ج٢، ص ٤٩٢، ويذكر آدم متر: "وكان موتى المسلمين، وأهل الذمة يدفنون كل على حدة" انظر: الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٩٢.

٤ - ساويرس: سير الالباء البطارقة، ج١، ص ١٠٩؛ مراد كامل: حضارة مصر، ص ١٧٧.

أسقف مصر، حضر هذا البطريرك الأرمني لتجنيزه والصلاة عليه، وسار في جنازته بصحبة القبط والأساقفة والكهنة^(١).

وقد كان من عادات المسيحيين في مصر أن يجعلوا جسد المتوفى ملفوفا بكفن مسجى في داخل تابوت خشبي^(٢).

هذا ولم تشر المصادر الإسلامية إلى مدافن أهل الذمة، إلا حين إصدار بعض المراسيم الخاصة بشأنهم، وذلك عندما أمر المتوكل على الله في سنة خمس وثلاثين ومائتين، أهل الذمة، "بتسوية قبورهم مع الأرض"^(٣) وهذا حتى لا تكون المقابر مزارات تعبد من دون الله.

اليهود:

فيما يتعلق باليهود فإن تاريخهم خلال تلك الفترة يحيط به الغموض الشديد، وترجع أقدم الوثائق التي تشير إلى يهود الفسطاط إلى عام ١٣٣هـ/٧٥٠م^(٤).

وإذا كان آدم متر أشار إلى أعداد اليهود في مصر بذكره أن العاصمة بها سبعة آلاف، وبالإسكندرية ثلاثة آلاف، وبمدن الدلتا نحو ثلاثة آلاف، وستمئة في المدن التجارية بالصعيد^(٥)، فإننا نعتمد على نص ابن عبد الحكم حيث كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب عند فتحه للإسكندرية يقول: "أنى أصبت فيها أربعة آلاف مئة بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية"^(٦) وفي موضع آخر قال: "ترحل من الإسكندرية في الليلة التي دخلها عمرو بن العاص، وفي الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو سبعون ألف يهودي"^(٧)، وجعل عمرو بن العاص من بين شروط العهد الذي منحه لسكان مدينة الإسكندرية شرطاً يتضمن

١ - ابن المقفع: سير الأباء، ج٢، ٢، ج٣، ص ٢١٩.

٢ - ابن المقفع: سير الأباء، ج٢، ٢، ج٣، ص ٧٧.

٣ - المقرئ: الخطط، ج٢، ص ٤٩٤.

4 - Mann (J): The Jews in Egypt and Palestine Under the Fatimid Caliphs. Vol. 1. Oxford 1920. P. 13.

٥ - آدم متر: الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٨٣، ٨٤.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٨٢.

٧ - المصدر نفسه، والصفحة.

السماح لليهود بالبقاء في الإسكندرية مقابل دفع الجزية للمسلمين والالتزام بما شوط عليهم^(١).

نستنتج من هذا أن أعدادهم في مصر كانت قليلة عقب الفتح، وتركزوا في مدينة الإسكندرية بصفة خاصة، وممن وجد في المدن الأخرى فمن المحتمل أنهم ممن رحلوا عقب الفتح العربي.

وتشير وثائق الجنيزة^(٢) التي وصلت إلينا من القسطنطينية والإسكندرية والمحلة، ومن أماكن أخرى في مصر، أن بيوت اليهود كانت متاخمة لبيوت المسلمين وبيوت المسيحيين، فلم يكن هناك جيتو^(٣)، ولكن على العكس من ذلك، كانت هناك فرص كثيرة للاختلاط اليومي، بالإضافة إلى هذا لم يكن هناك جيتو حرفي^(٤).

1 - Chronique de Jean, P. 455.

٢ - كلمة جنيزة Geniza "كلمة عبرية - مثل الكلمة العربية جنازة - مشتقة من الكلمة الفارسية جنك بمعنى (خزانة)، وفي العصور الوسطى أطلقت كلمة جنيزة على تلك الحجرة التي كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وإيصالات، حتى لا تنس كلمة (الله) التي قد تكون مكتوبة في هذه الوثائق.

وأطلق الباحثون مصطلح وثائق الجنيزة القاهرية The Cairo Geniza Documents على مجموعة الوثائق التي عثر عليها في حجرة مظلمة في سينا جوج (معبد اليهود) بالقسطنطينية على مقربة من القاهرة، وكذلك على مجموعة وثائق عثر عليها في مقبرة البساتين.

وترجع معظم وثائق الجنيزة من الناحية التاريخية إلى العصرين الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) والأيوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م).

Goitein, S. D., "L' Etat actuel de la recherche sur les documents de la Geniza du Caire" Revue des Etudes Juives, Troisieme serie, I (CXVIII) (1959-1960), PP. 9-27; id., "The Cairo Geniza as a source for the history of muslim Civilisation" in Studia Islamica, III (1955), PP. 75-91.

حسني ربيع: مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ط الرياض ١٩٧٩م، ج٢، ص ١٢٢،

جوايتاين: دراسات في التاريخ الإسلامي، تعريب عطية القوصي، الكويت، ١٩٨٠، ص ١٥١، ١٦١.

٣ - أن فكرة "جيتو" وهي تجمعات اليهود في حي يجمعهم ترجع إلى العصر البطلمي والروماني وهي أشبه بالمستوطنات الجالية.

انظر: إبراهيم نصحي: مصر في عصر البطالمة، ج٢، ط الرابعة، الأنجلو ١٩٧٦م، ص ١٤٩-

١٦٦، مصطفى كمال: اليهود في عصر البطالمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨، ص ٩٧ وما بعدها.

٤ - جوايتاين: مرجع سابق، ١٦١.

ولم يكن اليهود منبوذين في الدولة الإسلامية مثلما كان حالهم في مجتمع أوروبا العصور الوسطى يسكنون في أحياء خاصة بهم مغلقة عليهم (عرفت بالجيتو^(١)) بل كانوا يسكنون مع المسلمين أن شاءوا ذلك، فلم تكن في المدن الإسلامية أحياء مخصصة لغير المسلمين لا يتعدونها.

وقد تمتع اليهود في مصر بثراء كبير، ولا أدل على هذا من أنه في عصر الدولة الطولونية، حينما ألزم الأمير أحمد بن طولون بطرك القبط انبا خيال (أو ميخائيل) بدفع غرامة مالية قدرها عشرين ألف دينار، ولم يكن لديه من الأموال ما يمكنه من دفع هذه الغرامة، مما اضطره إلى بيع بعض الكنائس القبطية في مصر، وأيضا بعض أملاك الكنائس الأخرى، وقد اشترى اليهود منه كل ما أراد بيعه في ذلك الوقت^(٢)، ومن المحتمل أن تلك الكنائس تحولت إلى معابد يهودية.

أما عن ملابس اليهود، فشأنهم شأن بقية أهل الذمة - تنفيذ ما شرط عليهم عن الفتح، فإذا خالفوا كان يتم تنبيههم إلى تلك الشروط^(٣).

وقد أشار ستيلمان Stillman أن المرأة اليهودية كانت تلبس نفس أريضة المسلمة، وتضع على وجهها نفس حجابها، حتى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله^(٤).

وزواج اليهود لا يصح إلا بولي، وخطبة، وثلاثة شهود، ومهر مائتي درهم للبكر، ومائه للثيب، فإن كان أقل من ذلك لم يجز^(٥)، ويحضر عند عقد النكاح كأس من خمر ودسته من ريحان، فيأخذ الحاخام الكأس ويباركها، ويخطب خطبة النكاح، ثم يعطيه للزوج، ويقول: قد تزوجت فلانة بهذه الفضة أو بهذا الذهب، وهو - غاتم في يده، وبهذا الكأس من الخمر وبمهر كذا، درهم، ويشرب منها جرعة ثم ينزلون إلى منزل العروس، ويأمرونها أن تأخذ الخاتم والريحان، والكأس من يد عريسها، فإذا أخذت وشربت منها جرعة يعقد النكاح^(٦).

١ - سيدة كاشف: مصر في عصر الطولوبيين والاشيدين. القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢١٤، عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله. القاهرة ١٩٥٩، ص ١٠١.

2 - Mann: The Jews, T. I, P. 14.

٣ - انظر: الكندي: الولاة، ص ٣٩٠؛

Chronique de Jean, P. 455.

4 - Yedida K. Stillman: The importance of the Cairo Geniza international Journal of the Middle East studies, Cambridge University October 1976, No. 4, P. 582.

٥ - المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص ٣٩.

٦ - المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص ٣٩، ٤٠.

هذا وكان الجمع بين الأختين في الزواج عند اليهود مباحا زمن يعقوب إلا أنه أصبح من المحظورات بعد ذلك^(١).

ولدينا أقدم عقد زواج في مصر، وهو عبارة عن وثيقة عبرية لعقد بين فتى يهودى يدعى بل بن هانتير، وفتاة يهودية تدعى أستر ابنة أحد الحاخامات وتشتمل الوثيقة على أدعيات وتمنيات بالحظ السعيد لهما^(٢).

كما تحوى هذه الوثيقة معلومات تاريخية، إذ تبدأ بالتقويم اليهودى الذى يبدأ من خلق العالم يوم الجمعة الموافق ٣ من شهر سيفان ٥٤٦٠، والتاريخ الثانى يبدأ من خراب بيت المقدس، وهو سنة ١٦٣٢، وأهمية هذه الوثيقة كما يتضح من نصوصها هو التزام العريس بنفقات عروسه من قيمة المهر، وأن الزوجة بمقتضى هذا العقد صارت ملكا له بعد تحرير العقد^(٣).

ويذكر جوايتاين أن الطبقة المتوسطة من المجتمع اليهودى كانت تنادى بالزواج من واحدة، ولم يعثر إلا على حالة زواج واحدة فقط لرجل تزوج من امرأتين، وكانت فى مدينة بلبس، ووجد فى العقد من الاتفاق المبرم على أن تعتنى الزوجة الثانية بابنة الزوجة الأولى، وكان واضحا أن الزوجة الأولى كانت مختلفة العقل أو مريضة أو فى حالة لا تسمح لها بتربية ابنتها^(٤).

وكان طبيعيا أن يشتمل عقد الزواج على شرط ألا يتخذ الزوج زوجة أخرى، وألا تكون له محظية، كما رأينا فى الوثائق البردية العربية أن من حق الزوجة فى بعض الأحيان أن تطرد الزوجة الثانية التى يتزوجها زوجها أن لم تكن على هواها^(٥).

١ - أبى الفدا: المختصر، ص ٨٧.

٢ - وثيقة عبرية غير منشورة - متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، تحت رقم ٢٦٥٣٩، انظر: ملحق الدراسة، شكل (٢).

٣ - وثائق متحف الفن الإسلامى، رقم ٢٦٥٣٩.

٤ - هنا أيضا حالة أو اثنتين للزواج المعروف بزواج نوات الرحم، حيث يلزم الرجل، حتى ولو كان متزوجا على أن يتزوج أرملة أخيه الذى مات دون أن ينجب، والحقيقة أن مثل هذا الزواج كان نادرا، ويظهر لنا أن المجتمع اليهودى كان فى ذلك الوقت حازما فى مسألة تعدد الزوجات والأزواج، انظر:

جوايتاين: مرجع سابق، ص ص ٢٠٤، ٢٠٥.

٥ - جوايتاين: مرجع سابق، ص ص ٢٠٤، ٢٠٥.

وفى عقود زواج الجنيزة كان للزوجة فى الغالب الحق فى اختيار سكن الزوجية، ولم يكن للزوج حق السفر دون موافقة زوجته ورضائها. ووفقا لنصوص التلمود اليهودى، فإن الزوجة كانت لا تستطيع أن تتصرف فى ممتلكاتها الخاصة طالما كان زوجها على قيد الحياة، وفى أوراق الجنيزة نرى نساء يتصرفن بحرية فى ممتلكاتهن فى وقت يكون فيه الزوج مسافرا، وأحيانا نرى الزوج يمنح زوجته حق التصرف حتى فى ممتلكاته الخاصة^(١).

وقد وجدنا فى قسائم زواج كثيرة من أوراق الجنيزة عصاه صغيرة يؤخذ بواسطتها "الكحل" للعين تثبت أنها جزء منفصل من أجزاء جهاز العروسة، لأنها كانت تصنع فى العادة من مادة غالية الثمن البللور أو الذهب أو الفضة^(٢).

١ - المرجع نفسه، ص ٢٠٥.

٢ - المرجع نفسه، ص ١٦٥.

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية العامة

فى مصر عصر الولاية

- الأعياد والمواسم عند المسلمين.
- الأعياد والمواسم عند أهل الذمة.
- المواكب العامة والاحتفالات.
- وسائل التسلية.

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية العامة

الأعياد والمواسم عند المسلمين :

عنى المسلمون فى مصر بالاحتفالات بعيدين هما، عيد الفطر، وعيد الأضحى^(١)، وقد شرع العيدان فى العام الثانى من الهجرة^(٢)، إلا أن المصادر لم تذكر شيئاً عن الاحتفالات بهما بشيء من مظاهر الأبهة فى مصر قبل عهد العباسيين الذين اهتموا إلى جانب الاحتفال بهذين العيدين بالاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف، بعد أن كان ذلك بدعة فى نظر المتمسكين بالعبادات الإسلامية الأولى^(٣).

وكان الاحتفال بشهر رمضان يبدأ باستطلاع رؤية الهلال، والاحتفال بظهوره يحتل جانبا هاما من الاحتفالات الإسلامية، فكان أول قاضى بمصر خرج لرؤية الهلال عبد الله بن لهيعة فى بداية سنة خمس وخمسين ومائة^(٤)، فى خلافة أبى جعفر المنصور أى أنه كان هناك فتوى حول بداية شهر رمضان، ولا بد من التصديق من قبل القاضى وشهود العيان عليها.

وقد وجد فى مصر ما يعرف "بالمسحراتى"، فى ولاية عنبسة بن اسحاق سنة

١ - السبب فى اتخاذهما، ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنه قدم المدينة، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله قد بادلكم خيرا منيما، يوم الفطر، ويوم الأضحى، فأول ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة اثنتين من الهجرة، وفيها كان عيد الأضحى. انظر: النويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ١٨٤؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤١٦، ٤١٧.

٢ - القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤١٧.

٣ - ادم متز: الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢١٨.

٤ - الكندى: الولاد، ص ٣٧٠، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ١، ص ٤١٨؛ ويذكر ابن اياس "أنه فى سنة ثمان وستين من الهجرة، توفى القاضى غوث، قاضى مصر وهو أول قاضى ركب مع الشهور لرؤية هلال شهر رمضان، وسمع البيعة، وثبت عليه" وهذا يسبق ابن لبيبة أنظر: ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٥.

٢٣٨هـ/٨٥٢م إذ "كان يتوجه ماشيا إلى المسجد الجامع من مسكنه بالمعسكر بدار الأمانة. وكان ينادى في شهر رمضان السحور^(١)".

وقد اهتم أمراء الدولة الطولونية بالاشتراك في الاحتفال بعيد الفطر، وعيد الأضحى بتلاوة القرآن والتسبيح، وإقامة الولائم.

وفي عهد الإخشيديين كانت الحكومة تشترك في الاحتفال بعيد الفطر فيقيم الجيش عرضا كبيرا حيث "يجلس الأمير في منظره على باب دار الإمارة، ويمر الجند أمامه في كامل زيهم وعدتهم، ثم يتبعه حرسه الخاص، ثم ينصب السباط لأفراد الشعب، فيأكلون ويحملون ما يريدون من ألوان الطعام^(٢)".

وكانت العامة تستعد للاحتفال بهذا العيد منذ أواخر شهر رمضان بشراء ما يحتاجون إليه من ثياب وطعام، وكان كافور في عيد الأضحى يسلم أحد رجاله، ويدعى أبا بكر المحلى في كل عيد أضحى عادة "بغلا محملا ذهباً وورقا وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى المنامة وما بينهما^(٣)، ويصف أبو بكر ذلك بقوله: "كان يمشى معي صاحب الشرطة، ونقيب يعرف المنازل، وأطوف من بعد العشاء الأخير إلى آخر الليل، حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الجريدة، فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة، وأقول: الأستاذ أبو المسك كافور الأخشيدى يهنئك ويقول لك: أصرف هذا في منفعتك^(٤)".

ويذكر الكندى "أنه بعد صلاة العصر من يوم عرفة اعتاد الناس الجلوس في المسجد زمن عبد العزيز بن مروان^(٥)".

أما الاحتفال برأس السنة الهجرية، فلم يكن عيداً ذا صفة شعبية عامة بل ظل عيداً في قصر الخلافة، ودار الإمارة في القسطنطينية، وأن اعتاد الناس أن يهادوا بعضهم بعضاً فيه^(٦).

١ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٩٤.

٢ - ابن سعيد: المغرب، ص ١٦.

٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ص ١٠٣، ١٠٤.

٤ - ابن سعيد: المغرب، ص ٣٤.

٥ - الكندى: الولاية، ص ٥٠.

٦ - المقرئى: الخطوط، ج ١، ص ٤٩٠.

ومن الاحتفالات الدينية التي شهدتها مصر الخروج لتأدية مناسك الحج، حيث كان يصاحبها كسوة الكعبة^(١)، إذا كان ينادى بديار مصر في رجب، والمسافة التي يقطعها حجيج المسافرين في البر تستغرق أربعين يوماً^(٢).

وقد كان العرب يجلبون الكعبة في الجاهلية والإسلام، إذ كانوا يكسونها في العصريين، وكانت تكسى في الجاهلية الانطاع ثم كساها النبي الثياب اليمانية وكساها عمر بن الخطاب القباطي أي القماش المصنوع بأيدي الأقباط^(٣)، إذ كان يكتب فيها إلى وإلى مصر بأن تحاك له.

كانت كسوة الكعبة تصنع في دور الطراز بالمدن المصرية، وخاصة تيس وشطا وتونة ودمياط، وهناك نصوص كثيرة مكتوبة ومسجلة على كسوة الكعبة^(٤).

وكانت الأحداث السياسية تؤثر على خروج حجاج مصر من أجل تأدية مناسكهم، إذ يذكر أنه في ولاية يزيد بن حاتم على مصر من قبل الخليفة أبو جعفر المنصور سنة أربع وأربعين ومائة "منع أهل مصر من الحج بسبب خروج العلويين، فلما قتل إبراهيم بن عبد الله بن حسن أنن لهم بالحج"^(٥).

تلك هي أهم مظاهر الاحتفالات الدينية التي شهدتها المجتمع المصري الإسلامي والتي كان يشارك فيها أحياناً مسيحيو مصر كما سيأتي ذكره عند الحديث عن المواكب العامة والاحتفالات.

الأعياد والمواسم والاحتفالات عند أهل الذمة :

اشترك هذا النسيج الاجتماعي في مصر في مظاهر اجتماعية عامة أخذوا يحتفلون بها جميعاً، ومنها الإعياد الدينية، فنلاحظ أن المصريين - مسلمين ومسيحيين - كانوا يحتفلون بالأعياد الإسلامية والمسيحية على السواء ولعل ذلك يرجع إلى أن الكثير من المصريين المسلمين كانوا من أصل قبطي.

١ - المقرئى: الذهب المسبوك، ط القاهرة ١٩٥٩م، ص ٤٣.

٢ - المصدر السابق، ص ١١.

٣ - المصدر نفسه، ص ٤٣.

٤ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٦٥؛ محمد عبد العزيز مرزوق: الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية، ص ١٦، ٥٢، ٥٣، ٦١.

٥ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

ويحتفل المسيحيون المصريون بأعياد دينية وقومية، إذ يحتفلون بأربعة عشر عيداً دينياً، منها سبعة تسمى (الأعياد الكبار)^(١) وسبعة تسمى (الأعياد الصغار)^(٢) إلى جانب الأعياد الوطنية، وعيد النيروز، والاحتفال بوفاء النيل^(٣).

أما الأعياد الكبار فهي: "عيد البشارة" أي بشارة غبريال (جبريل عليه السلام) للسيدة العذراء بمولد المسيح عليه السلام، وكان موعد هذا العيد في التاسع والعشرين من برمهات سنوياً^(٤).

وعيد الزيتونة (أو الشعانين، ومعناها التسبيح)^(٥)، ويحتفل به المسيحيون في ذكرى دخول المسيح إلى القدس، ثم دخوله الهيكل راكباً اليعفور (الحمار)، والناس بين يديه يسبحون، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وفي ذلك اليوم يخرج الناس بسعف النخيل من الكنائس، يذهبون إلى الأماكن الخلوية والمنتزهات خصوصاً ضاحية المطرية، حيث بئر البلسم التي يعتقد المسيحيون أن مريم العذراء غسلت فيه ثياب المسيح^(٦)، وكان البعض يدورون بالزيتونة في الأديرة والطواحين والأفران^(٧).

ويشير المقرئى أنه يجرى بكنيسة ميخائيل بمدينة أخميم، وكنيسة سوتيراي المخلص من العذاب "إذا عملوا عيد الزيتونة المعروف بعيد الشعانين، أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأنجيل، والشموع المشعلة، ويقفوا على باب القاضى، ثم أبواب الأعياد من المسلمين فيبخروا ويقروا فصلاً من الأنجيل، ويطرحوا له طرحاً، يعنى يمدحونه^(٨).

١ - القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٥.

٢ - المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٤٢٨.

٣ - الواقدي: فتوح الشام، جـ ١، ص ٣٧.

٤ - النويري: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩١؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٥؛ المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٦٤.

٥ - أبى الفدا: المختصر، ص ٩١؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٥؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٩٥؛ وأيضاً جـ ١، ص ٢٦٤؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ص ١٢٨.

٦ - القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٥؛ المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٦٤.

٧ - ادم متز: الحضارة الإسلامية، جـ ٢، ص ٢٠٧.

٨ - المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٥١٢، ٥١٣؛ وأيضاً: القول الابريزى، ص ٢٧.

أما عيد الفصح، فهو بمثابة العيد الكبير لدى المسيحيين وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر، ويزعم النصارى أن المسيح عليه السلام قام بعد صلبه، ودخل على تلاميذه وسلم عليهم، وأكل معهم وكلمهم وأوصاهم وأقام في الأرض أربعين يوما ثم صعد إلى السماء^(١).

ومن الأعياد الكبار أيضا، خميس الأربعين^(٢)، إذ يقول التراث الدينى المسيحى أن السيد المسيح بعد أربعين يوما من القيام خرج ومعه تلاميذه، حيث باركهم وصعد على السماء، وذلك عند إكماله ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ورجع التلاميذ إلى بيت المقدس بعدما وعدهم باشتهار أمرهم.

أما عيد الخميس الذى كان يسمى أيضا "عيد العنصرة"، وكان الاحتفال به فى السادس والعشرين من شهر بشنس بعد خمسين يوما من الصعود حسب اعتقادهم، ويعتقد المسيحيون أنه فى هذا اليوم حلت روح القدس فى حواريين السيد المسيح، بعد ما تجلى لهم فى شبه السنة من نار، وتفرقت عليهم السنة الناس فتكلموا بجميع اللغات، وذهب كل منهم إلى البلد التى يعرف لغتها يدعو الناس إلى دين المسيح^(٣).

كذلك من الأعياد الكبار عيد الميلاد فى التاسع والعشرين من كيهك، وفى هذا العيد كان النصارى يوقدون المصابيح بالكنائس ويزينوها، ويلعبون بالمشاعل، كما تباع الشموع المزدانة بالإصباغ، والتماثيل البديعة^(٤).

١ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩١؛ أبى الفدا: المختصر، ص ٩١؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٥؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٩٥، جـ ١، ص ٢٦٤؛ أيضا: القول الأبريزى، ص ١٩-٢١؛ ابن الوردى: تنمة المختصر، ص ١٢٨.

٢ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩١؛ أبى الفدا: المختصر، ص ٩١؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٦؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٩٥؛ أيضا، جـ ١، ص ٢٦٤؛ ابن الوردى: تنمة المختصر، ص ١٢٩.

٣ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩١؛ أبى الفدا: المختصر، ص ٩١؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٦؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٩٥؛ أيضا، جـ ١، ص ٢٦٥.

٤ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩١؛ أبى الفدا: المختصر، ص ٩٢، القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٦؛ المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٦٣، ٢٦٥، جـ ٢، ص ٩٥؛ أيضا: الأبريزى، ص ٣١، ٣٢؛ ابن الوردى: تنمة المختصر، ص ١٢٩.

وآخر الأعياد الكبار "عيد الغطاس"، ويسمى أيضا عيد المعمودية، ويحتفل به في ١١ من شهر طوبة، وهو أحياء ذكرى تعميد يوحنا المعمدان المسيح، وبمعنى آخر غسله في مياه بحيرة الأردن، إذ حينما خرج من الماء اتصل به روح القدس، واعتاد القبط في هذا اليوم النزول في الماء رغم برودة الجو في هذا الشهر^(١).

يقول المسعودي في ليلة الغطاس: "وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها، وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من كانون الثاني، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس في مصر والأخشيذ محمد بن طفج في داره - المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل، والنيل مطيف بها، وقد أمر، فأسرج من جانب الجزيرة، وجانب الفسطاط ألف مشعل، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل في تلك الليلة مئات الألوف من الناس من المسلمين والنصارى منهم في الزوارق، ومنهم في الدور الدانية، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المأكول والمشارب والملابس والآت الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف، وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا، ولا تغلق بها الدروب، ويغطس أكثرها في النيل، ويزعمون أنه أمان من المرض ومبرئ للداء"^(٢).

وكانت الأعياد الصغار سبعة أيضا أولها "عيد الختان" الذي كان يحل في سادس بئونة في ذكرى ختان المسيح، وجدير بالذكر أن الأقباط - دون غيرهم - كانوا يختنون أولادهم في ذلك اليوم تبركا به^(٣).

وفي ثامن أمشير كان النصارى يحتفلون "بعيد الأربعين" احتفالا بذكرى مباركة الكاهن سمعان للسيد المسيح في الهيكل بعد أربعين يوما من مولده^(٤).

١ - النويري: نهاية الأرب، ص ١٩٢؛ القلقشندي يذكر أن المصريين يقولون: "غطستم صيفتم ونورزتم مشيتم" انظر: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٢٦؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٦٥، ٤٩٤؛ جاستون فيبيت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص ٢٣.

٢ - المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٢٧٩، ٣٨٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٢٦؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٩٤، وأيضا: ج ١، ص ٢٦٥؛ متر: الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢١٢؛ مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي، ص ١٨٧.

٣ - النويري: نهاية الأرب، ج ١، ص ١٩٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ص ٤٢٧؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٦٦؛ بطرس الجميل: السنكسار، ج ١، ص ٢٤٠.

٤ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٢٧؛ المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ٢٦٦.

وكان ثالث الأعياد الصغار "خميس العهد" "خميس العدس" وهو قبل الفصح بثلاثة أيام، وفي هذا اليوم يغسل البطريك أرجل الحاضرين من النصارى، ذكرى غسل المسيح لأرجل تلاميذه ليعلمهم التواضع، وفي هذا العيد كان النصارى يطبخون العدس المصفى، والسكك والبيض الملون ويهدونه إلى المسلمين، وكان هذا العيد احتفالا كبيرا يشارك فيه المسلمون^(١).

وكان من عادة أهل الإسكندرية في هذا العيد أن يخرجوا إلى المنارة بمأكلهم، فمنهم من يصلى، ومنهم من يلهو ولا يزالون هناك إلى نصف النهار^(٢).

وفي "سبت النور"^(٣) الذى كان يحل قبل الفصح بيوم، يعتقد النصارى أن النور يظهر فى هذا اليوم على مقبرة السيد المسيح بالقدس، فتوقد منه كل مصابيح كنيسة القيامة، ومن عادة النصارى أنهم يجمعون فى أمسية ذلك العيد أوراق الشجر من الريحان وغيره ويببتونه فى أناء بالماء، ويغتسلون به فى اليوم التالى، لأن هذا - فى ظنهم - يقيهم شر المرض والكسل، والعين والسحر، وما إلى ذلك، كما كانوا يكتحلون فيه بالكحل الأسود الذى اعتقدوا أنه يزيد فى قوة الأبصار، وكانوا يظنون أن شرب الدواء فى هذا اليوم أكثر فائدة منه فى أى يوم آخر، كما أن البعض منهم - ممن يعانى من مرض جلدى - كانوا يذهبون إلى شاطئ النهر حيث تتعري النسوة والرجال تماما ويدهنون أجسادهم بالكبريت، ويعرضونها للشمس معظم ساعات النهار، وعند الغروب يستحم الجميع فى مياه النهر^(٤).

وخامس هذه الأعياد هو "حد الحدود" الذى يحل موعده فى أول أحد بعد الفطر، وفى هذا العيد كانت تنشط المعاملات الدنيوية لدى المسيحيين ويجددون فيه أثاث البيوت^(٥).

١ - النويرى: نهاية الارب، جـ ١، ص ١٩٢، ١٩٣؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٧؛ المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٦٦.

٢ - متر: الحضارة الإسلامية، جـ ٢، ص ٢٧٩.

٣ - يشير ابن المقفع إلى احتفال قبط مصر بسبت النور فى عهد والى عبد العزيز بن مروان، حيث تزين الكنائس والأديرة، انظر: ابن المقفع: سير الأباء، م ١، جـ ٢، ص ١٤٣؛ ابن سعيد الانطاكى، ص ١٩٤.

٤ - النويرى: نهاية الارب، جـ ١، ص ١٩٣؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٧، ٤٢٨؛ المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٦٦.

٥ - النويرى: نهاية الارب، جـ ١، ص ١٩٣؛ أبى الفدا: المختصر، ص ٩١؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٨؛ المقرئى، جـ ١، ص ٢٦٦؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ص ١٢٩.

والعيد السادس "عيد التجلى" الذى كان يحل فى الثالث عشر من مسرى، وتروى القصص الدينية المسيحية أن المسيح تجلى فيه لتلاميذه بعد أن رفع فى هذا اليوم، فتمنوا عليه أن يحضر لهم "إيليا وموسى" فأحضرهما بمصلى بيت المقدس ثم صعد إلى السماء وهما معه^(١).

وفى سابع عشر من شهر توت، كان يحل "عيد الصليب" وهو سابع الأعياد الصغار، احتفالاً بذكرى ظهور صليب الصلبوت، وكان لهذا العيد احتفالات كبيرة فى مصر، حيث يخرج القبط فى أعداد كبيرة إلى ظاهر القسطاط، للهو والشراب، وغير ذلك^(٢).

وكان للنصارى مواسم وأعياد أخرى غير تلك الأعياد الشرعية "... لكنها عندهم من المواسم العادية..." وقد أحصى القلقشندي من هذه الأعياد والمواسم مائه وثمانية وسبعين عيداً وموسماً موزعة على شهور السنة القبطية^(٣)، وقد انفرد الأقباط ببعض الأعياد التى ارتبطت بالنيل، مما يشير إلى أصلها التاريخى المرتبط بقدماء المصريين، ومن أشهر تلك الأعياد "عيد الشهيد" فى ثامن بشنس سنوياً، "عيد النيروز" الذى كان بداية السنة القبطية فى أول توت^(٤).

وعيد النيروز من الأعياد الوطنية التى شارك فيها المسلمون إخوانهم المسيحيين وهو أول السنة القبطية بمصر^(٥) "وفيه تشعل النيران وترش المياه". ومن عادة القبط فى الاحتفال به أن ينتخبوا رجلاً يسمونه أمير النيروز فيطلق وجهه بالدقيق أو بالجير، ويركب فى الشوارع على "حمار" وعليه ثوب أحمر أو

١ - النويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ١٩٢؛ أبى الفدا: المختصر، ص ٩١؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٢٨؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٦٦.

٢ - النويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ١٩٢؛ أبى الفدا: المختصر، ص ٩٢؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٢٨؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٦٦، وأيضاً ج ٢، ص ٤٨٩؛ وابن الوردي: تنمية المختصر، ص ١٢٩، ١٣٠.

٣ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٣٠-٤٣٥.

٤ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٢، ص ٤٢٩؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٦٧.

٥ - انظر الأصل التاريخى لعيد النيروز النويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ١٨٥، ١٨٦؛ البيروني: الآثار الباقية، ط سخاو، ص ٢١٦، ٢١٧؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٦٧، ٢٦٩؛ السنكسار، ج ١، ص ٩.

أصفر ويضع لحيه مستعارة، وعلى رأسه "طرطور" طويل، ويجعلون حوله الجريد الأخضر. وشماريخ البلح "ويمسك بيده دفترًا، ويطوف ذلك الموكب الغريب في شوارع العاصمة وأزقتها يطرق الأبواب، ويدخل الأسواق، ويمر على الدكاكين لتحصيل بعض النقود من الناس على شكل إتاوة، ومن امتنع عن ذلك أدوه بالكلام الفاحش وصب الماء عليه، وكان من يخلق بابه يتعرض لما هو أكثر من ذلك^(١).

كذلك كان العامة يقفون في الطرقات يتراجمون بالبيض ويتضاربون بأنطباع الجلود، ويتراشون بالماء، فلا يجسر أحد على الخروج من بيته بل أن بعض الأعيان كانوا يفعلون ذلك في منازلهم أو بساتينهم.

ويذكر القلقشندي^(٢)، أنهم "يظهرون فيه من الفرح والسرور، وإيقاد النيران، وصب الأمواه أضعاف ما يفعله الفرس، ويشاركهم فيه العوام من المسلمين، وربما حملهم ترك الاحتشام على أن يتجرءوا على الرجل المطاع، ولو لا أن ولاية الأمر يردعونهم ويمنعونهم من ذلك، لمنعوا الطريق من السالك وهم مع ذلك من ظفروا به لا يتركونه إلا بما يرضيهم^(٣).

وفي ولاية أبي القاسم بن الإخشيد أمر بمنع صب الماء، وفي سنة ٣٣٥هـ - ٣٦٣هـ / ٩٤٦ - ٩٧٣م أمر بأبطال هذا العيد، ولكن لم يحدث شيء من ذلك، إذ احتفل به في العام التالي بصورة أكبر^(٤).

كذلك كان من الأعياد الدينية التي اتخذت شكلا وطنيا في آن واحد "عيد الشهيد"^(٥)، وكان يقام سنويا في ثامن بشنسر من شهور القبط، ويعد الاحتفال به مهرجانا كبيرا على ساحل شبرا، والسبب في إقامته ما كان الأقباط يزعمونه في أن النهر لم يكن ليزيد إلا بعد غسل أصبع أحد القديسين في مائه، وكان هذا الإصبع يحفظ في تابوت بكنيسة في شبرا، وقيل أنه أصبح أحد أسلافهم من

١ - المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٤٩٣؛ البيروني: الآثار الباقية، ص ٢١٦، ٢١٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٨٧، ٨٨.

٢ - القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٢٩ - ٤٣٠.

٣ - المصدر نفسه، الجزء، والصفحات.

٤ - الكندي: الولاة، ص ٢٩٤.

٥ - المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٦٨، ٦٩؛ العمري: مسالك الإبحار، جـ ١، ص ٣٦١؛ أبو صالح الأرمني، ص ١١٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٨، ص ٢٠٢.

الشهداء، وفي هذا العيد يتوافد الأقباط من شتى أنحاء البلاد، كما يخرج أهل مصر على اختلاف طبقاتهم وديانتهم إلى شبرا لحضور هذا المهرجان الضخم حيث تنصب الخيام بأعداد هائلة على ساحل النيل، وفوق الجزر، ويجتمع الفرسان بخيولهم يرقصون بها على إيقاعات الطبول، وأنغام الزمور، وتجتمع المغاني من العربان وغيرهم من كل أنحاء البلاد "ولا يبقى مغنى ولا مغنّية، ولا رب ملعوب، ولا يغى ولا مخنث ولا باض ولا خليع ولا متفرج، ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد..."، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق، وتثور فتن وتقتل أناس" وكان فلاحو شبرا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمر في ذلك العيد للوفاء بما عليهم من الخراج^(١).

وعيد وفاء النيل من الأعياد الوطنية التي شهدتها مصر الإسلامية، وقد شارك فيه جميع عناصر المجتمع منذ الفتح العربي^(٢).

وكان بلوغ النيل ستة عشر ذراعا بشيرا بوفاء النيل^(٣)، وإذانا ببدء ذلك المهرجان القومى الضخم احتفالا بهذه المناسبة، التي شارك الجميع فى أحيائها باعتبارها عيداً وطنياً يهتم الجميع به، وكانت تحيط باحتفالات وفاء النيل كل

-
- ١ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٦٨، ٦٩؛ جاستون قيت: القاهرة، ص ١٨٥.
 - ٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٥٠، ١٥١؛ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٦٥؛ الواقدي: فتح الشام، جـ ١، ص ٣٧؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ١٩، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ١، ص ٣٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ١١١؛ عبد المنعم ماجد: النيل فى رسوم الدولة الفاطمية فى مصر، بحث منشور فى ندوة حوض النيل، يناير ١٩٨٧م ص ٢.
 - ٣ - يشير ابن عبد الحكم إلى ذلك بقوله: "فلما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤوته من أشهر العجم، فقالوا له أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها، فقال لهم وما ذاك، قالوا: أنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكرين أبويها فارضيها أبويها، وجعلنا عليها من الحلوى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل فقال لهم عمرو أن هذا لا يكون فى الإسلام"، وكتب عمرو إلى الخليفة عمر، يطلعه حقيقة الموقف، فأرسل إليه بطاقة وأمره بالقائها فى النيل، وقد جاء فى هذه البطاقة: "من عبد الله عمر، أمير المؤمنين إلى قبيل أهل مصر، أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك، فلا تجرى، وأن كان الله الواحد القهار الذى يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك". انظر: ابن عبد الحكم فتوح مصر، ص ١٥٠، ١٥١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ١٩، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ١، ص ٣٦؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ١١١.

مظاهر الفخامة والعظمة التي ميزت فترة عصر الولاة^(١)، فإذا أتم النهر الستة عشر ذراعا يعلق على الشباك الكبير في الجهة الشرقية من دار المقياس ستر أصفر فيعلم الناس بالوفاء، وتكون هذه الليلة من الليالي العظيمة بمصر يوقد فيها الأهالي القناديل والشموع، ويتحول ليل مصر إلى نور من كثرة الأضواء، ويحضر مقرئو القرآن الكريم، يبيتون بدار المقياس، ويتناوبون القراءة طوال الليل، كما يحضر المغنون الذين يغنون لمن يكون موجودا في دار المقياس طوال الليل^(٢).

كما كان المسلمون يشتركون مع القبط في صلاة تعرف بصلاة الاستسقاء إذا ما نقص النيل في موعد الفيضان فيخرج الناس حفاة، وعلى رؤوسهم المصاحف واليهود وعلى رؤوسهم التوراة، والنصارى وعلى رؤوسهم الأناجيل، ويخرج الأطفال من المكاتب، وعلى رؤوسهم الألواح^(٣).

يذكر ساويرس^(٤) "أن المسلمين والقبط صلوا من أجل النيل عندما نقصت مياهه في ولاية أبي عون على مصر (١٣٢هـ - ١٣٦هـ / ٧٤٩ - ٧٥٣م) وكذلك خرج المسلمون مع القبط للاستسقاء في ولاية حفص بن الوليد الثانية حيث اشتد القحط بمصر فخرج حفص مع الناس للاستسقاء ودعا الله وصلى^(٥)".

ومن الأعياد التي شارك فيها المسلمون الأقباط عيد القديسة بربارة في ليلة اليوم الرابع من شهر كانون، وفيه يجتمع جميع القبط في مصر في كنيسة القديسة بربارة، وكثيرا ما يشاركهم المسلمون في الاحتفال بهذا العيد لمشاهدة ما يقوم به القبط على سبيل الترفية عن أنفسهم، وكان من عادة القبط أن يقدموا إلى هذه الكنيسة في السر التماسا للبركة، ويدهنون أجسادهم من زيت القناديل، كما كان كثير من القبط يسمون بناتهم على اسمها^(٦).

١ - ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ص ١١٤، ١١٥.

٢ - التويري: نهاية الأرب، ج١، ص ٢٦٤؛ ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص ص ١١٤، ١١٥.

٣ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ص ٦٥، ٦٦؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ص ٢٠٦، ٢٠٧؛

ابن تغري بردي: النجوم، ج١، ص ص ٣٥، ٣٦.

٤ - ساويرس: سير الأباء، م١، ج٢، ص ٢٠٨.

٥ - ابن تغري بردي: النجوم، ج١، ص ٢٩١.

6 - George Salamon: Un texte Arabe Inedit pour servir a L'histoire des christiens d' Egypte P. 18.

كذلك شارك المسلمون قبط مصر في عيد الخروج إلى سجن يوسف بالجيزة، وقد جرت عادة العامة في هذا اليوم من كل سنة أن يطوفوا قبل الخروج للسجن بأسواق البلد مع الطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم. هكذا تمتع القبط في مصر بالحرية التامة في الاحتفال بأعيادهم الدينية، وقد شاركهم المسلمون احتفالاتهم^(١).

أما الطائفة الأخرى من أهل الذمة في مصر وهم اليهود، فقد قسمت المصادر العربية أعيادهم إلى قسمين: الأعياد الشرعية^(٢)، وعددها خمسة، وهي ما نطقت به التواراة، وأول هذه الأعياد الشرعية:

"عيد رأس السنة" وأسمه العبرى (رأس هيشا)، وبالعبرية الحديثة (روش هيشانا)^(٣) وهو بمثابة عيد الأضحى عندهم، ويحل مواعده في أول شهر تشرى أحد شهور اليهود^(٤)، في ذكرى افتداء الله لإسماعيل بعد أن كاد إبراهيم عليه السلام أن يذبحه، تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتعالى، ويعتبر هذا العيد أيضاً عيد عتق وحرية عند اليهود لخلاصهم من فرعون، وقد أسماه المقرئى عيد البشارة (أى البشارة بالعتق والحرية)^(٥).

وهناك بعض الاختلافات في مظاهر الاحتفال بها العيد لدى كل من القرائيين والربانيين، إذ كان الربانيون ينفخون الأبواق أثناء الصلاة في معابدهم، اعتماداً على تفسيرهم لبعض النصوص الواردة بشأن هذا العيد، بينما اكتفى القراءون بالصلاة والتهايل حمداً وشكراً لله لأنه يوم عتق رقاب لديهم^(٦).

١ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

٢ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ ٤، ص ٢٧؛ النويزى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩٥؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٣٦؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧١.

٣ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ ٤، ص ٢٧؛ حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص ٢٠١.

٤ - يعتبر شهر "تشرى" سابع شهور السنة من الوجهة الشرعية، رغم أن المتعارف عليه بين اليهود أنه أول شهور السنة العبرية، والسبب فى هذا التحوير أن خروج بنى إسرائيل من مصر كان فى شهر نيسان الذى أمروا فيه بعيد الفصح، ومن ثم يعتبر شهر نيسان بداية العام شرعاً. عن التقويم العبرى وشهور اليهود. انظر: المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧١، ٤٧٣؛ مراد فرج: القراءون والربانيون، القاهرة ١٩١٨م، ص ١٢٤-١٢٥؛ حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص ١٩٤، ١٩٨.

٥ - المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧١.

٦ - مراد فرج: القراءون والربانيون، ص ١٢٤، ١٢٥.

والعيد الثانى "عيد صوماريا"^(١) أو "الكبود" وهو يوم الغفران أو الكنارة عند اليهود، كما أنه الصوم الكبير لديهم، وعقوبة من لا يصومه فى شريعتهم القتل، وبينما جعل الربانون مدته خمساً وعشرين ساعة، تبدأ قبل غروب شمس التاسع من تشرى وتنتهى بعد مضى ساعة من غروبها فى اليوم التالى^(٢)، فإن القرائين جعلوا ذلك الصيام أربعاً وعشرين ساعة تبدأ من غروب شمس تاسع شهر تشرى، وتنتهى بغروبها فى اليوم التالى، وقد تشدد السامرة فى صيام ذلك اليوم، حتى أنهم لم يستثنوا منه الأطفال الرضع^(٣)، وقد عرف هذا العيد أيضاً باسم "العاشور"^(٤).

أما "عيد المظلة"^(٥) أو عيد "الظل" فكان الاحتفال به فى الخامس عشر من شهرى تشرى، وهو سبعة أيام يعيدون فى أولها، وفى اليوم الثامن عيد الاعتكاف عند الربانيين، وفى هذا العيد كان اليهود يجلسون تحت ظلال "سعف النخل الأخضر، وأغصان الزيتون، وغيرها من الأشجار التى لا يتناثر ورقها على الأرض، تذكراً للغمام الذى أظلم به الله تعالى فى التيه، وأنفرد القراءون بصوم الرابع والعشرين من هذا الشهر، وهو "صوم جدليا" الذى جعله الربانيون فى ثالثه، وفى رأى البعض أن هذا العيد يرجع إلى أصول زراعية ورعوية اعتماداً على أن من أسماء هذا العيد العبرية اسم "حجها أسيف" أى "عيد التخزين"^(٦).

١ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ ٤، ص ٣٧؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٣٦؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٩.

٢ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩٥؛ أبى الفدا: المختصر، جـ ١، ص ٨٨ وما بعدها؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٣٦؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٢؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، جـ ١، ص ١١٢؛ مراد فرج: القراءون والربانون، ص ١٧، ١٨.

٣ - المرجع نفسه، ص ١٨.

٤ - حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

٥ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ ٤، ص ٣٧؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩٥، ١٩٦؛ أبى الفدا: المختصر، ص ٨٩؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٣٦؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٩؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ص ١٢٥، ١٢٦؛ عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية، ص ٩٨.

٦ - حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

والعيد الرابع هو عيد الفطير^(١)، وقد سمي أيضا "عيد الفصح"، في خامس عشر من شهر نيسان اليهودي، وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به فهي سبعة عند القرائين، ثمانية عند الربانيين، وستة فقط لدى السامرة^(٢) وفي أثناء هذه الأيام ينظف اليهود بيوتهم من خبز الخمير ولا يأكلون سوى الفطير احتفالا بذكرى نجاتهم من فرعون وخروجهم إلى الصحراء يأكلون الخبز الفطير، ويحيون حياة البداوة، وبالنسبة للربانيين فإن هذا العيد لا يصح أبدا أن يبدأ يوم الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة، وهو ما لم يتقيد به القراءون، ويعتبر هذا العيد أيضا من أعياد التضحية، ومواسم الحج لدى اليهود، وبينما يحج القراءون والربانيون إلى بيت المقدس، ويضحون على الصخرة المقدسة^(٣).

ويحج السامرة إلى جبل جرزيم بنواحي نابلس، ويضحون على صخرته. وأما خامس أعيادهم الشرعية فهو "عيد الأسابيع" أو "عيد العنصرة" أو "عيد الخطاب"^(٤)، وهي عندهم الأسابيع التي أنزل الله تعالى فيها على بنى إسرائيل الفرائض متضمنة الوصايا العشر المنسوبة إلى نبي الله موسى عليه السلام، ويحل موعد الاحتفال به في السادس من شهر سيوان، أحد شهورهم في ذكرى مخاطبة الله لشيخ بنى إسرائيل مع موسى على جبل طور سيناء على ما يزعمون، وفي هذا العيد كان اليهود يصنعون القطائف التي يتفننون في عملها ويأكلونها تذكرا للمن، ولهذا العيد اسم عبري هو "عشرتا" بمعنى الاجتماع، وقد تقيد الربانيون فقط بهذا العيد الذي لا يجب عندهم أيام الثلاثاء والخميس والسبت، بينما لم يتقيد القراءون بذلك في احتفالاتهم بهذا العيد.

١ - اكتسب هذا العيد على مر العصور عدة أسماء لكل منها معناه ومغزاه، وقد أسماه "سعديا الفيومي" في ترجمته العربية باسم الفصح أى الفرج بعد الضيق، ومن أسمائه "الفطير" و"عيد الربيع" انظر: حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، ص ٢١٨-٢٢٠.

٢ - المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص ٢٧، للنويري: نهاية الأرب، ج١، ص ص ١٩٥، ١٩٦؛ أبي الفدا: المختصر، ص ٨٨؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج٢، ص ٤٣٧، المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٤٧٩.

٣ - المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٤٧٨.

٤ - المقدسي: البدء والتاريخ، ج٤، ص ٢٧؛ النويري: نهاية الأرب، ج١، ص ١٩٦؛ أبي الفدا: المختصر، ص ٨٨؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج٢، ص ٤٣٧؛ المقرئزي: الخطط، ج٢، ص ٤٧٩؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ص ١٢٥.

وكانت لليهود أعياد محدثة بخلاف أعيادهم الشرعية أشهرها "عيد الفوز"^(١) و"عيد الحنكة".

أما عيد الفوز^(٢): "وهو بالعبرية البوريم"، فقد كان مواعده السنوى فى ثالث عشر أزار يبدأ بصوم يسمى بصيام استيرويسم، حتى خامس عشر أزار حيث يتم احتفال صاخب، ومظاهر للهو والخلاعة حتى أطلعت عليه المصادر العربية اسم "المساخر" أو "عيد المسخرة".

فقد كان اليهود يبالغون فى إظهار السرور أثناء احتفالهم بهذا العيد، وفى مصر كانوا يصنعون هيكلا من الورق المملوء بالنخالة رمزا لهيمون أو "هامان" يعبثون به فى مهرجان يضم سائر اليهود ثم يحرقونه فى النهاية، وفى هذا العيد يتبادل اليهود الهدايا والهبات^(٣).

وثانى هذه الأعياد المستحدثة "عيد الحنكة"^(٤) أو "الحانوكه"^(٥) وترجع مناسبة هذا العيد إلى سنة ١٦٥ ق.م حين كانت بلاد الشام تحت الحكم البطلمى، وفى عصر الولاية كان اليهود يوقدون المصابيح على أبواب دورهم وفقا لعد تصاعدى، وفى الليلة الأولى يوقدون قنديلا واحدا، وفى الليلة الثانية اثنين، وهكذا حتى تتم ثمانية قناديل فى اليوم الثامن، وقد شاهد القلقشندي (سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م) أحد احتفالاتهم بهذا العيد^(٦).

المواكب العامة والاحتفالات :

وإلى جانب أعياد المسلمين، وأهل الذمة مناسبات أخرى تحتفل بها الحكومة والناس معا، وتحاط بمظاهر العظمة، كالاحتفال برؤية هلال رمضان الذى يصفه

١ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩٦، ١٩٧؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٣٧، ٤٣٩؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٩.

٢ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩٦؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٣٧.

٣ - القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٣٧، ٤٣٨.

٤ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩٧؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٩؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ص ١٢٥.

٥ - تطور معنى لفظ حانوكه وأصبح يعنى "التنشين" ويتم الاحتفال به حاليا بإيقاد الشموع الكثيرة، والأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل. انظر: حسن ظاظا: مرجع سابق، ص ٢٠٥-٢٠٧.

٦ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ١٩٧؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٢، ص ٤٣٨، ٤٣٩؛ المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٤٧٩؛ ابن الوردي: تنمة المختصر، ص ١٢٥.

الكندى يقوله: "خرج عبد الله بن لهيعة في نفر من أهل المسجد يعرفوا بالصالح فطلبوا الهلال، فكانوا يطلبونه بالجيزة، فهو أول القضاة بمصر حضر فى طلب الهلال، ثم تعدوا الجسر فى زمن هاشم بن أبى بكر البكرى، وطلب الهلال فى جنان ابن أبى حبش، ثم كانت القضاة على ذلك حتى كان ابن أبى الليث فى طلبه فى أصل المقطم^(١)".

هذا وقد ظلت مظاهر الفخامة والأبهة تحيط بالاحتفالات الخاصة بوفاء النيل، وكسر الخليج من سائر عناصر المجتمع المصرى، وطوال عصر الولاية كان الناس يخرجون فى مواكبهم للنزهة والاحتفال بفتح الخليج^(٢).

كما كانت الحكومة فى العصر الإخشيدى تشارك فى الاحتفال بفتح الخليج^(٣)، وكان الإخشيد يخرج فى موكب رائع ليلة التاسع والعشرين من رمضان ليحضر الختم، والدعاء فى جامع عمرو^(٤).

كما كان الإخشيد يخرج فى موكب عظيم للعرض ليلة عيد الفطر، وقد ذكر ابن سعيد ما نصه: "^(٥) ولما كان آخر شهر رمضان ركب الإخشيد، فحضر ختم الجامع وصلى وأوتر، وهو فى وجوه عبده فى دراعة بياض، ومن بين يديه مائة فراش بمائة شمعة، ثم أصبح الناس للعرض، وجلس فى المنطرة التى على باب دار الأمانة، ومرت العساكر، فلما انفض العساكر ركب غلمانه فى أحسن زى لى العشاء".

تلك هى أهم مظاهر الاحتفالات لدى العامة ومواكب الولاية التى تظهر بصورة جليلة منذ عهد الولاية الطولونيين الذين أخذوا يحيطون أنفسهم بكل مظاهر الفخامة والعظمة.

١ - الكندى: الولاية والقضاة، ص ٣٧٠.

٢ - هذا الخليج الذى حفره عمرو بن العاص لما ولى على مصر فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، من بحر فسطاط مصر والحقة بالقلزم بشاطئ البحر الملح "انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٢-١٦٥؛ النويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ٢٦٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٢٩٨؛ وأيضا ج ٥، ص ٣٨٧؛ المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ١٤٣؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ١١٢؛ قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى، ص ٤٣.

٣ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٤٩٣.

٤ - ابن سعيد: المغرب، ص ٣٥.

٥ - ابن سعيد: المغرب، ص ١٢.

وسائل التسلية :

اختلفت وسائل التسلية في المجتمع المصري زمن الولاة، وأن شاركت فيها كل عناصر المجتمع نذكر منها:

القيان والمفنون: (١)

كان بعض القوم يقبلون في مجالسهم الخاصة، ومآدبهم على سماع المغنين، ولكن يبدو أن أهل الورع، والتقوى من الفقهاء والعلماء كانوا لا يقبلون على هذا النوع من المجالس (٢).

كذلك شارك البعض من الولاة الأمويين في مجالس اللهو، فمما يذكر عن عهد قرّة بن شريك في سنة تسعين هجرية/ سبعمائة وتسعة ميلادية أنه "كان الناس يصلون الجمعة في قيسارية العسل، حتى فرغ قرّة من بنائه، وكان الصنّاع إذا انصرفوا من البناء دعا بالخمور، والزمر، والطبول، فيشرب الخمر... ويقول لنا الليل ولهم النهار" (٣).

وقد ذكر أبو المحاسن أنه في السنة الثالثة من ولاية قرّة بن شريك توفي بمصر "طويس المغني صاحب الألحان، وهو أول من غنى بالألحان في الإسلام" (٤) "وهذا ان دل على شيء" فإنما يدل على ازدهار فن الغناء بمصر.

وقد حارب بعض الولاة انتشار حانات الخمور، ففي أيام يزيد بن حاتم، أرسل في استدعاء بعض أصحابه، فإذا هم سكارى فقال لهم: "ان نضوحكم الليلة لكثير" وخشى الوالي على بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المسلمين فأمر بمنع الملاحى والخمور في أيامه (٥).

أما القيان والمغنون، فقد ذكر الكندي أن القاضي العمري "كان يشدو بأطراف الغناء على مغاني أهل المدينة ويبرز كثيرا في مجالسه، ولا يتحاشى أن يقول هذا

١ - الغناء.. هذه الصناعة هي تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، انظر ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص ٧٥٨.

٢ - الثعالبي: يتيمة الدهر، ج١، ص ٣١٤؛ النووي: نهاية الأرب، ج٤، ص ١٣٦، ١٣٧؛ ابن قيم الجوزية: حكم الإسلام في الغناء، القاهرة ط ٢، ١٩٧٩، ص ٧-٤ از

٣ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج١، ص ٢١٧، ٢١٨.

٤ - المصدر نفسه، ج١، ص ٢٢٥.

٥ - الكندي: الولاة، ص ١١٣، ١٢١.

غنى به ابن سريج وهذا جيد غناء العريض، ولم يكن بمصر مسمعة الا ركب إليها وسمع غناءها^(١).

وقد هجاه خصومه لذلك، وأخذوا عليه باعتباره قاضيا كلفة بالغناء وإعجابه بسماع العود والمزمار، وشرب الخمر، في حين أن خلفاء العباسيين في بغداد كانوا يلهون، ويمجنون، ويظهرون اللهو والمجون، ويشاركهم في هذه الحياة الشعراء والندماء^(٢).

وخلال عصر الطولونيين والإخشيديين سجل الشعراء كثيرا من ألوان اللهو، والمجون الذي شهدته تلك الفترة، فإذا كانت جماعة أبي نواس قد أخذت شهرتها في بغداد، فقد ظهرت في مصر جماعات من هذا النوع، ساعد على وجودها بذخ الأمراء، وإسرافهم، وأخذهم بحياة النعيم، وشرب الخمر، والإسراف فيها، وسماع الغناء، يقول المقرئى: ^(٣) "كان أحمد بن طولون، قد اتخذ حجرة بقرية فيها رجال سماهم بالمكبرين عدتهم أثناء عشر رجلا يبيت منهم في كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل نوبا يكبرون، ويسبحون ويحمدون ويهللون، ويقرؤن القرآن تطريبا بالحن ويتوسلون بقصائدهم، ويؤذنون أوقات الأذان" فلما ولى خماروية أقرهم على حالهم وأجراهم على رسمهم، وكان يجلس للشرب مع خطاياه في الليل وقينائه تغنيه، فإذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدر في يده، وضعه بالأرض وأرتلت مغنياته وذكر الله معهم^(٤).

هذا فضلا عن أن أحمد بن طولون كان يخرج مبكرا كل يوم لسماع قراءة الأئمة في المحراب، وكان يشرب الخمر، ويسمع الغناء، وكان المغنى الخاص لابن طولون^(٥) "يسمى كثيرا".

كما كثرت مجالس الغناء في عهد أولاد أحمد بن طولون، حيث كانت تقام الحفلات، وتجتمع الجوارى، وتنتشر الدنانير الذهبية على المغنيات^(٦).

١ - الكندى: الولاة، ص ٣٣٩.

٢ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: ج ٢، ق ٣، ص ٢٦٠.

٣ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣١٧.

٤ - المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٧.

٥ - ابن الداية: سيرة ابن طولون، ص ٨٠.

٦ - ابن سعيد: المغرب، ص ١٧٩؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٣١.

وقد بلغ من مظاهر الابهة فى البلاط الطولونى أنه فى عهد خماروية "عمل داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول بطلازورد المعمول فى أحسن نقش، واضرف تفصيل، وجعل فيه على مقدار قاممة ونصف صورا فى حيطانه بارزه من خشب معمول على صور حظايا والمغنيات اللاتى تغنيه بأحسن تصوير، وأبهج تزويق، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين، والكواند المرصعة بأصناف الجواهر، وفى أذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنع وهى مسمرة فى الحيطان، ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة^(١).

وهذا يبين مدى اهتمام الطولونيين بالغناء، والموسيقى ولعهم بالمغنيات، وتصويرهم فى أحسن صورة.

كما يذكر ابن سعيد: "أن محمد المانرائى الذى تولى الوزارة فى عهد الإخشيد، أقام مأدبة جمع فيها المغنيين من الرجال والنساء^(٢)".

كذلك عرف المجتمع المصرى لعبة الشطرنج، فأول من أدخلها فى مصر عمرو بن العاص، وهى مأخوذة أصلا من بلاد العجم^(٣)، وكان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان فى العصر الأموى، قد اتخذ بيتا فجعل فيه شطرنجات، ونردات، ودفاتر فيها من كل علم، وجعل فى الجدار أوتارا فمن جاء علق ثيابه على متد منها ثم جر دفترا فقرأه أو بعض ما يلعب به فلعب به، وهذه صورة لنادى يشمل فيه أدوات التسلية بجانب القراءة^(٤).

وكان سباق الخيل فى هذا العصر من أحب ألوان التسلية، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سابق بالأقدام، وثبت عنه أنه سابق بين الإبل، وثبت عنه أنه سابق بين الخيل، وثبت عنه أنه حضر نضال السهام^(٥).

١ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٣١٦-٣١٧.

٢ - ابن سعيد: المغرب، ص ٢٩.

٣ - ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ١٠٩؛ يذكر ابن تغرى بردى عن أول من اقترح لعبة الشطرنج صحبة بن زاهر؛ انظر: النجوم، جـ ١، ص ٢٢٧.

٤ - أحمد أمين: فجر الإسلام، جـ ١، ص ١٦٨.

٥ - ابن الجوزية: الفروسية، ط القاهرة، ١٩٤١م، ص ٢-٤.

وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة على ألا يكون وسيلة للحصول على المال، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند الحرب^(١).

ومما يذكر عن عمرو بن العاص أنه كان من فرسان قريش، وأبطالهم في الجاهلية، محبا لركوب الخيل^(٢).

وعند أواخر القرن الثاني الهجري شهدت مصر سباقا بين فرسى قبيلة مواد - الزعفران - وفرس قبيلة يحصب - الجناح - إلا أن السباق انتهى كما هي عادة العرب بنشوب الصراع بين القبيلتين. مما يبين أهمية السباق عند العرب زمن الولاة^(٣).

وقد استمرت عادة سباق الخيل، وازدهرت في بعض الأوقات، ولكن لما كانت سببا في نشوب المنازعات، قام الولاة بمنعها كما حدث في ولاية يزيد بن عبد الله على مصر سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م ثم بدا له تعطيل الرهان الذي كان لسباق الخيل بمصر، رباع الخيل التي كانت تتخذ للسباق بمصر^(٤).

وعاد سباق الخيل مرة أخرى سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م، واستمر في العهد الطولوني^(٥)، وازدهر في عهد خماروية الذي اعتنى بتربية الدواب، ومن بينهما خيل السباق، وكانت أيام السباقات من المناسبات التي يفرح بها الناس "ويجلس الناس لرؤية ذلك كما يجلسون في الأعياد"^(٦)، وازداد الاهتمام بالسباق في عهد الإخشيديين^(٧) وبلغ من شدة حب خماروية للخياد من الخيل جعل لها أنسابا مثبتة في الدواوين كأنساب الناس^(٨).

وكان الصيد من الرياضات المحببة إلى وجوه القوم في عهد الطولونيين إذ يقول ابن تغرى بردى عن أحمد بن طولون: "ولما كان في بعض الأيام ركب يوما

١ - انظر الرهان على الخيل ابن الجوزية: القروسية، ص ٥، ٦.

٢ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١، ص ٧٢.

٣ - الكندي: الولاة، ص ٤٠٢.

٤ - الكندي: الولاة، ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٢، ص ٣٠٩.

٥ - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٣١٢، ٣١٤.

٦ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٥٨، ٦٠.

٧ - الكندي: الولاة، ص ٤٠٢، ٤٠٣.

٨ - ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٦٩.

ليتصيد بمصر^(١).

وقد أولع خماروية بالصيد ولعا شديدا، فكان يخرج في وجهات الأهرام، ولا يكاد يسمع بسبع الا قصده في صحبة رجال عليهم اللبود، فيدخلون في الغابة، ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم، ثم يضعونه في قفص من خشب محكم الصنعة يسعه وهو قائم، فإذا عاد خماروية من صيده حمل بين يديه القفص الذي فيه السبع واجتمعت العامة لمشاهدته^(٢).

كذلك كان من وسائل التسلية في مصر اللعب بالصوالجة وهي "ضرب الكرة من فوق ظهور الخيل، والإجادة فيها أن يضرب اللاعب الكرة ضربا متصلا وأن يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل ليتها في رفق والا يستعين بسوط والا يؤثر في الأرض بالصولجان، أو يكسره أو يعقد قوائم دابته، وأن يراعى عدم إيذاء من يجرى معه في ميدان اللعب، وأن يحسن الكف للدابة في شدة جريانه، وأن يتجنب طرد النظارة، والجالسين على حيطان الميدان، ولذلك كان عرض الميدان ستين ذراعا حتى يتسع للجري والمشاهدين^(٣).

وقد اهتم ابن طولون بهذه اللعبة فجعل في قصره ميدانا فسيحا خصصه لهذه الرياضة، كما عني بحلقات السباق، فخصص مكانا لعرض الخيل سماه المنظر، وصف ابن قتيبة هذا العرض بقوله: "أنه من عجائب الدنيا الأربعة وهي: هذا العرض ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد^(٤)".

كذلك اهتم المصريون بعادة الخروج إلى المنتزهات التي تباينت في حدائقها إذ يذكر جاستون فيبت أنه كان للفسطاط بساتين نضرة ومنتزهات على مر الأيام خضرة^(٥). وكان من عادة المصريين التنزه أحيانا عند الأديرة، يشير المقریزی إلى "دير يوحنا على شاطئ بركة الحبش، وهو قريب من النيل، وإلى جانبه بساتين، ويقرب الدير بئر، تعرف ببئر مماتي، عليها جميزة كبيرة يجتمع الناس إليها، ويشربون

١ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٢، ص ٧، ٨.

٢ - المقریزی: الخطط، ج ١، ص ٣١٨.

٣ - المقریزی: الخطط، ج ١، ص ٣١٥؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، ط دار الكتب ١٩٣٠، ص ١٦٦، ١٦٧ متر: الحضارة الإسلامية، ج ٢، ٢٠٢، ١٩٠.

٤ - المقریزی: الخطط، ج ١، ص ٣١٨، ٣١٩؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص ١٦٦، ١٦٧.

٥ - جاستون فيبت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص ٦٤، ٦٥.

تحتها، وهذا الموضع من مغنى اللعب، ومواطن القصف والطرب، وهو نزه فى أيام النيل، وزيادة البحر، وامتلاء البركة، حسن المنظر فى أيام الزرع، لا يكاد حينئذ يخلو من المتزهين أو المتطربين وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه^(١).

وقد حرص الولاة فى مصر على غرس البساتين فى قصورهم، فعندما أقام عبد العزيز ابن مروان فى مدينته الجديدة حلوان "استحسن موضعها فبنى بها دورا وقصورا واستوطنها وزرع بها بساتين، وغرس كروما ونخلا^(٢).

كذلك فى العصر العباسى أهتم الولاة، وحرصوا على التمتع بجمال الطبيعة المصرية ومنتزهاتها، يدل عليه ذلك قول عيسى بن منصور الذى ولى مصر من قبل المأمون العباسى^(٣) عندما توجه إلى بركة الحبش على سبيل التنزه، إذ وقف عند الرصد، وقال لمن حوله: "انى أرى عجبا، قالوا: وما هو؟ قال: أرى ميدان أزهار، وحيطان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكن، وجبانة أموات، ونهر جارى، وربيع من نبات أخضر، ومراعى ماشية، ومرابط خيل، وساحل بحر، ومقاصص وحش، ومصائد سمك، وملاح سفينة، وحادى ابل، ومغانر ورمال، وسهل وجبل وأهرام وقرى، فهذه سبع عشرة منتزها فى أقل من ميل فى ميل^(٤).

وفى صعيد مصر تحدث الالفوى عن محاسن إقليم قوص الذى كان يعد من المنتزهات الجميلة، إذ يخرج الناس على ضفاف نهر النيل ليستمتعوا بالجلوس بين الماء والخضر^(٥).

وكان عبد العزيز بن مروان إذا انتقل إلى الصعيد، يكثر الخروج إلى بلدة تسمى أسكر^(٦) إذ يطب له المقام بها للنزهة والتمتع بجمالها، حتى وافته المنية فى هذه البلدة.

١ - المقرئى: الخطط، جـ ٢، ص ٥٠٣.

٢ - ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٩٣.

٣ - النويرى: نهاية الأرب، جـ ١، ص ٣٥٧.

٤ - ابن ايلس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ١٤٧، ١٤٨.

٥ - الالفوى: الطالع السعيد، جـ ١، ص ٢٤.

٦ - أسكر بالفتح ثم السكون، وفتح الكاف، وراء قرية مشهورة نحو صعيد مصر، بينها وبين القسطنطينية

يومان من كورة الاطفيحية. أنظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ١، ص ١٨٢.

عند موت عبد العزيز بن مروان رثاه أحد الشعراء بقولة:

أصبن يوم الصعيد من سكر مصيبة ليس لى بها قبل

الباب الثانى
أثر التطور الاجتماعى فى مصر
فى عصر الولاة
فى سودان وادى النيل

الفصل الأول

التأثير المصرى فى السودان وأدى النيل فى النواحي السياسية والعسكرية

- الصلات السياسية والعسكرية ببلاد النوبة.
- الرسائل المتبادلة بين ولاية مصر وحكام النوبة.
- الصلات السياسية والعسكرية ببلاد البجة.
- موقف ولاية مصر من الكنيستين القبطية والنوبية.

الفصل الأول

التأثير المصرى فى السودان وادى النيل فى النواحي السياسية والعسكرية

الصلات السياسية والعسكرية ببلاد النوبة:

من الطبيعى أن نجد بلاد النوبة قد تأثرت بما يحدث فى مصر من تطورات وأحداث سياسية، وإذ تعتبر النوبة امتداداً طبيعياً لمصر، وحد بينهما نهر النيل، ولذا فكل حدث فى مصر، كان له صدها فى بلاد النوبة، ومن ثم صار أمراً طبيعياً أن نتناول بالدراسة التأثير المصرى فى النوبة فى الجانبين السياسى والعسكرى خلال عصر الولاة.

والنوبة، طائفة من طوائف السودان، ينسبها المؤرخون إلى نوبى بن قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح^(١)، فيقول ياقوت: أنهم ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام^(٢) ويزعمون أنهم من نسل حمير^(٣).

وتقع بلاد النوبة إلى الجنوب من مصر، وكانت تضم المناطق الممتدة على طول جانبي النيل فيما بين الشلال الأول عند أسوان شمالاً، إلى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق، أى إلى الخرطوم الحالية جنوباً^(٤).

١ - الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ط سانت بطرسبرج ١٨٦٦، ص ٢٨٦، محمد عبدالعال أحمد: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، بحث منشور بكلية آداب الاسكندرية، المجلد ٢٣، ١٩٨٤-١٩٨٥، ص ٢٦٥.

٢ - ابن خلدون: العبر، ج ٢، ق ١، ص ٢١.

٣ - يقول ياقوت: "وملكوهم يزعمون أنهم من حمير، ولقب ملكهم كابيل، وكتابتته الى عمالة وغيرهم: من كابيل ملك مكرى ونوبة" أنظر معجم البلدان، ص ٣٦٢، وربما كان أصل كلمة كابيل من قيل، وهو لقب أطلق على بعض أمراء اليمن، انظر: القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، بـ بيروت ١٩٦٠م، ص ٢٤، المسعودى: مروج الذهب، ج ١ ص ٤٢٢، ٤٢٧، ٤٢٨، القلقشندي: صبح الاعشى، ج ١ ص ٣٦٨، ابن الوردي: تتمته المختصر، ص ١٣٤، ١٣٥، ويقول دى فيار: "وليس بمستبعد أن الاسرة المالكة النوبية ترجع فى أصلها الى جنوبى الجزيرة العربية، إذ عبر الحميريون البحر الاحمر، واستقروا فى السودان حيث نقلوا أسماء أجدادهم مثل كوه، دارو، سبأ.

Devillard. Ugo, M. De: Storia Della Nubia Cristiana, P. 171, Mac Michael, H. A.: OP. Cit., P. 168.

٤ - المقرئى: الخطط، ج ١ ص ١٩١، ابن الجوزى: تنوير الغيش، ص ٣٩، محمد عبدالعال: نفس المرجع والصفحة، انظر: الخريطة شكل (٧، ٨).

وتتضمن هذه المنطقة ثلاثة أقاليم رئيسية مختلفة، تتصل فيما بينها من الشمال إلى الجنوب على النحو التالي:

- إقليم النوبة السفلى (الشمالية)، ويشمل المنطقة الواقعة بين الشلال الأول شمالاً، إلى وادي حلفا جنوباً، والنهر فيه صالح للملاحة لاستقامة مجراه، وانعدام العوائق فيه^(١).

- إقليم النوبة الوسطى، ويحتل منطقة الوسط فيما بين وادي حلفا شمالاً إلى دنقلة جنوباً، وهي منطقة صخرية وعرة، والنهر هناك غير صالح للملاحة في معظم أجزائه، لكثرة الجنادل والصخور التي تعترض مجراه الضيق، أما الوادي فمرتفع عن مستوى النهر، ولذلك أعاق إمكانية تسرب المياه إلى معظم الأراضي الواقعة على جانبي المجري، بالإضافة إلى انعدام الأمطار في تلك المنطقة، مما جعلها صحراء جرداء، باستثناء ذلك الشريط الضيق القريب من مجرى النيل^(٢).

- إقليم النوبة العليا (الجنوبية) ويقع في أقصى الجنوب، ويمتد فيما وراء دنقلة حتى التقاء النيلين الأبيض بالأزرق جنوباً، والنهر في تلك المنطقة معتدل المجري، متسع الوادي، صالح للملاحة، تغمر المياه معظمه أيام الفيضان، ويعد هذا الإقليم من أخصب المناطق^(٣).

١ - محمد عوض محمد: السودان الشمالي، مكانه وقبائله، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م، ص ٢٨٥، محمد عبد العال أحمد: نفس المرجع والصفحة. انظر: الخريطة شكل (٨).

٢ - محمد عوض محمد: الشعوب والسلاسل الأفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥، ص ٢٨٥، انظر: الخريطة شكل (٨).

٣ - محمد عوض محمد: نهر النيل، الطبعة الأولى، ص ١٢٢ وما بعدها، محمد عبد العال أحمد: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص ٢٦٦، هناك اختلاف بين لفظي النوبة والنوبا، فلفظ النوبة يكون أشمل من لفظ النوبا، فهو يطلق على المنطقة الممتدة فيما بين أسوان شمالاً، ومرتفعات الحبشة جنوباً على خط يوازي موقع الخرطوم، وبين البحر الأحمر شرقاً، والصحراء الغربية غرباً، أما لفظ النوبا فيطلق على منطقة محدودة في إقليم كردفان، فهي جزء من أقاليم النوبة بمعناها الواسع. حيث توجد جبال في جنوب إقليم كردفان تعرف بجبال النوبا، والسكان الذين ينتسبون إلى النوبة يعرفون بالنوبيين (جمع نوبي) بينما سكان النوبا يعرفون بالنوباويين (جمع نوباوي) انظر: محمد عوض محمد: السودان الشمالي، ص ٢٨٨، ٢٨٩؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، الانجلو ١٩٦٠، ص ٢٠، ٢١. وأيضا المكتبة السودانية، ط جامعة القاهرة بالخرطوم، ١٩٧٢، حاشية (٢) ص ٣، بوركهات: رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان، ترجمه فؤاد اندراورس القاهرة ١٩٥٩، ص ٢٤١.

انقسمت بلاد النوبة قبيل فتح مصر إلى مملكتين : مملكة النوبة السفلى أو مملكة مقرة في الشمال^(١)، وعاصمتها دنقلة، ومملكة النوبة العليا، أو مملكة علوة^(٢). ففى الجنوب وعاصمتها سوبا^(٣)، وتتألف كل من هاتين المملكتين من عدة ممالك صغيرة، على رأس كل منها: حاكم أو ملك صغير ، يسمى بنائب الملك الكبير^(٤). ولاشك أن هذا الاندماج بين مملكتي نباتا ومقرة المتجاورتين فى مملكة واحدة على الرغم من الاختلاف المذهبي بينهما^(٥)، يدل على عدم تأثير المسيحية

١ - نتجت مملكة مقرة من اتحاد مملكتين مسيحيتين هما مملكة مقرة ومملكة نوباد يا، اللتين قامتتا على انقاض مملكة مروي النوبية القديمة التى انهارت عام ٢٥٠م على يد عيزانا ملك اكسوم، وقد تم هذا الاتحاد بين المملكتين قبيل ظهور الاسلام، أو بعده بقليل أى فيما بين عامى ٥٨٠، ٦٥٢ م، محمد بن عمر الواقدي: فتوح مصر والإسكندرية، ط ليدن ١٩٢٥م، ص ٣، مصطفى محمد سعد: الاسلام والنوبة، ص ٦٢.

Mustafa. M. Musa'ad: The Down fal of the Christian Nubian kingdoms. S. N. R. Vol. 40. 1959. P. 124. Kirwan. L.P. The International Position of the Sudan in the Roman and Nedieval Times. S. N. R. Vol Xi. 1959. P. 31.

٢ - مملكة النوبة العليا عرفها مؤرخو العرب باسم علوة، بينما عرفها مؤرخو الإغريق باسم "Nodiac" الوديا. وهى تمتد جنوبى مقرة حتى بلدة القطنية على النيل الأبيض، وعاصمتها سوبا. وتشمل هذه المملكة بعض جهات الاتبرا، والنيل الأزرق حتى حدود الحبشة، وبعض جهات كردفان، ودارفور غربا، انظر: مصطفى محمد سعد: المكتبة السودانية، حاشية (٢)، ص ٣؛

Kirwan, L.P: Notes on the topography of the Christin Nubian Kingdoms, J. E. A. XXI, 1934. P: 57.

٣ - سوبة: أو سوبا: هى عاصمة مملكة علوة المسيحية، وتقع على الضفة اليمنى للنيل الأزرق غير بعيدة عن نقطة التقانة بالنيل الأبيض. ويقال انها أنشئت على ايدى جنود أبسماتيك الفارين الى السودان فى أواخر القرن السادس ق.م. وورد ذكر سوبا لأول مرة فى لوحة تنسب الى أحد ملوك مروي سنة ٣٢٨ق.م. بمناسبة ذكرى جلوس الآلة أمون على عرش البلاد. وجد فى هذه اللوحة أقاليم البلاد ومن بينهما إقليم علوة وعاصمتها سوبا، وفى عهد مملكة مروي، احتلت مدينة سوبا المركز التجارى الثانى بعد مدينة مروي العاصمة، وهناك من يحاول الربط بين سوبا وسبا على أساس انهما من عمل السبيين وحرف أسمها من سبا إلى سوبا، انظر:

Budge. E. G. W : The Egyptian Sudan, its History and Monuments, London 1907. II. PP. 98. 151. 304.

عبد المجيد عابدين: "ميلاد سوبا" مجلة الجمعية التاريخية السودانية، المجلد الأول. الجزء الثانى.

٤ - أبو صالح الأرمنى يفرق بين هؤلاء الملوك، وملك مقرة فأطلق على الأخير لقب الملك الكبير، أما هؤلاء الملوك، الذين تحت طاعته فهم أشبه بالملكوك (جمع مك) الذين تولوا حكم الأقاليم. انظر: أبو صالح الأرمنى: تاريخه، ١٢٥.

٥ - المقرئى: الخطط:، ج١، ص ١٩٢، القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٩. المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص ٤٢٧، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج١ ص ٢٠٧، ٢٠٨.

على أهل النوبة، إذا أنه يمثل تفوقا للمذهب اليعقوبى فيها، بسبب تلاشى المذهب الملكانى، شيئا فشيئا، وخاصة بعد الفتح الإسلامى لمصر، وزاوال النفوذ البيزنطى تبعا لذلك^(١).

وقد قسمت هذه المملكة إداريا إلى ثلاثة عشر اقليما ويلقب حاكم كل منها بالملك^(٢)، ويخضع هؤلاء الحكام أو ملوك الأقاليم لكبير الملوك فى دنقله، ومن القابة ملك النوبة أو ملك الملوك، وعرفة العرب باسم عظيم النوبة^(٣)، وحكمة نافذ فى رعيته ويده مطلقة فيهم، ومن حقه أن يسترق من شاء منهم، وله ان يتصرف فى أموالهم^(٤).

ويعتبر حاكم إقليم مريس- المجاور لحدود مصر- من أهم ولاية الأقاليم، وكان يعرف بصاحب الجبل^(٥)، ويقع عليه عبأ حماية الحدود الشمالية، والدفاع عنها ضد أى غزو خارجى^(٦).

ويلاحظ ان مملكة علوة، كانت أغنى من مملكة مقرة، من حيث اتساع أراضيها وخصوبة تربتها، وكثرة أمطارها، فضلا عن كثرة فروع النيل وتشعبه بها، بالإضافة إلى مبانيها العظيمة الشيقة وبساتينها المترامية الأطراف، وكذلك كنائسها المليئة بالذهب، وجيشها العظيم، أضف إلى ذلك كله، وجود مناجم الذهب وأعداد ضخمة من السانمة^(٧). يقول أحمد بن سليم الاسوانى: " ومتملك علوة أكثر

١ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص ٢٧٤.

٢ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٠٠، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٧٥.

٣ - المقرئى: نفس الجزء والصفحة.

٤ - القزوينى: المصدر السابق، ص ٢٥ مكي شيبة: السودان عبر القرون، بيروت ١٩٦٤، ص ٢٧، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٧٥.

٥ - هو حاكم إقليم مريس الممتد من الشلال الأول إلى الشلال الثانى، وعرف أحيانا باسم صاحب مريس، اعظم ولايات مملكة النوبة السفلى، اتخذ مدينة نجرش أو بجرش "فرس الحالية" مقرا لحكمه، وله شارات خاصة انفرد بها وهى لبس العمامة ذات القرنين والسوار الذهب، وله سلطات مطلقة لا تقل عن سلطة الملك الكبير فى دنقله وذلك لاتصال ولايته بأرض الإسلام فى مصر، فكان مكلفا بالدفاع عن الحدود الشمالية للمملكة، وعدم السماح بالمرور لاي شخص كان جنوبا عن حدود ولايته الا بتصريح منه. انظر المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٠، حسن محمود: نفس المرجع، ص ٢٨٠، ٢٨١، ٢٠٨.

٦ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية، ص ٢٧٥.

٧ - المقرئى: الخطط، جـ ١ ص ١٩٢، ١٩٣، بن عبد السلام (شهاب الدين أحمد بن محمد): الفيض الميد فى أخبار النيل السعيد، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، رقم ٤٢٩، ورقة ١١٠.

مالا من ممتلك المقررة، وأعظم جيشاً، وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى، وبلد أخصب وأوسع^(١).

وكان الشعب النوبى ، فى تلك الحقبة من الزمن يدين بالمسيحية على المذهب اليعقوبى، يقول المسعودى "ولليعاقة كرسيان لاثالث لهما: احدهما بإنطاكية، والآخر بمصر، والغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كروها وما يليها من ارض النوبة والاحابش رأى اليعقوبية^(٢)". وقد أصبحت بلاد النوبة معقل المسيحية، خاصة بعد انتشار الاسلام فى مصر، وصار لكنيسة دنقلة التى عرفت بكنيسة اسوسى، شأن عظيم فى أفريقيا^(٣)، وبالتالي أصبحت بلاد النوبة هى الواسطة والصلة الروحية بين الكنيسة القبطية فى مصر وكنيسة الحبشة.

واهتمت كل من مملكتى النوبة المسيحيتين (مقرة ، وعلوة) بالحدود الشمالية، دون الجنوبية، فبينما نجد مملكة مقرة، تهتم بولاية مريس، وهى الأرض المتصلة بمصر الإسلامية، وتجعل لحاكمها، الذى أطلق عليه مؤرخو العرب اسم صاحب الجبل سلطات واسعة لكونه حارسا للحدود الشمالية^(٤)، ونجد مملكة علوة توجه اهتمامها أيضا بحدودها الشمالية، التى كانت تعرف بالأبواب، وهى الأرض المتصلة بمملكة مقرة، وتطلق لصاحبها سلطات مطلقة أيضا، شأنه فى ذلك شأن صاحب الجبل: فأقليم الجبل بمثابة خط الدفاع الأول لمملكة مقرة من الشمال ، بينما إقليم الأبواب^(٥)، بمثابة خط الدفاع الأول بالنسبة لمملكة علوة من الشمال أيضا. يقول احمد بن سليم الاسوانى عن ولاية مريس: "ولهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة، يعرف بصاحب الجبل، وهو من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام^(٦). اما عن الأبواب فيقول أيضا: " وأول بلاد علوة قرى فى الشرق على

١ - المقرئى: الخطط ج ١ ص ١٩٣.

٢ - المسعودى: التنبيه والإشراف، ص ١٥١.

٣ - أنظر: حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ص ٢٠.

٤ - المقرئى: الخطط ج ١، ص ١٩٠، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ص ٨٧.

٥ - عرف صاحب الأبواب، لدى بعض المؤرخين العرب المسلمين باسم الرحراح أو الوحواح، انظر:

المقرئى: الخطط ج ١، ص ١٩٠، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ص ٨٥-٨٧، امتداد الإسلام

والعروبة إلى وادى النيل الأوسط (مملكة علوة) المجلة التاريخية المصرية، العدد الثامن ١٩٥٩، ص ٨٧.

٦ - المقرئى: الخطط ج ١، ص ١٩٢.

شاطيء النيل، تعرف بالأبواب ، ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح^(١).

هكذا نظمت مملكة مقرة خط دفاعها الأول ونقصد هنا ولاية الجبل، وذلك خشية تعرضها لهجمات من ناحية الحدود الشمالية من مصر.

أما العلاقات بين الجزيرة العربية وبلاد النوبة، فهي تدخل في إطار العلاقات العربية الأفريقية، فقد ارتبطت المناطق الواقعة على شاطئ البحر الأحمر بعلاقات قديمة، ولم يكن هذا البحر حائلا أمام الاتصال بين جزيرة العرب وساحل أفريقية الشرقى، فكان عرب جنوب الجزيرة على درجة كبيرة من الخبرة البحرية، بحكم نشأتهم في الموانئ الممتدة على طول سواحل تلك البلاد، وتحكمهم في طرق تجارة الشرق، ومساهماتهم في حركة التبادل التجارى بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور وعرفت سفن الممالك القديمة كسبأ وحمير وحضرموت طريقها عبر البحر الأحمر إلى الساحل الأفريقى، حاملة السلع المحلية وغيرها من سلع المشرق لمبادلتها بأنواع التجارة الأفريقية كالعاج والرقيق وزيت النخيل وغيرها^(٢).

ويشير بعض المؤرخين إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون فى وادى النيل الأوسط، وشمال أفريقيا، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت فى بلاد النوبة وأرض البجة، وشمال أفريقيا^(٣). واستقر أيضا الحدارب وهم الحضارمة - أى سكان حضرموت - بين البجة فى القرن السادس الميلادى^(٤)، وتمكن هؤلاء الحضارمة من خلال زواجهم ببنات زعماء البجة ونظام الأمومة فى وراثة العرش من تولى زعامة قبائل البجة، واكتسب الحضارمة بوجودهم فى

١ - المصدر نفسه، والجزء، والصفحة.

٢ - محمد عبد العال: نفس المرجع ص ٢٧٦، حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، ط الثالثة ١٩٨٤م، ص ٢٦، محمد محمد أمين: تطور العلاقات العربية الأفريقية، ص ٤٥، ٥٧، ٥٨، محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص ٣٣-٣٥.

MacMichael, H. A: A history of the Arabs in the Sudan, I PP. 3-4.

٣ - ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ١٧٦، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٠٧، ١٠٨، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٧٧.

MacMichael. : OP. Cit. PP. 7-8.

٤ - عبد المجيد عابدين: نظرات عامة فى تاريخ تعريب السودان، الخرطوم ١٩٥٩، ص ٤٨.

هذه المنطقة الشخصية البجاوية، وتعلموا لغتها وعاداتها واعتنقوا الدين المسيحي أيضا^(١).

وشهدت بلاد النوبة بعد ظهور الإسلام زيادة كبيرة في عدد القبائل العربية التي هاجرت إليها، واستخراج المعادن واستطاعت في هدوء أن تنتشر الإسلام والثقافة العربية^(٢).

ومن المعروف أن العرب استخدموا المسالك الأفريقية المقابلة، ثم أضاقوا إليها - بعد فتح مصر - أكثر من مسلك تجاه الغرب والجنوب، فبعد أن تدفقت جموع العرب إلى مصر، اندفعت إلى المناطق التي تم فتحها^(٣)، وكان الموقف آنذاك يتطلب العمل على تأمين ما تم من فتوحات، وخاصة بعد انسحاب البيزنطيين إلى مصر، باعتبارها الملجأ الطبيعي بعد فقد الشام^(٤).

وكان على المسلمين في نفس الوقت أن يستثمروا انتصاراتهم، بتعقب الفارين والوصول بالفتوحات غربا إلى مصر، ولذلك سارع عمرو بن العاص بجيشه إليها، ويشير الواقدي إلى استتجاد المقوقس بملك النوبة^(٥)، إلا أن الملك المذكور لم يتمكن من إرسال المطلوب لوقع خلاف بينه وبين ملك البجاه، وقيل بل توجه كل من ملكي النوبة والبجة على رأس جيش كبير للمشاركة في فك الحصار الإسلامي عن البهنسا^(٦).

١ - بوركيات: رحلاته، ص ص ٢٤٨، ٢٤٩.

Paul, A. : 'The Hadareh, A study in Arab-Beja relationships, S N R. XL, P. 75.

٢ - ولهذا لم يكن غريبا أن نلاحظ في تقسيم اركل لتاريخ السودان أن منذ أقدم العصور حتى سنة ١٨٢١م أن ينتقل بعد حنيته عن سقوط مروي إلى الحديث عن مجيء الإسلام من سنة ٦٠٠ إلى سنة ١٥٠٠.

C. F: Arkell, A.J.: A history of the Sudan from the earliest times to 1821. Lonon. 1955.

3 - El Mahadi Mandour: A Short history of the Sudan Oxford University Press. London. 1965, P. 31.

٤ - الواقدي: فتوح مصر والإسكندرية، ص ٥٧، ٦٠.

٥ - الواقدي: فتوح مصر والإسكندرية، ص ٥٧، محمد عبد العال: نفس المرجع ص ٢٧٨، ٢٧٩، فيما يتعلق

بموضوع طلب المساعدة من ملك النوبة وملك البجاه، فليس لدينا سوى الرواية التي أوردها الواقدي، وهناك

من الشواهد ما يدل على أن لهذه الرواية أساسا تاريخيا، فقد ورد في كتاب Budge, E.A.W: The Egyptian

Sudan, II, P. 1480, نقلا عن وثائق البهنسا Oxyrhynchus أن جيشا كبيرا من البجة والنوبة - بقيادة

ماكسوح ملك البجة، وغاليق ملك النوبة - قدم إلى المساعدة إلى الحملة النوبية البجاوية المشتركة، وعدد القبله

بها، فإن كثرة الشواهد التاريخية لاتدع مجالا للشك بشأن ما ورد في هذه الرواية.

6 - Budge: The Egyptian Sudan. Vol. II, P. 1840.

مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، (حاشية ١) ص ٤.

فلما تم فتح مصر، نصت معاهدة الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس فيما يلي يتعلق بالمصريين، بالألا "يساكنهم النوبة" ونصت في نفس الوقت على أن من يدخل في الصلح من "الروم والنوبة فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى وأختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا .. وعلى النوبة الذين استجابوا، أن يعينوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا، على ألا يغزو أو يمنعوا من تجارة صادرة أو واردة"^(١).

وهكذا أجرى المسلمون من دخل في صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر، من تأمينهم على أنفسهم وأموالهم ونمتهم وكنائسهم، إلا من اختار الذهاب منهم، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه^(٢)، كما تعهد المسلمون بحماية مصر وأهلها من الاغارات، ومنها اغارات أهل النوبة^(٣)، ذلك أن النوبيين كانوا ينظرون إلى مصر - ذات الخيرات على أنها غنيمة لهم، مثلما كانت لإبائهم وأجداهم من قبل، ولذلك لم يكن في الامكان أن يتوقف النوبيون عن الإغارة على مناطق مصر الجنوبية^(٤)، ولهذا كان العمل من أجل فتح تلك البلاد لوقف الاغارات، وتأمين الحدود، وتيسير وصول الدعوة الإسلامية إليها، وضمان انتظام الحركة التجارية الصادرة من مصر والوردة عبر أراضي النوبة، حيث كانت السفن تحمل المقادير الكبيرة من الذهب والعاج وغيرهما عبر تلك الاراضي^(٥).

ونتيجة للاغارات التي شنها النوبيون على صعيد مصر، وما ترتب على ذلك من تأثر الحركة التجارية، أن أستاذ عمرو بن العاص من الخليفة عمرو بن

١ - ابن كثير: البداية والنهاية، ط السعادة، جـ ٧، ص ٩٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ٢٤، ٢٥، القلقشندي: صبح الاعشى جـ ١٣، ص ٣٢٤، الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٢، ص ١٩٩-٢٠٠، ابن خلدون: العبرة، ق ٥، ٢، ص ٩٧١، الشاطر بصيلي: معالم تاريخ السودان وادى النيل، ط الأولى القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٤١، محمد عبد العال: نفس المرجع السابق، ص ٢٧٩.

2 - Chronique de Jean, PP. 446- 447.

الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٣، ص ١٩٩-٢٠٠، ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، ص ٣٩٦، محمد عبد العال: نفس المرجع السابق، ص ٢٧٩-٢٨٠.

٣ - بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٩، محمد عبد العال: نفس المرجع السابق، ص ٢٨٠.

٤ - بتلر: المرجع نفسه: ص ٢١٦، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١١١.

٥ - أبى الفدا: المختصر، ص ٩٦، بتلر: مرجع سابق، ص ٨٣.

الخطاب لتوجيه الحملات إلى بلاد النوبة لوقف الاعتداءات النوبية وتأمين الحدود وفتح الطرق التجارية النهرية والبرية عبر تلك البلاد، والدعوة إلى الإسلام^(١).

قال البلاذري: "لما فتح المسلمون مصر، بعث عمرو بن العاص إلى القرى التي حولها الخيل ليطأهم، فبعث عقبة بن نافع الفهري، وكان نافع أخا العاص لأمه - فدخلت خيولهم أرض النوبة، كما تدخل صوائف الروم، فلقى المسلمون بالنوبة قتالا شديدا، لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فأنصرفوا بجراحات كثيرة، وحقن مقلوبة، فسموا رماة الحقن^(٢)."

وقال ابن عبد الحكم: "وبعث عمرو بن العاص نافع بن عبد القيس الفهري، وكان نافع أخا العاص ابن وائل لأمه - فدخلت خيولهم أرض النوبة، صوائف كصوائف الروم، فلم يزل الأمر على ذلك، حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر^(٣)."

وقال المسعودي: "وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لما افتتح عمرو بن العاص مصر، كتب إليه بمحاربته النوبة، فغزاهم المسلمون فوجدوهم يرمون بالحقن، وأبى عمرو بن العاص أن يصلحهم حتى صرف عن مصر^(٤)."

وذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٠هـ، أنه "لما فتحت مصر غزوا النوبة، فرجع المسلمون بالجراحات، وذهب الحقن لجودة رميهم، فسموهم رماة الحقن^(٥)."

وقال القلقشندي: "قلما فتح عمرو بن العاص مصر غزاهم^(٦)" وذكر الطبري في حوادث سنة ٢٠ هـ، : أن المسلمين لما فتحوا مصر غزوا نوبة مصر، فقتل المسلمون بالجراحات وذهب الحقن من جودة الرمي، فسموا رماة الحقن^(٧).

١ - المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٤٤١، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٠، مكي شيك: السودان عبر القرون، ص٢٩، الشاطر بصيلي: معالم تاريخ السودان وادي النيل، ص٤٢.

٢ - البلاذري: فتوح البلدان، ج١، ص٢٣٨، ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ط لين، ١٩٦٧، ص٨٢، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨١.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٦٩، ١٧٠. محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٨١، ٢٨٢.

٤ - المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٤٤١، الحميري: الروض المعطار، بيروت ١٩٧٥، ص٢٣٧.

٥ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٩٧، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٢.

٦ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٧٦، محمد عبد العال: نفس المرجع السابق ص ٢٨٢.

٧ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٢٠٥، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨١.

أما المقرئى، فيقول أن " أول ما تقرر هذا البقط فى إمارة عمرو بن العاص، لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين، وقيل سنة إحدى وعشرين، فى عشرين ألفاً، فمكث بها زماناً، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه^(١)."

وبعد استعراض تلك النصوص الخاصة بحملة النوبة الأولى، يتضح أنها لاتعطى تصوراً كاملاً عنها، فقد أغفلت كل ما يتعلق بإعداد الحملة وحجمها، وخط سيرها، وما إذا كانت برية ونهرية، أم برية فقط، ومدى توغلها فى عمق البلاد، وموقع المعركة، كما اختلف المصادر حول تحديد شخصية قائد الحملة، وخلصت بعض المصادر بين هذه الحملة وبين حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م^(٢). إذ جعل المقرئى تقرير البقط فى الحملة الأولى، أى فى ولاية عمرو بن العاص، وفى خلافة عمر بن الخطاب^(٣).

وعلى ضوء طبيعية المرحلة وسياسة الفاتحين خلالها، وحجم القوة العسكرية فى مصر وقتذاك، وضرورة المحافظة عليها، وعدم إضعافها بتشتيتها فى جيّهات متعددة، فانه يمكن القول بأن المحاولات الأولى لفتح النوبة، وبعد أن استهدفت تحقيق الهدف الأساسى من الفتوحات، من إتاحة الفرصة لتعامل الإسلام مباشرة مع شعوب تلك المناطق، ووصول الدعوة إليهم، إلا أن ذلك كان مرتبطاً بمدى ما يمكن إعداده من قوة قادرة على الفتح واستكمال^(٤).

فقد كان على القوات الإسلامية فى مصر تثبيت الوجود الإسلامى فيها، إذ لم تكن هذه الحملات العربية الأولى تريد زحفاً جاداً نحو البلاد النوبية، فعمرو بن العاص لم يكن يطمع فى أكثر من تأمين حدود مصر الجنوبية، أو تعقب بعض الفارين من الجنود أو القواد البيزنطيين، ولعلها كانت حملة استكشاف تريد أن تستطلع الأحوال فى أقصى الصعيد^(٥).

١ - المقرئى: الخطط، ج١، ص ٢٠٠.

٢ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص ٢٨٢.

٣ - المقرئى: الخطط، ج١، ص ٢٠٠.

٤ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٢، انظر: الخريطة (ملحق الدراسة) شكل (١)، (٢).

٥ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج١ ص ٣٠٩، عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، ج١، ص ٢٢٩، انظر الخريطة شكل (١).

ويذكر المقرئى^(١) أن جيش المسلمين لبلاد النوبة بلغ عشرين ألف مقاتل وهذا العدد مبالغ فيه للأسباب التالية:

- أن جيش المسلمين فى الفتح لمصر بلغ أربعة آلاف مقاتل فى البداية، ثم وصل المدد فيما بعد، فوصل إلى اثنى عشر ألفاً^(٢).
- تموين وتغذية عشرين ألف جندي فى ذلك الوقت، وفى هذه المنطقة البعيدة أمر عسير.

- لا يعقل الا يستطيع هذا العدد الانتصار نهائيا على النوبة، وينتهى الأمر بمجرد عقد صلح، لم يذكر فيه المنتصر، ولم يتحدد فيه قدر المال الذى يدفع له^(٣).

- كل هذا ينفى ما ذكره المقرئى من أن الحملة الأولى على النوبة كانت تتكون من عشرين ألفاً، وإنما كانت تتكون من عدد محدود من الفرسان^(٤).

ويؤيد ذلك ما ذكرته المصادر من أن أولى الحملات التى قادها عمرو بن العاص لفتح برقة، وهى فى حدود الفترة التى وجهت فيها حملة النوبة الأولى، كانت من الفرسان^(٥)، وهذا يعنى أنها كانت قليلة العدد رغم احتمالات المخاطر من جهة البيزنطيين فى الجهة الغربية^(٦).

وعلى ذلك، فإن تلك الحملة وغيرها فى كل من الجهتين لم تكن كافية بحيث يمكن تأمين ما تحققة من فتوحات، وضمان استمرار تبعية ما تفتحه بترتيب الحاميات الكافية الدائمة فيها، إذ أن صغر حجم الحملات حتم عودتها إلى قواعدها بعد كل حملة بمجرد القيام بها بما أعدت له، ودون ترك حاميات فى المناطق التى تم فتحها، مما يدل على أن الحملات الأولى لم تكن سوى حملات استطلاعية محدودة العدد، تتكون كل منها من مجموعة قليلة من الفرسان^(٧).

١ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٠٠.

٢ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٥٦، الكندى: الولاة، ص ٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ٥، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ٩٥.

٣ - شوقى الجمل: تاريخ سودان وادى النيل، ط الأنجلو ١٩٦٩، ص ٢٣١.

٤ - البلائرى: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٢٣٨، محمد عبد العال: نفس المرجع ص ٢٨٣.

٥ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٧٠، ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار المغرب، طبعه برفنسال، ص ٨.

٦ - محمد عبد العال: مرجع سابق، ص ٢٨٣-٢٨٤.

٧ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص ٢٨٤.

وإذا كانت المصادر لم تنص على خط سير الحملة، وبيان مدى توغلها، أو تحديد موقع المعركة، فإنه يمكن القول بأن الحملة كانت برية لكونها من الفرسان، وأنها استهدفت المواقع القريبة من حدود مصر الجنوبية فيما يلي أسوان وما حولها، حيث كانت الاغارات النوبية تتطلق منها. وعلى ذلك لم تكن المعركة تبعد كثيرا من حدود مصر^(١). يؤيد ذلك ما ذكره الطبرى^(٢)، من أن الغزوة كانت لنوبة مصر، أى منطقة النوبية القريبة من مصر، مما سهل للحملة مهمة الانسحاب والعودة بعد أن أصيب بعض أفرادها بجراحات وحقق مفقوءة، لتضع بين يدي عمرو بن العاص تقريرا عن صورة الموقف، وأسباب إخفاق الغزوة التى ترجع إلى قلة عدد الفرسان، مع كثرة عدد النوبيين وشدة مقاومتهم، ومهارتهم فى الرمي بالسهم^(٣).

لم تكن المعركة معركة التحام بين القوتين، ليظهر المسلمون براعتهم فى القتال بالسيوف، ولكن لعدم خبرة النوبيين بالفروسية، عملوا على ان تكون المعركة بالأسلوب الذى يجيدونه مما جعل من التعذر أن تكون المعركة معركة فروسية بالسيف، فظهرت براعة النوبيين فى الرمي بالسهم، وقدرتهم على إصابة الهدف، إذ كانوا يصوبون سهامهم إلى عيون مقاتلى المسلمين فيصبونها فى دقة تامة^(٤).

ويمدنا البلاذرى برواية أسندها إلى من رواها عن واحد ممن شارك فى تلك المعركة^(٥)، قال: "شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب، فلم أر قوما أحد فى حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمى منك؟ فربما عبث الفتى منا فقال: فى مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبل، فما يكاد يرى من نبلهم فى الأرض شىء. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم. رمونا حتى ذهب الأعين، فعدت مائه وخمسون عينا مفقوءة. فقلنا، ما لهؤلاء خير من الصلح،

١ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٤.

٢ - الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٠٥.

٣ - البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٨، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٥.

٤ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٥.

٥ - البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٨.

أن سلبهم لقليل، وان نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل يكالبهم حتى نزع^(١).

أما ما ذكره المقرئزى من ان تقرير البقط على النوبة كان نتيجة لتلك الحملة^(٢)، فان المصادر الأقدم لم تتحدث عن ذلك، وكلها تشير إلى اضطرار الحملة إلى الانسحاب والعودة لشدة مقاومة النوبيين^(٣)، وهو موقف لا يمكن القول بأنه من الممكن أن يتقرر البقط نتيجة له، اللهم إذ كان المقصود ما ورد عن النوبيين فى معاهدة الصلح التى عقدها عمرو بن العاص مع المقوقس عند فتح مصر، إلا ان المقرئزى ينص على ان تقرير البقط كان نتيجة للحملة الأولى على بلاد النوبة^(٤).

ومن ناحية أخرى فان استمرار عمرو بن العاص فى إرسال فرسان المسلمين إلى النوبة صوائف كصوائف الروم^(٥)، ورفضه مصالحة النوبيين إلى أن صرّف عن مصر، فان فى ذلك دليل على استمرار الغزوات، على هيئة صوائف طيلة ولاية عمرو بن العاص إلى أن كانت حملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م^(٦).

وقد تضاربت المصادر حول شخصية قائد هذه الحملة، وأشارت الى ثلاث شخصيات: عبدالله بن أبى السرح^(٧)، أو عقبة بن نافع^(٨)، أو والده نافع بن عبد القيس الفهرى^(٩).

١ - المصدر نفسه، الجزء، ص ص ٢٣٨، ٢٣٩.

٢ - الخطط، ج ١، ص ٢٠٠، حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، ص ١٢٩.

٣ - فتوح البلدان: ج ١، ص ٢٣٨، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج ٢، ص ٣٩٧، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١ ص ٣٠٧، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٦.

٤ - الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣ ص ١٩٩-٢٠٠، ابن كثير البداية والنهاية، ج ٧، ص ٩٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٤، ٢٥، القلقشندى: صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٣٢٤، ابن خلدون: العبر، ق ٥، م ٢، ص ٩٧١، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٦.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٧٠، ١٨٨، ١٨٩، البلائزى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٨.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨، ١٨٩، البلائزى: نفس المصدر، ص ٢٣٩، المسعودى: موج الذهب، ج ١، ص ٤٤١، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٦.

٧ - المقرئزى: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠، عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ١٩٥٣، ص ٣٥.

٨ - البلائزى: نفس المصدر، ج ١، ص ٢٣٨، قدامه: الخراج، ص ٣٥٢.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٩، ١٧٠.

ففيما يتعلق بعبد الله بن سعد الذي ذكر المقرري في انه قاد الحملة، فمن الثابت انه خلط بين هذه الحملة وبين حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ. وإذا ثبت اشتراك عبدالله بن سعد في حملة النوبة الأولى فمن المرجح أنه كان واحداً من أفرادها وليس قائداً لها^(١).

أما عقبة بن نافع، فقد أشارت المصادر الى انه قاد حملات أخرى منذ بدايته المحاولات الأولى لفتح المغرب سنة ٢٢هـ/٦٤٣م^(٢).

ولما كانت المصادر قد حددت في نفس الوقت مولد عقبة في السنة العاشرة للهجرة، أي قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بعام تقريباً^(٣)، فانه يكون في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره أثناء حملة النوبة الأولى على أكثر تقدير، أي أنه لم يكن في سن تسمح له بإسناد قياد الحملة إليه، وخاصة أنها كانت موجهة لمناطق تكاد تكون مسالكها وطبيعتها مجهولة بالنسبة للعرب وان اقتضت مهمتها خلال تلك المرحلة على الاستطلاع، إلا أن ذلك لا يمنع من مصاحبة عقبة لابييه الذي كان قائداً للحملة^(٤)، وهذا ما ذكره ابن عبد الحكم^(٥)، اذ نص صراحة على ان الحملة كانت بقيادة نافع بن عبد القيس^(٦)، وقد نسبت المصادر ذلك إلى عقبة، لما اشتهر بعد ذلك باعتباره من كبار قادة الفتوحات في بلاد المغرب، فخلطت المصادر ونسبت قيادة تلك الحملة وغيرها من الحملات العسكرية إليه^(٧).

أما عن حملة عبدالله ابن سعد على النوبة، فتجمع المصادر على أنها كانت سنة ٣١هـ/٦٥٢م^(٨). إلا أن بعضها لم يشر إلى الحملة الأولى، وأعتبر ان حملة

- ١ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص ٢٨٧.
- ٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٩٤، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٧.
- ٣ - ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ١٩، محمد عبد العال، نفس المرجع، ص ٢٨٧.
- ٤ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٧-٢٨٨.
- ٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٩، ١٧٠.
- ٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٩، ١٧٠.
- ٧ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص ٢٨٨.
- ٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨، ١٨٩، ياقوت: معجم البلدان، مادة د مقله، ابن ابيك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ، ج ٨، ص ٢٠١، المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٤١، المقرري: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٨.

عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ، هي أولى الحملات التي وجهها المسلمون التي بلاد النوبة، قال ابن أبيك أن "أول ما غزيت النوبة سنة إحدى وثلاثين للهجرة النبوية^(١)".

ولا شك أنه فيما سبق توضيحه ما يكفي لتأكيد أن حملة ابن سعد لم تكن أولى الحملات على النوبة، وأن بداية محاولات فتحها كانت سنة ٢٠، أو ٢١هـ/٦٤١ أو ٦٤٢م، أي بعد فتح مصر مباشرة^(٢).

ونظرا لأن المصادر لم تشر الى حملات أخرى بين الحملة الأولى وحملة ابن سعد، أي لفترة تزيد عن عشر سنوات، فقد تبادر إلى الأذهان أن الحملات توقفت خلال تلك الفترة^(٣). وقد يؤيد ذلك ما ذكره القلقشندي - نقلا عن الروض المعطار - من أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قصد قتال النوبة، فراهم يرمون الحديق بالنبل، فكف عنهم، وقرر عليهم إتاوة من الرقيق في كل سنة^(٤).

ولا شك أن رواية القلقشندي فيها خلط بين الحملة الأولى والثانية على سبيل أن جعل الحملة الأولى بقيادة عمرو بن العاص، وأن من نتائجها تقرير إتاوة سنوية من الرقيق تقدمها النوبة، الأمر الذي يجعل من الحكمة عدم الأخذ بها، اللهم إذا كان المقصود حملة عبدالله بن سعد التي لم تكن في عهد عمرو^(٥).

ومما يزيد الشك في رواية القلقشندي، ما أورده في صفحة سابقة، جاعلا الحملة بقيادة عمرو بن العاص أيضا، إذا ذكر لما فتح عمرو بن العاص مصر قام بغزو النوبة، وأورد القلقشندي نصا نقلا عن الروض المعطار جاء فيه، "فراهم يرمون الحديق بالنبل، فكف عنهم، وقرر عليهم إتاوة في كل سنة^(٦)" وبمقارنة ما ذكره صاحب الروض المعطار يتضح اختلاف ما أورده القلقشندي حيث ذكر الحميري "ولما افتتحت مصر أمر عمر رضى الله عنه أن تغزى النوبة، فوجدهم

١ - كنز الدرر: ج٨، ص ٢٠١، ٢٠٢، ياقوت: معجم البلدان، مائتي د مقلة والنوبة، الدمشقي: نخبة الدهر، ص ٢٦٩.

٢ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٩.

٣ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٩.

٤ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٥، ص ٢٧٨.

٥ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨٩.

٦ - صبح الاعشى: ج٥، ص ٢٧٦، محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص ٢٩٠.

المسلمون يرمون الحق، فذهبوا إلى المصالحة، فأبى عمرو بن العاص رضي الله عنه من مصالحتهم حتى صرف عن مصر ووليها عبدالله بن سعد بن أبى سرح سنة إحدى وثلاثين^(١).

وهكذا يتضح أن صاحب الروض المعطار لم ينص على توقف الحملات أو المصالحة أو التوصل إلى تقرير شيء على النوبة في عهد ولاية عمرو بن العاص على مصر^(٢)، ففي رواية البلاذري بسنده عن شيخ من حميرة، ما يدل على استمرار الحملات، إذا قال الشيخ: شهدت النوبة مرتين في ولاية عمرو بن الخطاب^(٣).

كما تشير نصوص أخرى إلى عدم مصالحة عمرو بن العاص للنوبة، وأن كتائب الفرسان استمرت في الوصل إلى النوبة بعد الحملة الأولى، صوائف كصوائف الروم، "ولم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر، وأمر عبد الله بن سعد، فصالحهم"^(٤).

وهكذا يتأكد أن حملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م، لم تكن أولى الحملات التي وجهها العرب إلى النوبة، وأن الحملة الأولى كانت سنة ٢٠هـ أو ٢١هـ/٦٤١-٦٤٢م، وأن كتائب فرسان المسلمين لم تتوقف عن الوصول إليها، وأنها استمرت حتى بعد عزل عمرو وولاية ابن سعد، الذي بدأت ولايته على مصر سنة ٢٥هـ/٦٤٤م^(٥).

كانت هذه الحملات الاستطلاعية سرايا للاستكشاف تخرج بناء على أوامر من الخليفة طبقا لسياسة مرسومة مثلما حدث من استئذان عمرو بن العاص الخليفة في

١ - الحميري: الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مادة مقلّة، ص ٢٣٧، محمد عبد العال: نفس المرجع ص ٢٩٠.

٢ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٠.

٣ - البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٨؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٠-٢٩١.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٦٩، ١٧٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٨؛ المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٤١؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٣٥٢؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩١.

٥ - بن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج ١، حوادث سنة ٢٥هـ وجعلها ابن الأثير سنة ٢٦هـ. انظر: الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٢٦هـ؛ محمد عبد العال، نفس المرجع، ص ٢٩١.

إعداد الحملات^(١) على مصر والنوبة^(٢) وبلاد المغرب^(٣).

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان، استقرت الفتوحات الإسلامية، وزاد عدد المسلمين بإقبال أهالى البلدان على اعتناق الاسلام، وبالنسبة لبلاد النوبة فيبدو ان السرايا الاستطلاعية أدت مهمتها، وتوفرت المعلومات عن تلك البقاع، ولكن كثرت الاغارات النوبية على صعيد مصر، وقام النوبيون خلالها بالسلب والنهب والتخريب^(٤)، توفرت الأسباب الموجهة لإعداد حملة كبيرة لوضع حد لتلك الأعمال^(٥).

ففى سنة ٣١هـ/٦٥٢م توجه عبدالله بن سعد على رأس حملة احكم أعدادها إذ كانت تتكون من خمسة آلاف فارس^(٦)، مزودين بالمؤن والسلاح والآت الحصار واتخذ طريقه عبر أراضى النوبة متوغلا إلى مدينة دنقلة عاصمة مملكة النوبة الشمالية مقرة^(٧).

ولتلافى الوقوع فى مرمى سهام النوبيين، قام عبدالله بن سعد بفرض الحصار على العاصمة النوبية، واستخدم المنجنيق فى قصفها، فخربت قذائفه كثيرا من الدور، ومنها كنيسة المدينة، وعندئذ فوجيء ملك النوبة قليد ورث بهذا الأسلوب الحربى الذى لم تعهده النوبة من قبل^(٨)، وأسقط فى يده واضطر اى الإسراع فى طلب الصلح حتى لاتؤخذ بلاده عنوه^(٩).

ويشير المقرئى الى طلب الصلح بعد أن عجزت مقدرتهم الحربية بقوله: "وطلب ملكهم واسمه واسمه قليدورث الصلح، وخرج إلى عبدالله، وأبدى ضعفا

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٥٦، ٥٧، ٥٨، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ج ١، ص ٨٦.

٢ - المسعودى: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٤١.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٩٤، ابن عذارى: البيان المغرب، ج ١، ص ٨.

٤ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١١.

٥ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٢.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨.

٧ - الذهبى: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦ تاريخ، ج ٢٩، ص ١٢٨. عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، ج ١، ص ٢٣٠، انظر: الخريطة بملحق الدراسة شكل رقم (٢).

٨ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠، محمد عبد العال: مرجع سابق، ص ٢٩٣.

ومسكنه وتواضعا فلتقاء عبدالله ورفع وقربه، ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة وستين رأسا في كل سنة، ووعد عبدالله بحبوب يهديها إليه لما شكا له قله الطعام ببلده^(١).

قال ابن عبدالحكم ومن نقل عنه، " أنه أصيبت يومئذ عين معوية بن حديج وأبى شمر ابرهه (الصباح) وحيويل بن ناشرة، فيومئذ سموا رماة الحدق فهادنهم عبدالله بن سعد إذ لم يطقهم، غير ان إصابة عيون المقاتلين، وتسمية النوبيين برماة الحدق، إنما كان في الحملة الأولى، حيث فوجيء المسلمون وقتذاك ببراعة النوبيين المتتاهية في إصابة الهدف بالسهم من بعيد، لذلك لم يتمكن المسلمون آنذاك من الالتحام بهم لمقاتلتهم بالسيوف^(٢).

أما في هذه المعركة، فان الحصار الذي فرضه المسلمون على العاصمة، واستخدام المنجنيق في ضربها، فوت الفرصة على النوبيين في استخدام السهام، لبعد المسلمين عن مرماهم، ولهذا عجزوا عن مدافعة المسلمين، وأيقنوا بالهلاك، وخرج ملكهم خاضعا طالبا الصلح، وهو أمر لا يحدث إذا كان النوبيون قد تمكنوا من استخدام سهامهم في هذه الحملة^(٣)، يؤيد ذلك ما ذكره كل من البلاذري، وابن خرداذبة والطبري والمسعودي وابن الأثير، من ان إصابة عيون المقاتلين كانت في الحملة الأولى ولم يشر أى من هؤلاء إلى تكرار ذلك في حملة عبدالله بن سعد المشار إليها^(٤).

وهكذا تحقق النصر للمسلمين في هذه المعركة، بعد ان ضعفت عزائم النوبيين وعجزوا عن الدفاع عن مدينتهم، ولهذا أسرع ملكهم إلى طلب الصلح قبل ان تفتح مدينته عنوة، أما استجابة ابن سعد له، فتنفيد قول الله سبحانه وتعالى: "وإن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ"^(٥).

١ - المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٢٠٠؛ محمد عبد العال: مرجع سابق، ص ٢١٣.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨، قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٣٥٢؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٣-٢٩٤.

٣ - محمد عبد العال: مرجع سابق، ص ٢٩٤.

٤ - البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٢٣٨، ٢٣٩، المسالك والممالك، ص ٩٢، تاريخ الرسل والملوك،

جـ ٣، ص ٢٠٥، مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٤١، الكامل في التاريخ، جـ ٢، ص ٣٩٧.

٥ - سورة الأنفال، آية ٨.

قال البلاذرى: ان النوبيين سألوا ابن سعد "الصلح والمواذعة فأجابهم^(١)" وقال: "حدثنا عبدالله بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب، قال: ليس بيننا، وبين الأساود عهد ولا ميثاق أنما هى هدنة بيننا وبينهم^(٢)، على أن نعطيهم شئيا من قمح وعدس ويعطونا رقيقا فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم^(٣)."

وقال ابن عبد الحكم ومن نقل عنه: "وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق أنما هى هدنة أمان بعضنا من بعض^(٤)" على أن "لنقاتلهم ولا يقاتلونا، وأن يعطونا رقيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعاما^(٥)".

أما عن نص كتاب عبدالله بن سعد لملك النوبة ، فقد أورد ابن عبدالحكم بعضا منه، قال: ويقال فيما ذكر بعض المشائخ المتقدمين أنه نظر فى بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن ينحزق، فإذا هو يحفظ منه، أنا عاهدناكم وعاهدناكم ان توفونا فى كل سنة ثلثمائة رأس وستين رأسا، وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم، على أنكم أن قتلتم من المسلمين قتيلا فقد برئت منكم الهدنة، وعلى أن اويتم للمسلمين عبدا فقد برئت منكم الهدنة وعليكم رد أباق^(٦) المسلمين ومن لجأ إليكم من أهل الذمة^(٧)."

أما النص الكامل لكتاب عبدالله بن سعد، فقد أورد المقرئى فى خططه وأن كان قد أغفل ذكر مصدره، ونصه بعد البسملة كالآتى: "عهد من الامير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة، ان عبد الله بن سعد

١ - فتوح البلدان: جـ ١، ص ٢٢٨، وانظر ياقوت: معجم البلدان، مادة د مقله، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٥.

٢ - الأساود: ذكر ابن عبد الحكم ثم غزا عبدالله بن سعد الأساود وهم النوبة فتوح مصر، ص ١٨٨، وانظر محمد عبد العال: ص ٢٩٥.

٣ - فتوح البلدان: جـ ١، ص ٢٢٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨، ياقوت: معجم البلدان، مادة د مقله.

٥ - البلاذرى: المصدر نفسه، والصفحة، وانظر: ابن عبد الحكم: نفس المصدر، والصفحة، ابن الأثير: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٢٩٧، قدامة بن جعفر الخراج، ص ٢٥٢.

٦ - أبى: خارج على القانون - هارب.

٧ - فتوح مصر، ص ٢٥٤. محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٥-٢٩٦.

جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمت على الشرائط التي بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين فيه، ندخل بلكم مجتازين غير مقيمين فيه. وعليكم حفظ من نزل ببلادكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وأن عليكم رد كل أبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه^(١). وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلياً، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمه. وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين، من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان، وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم أويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذي أبتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. علينا بذلك عهد الله وميثاقه ودمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك^(٢).

كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين^(٣).

ويتضح من النص الكامل للكتاب الحقائق التالية^(٤):

١ - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠.

C.F: MacMichael H. A: Op. Cit. PP., 157-158:

محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

٢ - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠.

٣ - ابن الأثير: نفس المصدر، نفس الصفحة، وإن اختلف وأمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من الولاة والأمراء.

٤ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

- أمان لمملكة النوبة الشمالية (مقرة) ، هدنة بين المسلمين وبين تلك المملكة فقط إلى حد أرض علوة (المملكة الجنوبية) أى انه لم يتضمن مملكة علوة.
- ضمان لحرية دخول المسلمين والنوبيين كل إلى بلد الآخر غير مقيمين وأن يحفظ النوبيون من يصل إلى بلادهم من مسلم أو معاهد حتى يخرج.
- عدم إيواء مسلم محارب للمسلمين، أو الفارين من عبيد المسلمين.
- القيام بحفظ المسجد الذى أقامة المسلمون بدنقله، والتعهد بنظافته وإنارته وعدم التعرض بسوء لمن يقصده مصليا كان أو مجاورا.
- عدم التزام المسلمين بحماية النوبيين، أو تقديم أية مساعدة لهم ضد أعدائهم.
- التعهد بتسليم ٣٦٠ رأسا من الرقيق سنويا.
- يلتزم المسلمون بعدم محاربة النوبيين ما داموا ملتزمين بالوفاء بما ورد بشأنهم فى الكتاب المذكور.

ولا شك ان ما قرره عبد الله بن سعد يتفق مع طبيعة بلاد النوبة ، ويؤدى فى نفس الوقت إلى تحقيق الأهداف الأساسية للفتوحات من حيث اتصال الدعاة بأهل البلاد، والتمهيد لنشر الإسلام، بالإضافة إلى وقف الاغارات النوبية على صعيد مصر، وتأمين حدود مصر الجنوبية، وتنشيط الحركة التجارية^(١).

أما النص المتعلق بالرقيق، فمن المحتمل أن يكون القصد منه التأكيد من استمرار النوبيين تنفيذ بقية ما نص عليه عهد الأمان، والوفاء بما تعهدوا به ، خاصة وأن المصادر لم تشر إلى قيام المسلمين بترتيب نائب أو حاميات إسلامية فى النوبة^(٢).

ومما يذكر أن هذا الرقيق الذى نص عليه، هو وحدة الذى اصطلح عليه بالبقط^(٣) دون بقية ما نص عليه العهد، وربما كانت لفظة (البقط) مصرية قديمة

١ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج١، ص٣١٠؛ محمد عبد العال: مرجع سابق، ص٢٩٨، الشاطر بصيلى: مرجع سابق، ص٤٢، رولاند أوليفر: موجز تاريخ أفريقية، ترجمة دولت صادق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥، ص٧٨.

MacMichael, H. A.: Op. Cit., PP. 158- 159.

٢ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٨، ٢٩٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٩، البلائرى: فتوح البلدان، ج١، ص٢٣٩؛ المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص٤٤١، ٤٤٢؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٥٢.

بمعنى عبد (باك) وأطلقتها المصادر العربية على ما تقدمه النوبة من رقيق^(١).
وإذا أخذنا برأى المقرئى من أنها كلمة عربية تعنى فرقة من الشيء أو
قطعة منه، وهى هنا بمعنى "بعض ما فى أيدى النوبة"^(٢).
فالبقظ أذن "ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة
عليهم" طبقا لما قرر^(٣).
وقد جعل ابن خلدون البقظ جزية^(٤)، وقال غيره بأنه ليس بجزية^(٥)، ولا
خراج^(٦)، وقيل بل هو هدية^(٧) أو عطاء يقدمه النوبيون ويؤدى المسلمون فى مقابلة
طعاما^(٨). غير أن نص العهد الذى أورده المقرئى لم يقرر فيه شرط عن التزام
المسلمين بتقديم شيء من غلال أو خلاقه، غير أن هدية الغلال، أنما كانت بعد أن
قرر ابن سعد الصلح مع ملك النوبة، على نحو ما ورد فى الكتاب. فلما شكى الملك
قلة الطعام ببلده، وعده ابن سعد بحبوب يهديها إليه، وبعث له ما وعده به من
حبوب قمحا وشعيرا وعدسا وثيابا وخيلا، قال المقرئى: "ثم تناول الرسم على
ذلك، فصار رسما يأخذونه عند دفع البقظ فى كل سنة"^(٩).

١ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٩، وهناك رأى بأن البقظ ما كان يؤخذ فى كل عام فى قرية
القصر على بعد خمسة أميال جنوبى مدينة اسوان، ولفظ البقظ حسب اجتهاد بعض الباحثين لفظ مشتق
من احد أصليين: الأول لاتينى الاصل وهو Pactum ومعناه الاتفاق أو المودعة، والثانى مصرى قتيبي
وهو باق ومعناه الضريبة التى تدفع عينا. انظر

Frimmingham, J. S. Islam in the Sudan Oxford University, 1949, P. 62. Macmichael, H. A. Op
Cit. P. 158.

وانظر كذلك: بيكر: مادة (بقظ) بدائرة المعارف الإسلامية. مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، حاشية رقم
(٢٢) ص ١١٢؛ عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، ج ١، ص ٢٣٠، الشاطر بصيلى: مرجع سابق، ص ٤٢.

٢ - الخطط، ج ١، ص ١٩٩، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٩٩.

٣ - الخطط، ج ١، ص ١٩٩، ٢٠٠.

٤ - تاريخ ابن خلدون: ج ٥، ص ٩٢١، بيكر: مادة (بقظ) دائرة المعارف الإسلامية.

٥ - البلائرى: فتوح البلدان: ج ١، ص ٢٣٨.

٦ - ابن خرداذية: المسالك، ص ٩٢.

٧ - البلائرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٨، ابن خرداذية: نفس المصدر والصفحة، ابن الأثير، نفس
المصدر، نفس الصفحة.

٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨، ١٨٩؛ البلائرى: نفس المصدر، ص ٢٣٨، ٢٣٩، ابن
خرداذية: نفس المصدر والصفحة، ياقوت: مادة بمقلة.

٩ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٣٥٢؛ محمد عبد العال: نفس
المرجع، ص ٢٩٩، ٣٠٠.

ولم يتوقف المسلمون عن إرسال هديتهم طالما استمر النوبيون فى المحافظة على تنفيذ ما التزموا به فى ذلك البقظ^(١).

ورغم تحديد كتاب ابن سعد للبقظ بثلاثمائة وستين رأسا^(٢)، إلا أن بعض الروايات ذكرت أرقاما تختلف عن ذلك^(٣)، ففي رواية البلاذرى بسنده إلى يزيد بن أبى حبيب، قال: أنهم ثلاثمائة رأس فقط^(٤)، وقيل بل صالحهم على أربعمائة رأس^(٥)، لوالى مصر منها أربعين^(٦).

أما المسعودى، فقد جعلهم ثلاثمائة وخمس وستين رأسا، أى بزيادة خمسة، وقال: "وأراه رسما على عدد أيام السنة"^(٧)، وأن هذا ما يخص بين مال المسلمين، تنفيذ شروط الهدنة. وزاد على ذلك عددا آخر خارج عن الشرط عبارة عن أربعين رأسا لأمير مصر، وعشرين لنائبه فى أسوان وخمسة للقاضى الذى يحضر مع أمير أسوان لاستلام البقظ، واثنى عشر رأسا لاثنى عشر شاهدا عدولا يحضرون الاستلام. قال المسعودى: "وهذا على حسب ماجرى به الرسم فى صدر الإسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة"^(٨).

وكان يتم تسليم البقظ فى موضع يعرف بالقصر على بعد أميال جنوبى أسوان^(٩) وقد حدد العهد وصف ونوعية ما تقدمه النوبة من رقيق، إذ يجب أن يكون من أوسط رقيقهم، غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز، ولا طفل لم يبلغ الحلم^(١٠).

١ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٠٠.

٢ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠.

٣ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٣٠١.

٤ - البلاذرى: نفس المصدر، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

٥ - ياقوت: معجم البلدان، مادة نوبة.

٦ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨، ١٨٩.

٧ - مروج الذهب، ج ١ ص ٤٤١.

٨ - مروج الذهب، ج ١، ص ٤٤١؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٠١.

٩ - مروج الذهب، ج ١ ص ٤٤٢، المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٢٠١.

Macmichal, H.A.: Op. Cit., P. 158.

١٠ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٣٠٢.

قال ابن عبد الحكم: "قزع بعض المشائخ أن منها سبعة عشر مرضعا^(١) والرقيق أو البقط الذي تقدمه النوبة، هو "مما يأخذون من رقيق أعدائهم"^(٢) مما يسببه ملكهم" المجاور للمسلمين من غيرهم من بلاد النوبة"^(٣).
قال البلاذري: "فإذا لم يجدوا منه شيئا، عادوا على أولادهم، فأعطوا منهم فيه بهذه العدة"^(٤).

وقال ابن عبد الحكم: "قال ابن لهيعة: ولا بأس أن يشتري رقيقهم منهم ومن غيرهم"^(٥).

وهكذا وضع عبدالله بن سعد الأسس للعلاقات المختلفة بين المسلمين والنوبة، ومن ثم تنظيم تلك العلاقات بطريقة تضمن تحقيق الاتصال السلمي بين البلدين، وتأمين الحدود، ووقف الاغارات، مما كان له أكبر الأثر في تسهيل وصول الدعوة وانتشار الإسلام في بلاد النوبة سلميا، وما البقط إلا دليل على استمرار وفاء النوبيين، بما تعهدوا به^(٦).

ويرى الدكتور حسن محمود أن هذا العهد قد جعل النوبيين والمسلمين على قدم المساواة فلا غالب هناك ولا مغلوب، وهي ليست معاهدة تبعية، بدليل ما يدفعه المسلمون من أشياء مساوية تقريبا لما يدفعه النوبيون وقد تزيد، وأنها مصالح مشتركة، تأمين للنواحي الاقتصادية والتجارية والدينية، وتشجيع للتبادل التجاري، وتنظيم طبيعي للعلاقات وإقرار السلام على الحدود المشتركة^(٧).

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٩، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٣٠٢.

٢ - البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٩.

٣ - المسعودي: مروج الذهب، نفس الصفحة.

٤ - فتوح البلدان: نفس الصفحة، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٣٠٢.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨، وانظر كذلك حول حكم الشرع الإسلامي نحو حسن معاملته الرقيق: السمرقندي: كتاب العتاق، ص ٣٨٠-٤٢٩، الكندي، الولاية، ج ١، ص ٣١٧، ٣١٨؛ البلاذري: انساب الإشراف، ج ١، ص ١٧٨، ١٧٩؛ على عبد الواحد وافي: حقوق الإنسان في الإسلام، ط ٥ سنة ١٩٧٩، ص ٢٠٠-٢١٣، آدم متز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٣٨، ٢٣، أحمد أمين: فجر الإسلام، ج ١، ص ٨٨، ٨٩؛ محمد عبد العال، مرجع سابق، ص ٣٠٢، ٣٠٣.

٦ - محمد عبد العال، نفس المرجع، ص ٣٠٣.

٧ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ج ١، ص ٣١١.

وقد جعلت معاهدة البقط النوبيين في نظر العرب "مصالحين"^(١) وهو ما عرفه الفقهاء باسم "أهل العهد"^(٢)، ولذا فإنها تفسر بأنها حسن جوار، وسلامة الحدود، وحرية التجارة بين البلدين، ثم أنها تخول للمسلمين الحصول على سواعد النوبيين القوية لخدمة الدولة الإسلامية، بالإضافة إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية نشرًا سلميًا^(٣).

ومما ساعد على ذلك، ان معاهدة البقط خلت من التعصب الجنسي أو الديني، ولذا بقيت أطول مدة يمكن أن تبقى معاهدة بين دولتين، فضلا عن حسن العلاقات الودية والسلمية بصفة عامة^(٤).

وظلت معاهدة البقط، أكثر من ستة قرون ونصف^(٥)، أساسا للعلاقات السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية وغيرها، سارت على ضوئها كل الحكومات الإسلامية التي تعاقبت على مصر، فقد كانت استهلالا لامتداد الإسلام والثقافة العربية إلى تلك البلاد، أما بتشجيع حكام مصر الإسلامية، أو هجرة العرب المرحلية إليها لأغراض شتى منها التجارة والمراعى أو الابتعاد عن السلطة المركزية وغيرها^(٦).

وإذا ما أخذنا في الاعتبار العلاقات الحربية بين البلدين في فترة عصر الولاة، فسوف نلاحظ تكرار الغارات النوبية على مصر، بين الفينة والفينة، فضلا عن

١ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٠١.

٢ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ١٤٦؛ عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، ج ١، ص ٢٣٠، ٢٣١ وأيضاً ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ص ٢٣٢.

٣ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٢٠١، وعن آثار هذه المعاهدة، انظر مصطفى مسعد، معاهدة البقط نمط فريد في مجال العلاقات الدولية في الإسلام (بحث في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية) جامعة الإمام محمد بن سعود - العدد الخامس ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ٤٧١-٥٨٥؛

Yusuf Iadl Hassan: The Arabs and the Sudan. University of Khartoum press, 1973 P. 20.

4 - Hamilton J. A. De. C.: The Anglo. Egyptian Sudan from within, London. 1935, P. 52

٥ - ظلت معاهدة البقط قائمة ٦٨٦ عاما هجرية تقريبا أو ٦٦٥ عاما ميلاديا تقريبا، أى منذ عقدها عام

٣١هـ / ٦٥٢م إلى سقوط مملكة النوبة الشمالية (مقرة) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

انظر: ابن خلدون: العبر، القسم الأول، المجلد الخامس، ص ٩٢٢؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٥،

ص ٢٧٦؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٦٦، ١٦٧، مكى شبكة: السودان، ص ٣٠.

٦ - حسن محمود: مرجع سابق، ج ١، ص ٣١١؛ مصطفى مسعد: معاهدة البقط، ص ٤٨٢، الإسلام والنوبة، ص ١١٥.

امتناعهم عن دفع البقط المقرر، مما كان يستدعى أن يرسل ولاية مصر الإسلامية حملات تأديبية لهؤلاء المغيرين، وإرغامهم على دفع البقط^(١)، ويشير المقرئ إلى فترة عدم الانتظام في أداء ما تقرر بقوله: ولم يزل النوبة يؤدون البقط في كل سنة، ويدفع إليهم ما تقدم ذكره إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبي إسحاق بن الرشيد (٢١٨هـ - ٢٢٩هـ / ٨٣٣ - ٨٤٣م) وكبير النوبة يؤمئذ زكريا بن يحنس وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنت الغارة عليهم ولاية المسلمين القريبون من بلادهم ويمنع من إخراج الجهاز إليهم، فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكريا على أبيه بذلة الطاعة لغيرة واستعجزة فيما يدفع فقال: له أبوه فمأء تشاء قال عصيانهم ومحاربتهم^(٢).

وامتنع النوبيون فعلا عن إرسال البقط، واجه النوبيون خلالها ضغطا حريبا متواليا من ولاية الصعيد الأقصى، غير أن زكريا بن يحنس (يوحنا) رأى أن يوفد ابنه جورج إلى بلاط الخليفة في بغداد ليعاين بنفسه قوة المسلمين ومدى استعداد النوبة لمقاومتهم، حتى يحاربهم على خبرة، أو يحاول كسب ود المسلمين وعطفهم^(٣). فخصص جورج إلى بغداد، وأتاحت له هذه الرحلة فرصة التعرف على مدى قوة المسلمين فيهرته كثرة الجيوش وعظم العمارة، وأدرك الا طاقة له بمخالفتهم، لاسيما وأن المعتصم أحسن وفادته وأكرمه، وتم الاتفاق على أن يدفع بقط سنة كل ثلاث سنين على ألا ينقص المسلمون من هبتهم من الثياب والحبوب^(٤). ولبي الخليفة طلب ولي عهد النوبة بالإفراج عن المسجونين النوبيين، ولم يجبه إلى إزالة "المسلحة" التي أقامها المسلمون بمدينة الأقصر^(٥).

وظل النوبيون ينقضون معاهدة البقط حتى بعد انتهاء فترة عصر الولاية، إذ انه

١ - القلقشندي: صبح الاعشى، جـ ٥، ص ٢٧٦؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٢١.
Trimingham. J. S.: Islam in the Sudan. P. 63.

٢ - المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٢٠١، قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٣٥٢.

٣ - المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٢٠١.

٤ - ليس من المعروف تماما تاريخ هذا الاتفاق، ولكن المقرئ ذكر أنه كان في عهد المعتصم (٨٣٣ -

٨٤٣م) وورد أيضا في كتاب "تاريخ بطارقة الكنيسة المسيحية لساويرس بن المقفع في حديثه عن حياة البطريرك يوساب (٨٣١ - ٨٥٠م) أنظر: ابن المقفع: سير الأباء، م ١، جـ ١، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

MacMichael. H. A., A Hist of the Arabs in the Sudan. P. 164.

٥ - المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ٢٠١.

فى عصر الإخشيديين، شعروا بضعف الحكومة، وأغاروا على حدود مصر الجنوبية، وتوغلوا فى صعيدها، ويظل الأمر كذلك حتى تنبئه ولاية الأمور وصدوهم، وأعادوهم إلى حيث جاؤوا^(١).

ففى عام ٣٣٩هـ / ٩٥٠م أغار ملك النوبة على الواحات المصرية حيث قتل وسبى كثيرا من أهلها، وأحرق مدنا وخرب أخرى^(٢)، وفى عام ٣٣٤هـ / ٩٥٥م، أغار هذا الملك أيضا على ثغر أسوان، حيث فعل ما فعل بأهل الواحات المصرية، ونهبها نهباً، وعاث بها فساداً حتى خرج إليه محمد بن عبدالله الخازن^(٣)، من قبل أنوجور بن محمد بن طفح الإخشيد ورده عن المدينة، وأسر الكثير من النوبيين بلى طاردهم وسار فى أعقابهم، حتى فتح مدينتهم وحصنهم الحصين ابريم^(٤)، ومن هناك عاد بكثير من رؤوس قتلاهم، فضلاً عن كثير من الأسرى^(٥).

يتضح أن العلاقة بين مصر وبلاد النوبة كانت مقياساً إلى حد كبير لقوة مصر السياسية والعسكرية أو ضعفها طوال فترة عصر الولاية.

الرسائل المتبادلة بين ولاية مصر وحكام النوبة:

حددت معاهدة البقط نوعية العلاقة السلمية التى ربطت بين مصر والنوبة لفترة طويلة، إذ أن كل طرف كان يتعامل مع الآخر على حسب الموقف السياسى ومدى قوة مصر بصفة خاصة، فأنه من الطبيعى أن يختل هذا التوازن فى طبيعة العلاقات عند تغير السلطة فى مصر، فعند انتقال الخلافة إلى بنى العباس اضطربت العلاقة السلمية بين مصر والنوبة، وبذلك تملصت عن كل ما يربطها بمتقضى الهدنة الموقعة بينهما من دفع البقط، وذلك لمدة خمسة عشر عاماً، يتضح

١ - MacMichael, H. A.; A Hist of the Arabs in the Sudan, P. 164.

٢ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٢٢٦، سيدة كاشف: مصر فى العصر الإخشيدى ص ٣٧٦.

٣ - MacMichael, H. A.; A Hist of the Arabs in the Sudan, P. 164.

٤ - ابريم مدينة نوبية، تقع فى إقليم مريس، بالنوبة السفلى على بعد ٢٧٧ كم تقريباً جنوباً من أسوان على النيل، حيث قلعه ابريم المشهورة التى ذاع صيتها فى مختلف العصور التاريخية من فرعونية ورومانية وإسلامية، فكل من استطاع السيطرة على إقليم مريس، اتخذ من قلعة ابريم حصناً لحامياته. أنظر: المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٠، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ٢٧، ٨٧، بوركهاوت: رحلاته، ص ٢٩.

٥ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٨.

- هذا بصورة جلية في هذا الخطاب المرسل من الوالى العباسى على مصر - موسى بن كعب بن عيينه من قبل أبو جعفر المنصور ١٤١هـ / ٧٥٨م^(١) - إلى ملك النوبة والمقرة^(٢)، بخصوص العلاقات المصرية النوبية.
- وترجع أهمية هذه الوثيقة أنها تلقى الأضواء على مسألة العلاقات المصرية النوبية المضطربة، فهي تشير إلى ما يلى:
- أشار الوالى العباسى فى مصر الى أهم بنود معاهدة البقط، والتي كانت سارية وبشكل واضح وقوى قبل عام ١٤١هـ / ٧٥٨م.
 - عدم الانتظام فى أداء التعامل بين البلدين^(٣)، مع الالتزام المصرى بحفظ الممتلكات والأرواح من الأشخاص النوبيين^(٤).

١ - الكندى: الولاة، ص ١٠٧.

٢ - تم العثور على هذه البردية ضمن أربع برديات تم الكشف عنها فى حفريات قصر ابريم ١٩٧٢م، وترجع تلك البرديات الى القرن الثامن الميلادى، وتم ايداع تلك البرديات فى المتحف الإسلامى تحت رقم (٢٥٤٨٠) وكانت أكبر بردية عرضها ٢٠,٥سم، ومصنوعة من اثني عشرة قطعة ملتصقة فى بعضها بحيث وصل طولها ٢٦٤,٥سم، وهو خطاب بالعربية يتكون من تسعة وستين سطرا، أنظر: ملحق الدراسة، نص البردية شكل (١) ص ٢٥٨.

والتلات البرديات الأخرى باللغة القبطية، تعكس محاولات النوبة لصياغة الرد، وإلقاء المسئولية بالنسبة لشكوى والى مصر.

وقد تم ترجمة عربية للوثيقة مع بعض الصور ، وتم نشرها بواسطة:
Professor. J. Martin in the Journal of Egyptian Archeology in 1975 (Vol. 61, PP. 241-245).
ولم ينشر حتى الآن نصوص الوثائق القبطية بالطريقة المثلى، فهي توضح نوعية العلاقة بين مصر والنوبة، منذ دخول المسلمين إلى مصر فى سنة ٦٣٩-٦٤١م. انظر: بردية منشورة. تحت رقم ٢٥٤٨٠، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، انظر ملحق الدراسة شكل (١) ص ٢٥٧.
C.F. Martin Stydia Arabica of Islamica, American University of Beirut, 1981. PP. 209- 229.
وقام الباحث بإعادة تصحيح ما جاء فى الوثيقة:

- جاء فى السطر الخامس: "أما بعد قد عرفت" وهى "أما بعد فقد عرفت".
- وجاء فى السطر الخامس عشر: "ولا يمنع من حقة" وهى "ولا يمتنع من حقة".
- وجاء فى السطر العشرين: "اليكم من ارقانيا ولايا من فيكم" وهى "اليكم من ارقاننا ولايا من منكم".
- وجاء فى السطر الاثني والخمسون: "من ارقا أهل الإسلام" وهى "من ارقا أهل الإسلام".
- وجاء فى السطر الخمسة وستون: "ذلك ولا تؤخره وان أنت لم تمتل" وهى "ذلك ولا تؤخره وان أنت لم تعجل".

٣ - انظر: نص البردية: السطر رقم (٧: ١١، ١٦، ٦٣).

٤ - انظر: نص الوثيقة: السطر (٦: ١٢).

- حرية وأمن التجار النوبيين فى الانتقال خلال وداخل مصر^(١).
 - لابد من التزام النوبة بما صولحوا عليه من أداء معاهدة البقط^(٢)، وإرجاع العبيد الفارين^(٣).
 - المرور والانتقال الآمن للتجار المصريين فى النوبة^(٤).
 - اعتراض وتهديد من جانب والى مصر فى حالة فشل ملك النوبة فى أداء ما عليهم^(٥).
- يتضح من هذا الخطاب الذى يرجع إلى بداية العصر العباسى، تأكيد لمعاهدة البقط، التى وضع أساسها عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى عهد عثمان بن عفان فى سنة ٣١هـ/٦٥٢م^(٦).
- ولا شك أن الامتناع عن إرسال البقط هو ما يبعث على اختلال هذه العلاقة وخصوصا، وإن فترة الانتقال من العصر الاموى إلى العباسى قد سقط منها بقط سنين، وهذا ما أكدته هذه الوثيقة^(٧).

العلاقات السياسية والعسكرية ببلاد البجة (البجاء):

لم يكن انتشار القبائل العربية جنوبى مصر ليشمل النوبة فقط، بل أرض البجة كذلك^(٨)، التى حددها المؤرخون العرب تحديدا واضحا، فقد ذكر الإدريسى:

-
- ١ - انظر: نص الوثيقة: السطر (١٢ : ١٧).
 - ٢ - انظر: نص الوثيقة: السطر (١٨ ، ١٩ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨).
 - ٣ - انظر: نص الوثيقة: السطر (١٩ : ٢٠).
 - ٤ - انظر: نص الوثيقة: السطر (٢٠).
 - ٥ - انظر: وثيقة منشورة: متحف الفن الإسلامى تحت رقم ٢٥٤٨٠؛
Martin Op. Cit., pp. 241- 245.
 - ٦ - البلاذرى: فتوح البلدان، ج١، ص ٢٢٨.
 - ٧ - المقرئى: الخطط، ج١، ص ٢٠١.
 - ٨ - البجة أو البجاء: يرى البعض أنها سلالة من السلاسل الحامية، ولقد أثبت سليجمان من خلال دراسته الانثروبومترية ارتباطهم بالمصريين القدماء ، شأنهم فى تلك شأن النوبيين. أنظر: سليجمان: السلاسل فى أفريقيا، ترجمة يوسف خليل، مكتبة العالم العربى ١٩٥٩، ص ٧٨، محمد عوض: الشعوب والسلاسل الأفريقية، ص ٢٤٦، ٢٤٧، وأيضا: السودان الشمالى، ص ٢٢، مصطفى مسعد: البجة والعرب فى العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الحادى والعشرين، ج٢، ديسمبر ١٩٥٩م ص ص ١، ٢.
- F. Paul. A: A history of the Bija Tribes of the Sudan The Cambrdge University 1971, pp. 20- 57.

"أنها تجاور أرض الحبشة من جهة الشمال، وهي بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد^(١)".

أما المسعودي فقد أشار إليها بقوله "أما البجة فأنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر، وتشحبوا فرقا^(٢)".

كذلك حدد المقرئزي موقفهم بقوله: "أول بلد البجة من قرية تعرف بالخربة معدن الزمرد في صحراء قوص.... وآخر بلاد البجة أول بلاد الحبشة وهم في بطن هذه الجزيرة أعنى جزيرة مصر إلى سيف البحر الملح مما يلي جزائر سواكن وباضع ودهلك^(٣)".

وقال القلقشندي: وموطنهم في جنوبى مصر مما يلي الشرق، فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل على القرب من الديار المصرية^(٤).

هكذا عرف المؤرخون المسلمون القبائل التي كانت تسكن الصحراء الشرقية جنوبى مصر، باسم البجة أو البجاه^(٥)، وتمتد بلاد البجاه جنوب أسوان وإلى الشرق من بلاد النوبة، وتمتد جنوبا إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة، ومن البحر الأحمر في الشرق إلى النيل ونهر اتبرا في الغرب^(٦).

أما عن نسبهم فقد اعتبرهم كثير من كتاب ومؤرخى العصور الوسطى، جنسا من النوبة، أو فرعا آخر من النوبيين^(٧)، لكن البجة بحكم بيئتهم وانقطاعهم عن

١ - الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ط لينن ١٨٦٤، ص ٢٦.

٢ - المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٣٨.

٣ - المقرئزي: الخطط، ج ١، ص ١٩٤، هذا وقد حددها ليو الأفريقى بعيدا عن ساحل البحر الأحمر. انظر: الخريطة شكل (٩).

٤ - القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٧٣، ٢٧٤، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٧٨، ابن الوردي: تنمة المختصر، ص ١٢٥، ابن انقدا: المختصر، ص ٩٦.

٥ - ورد هذا الاسم عند الواقدي: مرة باسم البجة ويطلق على الوطن، ومرة أخرى باسم البجاه ويطلق على نوع السكان: فتوح مصر والإسكندرية، ج ٢٧، ص ٥٦، وقد ذكرها القلقشندي: "بلاد البجا" صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٧٣. المقرئزي، الاسم المتداول اليوم للبجة هو بكسر الباء: الخطط، ج ١، ص ١٩٤، محمد عوض: السودان الشمالى، ص ٢٢، مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص ١.

٦ - محمد عوض: السودان الشمالى، ص ٢٣، انظر: الخريطة شكل (١٠).

٧ - بيبيرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، نسخة مصورة جامعة القاهرة، رقم (٢٤٠٢٧) ج ٤، ورقة ١٨١ أ، الدمشقي: نخبة الدهر، ص ٢٦٩، ابن جبير: تذكرة بالآخبار عن اتفاقات الأسفار، لندن ١٩٠٧، ص ٦٩.

طرق المهاجرة، أصفى بشرة من النوبة^(١)، على حين أن بقية البجة من الهدندوة وبنى عامر والامرار والبشارية، تسربت إليهم دماء عربية، نتيجة التزاوج والاختلاط بالعناصر العربية، التي دخلت بلادهم من الشمال، عن طريق مصر، مما كان أثره الواضح في تعديل صفاتهم الجثمانية، مع تمسكهم بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم التبادوية^(٢)، وعلى هذا يرى بول أن البجة شعب حامى سامى ينقسم إلى مجموعتين أحدهما جنوبية حافظت على صفاء جوهرها الحامى، لقلّة اختلاطها بالعناصر السامية، ولكنها أخذت من الساميين لغتهم، ويمثل هؤلاء معظم بنى عامر، وثانيهما شمالية، وهى أقل صفاء، لاختلاطها بالعرب، غير أنها تبدو فى مظهرها أكثر تمسكا بالعادات والتقاليد ويمثلهم البجة^(٣).

ويقسمهم المؤرخون إلى عدة قبائل مثل الحدارب^(٤)، والزناج وغير ذلك من القبائل^(٥).

وتقع فى أوطان البجة أهم الموانئ الأفريقية على البحر الأحمر مثل عيذاب وسواكن ودهلك وباضع^(٦). كما تقع فى أوطانهم معظم المعادن أيضا^(٧)، ولكنهم لم يحرصوا على الاستفادة بها بدليل عدم اهتمامهم بها، إذ يقول ابن سليم الاسوانى "والبجة لا تتعرض لعمل شئ من هذه المعادن"^(٨).

وتختلف مظاهر التضاريس فى بلاد البجة من مكان لآخر^(٩)، حيث تتخللها سلاسل جبلية ممتدة من الجنوب إلى الشمال موازية وملاصقة أحيانا للبحر الأحمر،

١ - محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص ٢٢.

2 - C.F: Paul. A.: Op. Cit , PP. 23-25.

3 - Ibid: Op. Cit.

٤ - الحدارية أو الحضارمة (نسبة لحضرموت موطنهم الأصلي فى جنوب الجزيرة العربية، حيث ينسبون إلى ذلك الوطن. انظر: بوركهارت: رحلاته، ص ٢٤٨؛

Paul. A.. Op. Cit. P. 64.

٥ - الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص ٢٣٧؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٥؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٧٤.

٦ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٤؛ الدمشقى: نخبة الدهر، ص ٢٣٧.

٧ - المسعودى: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٤٧؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٥؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٧٤؛ ابى القدا: المختصر، ص ٩٦.

٨ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٤، ١٩٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٦٩.

٩ - محمد عوض: السودان الشمالى، ص ٢٣، ٢٤؛ وأيضا: الشعوب والسلالات الأفريقية، ص ٢٤٧.

ولا تترك بينها وبين البحر سوى شريط ساحلى ضيق على طول امتدادها، وهذا الشريط الساحلى يضيق كلما اتجه جنوباً، أى أنه فى الأجزاء المتصلة بمصر أوسع من الأجزاء الجنوبية، وتتباين ارتفاعات هذه الجبال، وقد تتخلل هذه السلاسل الجبلية بعض الوديان الخصبة، مثل وادى العلاقى فى الشمال، وخور بركة فى الجنوب، فضلاً عن بعض الوديان الأخرى المتناثرة على طول الصحراء^(١).

واختلاف التضاريس من أكبر العوامل التى أثرت فى حياة البجة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهم أهل بادية، غير مستقرين، تنتشر بينهم روح القبليّة ويعتمدون فى حياتهم على الرعى^(٢).

والبجاه شعب ذونزعة حربية، فهم لا يقلون عن سكان المنطقة النيلية (منطقة النيل النوبى) فى المهارة الحربية، وأن كانوا أقل منهم قوة، ويتسابقون بالخيال ويقاتلون عليها، كما أنهم يجيدون القتال على الإبل التى يدرّبونها على فن القتال، حتى أن راكب الجمل، إذا أطلق الحربة ووقعت على الأرض، طار إليها بصاحبه ليلتقطها. وكانوا يستخدمون نوعاً من الحراب، تسمى السباعية^(٣).

ويذكر اليعقوبى، ستة ممالك لهؤلاء البجه، على رأس كل منها ملك، ويبدو أنها زعامات قبلية^(٤) بدليل ما ورد عند كثير من النورخين^(٥) بأنهم أصحاب أخيه وشعر، وأنهم أهل بادية، غير مستقرين يتبعون الكلا حيثما كان الرعى^(٦).

إن تاريخ قبائل البجاه فى العصر الإسلامى - وخاصة منذ الفتح العربى لمصر - يكتنفه الغموض، فأول إشارة وردت عند الواقدى الذى يذكر أنه لما

١ - مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص ٢٢١؛ محمود محمد على الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، رسالة ماجستير جامعة القاهرة، ص ٤٠.

٢ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٠٥-١٠٧.

٣ - سميت بالحراب السباعية، نسبة إلى أن طول الحربة فيها يبلغ ثلاثة أترع، واليد الخشبية أربعة أترع. وكانت تقوم بصناعتها النساء دون الرجال، وفى مكان منعزل لا يختلط بهن من الرجال إلا المشترون منهم. انظر: المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٤.

٤ - اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى ص ١٩٢.

Paul. A.: Op. Cit. P. 69.

٥ - انظر ما يلى عن البجه فى الهجرة العربية نحو أرض المعدن، ص ٣١٩.

٦ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٤.

حاصر عمرو بن العاص مدينة بلبيس، وكانت بها أرمانوسة ابنة المقوقس، الحاكم البيزنطي في مصر، أشار ذوو الرأي في مصر وقتذاك على المقوقس أن يرسل نجدة بيزنطية إلى مدينة بلبيس لإنقاذ ابنته، ثم يطلب مساعدة ملك البجاء وملك النوبة وملك البرابر لحرب العرب وطردهم من مصر^(١).

وقد لاحظ ابن حوقل أن: "انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء البجة والزنج، مهملون في هذه الخصال، ولاحظ لهم في شيء من ذلك، فيستحقوا أفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك"^(٢). ويبدو عدم اهتمام الفاتحين بهذه القبائل أول الأمر، من عدم ورود نص عنها في عهد الصلح الذي عقده عبد الله بن سعد للنوبيين ٣١هـ/٦٥٢م وربما كان مرجع ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم إذ قال: "تجتمع له في انصرافه على شاطئ النيل البجة. فسأل عنهم فأخبر بمكانهم فهان عليه أمرهم فنفاذ وتركهم، ولم يكن لهم عقد ولا صلح، وأول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب"^(٣) وربما استقر في نفوس العرب، في المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامي، من أن ديار البجة ليست بدار حرب^(٤) شأنها في ذلك شأن بلاد الحبشة المتاخمة لبلادهم من ناحية الجنوب، لأن الحبشة أوت الطليعة الأولى من المسلمين الذين هاجروا إليها زمن الرسول صلى الله عليه وسلم^(٥).

على أن عدم الاكتراث بهؤلاء القوم، لم يكن في مصلحة العرب، فبعد فترة من الزمن لم تتجاوز ثلاثة وسبعين عاما، وجد هؤلاء القوم في انفسهم من الكفاءة ما دفعهم إلى القيام بغارة على مصر عام ١٠٧هـ/٧٢٥م.

وعندئذ تنبه العرب في مصر إلى خطورتهم، فأرسلوا حملة بقيادة عبد الله بن الحبحاب السلولي، الذي عقد معهم أول معاهدة ظلت قائمة زهاء قرن من الزمان^(٦).

١ - الواقدي: فتوح مصر والإسكندرية، ص ٢٧.

٢ - ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص ٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ١٨٩.

٤ - ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٥٦.

٥ - مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص ٢٤.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٩.

وقد نصت هذه المعاهدة، على أن تدفع البجة للعرب ثلاثمائة من الإبل البكر كل عام، وإذا ما نزلوا ريف مصر، أن ينزلوا تجارا غير مقيمين، وإلا يقتلوا مسلما ولا ذميا ممن نزل بلادهم، وألا يأووا عبيد المسلمين، وأن يردوا من يقع في أيديهم من هؤلاء العبيد، وعلى أن يبقى وكيلهم بريف مصر رهينة في أيدي المسلمين^(١).

غير أنه لم يكد يمضى قرن على هذه المعاهدة حتى عاد البجة إلى شن الاغارات من جديد على أسوان، وكثر إيذاؤهم للمسلمين عام ٢٣٢هـ / ٨٤٦م، فرفع ولاة الأمور في أسوان خبرهم إلى المأمون العباسي، فجرد عليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم، الذي عقد مع كبيرهم كنون بن عبد العزيز، معاهدة تختلف كثيرا في نصوصها عن معاهدة البقط التي عقدت مع النوبة^(٢).

ووجه الخلاف بين المعاهدتين واضح، فقد تسيد العرب على البجة بمقتضى معاهدة بن الجهم - كنون، بعكس النوبيين الذين طلبوا تأمينهم بهذا العهد، وأصبح من أسس العلاقات بين المسلمين والنوبيين^(٣).

أكدت معاهدة ابن الجهم مع كنون بن عبد العزيز ضعف البجة بدليل انها تضمنت شروطا قاسية بالنسبة للبجه، من أهمها:

- أن تكون بلاد البجة من حد أسوان إلى حد ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة، وأن كنون بن عبد العزيز، وأهل بلاده عبيد لأمير المؤمنين على أن يبقى كنون ملكا عليهم^(٤).
- أن يؤدي ملك البجة الخراج كل عام مائه من الإبل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال.

- أن يحترم البجة الإسلام ولا يذكره بسوء، وألا يقتلوا مسلما أو ذميا حرا أو عبدا في أرض البجة أو في مصر أو النوبة، وألا يعينوا أحدا على المسلمين.

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٩؛ المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٥، ١٩٦.

٢ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٥، ١٩٦؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١١٦؛ وأيضا: البجة والعرب، ص ٢٤، ٢٥.

C.F.: Budge. E.A.W.: A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, Vol. I, P. 104.
3 - Hamilton. J.A. De. C.: Op. Cit. P. 52.

٤ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٥.

- إذا دخل أحد من المسلمين فى بلادهم للتجارة أو الإقامة، أو مجتازا للحج، فهو آمن لأحر حدهم.
- إذا دخل البجة صعيد مصر مجتازين، أو تجارا لا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى.
- ألا يهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون.
- وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صداقات من أسلم من البجة^(١).

يتضح من هذا أن شروط هذا العقد اختلفت كثيرا عن عقد عبد الله بن سعد مع ملك النوبة، وموضع الأهمية هنا أن بلاد البجة حتى "مصوع" أضحت جزءا من الدولة الإسلامية، ويطبق عليها شروط البلاد التى تفتح عنوة، بدليل فرض الخراج، ثم أن شرط عدم التعرض للمسلمين بأذى سواء فى بلاد البجة أو النوبة، فضلا عن شرط حفظ المساجد القائمة فعلا فى بلاد البجة، وجمع صداقات من أسلم من البجة وخاصة أن اسم كنون بن عبد العزيز دليل قوى على دخوله فى الإسلام، وانتشار الإسلام فى تلك الجهات وإقامة بعض المسلمين بها^(٢).

وهذه المعاهدة لم تضع حدا لفتن البجة، فقد أجبروا على توقيعها، ولذا لم تكن تمضى بضع سنوات، حتى امتنعوا عن دفع التزاماتهم من الخراج كما جاء فى نص المعاهدة^(٣)، وقاموا بثورة عارمة، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين العاملين بأرض المعدن، ولم يكتفوا بذلك، بل أغاروا على صعيد مصر كعادتهم، فأعد عنبسة بن اسحاق الضبى وإلى مصر من قبل الخليفة العباسى المتوكل^(٤) (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م) حملة بقيادة محمد بن عبد الله القمى عام ٢٤١هـ / ٨٥٤م، وسار إليهم فى سبعة آلاف مقاتل، وهناك فى أرض المعدن انضم إليهم العرب من

١ - انظر: المقرئى: الخطط، ج-١، ص ١٩٥؛ حسن إبراهيم: انتشار الإسلام، ص ٩٧؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١١٧.

MacMichael. H.A.: Op. Cit. PP. 163-164.

٢ - مكى شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٣٠، ٣١؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١١٧.

٣ - المقرئى: الخطط، ج-١، ص ١٩٦.

٤ - البلائرى: فتوح البلدان، ج-١، ص ٢٣٩، ٢٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج-٢، ص ٢٩٧؛ قدامة بن جعفر: الخواج، ص ٢٥٢.

ربيعه ومضر واليمن، كما وافته المراكب بالمون عن طريق البحر الأحمر من ساحل القلزم إلى ساحل عيذاب^(١).

ويشير ابن تغرى بردى إلى مدى الاستعدادات العسكرية لدى الطرفين فيقول: "وَحَلَّ مُحَمَّدٌ مِنْ مَدِينَةِ قَوْصٍ مَقْتَحِمًا تِلْكَ الْبَرَارَى الْمَوْحِشَةَ، وَقَدْ تَكَامَلَ مَعَهُ مِنَ الْعَسْكَرِ سَبْعَةُ أَلْفٍ مَقَاتِلٍ غَيْرِ الْآتِبَاعِ، وَسَارَ حَتَّى تَعْدَى حَفَائِرَ الزَّمْرَدِ، وَأَوْغَلَ فِي بِلَادِ الْقَوْمِ حَتَّى قَارَبَ مَدِينَةَ دَنْقَلَةَ، وَشَاعَ خَبَرُ قُدُومِهِ إِلَى أَقْصَى بِلَادِ السُّودَانِ، فَنَهَضَ مُلْكُهُمْ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عَلَى بَابِهَا إِلَى مُحَارَبَةِ الْعَسْكَرِ الْوَاصِلِ مَعَ مُحَمَّدٍ الْمَذْكُورِ، وَمَعَهُ مِنْ تِلْكَ الطَّوَائِفِ أُمَمٌ لَا تَحْصَى، غَيْرَ أَنَّهُمْ عَرَاةٌ بِغَيْرِ ثِيَابٍ، وَأَكْثَرُ سِلَاحِهِمُ الْحِرَابُ وَالْمِزَارِيقُ"^(٢). وأمام القوة العربية الزاحفة على أرض البجة والتي تسلحت بكل فنون الحرب من استخدام الفرسان والعدد وآلات الحرب، حلول خلالها ملك البجة أن يستخدم الخديعة بدلا من الهجوم المباشر^(٣).

ويشير ابن تغرى بردى إلى أسلوب المراوغة من قبل البجة بقوله: "فَعِنْدَمَا قَارَبُوا الْعَسَاكِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَشَاهَدُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّجَمُّلِ وَالْخَيُولِ وَالْعِدَدِ، وَآلَاتِ الْحَرْبِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى مُحَارَبَتِهِمْ، عَزَمُوا عَلَى مَطَاوَلَتِهِمْ حَتَّى تَفْنَى أَزْوَادُهُمْ، وَتَضَعَفَ خَيُولُهُمْ وَيَتِمَكَّنُوا مِنْهُمْ كَيْفَمَا أَرَادُوا... فَلَمَّا نَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلَى السُّودَانِ التِّي أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ، انْتَرَعَ جَمِيعُ مَا كَانَ فِي رِقَابِ جَمَالِ عَسَاكِرِهِ مِنَ الْأَجْرَاسِ، فَعَلَقَهَا فِي أَعْنَاقِ خَيُولِهِ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِتَحْرِيكِ الطَّبُولِ، وَبِنَفِيرِ الْأَبْوَاقِ سَاعَةَ الْحَمَلَةِ"^(٤)، فلما سمعت ابل البجة أصوات هذه الأجراس، فرت من أمام المسلمين، فانهزم البجة، وطلب ملكهم الصلح، فقبل القمى ذلك بشرط أن يطأ هذا الملك بساط الخليفة العباسي في سامراء، وتم له ما أراد، فقد أرسل الملك البجاوي ابنه نائباً عنه، كما قرر القمى عليه الخراج الأجل مع العاجل، وأن يعمل المسلمون بالمعادن كما كان من قبل^(٥).

١ - البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٢٢٩؛ المقرئ: الخطط، جـ ١، ص ١٩٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٢٩٧، ٢٩٨.

٢ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٢٩٧، ٢٩٨.

٣ - البلاذري: مصدر سابق، ص ٢٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ٢، ص ٢٩٧، ٢٩٨.

٤ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

٥ - البلاذري: فتوح البلدان، جـ ١، ص ٢٤٠؛ قدامة: الخراج، ص ٣٥٣؛ عبد الله حسين: السودان، القاهرة ١٩٣٥، جـ ١، ص ٦٩، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٢٢، ١٢٣.

ولم تكن حملة القمى هي آخر حملات مصر الإسلامية إلى تلك البلاد، بل هناك حملة أعدت في عصر الطولونيين (٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م) بقيادة أبى عبد الرحمن بن عبد الحميد العمرى^(١) في عام ٢٥٥هـ / ٨٦٨م. ففي هذا العام، قام البجة بغارة مفاجئة على مصر، وباغتوا المسلمين، وهم يؤدون صلاة العيد، فقتل منهم الكثير، ونهبوهم ثم عادوا إلى بلادهم^(٢).

ويبدو من رواية المقرئى^(٣) أن هدف الحملة لم يكن مجرد تأديب البجة والود على إغارتهم كما يقول ابن خلدون، أو تأديب النوبيين كما يزعم ماكمايكل^(٤)، بل كان هدفها الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب في أرض البجة، والبحث عن مهاجر جديدة تتسع لهم بعد أن ضاقت بهم مصر^(٥).

تقدم العمرى جنوباً سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م متجاوزاً العلاقى إلى إقليم شنقيش، واهتدى إلى مواقع جديدة للتبر تعرف بالشلة قرب شنقيش^(٦)، وتكمن من الحصول على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية لحياة مستقرة في هذا الإقليم^(٧)، بعد تغلبه على قوات جورج الأول ملك النوبة^(٨).

١ - سمي بالعمرى نسبة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث يقال أنه من نسله، ولد بالمدينة المنورة، وجاء إلى الفسطاط حيث عمل بتدريس الحديث، ثم انتقل إلى القيروان، حيث وصلتته أبناء مناجم النوبة الخنية فحضر مسرعاً إلى مصر، واتجه إلى وادي العلاقى، حيث تحول من فقيه إلى تاجر مغامر، واجتمع إليه عدد كبير من العرب، فقويت شوكته، فصال وجال في أوطان البجة والنوبة، واتجهت إليه أنظار العرب وبذلك يكون العمرى رائداً من رواد الثقافة العربية الإسلامية في تلك البلاد. انظر: المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٦؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص ٣٥٥.

٢ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٦.

٣ - المقرئى: المقفى في تاريخ وتراجم أهل مصر، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ، ورقات ١٦٤ب، ١٦٥أ.

٤ - MacMichael, H.A.: Op. Cit. P. 166.

٥ - وفي موضع آخر يقول ماكمايكل أن هدفهم البحث عن المعادن والتخلص من الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم.

MacMichael, H.A.: Op. Cit. PP. 166-167.

٦ - منطقة شنقيش هي منطقة أبو حمد وهي المنطقة التي تقع بين بربر ومروى الجديدة؛ انظر الخريطة شكل (١٠).

Crawford, O.G.S.: Fung Kingdom of Sennar P. 26.

٧ - المقرئى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص ١٩١.

٨ - المقرئى: المقفى، ورقة ١٦٤ب، ١٦٥أ؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٢٥.

واتسعت أعمال العمرى، وامتد نفوذه شرقا حتى عيذاب، وشمالا إلى أسوان فكثرت بهم العمارة في البجة حتى صارت الرواجل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التي تحمل من القلزم إلى عيذاب^(١). ويبدو أن العمرى كان يهدف إلى إقامة إمارة إسلامية في هذه المنطقة، بدليل أن ابن طولون شك في نوايا العمرى، وخشى ازدياد نفوذه في هذه البلاد فيطمع في مصر، فأرسل ابن طولون جيشا لمحاربة العمرى بقيادة صباح بن حركام البابكى^(٢). غير أن العمرى تغلب عليه وهزمه، ولم يكتف بهذا بل تقدم بجيوشه شمالا حتى أدفو سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م، لكنه أثر العودة إلى المناجم، وهناك خرجت عليه قبيلة ربيعة، ونشبت الحرب بينهما، وبين قوات العمرى التي ظلت على ولائها له، وتمكن العمرى من هزيمتها، غير أن العمرى ما لبث أن قتل على يد أحد أفراد قبيلة مضر^(٣). هكذا كانت الحملات العربية المتكررة على أوطان البجة والنوبة، فاتحة عهد جديد لانتشار الإسلام في تلك البلاد من الظهير المصرى، وخاصة أن العرب المسلمين قد وضعوا الأصول الأولى للعلاقات مع بلاد النوبة وذلك بداية من معاهدة البقط التي ظلت سارية لمدة ستة قرون، ثم اتفاقية ابن الجهم مع كنون بن عبد العزيز وأخيرا حملة العمرى التي كانت بمثابة فتح أبواب النوبة، وأرض البجة على مصراعيها أمام القبائل العربية الضاربة في مصر لتتخذ سبيل النوبة مخرجاً مما كانت تلاقيه من صعوبات في مصر، بعد أن أصبح ولائها الأتراك منذ العصر الطولونى، إذ لم يكد تمضى سنوات قليلة حتى وفدت جماعات عربية معظمها من قبيلتي ربيعة وجهينة إلى أرض المعدن لتتضم إلى ما سبقتها من القبائل العربية في أعقاب كل حملة من الحملات، ووضعت نواة أول إمارة عربية إسلامية بزعامة ربيعة، عرفت فيما بعد باسم إمارة بنى كنز بعد انتقال مركزها إلى أسوان في العصر الفاطمى، وهى ما فشل فيه العمرى من قبل^(٤).

١ - المقرئى: المقفى، المجلد الرابع، ص ١٦٧.

٢ - المقرئى: المقفى، المجلد الرابع، ص ١٦٦ب،

MacMichael. H.A.: Op. Cit PP. 166-167.

٣ - المقرئى: المصدر نفسه، ص ١٦٨.

٤ - المقرئى: البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، ص ٤٥، ٥٦، وأيضا: الخطط، ج ١، ص ١٩٨؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ٣١٦-٣١٨؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١١٩، ١٢٠، ١٣٥.

موقف ولاية مصر من الكنيستين القبطية والنوبية :

ورد فى عهد عبد الله بن سعد للتوبيين نص بأن يحافظ النوبيون على المسجد الذى بناه المسلمون فى دنقلة، وألا يؤذوا مسلما ولا معاهدا، وغير ذلك مما جاء بهذه المعاهدة^(١). فالنص كما ورد عند المقريزى: "وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو يطرقة من مسلم أو معاهدة حتى يخرج عنكم.... وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا ولا تعرضوا لمسلم قصده أو جاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم كنسه واسراجه وتكرمه"^(٢).

هذا النص ضمن للمسلمين حقوقهم كاملة فى بلاد النوبة، لكن هل كان هناك ما يقابل هذا النص مما يكفل للمسيحيين فى مصر من حقوق مقابل ما ناله المسلمون بأرض النوبة؟

فقد صممت المصادر عن ذكر نص يقابل النص الذى يضمن للمسلمين حقوقهم ببلاد النوبة، فإذا ما سلمنا بعدم ورود نص بهذا الشأن فى معاهدة البقط، قد يكون هذا لأن المسلمين فى بلاد النوبة كانوا أقلية مطلقة عند قيام هذه المعاهدة، بينما المسيحيون الأغلبية الغالبة سواء فى مصر أو بلاد النوبة، وفى رأى الدكتور حسن محمود أن المصادر التاريخية ربما أغفلت نصا يقابل النص المذكور، لأن معاهدة البقط كانت معاهدة أخذ وعطاء، أى مصالح مشتركة أو متبادلة، وليست معاهدة فرضها غالب على مغلوب^(٣)، وهذا رأى سليم، لأنه لا يمكن للتوبيين أن يقتنعوا بهذا النص الذى جاء لصالح المسلمين بلا مقابل، وقد كانوا أندادا للمسلمين عند قيام هذه المعاهدة^(٤)، ولا ندرى عما إذا كانت المصادر المعاصرة لهذه الاتفاقية قد أغفلت هذا النص عن عمد أم عن سهو.

١ - انظر ما سبق ذكره عن معاهدة البقط، ص ٢٨٩، هامش (٥).

٢ - المقريزى: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص ٣٠٢.

٣ - حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية، ج ١، ص ٣١٠، ٣١١.

٤ - عرفوا النوبيين باسم رماة الحق "انظر: البلاذرى: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٣٨؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص ٢٥.

وكيفما كان الأمر، فقد أرتبطت الكنيسة في مصر بكنيسة النوبة خاصة أنهم كانوا على المذهب اليعقوبى^(١)، مذهب الكنيسة القبطية^(٢)، يقول المسعودى: "ولليعاقبة كرسىان لا ثالث لهما: أحدهما بأنطاكية والآخر بمصر، والغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كورها وما يليها من أرض النوبة والأحابش رأى اليعقوبية^(٣)".

وقد اعطى عقد معاهدة البقط بين مصر والنوبة فرصة لازدياد نفوذ الكنيسة القبطية في بلاد النوبة والحبشة، بحيث أصبحت هي المسيطرة عليها بلا منازع، ومما ساعد على ذلك أيضا زوال النفوذ البيزنطى من مصر عقب فتح مصر^(٤).

ويشير أبو صالح الأرمنى إلى أن ملوك النوبة والحبشة تحت طاعة البطريك القبطى في مصر "وملك النوبة له النوبة وأعمالها وأرض علوة والمقرة والأجناس المضافة إليها.... وهى كرسى مارى مرقس الانجيلى ومنه يقسم لهم^(٥)". كل هذا جعل بلاد النوبة من الناحية الروحية تتجه إلى الكنيسة القبطية بالإسكندرية التى كانت تتولى تعيين الأساقفة فى الكنيسة النوبية^(٦).

ويقول القلقشندى أن: "كرسى الإسكندرية يعد مصيره إلى اليعاقبة قد تبع البطرك القائم به على مذهب اليعاقبة الحبشة والنوبة وسائر متصرة السودان.... ولولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعمد معمودى الا باتصال من البطريك، وأن كرسى البطريك كنيسة الإسكندرية^(٧)". كل هذا

١ - نسبة إلى يعقوب البرادعى "Jacob Baradeus" الذى سمي هكذا لأنه كان يرتدى البراذع، والثياب البالية المخرقة، وهو قس من أهل نصيبين، انظر: القلقشندى: صبح الاعشى، ج ١٣، ط القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٧٨، ٢٧٩، ويقول المقرئى: "وقيل بل كان يعقوب كثير العبادة والزهد، يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البرادعى من اجل ذلك، وأنه كان يطوف البلاد، ويرد الناس الى مقالة ديسقورس فنسب من أتبع رايه إليه، وسموا يعقوبية" انظر: المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٤٩٠.

٢ - حول انتشار المسيحية في بلاد النوبة انظر: مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ٤٣-١٠٥؛ محمد عوض: الشعوب والسلالات الأثريّة، ص ٢٥٨.

٣ - المسعودى: التنبية والإشراف، ص ١٥١؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية العربية، ص ٤٧.

٤ - عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، الأنجلو ١٩٦٨م ص ٢٣٢؛ وأيضا: الدولة العربية، ج ١، ص ٢٣١.

٥ - أبو صالح الارمنى: تاريخه، ص ١٢٥، ١٣٤؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، حاشية ص ١٣٦.

٦ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩١.

٧ - القلقشندى: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٣٠٨.

يوضح حرية ممارسة شعائر العقيدة، وفى هذا دليل على أنه لم يكن هناك ضغطاً للتحويل للإسلام.

أن الكنيسة النوبية لم تنجب علماء متخصصين فى اللاهوت أو الفلسفة الدينية المسيحية، بعكس الحال فى الكنيسة المصرية، فظل الجهاز الكنسى بفسلاد النوبة والحبشة بيد رجال دين مصريين، معينين من قبل الكنيسة القبطية، بينما اقتصر تعيين العنصر الوطنى فى المناصب الدينية قليلة الأهمية. وتحدد مستقبل الكنيسة النوبية بنوع العلاقات بين الكنيستين القبطية والنوبية، غير أن هذه العلاقات لم تلبث أن خضعت لعوامل سياسية، فكثيراً ما كان مركز الكنيسة النوبية يتأثر تبعاً لتدخل السلطات الحاكمة فى مصر فى شئون الكنيسة المصرية^(١).

ومن الواضح كذلك أن اعتناق النوبيين للمسيحية كان صورياً، وأقتصر أثرها على المدن والقرى الكبيرة، وظلت الغالبية العظمى من النوبيين يمارسون عاداتهم الوثنية القديمة، بدليل ما لاحظته ابن سليم من أن بعض سكان النوبة يعرفون الله ولكنهم يشركون معه بعض مظاهر الطبيعة كالنجوم والكواكب والأشجار، ويعتقدون فى السحر^(٢). ويؤيد هذا وجود بعض التقاليد الموروثة عن العهد الوثنى^(٣).

وعلى الرغم من اعتناق النوبيين للمسيحية لم يكن نابعا عن فهم عميق لها، وعلى الرغم من عدم ظهور علماء متخصصين فى الدين منهم، فإن الكنيسة النوبية - كما يبدو - تمتعت بسلطة كبيرة فى البلاد نبعت من ارتباطها الوثيق بسلطات الدولة، فقد أسند إلى حكام الأقاليم القيام بوظائف كهنوتية إلى جانب أعمالهم الإدارية، كذلك تشير النقوش إلى قيام الأساقفة ورجال الدين من القسس والشمامسة والمرتلين بمهام إدارية مدنية^(٤).

هذا وكانت بلاد النوبة تضم ثلاثة عشر أسقفية تابعة للكنيسة القبطية فى مصر، وكانت مدينة ساي بالنوبة السفلى عند الشلال الثانى، مقراً لإحدى هذه

١ - مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٠٠.

٢ - المقرئى: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٩٣.

٣ - نادية بدوى: الزينة الشخصية عند العباددة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد الدراسات الأفريقية ١٩٨٥، ص ٩.

4 - Monneret De Villard: Storia Della Nubia Cristiana Roma, 1938, P. 167.

نقلا عن مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة ص ٩٣.

الأسقفيات، وقد أشار إلى ذلك مؤرخ النوبة أحمد بن سليم الأسوانى الذى زار بلاد النوبة فى مستهل العصر الفاطمى^(١) بقوله "ومن هذه المسلحة قرية تعرف بساى^(٢) جنادل أيضا "وهى أحد كراسيهم، ولهم فيها أسقف وفيها بربا"^(٣). هذا وبلغ عدد الأسقفيات بالنوبة السفلى وحدها سبعة أسقفيات، بينما بلغ عددها بالنوبة العليا ستة أسقفيات، وهذه الأسقفيات بالنوبة السفلى هى: قورته Korta^(٤)، ابريم Ibrim^(٥)، بجراس Bujras^(٦)، دنقلة Dangola^(٧)، ساى

١ - المقرئى: المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٩١.

٢ - ساى أوصاى قرية نوبية فى نهاية إقليم مريس من الجنوب، قرب وادى حلفا الحالية، وما زالت هذه القرية تعرف بهذا الاسم، وهى التى كانت تعرف باسم المقصر أو المقصر الأعلى طوال العصور الوسطى، انظر: المقرئى: الخطط، ج١، ص ص ١٩٠، ١٩١؛ أبا صالح الأرمنى: تاريخه، ص ١٢٠.

٣ - بربا: تعنى معبد أو آثار قديمة فى اللغة المريسية، انظر: مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص ٩٥ حاشية رقم (١)، وص ١٤٦ حاشية رقم (١)، وما زال النوبيون يعرفون الآثار القديمة باسم البربا. ومن المعلوم أنه عند ما انتشرت المسيحية فى مصر وبلاد النوبة، تحولت كثير من المعابد الفرعونية إلى كنائس، بعد تغطية الصور الفرعونية بالجص، انظر: مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ص ٦٧، ٦٨. ٤ - ما زالت قرية قورته النوبية (١١٥ ك م جنوبا من أسوان) تحمل اسمها القديم إلى اليوم، وتعتبر هذه القرية من أكبر القرى النوبية مساحة وسكانا، ولهذا قسمت من الناحية المساحية إلى ثلاثة قرى هى: قورته أولى، قورته ثانية، قورته ثالثة، انظر: وزارة الشؤون الاجتماعية: بلاد النوبة حاضرها ومستقبلها، ص ٢٨؛ انظر: الخريطة شكل (١٠).

٥ - ابريم: من القلاع النوبية الحصينة فى إقليم مريس (٢٢٧ ك م من أسوان جنوبا) وبها معبد فرعونى عظيم، وينسب إليها لقمان الحكيم، ونو النون المصرى طبقا لما ورد عند ابن سليم الأسوانى، وكانت كنيستها تحمل اسم السيدة العذراء مريم، تعلوها قبة عظيمة، تحمل صليبا عظيما، انظر: المقرئى: الخطط، ج١، ص ١٩٠؛ أبا صالح الأرمنى: تاريخه، ص ١٢١؛ انظر: الخريطة شكل (١٠).

٦ - بجراس: وتعرف حاليا باسم فرس على الضفة الغربية للنيل، وعلى الحدود المصرية النوبية وكانت عاصمة مملكة نوباديا التى كانت تشمل إقليم مريس قبل اتحادها مع مملكة مفره المسيحية وظلت تحتفظ بأهميتها حتى بعد أن تم الاتحاد المشار إليه، حيث ظلت مقر الحاكم بإقليم مريس (صاحب الجبل) إلى جانب ابريم فى الشمال. ويبدو أن كنيستها كانت فوق سفح جبل عال أطلق عليه مؤرخو العرب اسم جبل زيدان على الضفة الغربية للنيل، انظر: المقرئى: الخطط، ج١، ص ١٩٠، أبا صالح الأرمنى: تاريخه، ص ١٢١؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص ٩٢ حاشية رقم (٣).

٧ - دنقلة: هى عاصمة مملكة النوبة السفلى، وما زالت تحمل نفس الاسم، وتقع على النيل فى الطرف الغربى، وكانت كنيستها هى الكنيسة الرئيسية (تسمى كنيسة أسوس) انظر: النويرى: نهاية الأرب، ج٢٩، مخطوط دار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة، ج٢٩ ورقة ٢٧٤، ٢٧٤ب، المقرئى: السلوك، ج١، القسم الثالث، ص ٧٥٢؛ انظر: الخريطة شكل (١٠).

Sai^(١)، تيرموس أوديرموس Termus^(٢)، سينكور Scienkur^(٣).
أما أسقفيات النوبة العليا فهي: بورا Bora، جاجارا Gagara، مارتن Martin، أرودياس Arodias، بنازا Banaza، منكسا Menkesa وما زالت بقايا هذه الأسقفيات إلى اليوم^(٤).

ويشير أبو صالح الأرمني إلى عدد الكنائس في مدينة علوة بقوله "مدينة علوة بها جيش ومملكة عظيمة جدا، وأعمال متسعة، وبها أربعمئة كنيسة"^(٥).
كما يشير إلى العدد بالتحديد في دنقلة بقوله: "مدينة دنقلة بها سرير الملك وهي مدينة عظيمة على شاطئ بحر النيل المبارك، وبها كنائس كثيرة وأدار كبار وشوارع متسعة"^(٦) هذا بخلاف الكنائس والأديرة والبيع التي كانت كثيرة الانتشار في مختلف أنحاء بلاد النوبة.

ويتضح من قول أبي صالح أن الطقوس الدينية بالكنائس كانت تؤدي باللغة اليونانية، غير أنه في خلال القرن الثامن الميلادي أخذ النوبيون يترجمون الطقوس الدينية عن اليونانية إلى اللغة النوبية^(٧)، فوجود اللغة اليونانية في النوبة كان أمرا طبيعيا لصلة هذه البلاد بالبرنطيين ومن قبلهم البطالمة والرومان، ولا شك أن انتشارها زاد مع التبشير بالمذهب الملكاني في مقرة^(٨)، وربما أقيمت الكنسية المونوفيزيتية في أول عهدها على هذه اللغة في الطقوس كما كان الحال في مصر

١ - ساي. سبق التعريف بها في ص ٣١٣ حاشية ٢.

٢ - ديرموس ما زالت تحمل اسمها القديم، وتقع على الضفة الشرقية من النيل فيما بين قريتي امير كساب وكلايشة (٥٥ كم جنوبا من أسوان) انظر: أبا صالح الأرمني: تاريخه، ص ١٢٥؛ بوركهارت: رحلاته، ص ١٠.

3 - MacMichael, H.A.: A history of the Arabs in the Sudan Vol. I. P. 77.

٤ - الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع إلى القرون التاسع عشر للميلاد، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٢٠.

٥ - أبو صالح الأرمني: تاريخه، ص ١٢٠.

٦ - المصدر السابق، ص ص ١٢١، ١٤٣؛ انظر: الخريطة شكل (١٠).

٧ - نفس المصدر، ص ١٢٥ "وقد اسهم وخلقواهم روميا"؛ الدمشقي: نخبة الدهر، ص ٢٦٩، ان استعمال اللغة اليونانية في الطقوس الدينية ببلاد النوبة دليل على دخول المسيحية إلى هذه البلاد قبل أن تترجم الطقوس الدينية من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية في مصر.

C.F: Budge, E.A.W: A history of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia. Vol. I. P. 117.

Budge, E.W.: The Egyptian Sudan. Its history and Monuments, 1907, P. 301.

8 - Jakobielski, S.: Some remarks on Faras inscriptions. Nubische Kunst, 1970, P. 32

فى القرن الأول^(١)، ثم كان استخدام هذه الكنيسة للغة القبطية بعد ذلك، ويدل على ذلك أن أجزاء من أنجيل مخطوط باللهجة الصعيدية^(٢) عثر عليه فى أرضية الرواق الأوسط والبلاطة الشمالية بكنيسة عبد الله نرقى، ويرجح أن هذه الأجزاء من القرن التاسع أو العاشر الميلاديين^(٣).

وكانت اللغة القبطية لغة اللاجئين إلى النوبة من مصر فررا من الاضطهاد الدينى قبل الفتح الإسلامى، ومع انتشارها عن طريق القوافل التجارية وارتباط كنيسة النوبة بكنيسة الإسكندرية أصبحت لغة رسمية إلى جانب اللغة اليونانية. وكان استخدامها فى الوثائق الرسمية والدينية استخداما صحيحا دون أخطاء لغوية أو إملائية، ولعل ذلك يرجع إلى اختيار كاتب لديه المقدرة على كتابتها بصورة صحيحة، وإلى الحرص على تعليمها فى الأديرة، كما تشير النقوش القبطية المدرسية على جدران كنيسة فرس^(٤).

ورغم شيوع هاتين اللغتين فإن اللغة النوبية القديمة كانت لغة الحديث بين عامة النوبيين، ويرجع أقدم نموذج منها إلى سنة ١٧٩هـ / ٧٩٥م فى وادى السبوع، ويحتوى على صلوات لأحد قساوسة فرس ويدعى بطرس^(٥).

كما عثر على شاهد قبر دونت نقوشه بهذه اللغة فى كنيسة الأعمدة الجرانيتية بدنقلة العجوز مؤرخ سنة ٧٩٧م، وتضم هذه اللغة كلمات قبطية ويونانية وحروفا من اللغتين تؤكد استخدامها فى الكتابات الكنسية، وفى ترجمة أجزاء من القداى، وفى الحديث عن بعض المعجزات التى تنسب إلى القديس مينا^(٦) وتؤكد إشارة أبى

1 - Codallah, F.F.: The Egyptian Contribution to Nubian Christianity, S N R XI, 1959, P 42.

٢ - اللهجة الصعيدية : وهى من الكلمة العربية "صعيد" ومعناها أعلى الأرض أى الوجه القبلى، وهى لهجة طيبة وفيما بعد أصبحت لهجة أداب الوجه القبلى، وكانت تسمى سابقا للطيبية، وكانت اللهجة الصعيدية لهجات عديدة اندمجت فى بعضها كالبهيرية. انظر : مراد كامل: القبط فى ركب الحضارة، ص ٤٢، ٤٣.

٣ - كشفت حفائر جمعية التنقيب عن الآثار المصرية فى قصر أبريم عن أجزاء من أنجيل يونانى للقديس مرقس يرجع فى الغالب إلى عصر جستنيان؛

Moorsel. Paul Van, and Others: The Central Church of Abdallah Nirqi. Leiden, 1975, PP. 20-21.

4 - Jakobielski, Bishopric, PP. 58, 132-134.

5 - C. F: Crillith, F. Li.: Oxford Excavations in Nubia. LAAA XIII, 1926, P. 53.

6 - Budge, W. text relating to saint Mena of Egypt and Canens of Nicaea in a Nubian dialect with Facsimile, London, 1909.

المكارم إلى أن الملك سلمون خط كتابا بالقلم النوبى مما يؤكد شيوع استخدام هذه اللغة فى تدوين المخطوطات^(١).

وفىما يتعلق باستخدام هذه اللغة فى الطقوس الدينية بعلوة، فإن الشواهد الأثرية الدالة على ذلك نادر، غير أن ابن سليم^(٢) يذكر أن أهل علوة ترجموا الطقوس الدينية إلى اللغة النوبية، وفى نفس الوقت الذى توجد فيه إشارات أخرى إلى استخدام اللغة اليونانية لهذا الغرض^(٣).

أما عن علاقة الكنيسة النوبية بالكنيسة المصرية، وموقف ولاية مصر منهما، فلا شك أن هذه العلاقة كانت طيبة بفضل هيمنة الكنيسة المصرية وإرسال الأساقفة إلى بلاد النوبة، فنشأت علاقة طيبة بين ملوك النوبة المسيحيين وبطاركة الكنيسة المرقسية^(٤). واختلفت طبيعة هذه العلاقات من حين إلى آخر تبعاً لما تقتضيه مصالح الطرفين، مثل ذلك أن البطريرك اسحق تدخل حوالى سنة ٧١هـ / ٦٩٠م لفض نزاع نشب بين ملك النوبة وملك الحبشة، غير أن وساطته لم يقدر لها النجاح^(٥).

ثم ان خلافا نشب بين الملك زكريا ملك النوبة والأسقف قيرياقوص، وطلب الملك عزله، ولما لم يسفر التحقيق عن أدانة الأسقف، طلب البطريرك إلى الأسقف أن يقيم فى إحدى الأديرة، وعين من يقوم بعمله^(٦).

وتتحدث المصادر القبطية عن حملة قام بها قيرياقوص ملك النوبة، سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م على مصر لإرغام وإليها على إطلاق سراح البطريرك ميخائيل^(٧). وتفسر هذه الحملة من وجهة النظر النوبية - أن صحت - أن البطريرك بات متمتعاً بحماية ملوك النوبة، لكن يبدو أن الملك النوبى أنتهز فرصة

١ - أبو المكارم: كنائس وأديرة مصر المنسوب لأبنى صالح الأرمنى، اكسفورد ١٨٩٥، ص ١٢٤-١٢٥.

٢ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٣.

٣ - مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ٩٦.

٤ - المرجع نفسه، ص ٩٢، ٩٣ مكي شبكية: السودان عبر القرون، ص ٢٦، ٢٧.

٥ - ابن المقفع: سير الأباء، م ١، ج ٢، ص ١٣١.

6 - De Villard.: Op. Cit., PP. 96-97.

٧ - اختلفت المصادر القبطية حول تاريخ هذه الحملة واسم والى مصر آنذاك، انظر: أبو المكارم: كنائس وأديرة مصر، ص ١٢٢-١٢٣.

ثورات الأقباط في إقليم الحوف بسبب نوع الصور المقدسة من الكنائس، وفداحة الضرائب، وقام بحملته على مصر^(١).

ولما توترت العلاقات بين زكريا بن يحنس (يوحنا) ملك النوبة ووالي مصر بسبب امتناع زكريا عن إرسال البقط، تدخل البطريرك يوساب لحسم هذا الخلاف وأرسل إلى زكريا ينصحه بالوفاء بالتزاماته، واستجابة لهذه النصيحة، وبعث الملك النوبي أبنة جورج إلى بلاط الخليفة المعتصم ببغداد^(٢)، وفي طريق عودته نزل بقصر البطريرك بعد أن نصب فيه مذبحا وسمح الوالي بدق الناقوس من سطح القصر بالجيزة.

هكذا اتجهت بلاد النوبة (مقرة وعلوة) في زعامتها الروحية إلى الكنيسة المصرية، ونشأت بينهما علاقات طيبة مصدرها حاجة الكنيسة النوبية إلى أساقفة، وبسبب هذه الصفة الدينية لملوك النوبة فقد نشأت بينهم وبين بطاركة الكنيسة المصرية علاقات ودية، اختلفت طبيعتها من حين إلى آخر تبعا لما تقتضيه مصالح الطرفين غير أن موضع الأهمية هنا هو موقف ولاة مصر من الكنيستين من حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية دون ضغط أو تسلط.

I - Jakobielski, Biskoprie, PP. 52-67.

٢ - ابن المقفع: سير الأباء، م ١، ج ٢، ص ٢٨٣، ٢٨٣.

الفصل الثانى

التأثير الثقافى والاجتماعى المصرى

فى السودان وأدى النيل

- هجرات القبائل العربية وأثرها فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى السودان وأدى النيل.
- الهجرة العربية وأثرها على العادات والتقاليد بسودان وأدى النيل.
 - الزواج.
 - الختان.
 - المسميات
 - المأكل والمشرب.
 - الملبس.
 - المسكن.

الفصل الثاني

التأثير الثقافي والاجتماعي المصري في السودان وادي النيل

هجرة القبائل العربية، وأثرها في نشر الإسلام، والثقافة العربية في السودان وادي النيل: أصبحت مصر منذ الفتح العربي، مبهطاً للقبائل العربية المهاجرة من الجزيرة العربية. وقد وفدت إليها هذه القبائل جماعات تلو الجماعات، ومنها إلى صعيد مصر، وبلاد النوبة الشمالية وشمال السودان وأدى النيل حيث تشابهت البيئة إلى حد كبير ببيئة الجزيرة العربية، وموطنهم الأصلي^(١).

ولعل فلول الأمويين الذين فروا من مذابح العباسيين عقب سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ/٧٤٨م، هم الرواد الأول من العرب الذين هاجروا إلى بلاد النوبة^(٢).

ولكن هذا التيار المهاجر المنصرف صوب الجنوب بدأ يزداد عمقا وشدة بعد أن أصبحت أحوال مصر خاصة والعالم الإسلامي عامة لا تشجع العرب على الإقامة إنما تدفعهم صوب الجنوب دفعا، فقد أسقط العرب من العطاء^(٣)، وبدأت الدولة الإسلامية تقصيه من الجيش مستعينة بعناصر أخرى من الفرس أو الترك أو العبيد السودانيين في العهد الطولوني والاخشيدي^(٤). حيث نظر إلى العرب

١ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ ١، ص ٣١٥، ٣١٦،

El Mahadi Mandour: Op. Cit. P. 27.

٢ - المسعودي: التنبيه والإشراف: جـ ١، ص ٢٨٥؛ ابن وصيف شاذ: جواهر البحور ووقائع الدهر - مخطوطة بمعهد المخطوطات، ميكرو فيلم، ص ٢٢ب، ٢٣أ؛ ابن الجوزي: تنوير الغيش في فضل السودان والحبش، ص ١٢٨-١٣٣؛ القزويني: آثار البلاد، ص ٢٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ١٣١، ١٣٢؛ الشاطر بصيلي: معالم تاريخ السودان وادي النيل، ص ٤٨، ٤٩؛ حسن إبراهيم: انتشار الإسلام، ص ١٤٤،

MacMichael. H. A.: Op. Cit. P. 161.

٣ - الكندي: الولاة، ص ١٩٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، جـ ٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣، المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٩٤.

٤ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ ١، ص ١١٦.

منذ ذلك الوقت، كنحصر غير مرغوب فيه، وخاصة وأن هذه الأسرة الحاكمة، أسرة تركية فرضت نفسها على العرب، بل أطلقت على العرب اسم عناصر الشغب^(١).

ولم ينقطع تيار الهجرة العربية إلى مصر طوال فترة عصر الولاية، بل استمر حتى العصر الفاطمي، حتى أصبحت أرض مصر مكتظة بجميع فروع القبائل العربية من ربيعة وفزارة، وقيس وكنانة وهوازن وهلال^(٢).

وكل هذه الفروع من الفروع الشمالية، أما فروع الجنوب فمنها جهينة وطى وبلى وغيرهم^(٣).

على أية حال استغرقت هجرة القبائل العربية واستقرارها في مختلف أنحاء مصر، وقتاً غير قصير، حيث استمرت حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي^(٤)، ولكن الظروف التي كانت تطرأ على مصر في مختلف العصور الإسلامية، كانت تدفع هذه القبائل إلى أن تهاجر من مصر ثانياً إلى جهات متعددة منها، سواء في حواف الدلتا أو أعالي الصعيد، وكان الإقليم الأخير هو الجو المناسب لهذه القبائل العربية، والبعد عن الحكومة المركزية بالفسطاط، فأصبح المهجر التقليدي المناسب لهم^(٥)، ولذا فقد ضم هذا الإقليم بين ثناياه الكثير من هذه القبائل، منها قبيلة ربيعة التي امتدت بطون منها إلى بلاد النوبة الشمالية، وشرقاً إلى أرض البجة، حيث أسسوا بوادي العلاقي أول أمارة عربية إسلامية زمن الفاطميين، وقد كانت هذه الهجرات العربية من وسائل الدعوة غير المباشرة للإسلام^(٦).

وكان العامل الاقتصادي في البحث عن موارد الرزق من العوامل التي شجعت العرب على الهجرة عبر نهر النيل والبحر الأحمر إلى هذه البلاد، يقول

١ - المقرئزي: الخطط، جـ ١، ص ٩٤؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٢٨.

٢ - انظر القسم الأول، هجرات القبائل العربية إلى مصر،

٣ - حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية، جـ ١، ص ١٠٩-١١١.

٤ - المرجع نفسه، ص ١٠٩-١١١.

٥ - المرجع نفسه، والجزء، ص ٣١٧-٣١٨؛ مصطفى مسعد المكتبة السودانية، ص ١٤ حاشية (٢)؛ Hamilton J. A. C.: The Anglo. Egyptian Sudan.

٦ - المقرئزي: البيان والاعراب، ص ٤٤؛ عبد المجيد عابدين: دراسات سودانية مجموعة مقالات في الأدب والتاريخ، ص ٤.

المقريزي: "أن البجة كثيرا ما كانت تشن الغارات على القرى الشرقية وأوديتها حتى أخرجوها، فقامت ربيعة بصددهم، ثم تزوجوا منهم، واستولوا على معدن الذهب بالعلاقي، فكثرة أموالهم، واتسعوا في أحوالهم^(١)".

وكان لإلزام هذه القبائل بدفع الخراج عن الأرض في العصر العباسي، والتشدد في جمعه - أكبر الأثر في ثورة هذه القبائل في عهد الخليفة المهدي، وخلافة هارون الرشيد والمأمون^(٢)، ولم تفلح ثورة هذه القبائل، ومن هنا كانت هجرتها بحثا عن موارد أخرى للرزق، فاتجهت إلى الصعيد والصحراء الشرقية^(٣) حتى إذا جاء عهد الخليفة المعتصم بالله، ومع ازدياد النفوذ التركي، وسيطرة الأتراك على الحكم والجيش في مصر، احترف العرب الزراعة والتجارة، وهاجرت قبائل كثيرة منهم إلى الجهات الشمالية من بلاد النوبة وإلى أوطان البجة^(٤).

ويلاحظ أن عهد عبد الله بن سعد لم يكن حائلا لوجود الاتصال، بل وضع أساسا لذلك، بحرية دخول المصريين إلى النوبة وبالعكس، ولم يكن الاهتمام باستقرار كل من الجانبين في بلد الآخر، وإنما بما يضمن انتشار الإسلام وتنشيط التجارة^(٥).

بل يمكن أن نستشف فيما ورد في هذا العقد أيضا ما يشير إلى وجود المسلمين في دنقلة، مع مجئ عبد الله بن سعد إليها، ويبرز ذلك فيما جاء عن وجوب حفظ النوبة للمسجد الذي بناه بمدينةنتهم، وأن عليهم كنسه وإسراجه^(٦).

وتشير المصادر إلى اتخاذ القبائل العربية أوطانا دائمة لها في الإقليم بين أسوان ووادي حلفا، وهو الإقليم الذي اتخذ اسم مريس^(٧). وتمكن المسلمون من

١ - المقريزي: البيان والأعراب، ص ٤٤٤؛ وأيضا الخطط، ج ١، ص ١٩٥.

٢ - الكندي: الولاة، ص ١٩٣، ١٩٤؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ٢، ص ١٩٣، ١٩٤.

٣ - سيده كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص ٢٢٦-٢٢٧.

٤ - عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٩٨١، ص ٢٠.

٥ - المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٨٨، ١٨٩؛ المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٢٠٠.

٧ - أهم مدن إقليم مريس هي القصر (٥٠ كم من أسوان جنوبا، وهي أول الإقليم من الشمال، وتالميس (كلايشة) (٥٥ كم) ودرمس وتافه وهما تابعتان لقرية كلايشة حاليا، والدواو الدر (٢١٠ كم) وإبريم (٢٦٠ كم) ونجراش (فرس حاليا) (٣٥٠ كم) والمقس الأعلى وهي آخر مدن الإقليم من الجنوب أي في نهاية الجندل الثاني، وتعرف اليوم بساي انظر:

Arkell, A. J. A history of the Sudan from the Earliest times to 1821, P. 190,

وزارة الشؤون الاجتماعية. بلاد النوبة حاضرها ومستقبلها، ص ٢٨.

التدفق عن طريقه إلى باقى أنحاء النوبة، ونشر الإسلام، واللغة العربية فيها، وهذا ما أشار إليه المسعودى حين قال: "ان لمن بأسوان ضياع كثيرة داخلية بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة، وأنهم قاموا بشرائها فى العصرين الأموى والعباسى من رعاياه، ولهذا أرسل هذا الملك، وفدا إلى المأمون حين قدم إلى مصر يسأله الفصل فى الأمر، حيث أن الأرض أرضه والقوم فيها عبيده لا أملاك لهم، ومن ثم لا حق لهم فى بيعها إلى العرب، وحين علم أهل أسوان ان الأرض ستتزع من أيديهم احتالوا على ذلك بن جعلوا أهل النوبة يقرون بعدم عبوديتهم لملكهم، وبذلك توارث المسلمون هذه الأرض^(١)."

كان رفض شكوى الملك النوبى (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) إيذاناً بسيطرة العرب^(٢)، على تلك المنطقة، والتي صارت مركزاً للمؤثرات العربية الإسلامية تنطلق منها إلى أعماق بلاد النوبة، وحين زارهم أحمد بن سليم الاسوانى أثناء بعثته إلى بلاد النوبة، وجد هؤلاء العرب يتصرفون فى إقليم مريس - خاصة الجزء الشمالى منه - تصرف أصحاب البلاد، حيث قال: "وهى الناحية التى يتصرف فيها المسلمون، ولهم فيها قرب أملاك"^(٣)، كذلك يصفهم ابن سليم بأنهم مقيمون ولا يفصح أحدهم بالعربية^(٤)، وقد يكون المقصود بذلك المولدين.

وتؤكد الاكتشافات الأثرية ما ورد فى المصادر التاريخية عن انتشار المسلمين فى البلاد، ففي بعض جزر كلابشة عثرت بعثة معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو والمعهد السويسرى بمصر - خلال أعمالها سنة ١٩٦١ فى المنطقة بين بيت الوالى وخور دهميت على عملات إسلامية برونزية^(٥).

وتشير الجبانات الإسلامية وشواهد القبور بها إلى استخدام أراضى الدفن المسيحية لدفن المسلمين^(٦)، وهى الجبانات الإسلامية تلك التى أشار إليها أرثر

١ - المسعودى: مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٤٣؛ ارتولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ١٣٠، ١٣١.

٢ - المسعودى: مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٤٣.

٣ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٠.

٤ - المصدر نفسه، والجزء ١، ص ١٩٠.

5 - Keith seele, From khor Dehmit to Beit El-Wali, Fouilles en Nubie, P. 48, Gerhard Haeny, Tafa, Kalabsha, Wadi El Sebu, Rock inscriptions and semna south, Actes du 11 Symposium, P. 34.

6 - Save. Soder berg, T., Christian Nubia, Nubische Kunst, P. 230.

ويجال جنوبى عنيبة بحوالى سبعة كيلومترات^(١)، وكذلك ما عثر عليه فى جبل عدة من مقابر إسلامية تميزت بقبابها المشيدة بالأجر^(٢) وهى من طراز وجد أيضا فى أنحاء مختلفة بالنوبة الشمالية وتشبه ما يوجد فى جبانة أسوان^(٣).

وفى دنقلة العجوز عثرت البعثة البولندية أيضا على جبانة إسلامية بها مقابر من أنواع مختلفة منها قبور تميزت بمصاطب مسطحة ترتفع من عشرين إلى ثلاثين سنتيمترا ومغطاة بجص أبيض أو محاطة بالأجر، وعثر على الآلاف من مقابر هذا النوع، ومنها مقابر غطيت بأقبية من الطوب اللبن^(٤)، وأخرى غطيت بقباب، وعلى الرغم من قيمة هذه المقابر الإسلامية من الناحية المعمارية والفنية إلا أنها تدل على تعريب السودان وأدى النيل.

وتؤكد شواهد القبور العربية التى عثر عليها فى أنحاء مختلفة من النوبة على زيادة عدد المسلمين، واعتناق النوبيين للإسلام فى فترات تسبق سقوط الممالك المسيحية، ومثال ذلك شواهد القبور التى عثر عليها فى تافة والمؤرخة فى سنة ٢١٧هـ (٨٣٢م)، وكلاشبة ٣١٧هـ (٩٢٩م)، وقرطاسى ٣٢٢هـ (٩٣٣م)، والدوسنة ٤١٨هـ (١٠٢٧م)، ويلاحظ فى بعض شواهد القبور القبطية استخدام التقويميين القبطى والهجرى^(٥).

وتدل بعض شواهد القبور العربية، التى استخدمت كمواد للبناء فى بعض العمانر المسيحية المتأخرة على إقامة المسلمين فى مواقع استخدمها المسيحيون بعد القرن الحادى عشر لإقامتهم، وفى هذه الشواهد ما تم اكتشافه فى جبل عدة، حيث عثر على شاهدى قبر يرجعان إلى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى^(٦). وما كشفت عنه البعثة الإسكندنافية فى إحدى الجزر شرقى النيل فى المنطقة الواقعة بين

1 - Weigall, A, A report on the Antiquities of lower Nubia, P 123.

2 - Mostapha El. Emir, Fouilles de L'universite d'Alexandrie a Gebel Adda (1959): Fauilles on Nubie I, P. 38.

٣ - فريد شافعى: العمارة العربية فى مصر الإسلامية، عصر الولاة، المجلد الأول، للقاهرة ١٩٧٠، ص ٥٦٥، ٥٦٧.

٤ - محمد غيطاس: أضواء جديدة على تاريخ النوبة، ١٩٨٧، ص ١٠٩.

٥- انظر الخريطة شكل (١١)؛

Monneret de Villard, Storia, P. 118.

6 - Adams, W. Y.: Sudan Antiquities service Excavations in Nubia. Fourth season 1962-63. Kush XII, 1964, P 326.

فرس وجماعى، حيث عثر على شاهدى قبر أحدهما لاسحاق بن أحمد الذى توفى فى سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م والآخر لمحمودة بنت محمود بن يوسف التى توفيت فى سنة ٣٠١هـ/٩١٣م^(١).

وفى جزيرة مينارتى التى كانت تقع على بعد ١٠ كم جنوب وأدى حلقا عثر آدمز على مجموعة من شواهد القبور، من بينها اثنان باللغة العربية لأختين، والشاهدان بخط كوفى موزق توريقا بسيطا، وأحدهما لفاطمة ابنة إبراهيم بن اسحق ابن عيسى التى توفيت يوم الأحد فى أول جمادى الثانى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة للهجرة أى ما يوافق سنة ١٠٦١م^(٢)، والآخر مؤرخ بسنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة أى ما يوافق سنة ١٠٦٣م، وقد استخدم الشاهدان أيضا كمادة للبناء فى بعض العمارات المسحية بالجزيرة^(٣).

ونلاحظ هناك أن أغلب ما عثر عليه من شواهد يرجع إلى نهاية عصر الولاية، أى الفترة الواقعة بين القرن الثالث والخامس الهجريين/ القرن التاسع، والحادى عشر الميلاديين.

ويرى بلوس Bloss أنه بعد الفتح العربى لمصر هاجرت جماعات عربية على طول الساحل الأفريقى للبحر الأحمر، واستقرت فى أرض البجة واختلطت بهم، وتزوجت من بناتهم على الرغم من أن موجة الفتوح الإسلامية كانت لا تزال على شدتها على طول ساحل البحر المتوسط^(٤).

وفى رواية لابن حوقل أن جماعات من عرب الحوف وخاصة من قيس عيلان قامت بهجوم على البجة لتعديهم على أهل مدينة قفط قبل أن تغزوهم قسوات ابن الجهم بحوالى ثلاثين سنة، ولا يبعد أن يكون هؤلاء استقروا فى العلاقى حيث توجد آثارهم، ويضيف ابن حوقل إلى أن بعض الذين اشتركوا فى حملة ابن الجهم ضد البجة أثروا البقاء فى العلاقى حيث بهرتهم معادن الذهب، ثم لحقت بهم - فى نفس الوقت - جماعات من أهل اليمامة، بسبب ضغط جماعات عربية أخرى^(٥).

نقلا عن

1 - Save - Soderberg T, Op. Cit, P. 238.

2 - Adams, W. Y.: Kush XII, P. 236

3 - Adams, W. Y.: Op. Cit, PP. 162-173.

4 - Bloss, J. F. E.: The story of suakin, SNR, XIX, II, 1936. P. 278.

ولم يكد يمضى أكثر من ست سنوات على حملة ابن الجهم على البجة حتى وفدت جماعات من ربيعة وجهينة سنة ٢٣٨هـ (٨٣٧م) إلى العلاقى بعد أن وصلتها أنباء المعادن التي تحويها تربة هذا الوادى^(١).

ومما لا شك فيه أن الجماعات الإسلامية المختلفة ممن اختلطوا مع البجة قد تعلموا اللغة البجاوية، ليسهل عليهم التعامل مع البجاويين والتأثير فيهم، والدليل على ذلك أن زكريا ابن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله بن إسماعيل القرشى قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبتاوية^(٢).

ازداد اقبال العرب على أرض البجة (المعادن) وغيرها منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٨هـ / ٨٣٣-٨٤٢م)، لأن الخليفة استكثر من الجند الأتراك وأثبتهم في الديوان، وأمر واليه في مصر كيدر بن نصر الصفدى باسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم^(٣)، وأدى هذا إلى ما يلي:

- انتشارهم في جميع أنحاء مصر، والاعتماد في طلب الرزق على أنفسهم، فيعملون بالزراعة وغيرها، وهذا يؤدى إلى الاختلاط وصبغ الحياة العامة بالصبغة الإسلامية.

- كان لهذا الضغط السياسى والاقتصادى أسوأ الأثر في نفوس العرب^(٤) وبدأت جماعات كثيرة منهم تسعى للرحيل والهجرة، ولم يكن أمامهم إلا الانسياب جنوباً وغرباً بعيداً عن ضغط الأتراك في مصر، وحانت لهم هذه الفرصة عقب تأسيس الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م^(٥)، حينما أعلن عن إعداد حملة حربية إلى بلاد النوبة وأرض البجة بقيادة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى، فاشترك فيها كثير من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة^(٦).

1 - MacMichael, H. A: Op. Cit, P. 163

٢ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٦.

٣ - المقرئى، نفس الجزء ص ٩٤.

٤ - انظر ثورات العرب ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣؛

Lane- Paul: Op. Cit. PP. 42-43.

٥ - يقول المقرئى: "فانقرضت دولة العرب فى مصر وصار جندها العجم الموالى من عهد المعتصم إلى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون فاستكثر من العبيد" المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ٩٤.

6 - MacMichael, H. A.: A hist of the Arabs in the Sudan I. P 166.

El Mahadi Mandour: OP. Cit, P. 31.

لقد استقر كثير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم حول أسوان غير أن الشقاق ما لبث أن دب في صفوفهم وبدأ صراع عنيف بين هؤلاء جميعاً بعد موت العمري على امتلاك المعادن بالعلاقي، وتمكن فخذ من ربيعة أن يخرج من خلفه من العرب بعد أن استمال إليه البجة، "وتصاهروا إلى رؤساء البجة وبذلك كف ضرهم عن المسلمين^(١)."

ويشير اليعقوبي وهو المؤرخ المعاصر لمعظم هذه الأحداث ٢٥٨هـ / ٨٧١م إلى أثر هذه الجماعات الإسلامية المختلفة. وهم كثيرون كما قال بأرض البجة^(٢)، والمسعودي الذي زار مصر حوالي ٣٣٣هـ / (٩٤٠م) أي بعد حملة العمري بحوالي سبعين سنة فقط، يتحدث عن الأثر الواضح لهذه الجماعات العربية الإسلامية في نشر الثقافة الإسلامية في إقليم البجة وبلاد النوبة كذلك^(٣)، ويبدو من رواية المسعودي أن الإسلام ظهر وانتشر بعد أن سكنت جماعة من المسلمين أرض البجة وممن سكن مناجم الذهب والعلاقي وعيذاب عرب ربيعة الذين اختلطوا بالبجة وتزوجوا من بناتهم، فاشتد ساعد البجة على من ناوهم من النوبيين وغيرهم، كما اشتد ساعد ربيعة بالبجة على من خالفها من العرب، وتحالفت ربيعة مع البجة، وكان أميرهم زمن المسعودي أبا مروان بشر ابن اسحق بن ربيعة، الذي بلغ عدد جيشه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها من العرب وثلاثين ألف حراب على الإبل من الحدارية، وهم المسلمون من سائر البجة^(٤).

والراجح أن جماعة من عرب ربيعة نجحوا في وضع أساس أول أمانة عربية إسلامية بالعلاقي بعد أن استمالوا إليهم البجة وجماعات عربية من قبيلتي مضر وتميم فخضع لهم الجميع، يقول المقرئزي: "واستولوا على معدن الذهب بالعلاقي، فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واختلطوا قرية

١- المقرئزي: الخطط، ج١، ص ١٩٦-١٩٧.

٢- ذكر اليعقوبي مواضع كثيرة بأرض البجة، ليس من اليسير تحقيقها، غير أن موضع الأهمية فيما ذكره هو إشارته إلى جماعات عربية إسلامية كثيرة في مواضع مختلفة بأرض البجة انظر: كتاب البلدان، ص ٣٣٤-٣٣٥.

٣ - المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ١٩١؛

Paul, A.: A hist of the Beja Tribes P. 64.

4 - Ibid : Op. Cit. P. 64.

تعرف بالنماس وحفروا فيها آباراً^(١) ويتحدث المسعودي عن وصول الإسلام جنوباً حتى جزيرة سواكن حيث تسكن جماعة من البجة اعتنقت الإسلام تعرف باسم الخاصة^(٢).

هكذا كان التسرب العربي الإسلامي المتجه من مصر إلى السودان وأدى النيل، دوافع ثلاثة:

أولاً: ضغط من جانب حكام مصر.

ثانياً: البحث من الكلاً في إقليم النوبة الشاسعة.

ثالثاً: التجارة، وخاصة تجارة الذهب التي ذاعت شهرتها في أرض البجة، بالإضافة إلى تجارة الرقيق، وقد سارت هذه العوامل الثلاث جنباً إلى جنب، وكانت من أكبر العوامل التي أدت إلى نشر الإسلام والثقافة العربية في ربوع تلك البلاد بطريق غير مباشر^(٣).

ومن العوامل التي ساعدت على نشر الثقافة العربية القادمة من مصر الجاليات النوبية التي أقامت بمصر، فمنذ أن فقد العرب امتيازاتهم بدأ الولاء في مصر يستخدم عناصر غير عربية في الجيش، وكان ابن طولون أول من استخدم السودانيون في الجيش الطولوني، وبلغت عدتهم حوالي أربعين ألف سوداني^(٤)، وبلغ من كثرة عددهم أن عين حاجباً خاصاً لصرف جرياتهم، لكن كيف حصل ابن طولون على هؤلاء النوبيين للعمل في جيشه، يقول المقرئزي: أنه حصل عليهم بطريق الشراء^(٥) ولو صح هذا فإن بلاد النوبة تعرضت لحملات عنيفة من جانب تجار الرقيق.

١ - المقرئزي: البيان والأعراب، ص ٤٨.

٢ - نقل المقرئزي: هذا النص عن المسعودي؛ الخطط، ج ١، ص ١٩٧.

٣ - بوركهارت: رحلاته، ص ١١٧؛ محمد عوض محمد: السودان الشمالي ص ١٢؛ محمد عمر بشير: تدفق الهجرات العربية للسودان، مجلة الدراسات السودانية، العدد الأول، مجلد ٧؛ ص ٥؛ محمد غلاب: تطور الجنس البشري، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

٤ - يقول المقرئزي: "... ثم قطعت القطائع وسميت كل قطية باسم من يسكنها فكانت للنوبة قطعية مفردة تعرف بهم" انظر الخطط ص ٩٤، ص ٣١٥.

٥ - المصدر نفسه، ص ٣١٥؛ مكي شيكدة: مرجع سابق ص ٣٩.

معنى هذا أنه من بين عوامل اضمحلال ممالك النوبة ما يمكن أن نسميه بتبادل في الجماعات والثقافات بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية^(١) فخرجت من النوبة جماعات نوبية التحقت بجيش مصر، ولفظت مصر بعض عناصر الشغب فيها - في نظر ولايتها الأتراك وهم جميعاً من العرب المسلمين فانسابوا إلى النوبة، ثم أخذ هؤلاء يؤثرون تأثيراً بشرياً وثقافياً فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة، على حين أن هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر لا بد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام، بدليل ما تردد عند أهل مصر إذ ذاك من شكواهم عن ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بالجند السودانيين^(٢).

ولم تتوقف عملية جلب النوبيين للخدمة في الجيش المصري بعد وفاة ابن طولون، بل استمرت في جيش الاخشيديين وخاصة في عهد كافور النوبى^(٣). هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر شاركت مشاركة إيجابية في الحياة الإسلامية في مصر، إذ تشير المصادر الإسلامية إلى بعض شخصيات نوبية اشتغلت بالعلوم الدينية والفقهية مثل يزيد بن أبى حبيب، أو ممن سلك طريق التصوف مثل ذى النون المصري النوبى الأصل، وتحية النوبية.

أما يزيد بن أبى حبيب، فأبوه حبيب، وأسمه سويد، وكان ممن سبى وأسروهم العرب في حملتهم الثانية على النوبة سنة ٣١هـ/٦٥٢م ونشأ ابنه يزيد نشأة عربية إسلامية، وقد أفادت يزيد صلته بعدد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم، حتى أصبح محدثاً ومؤرخاً وفقهاً^(٤).

أما أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذى النون المصري فأصله من النوبة ونشأ في مصر في القرن الثانى للهجرة، وقد تلقى الموطأ عن بعض أصحاب مالك بن أنس حين خرج إلى الحجاز حاجاً^(٥).

١ - لم يكن التبادل هنا عملية مقصودة مرتبة، بل هو محض الصدفة، ثم أن الأثر الإسلامى كان هو الغالب على هذا التبادل، سواء في النوبة ذاتها أو مصر، ولم يتأثر المسلمون بالنوبيين إلا قليلاً. انظر مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٢٨.

٢ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ٣٢٠؛ ويقول المقرئى "وشكا أهل مصر إلى ابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه، فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر".

٣ - المصدر نفسه، ص ٩٤.

٤ - انظر: ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص ١٨٤.

٥ - ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ١، ص ٣١٥، ٣١٦.

ولما عاد ذو النون إلى مصر مال إلى حياة الزهد والتصوف، وقد أشبع في نفسه هذه النزعة عن طريق الرحلة إلى المناطق النائية في صحارى الشام والعراق والمغرب وأوطان البجة، ولذا فهو بحق رائد التصوف في مصر والنوبة^(١). ويبدو اعتناق مسيحي النوبة للإسلام فيما ذكره ابن الجوزى عن صوفية عاشت في مصر في القرن الرابع للهجرة، تدعى^(٢) "تحية النوبية" قال: "روى أبو عبد الرحمن محمد بن السلمي قال: سمعت الماليتي^(٣) الصوفى يقول: دخلت على تحية زائرا، فسمعتها من داخل البيت وهى تتاجى وتقول فى مناجاتها: يا من يحبني وأحبه، فدخلت إليها، وسلمت عليها وقلت: يا تحية هبى أنك تحبين الله تعالى، فمن أين تعلمين أنه يحبك؟ فقالت: نعم أنى كنت فى بلد النوبة، وأبواى كانا نصرانييْن، وكانت أُمى تحملنى إلى الكنيسة وتجئ بى عند الصليب وتقول: قبلى الصليب، فإذا هممت بذلك أرى كفا تخرج فتزد وجهى حتى لا أقبله، فعلمت أن عنايته بى قديمة^(٤)".

وليس من المستبعد أن يكون للعناصر النوبية التى ذكرناها أثر واضح فى نشر الإسلام بين أهلهم فى بلاد النوبة ذاتها.

الهجرات العربية وأثرها فى العادات والتقاليد :

كانت الدعوة إلى الإسلام هى الدافع الأساسى لاتصال المسلمين وانتشارهم بين شعوب المناطق التى افتتحوها، وقد أدى ذلك بالإضافة إلى انتشار الإسلام بين تلك الشعوب إلى نشر لغة هذا الدين، واكتساب الأهالى لكثير من العادات والتقاليد الإسلامية، وفيما يتعلق ببلاد النوبة، فقد وضع عبد الله بن سعد أسس العلاقات مع بلاد النوبة ومنها تنظيم العلاقات التجارية، وحرية الاتصال بتلك البلاد، كما وضع

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٣١٥، ٣١٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٣٢٠، ٣٢١؛ ابن الجوزى: تنوير الغيش، ص ٢٢٨؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ١٥٣؛ ابن الوردى: تنمة المختصر ص ١٣٥.

٢ - ابن الجوزى: تنوير الغيش، ص ٢٥٩.

٣ - هو احمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن حفص أبو سعيد الانصارى الماليتى الهروى حافظ كبير متصوفات (٤١٢-١٠٢١) انظر: ابن الجوزى: تنوير الغيش، حاشية ص ٢٥٩.

٤ - المصدر نفسه، ص ٢٥٩.

عبد الله بن الجهم مع البجة معاهدة على غرار معاهدة البقط، لذا فقد توافد العرب على سودان وأدى النيل، واختلطوا بأهالي البلاد الأصليين عن طريق المصاهرة، خاصة وأن تجار الرقيق كانوا قد وصلوا إلى أقاصى بلاد النوبة، وأصبحت سوبا - عاصمة مملكة علوة - أكبر سوق لتجارة الرقيق، ولا شك أن النوبيين المستضعفين كانوا يلقون ببناتهم للقبائل العربية المستقرة هناك للزواج منهن، وذلك بقصد حمايتهم من هؤلاء التجار، وقد عجز ملوكهم عن حمايتهم، فضلا عن موقف الإسلام من الرق^(١).

الزواج:

يتحدث الإدريسي عن محاسن النوبيات فيذكرهم بقوله: "وفى نساتهم جمال فائق، وهن مختنات ولهن أعراق طيبة"^(٢). كما يشير الإدريسي في موضع آخر بقوله: "وجميع بلاد أرض النوبة فى نساتهم الجمال وكمال المحاسن، وشفاهم رفاق وأفواههم صغار ومباسمهم بيض، وشعورهن مسبطة"^(٣)، ويبدو أن تربية الفتيات النوبيات بمصر، كانت تضى علىهن شيئا من الصفات الحسنة، فيقول الإدريسي: "وكانت الجارية مع تمام محاسنها وبديع جمالها، إذا تكلمت أسحرت سامعيها لعذوية ألفاظها، وحلاوة منطقتها، لأنها ربيت بمصر، فكانت تامة الصفات..^(٤) وقد أدت هذه الصفات الطيبة للنوبيات إلى تهافت الأمراء بمصر على اقتنائهن والتسرى بهن.

ويقول الإدريسي: "ولهذا الخلال فيمن يرغب ملوك أرض مصر فيهن، فيتنافسون فى أثمانهن، ويتخذن أمهات أولاد، لطيب متعتن ونفاسه حسنهن..^(٥)".

١ - يحرم الإسلام استرقاق المسلم، كما أنه يساوى بين العبد ومولاه فى المأكل والمشرب والملبس، وفى معظم الحقوق المدنية. إلى جانب ذلك فإن الإسلام أوصى بعق العبد، فهذا قول الله تعالى: "وما أدراك ما العقبه فإك رقبه أو إطعام في يوم ذي مسغبة..." سورة البلد الآيات ١٢، ١٣، ١٤ وانظر شوقي عطا الله الجمل: تاريخ سودان وأدى النيل، ج١، ص ٢٢٧.

٢ - الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ص ١٣.

٣ - الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٣.

٤ - الإدريسي، ص ١٤.

٥ - المصدر نفسه، ص ١٣.

أما عن البجاه فيصف ابن سليم الاسواني تحولهم عن عاداتهم الوثنية^(١). نتيجة الاختلاط والانصهار مع العناصر العربية الوافدة، وخاصة بعد أن هادنهم عبدالله بن الحبحاب السلولى، إذ كثر المسلمون فى هذه المناطق، وخاصة مناطق المناجم، واختلطوا بالسكان وتزوجوا منهم وأسلم كثير من البجاه^(٢).

ويبدو من رواية ابن سليم الاسواني، أن عرب ربيعة قد لجأوا إلى وسائل مختلفة للتقرب من الحدارية، منها أنهم تحايّلوا على كهانهم للدعوة بطاعة ربيعة والانصواء تحت لوائها، لتتخذ منهم أعوانا ضد منافسيها من العرب للانفراد بحكم هذه البلاد ومما دعم هذه الصلة وقواها مصاهرة زعماء عرب ربيعة لرؤساء البجة^(٣).

ولابد أن العرب أدركوا قيمة حق الوراثة عن طريق الأم، أى نظام الأمومة فى وراثة الملك، فتزوج رؤساء العرب من بنات رؤساء البجة لينال أبناء أولئك الرؤساء من العرب حقا مشروعاً فى السيطرة على قبائل البجة حسبما يقتضيه نظام الأمومة^(٤).

واحتفظ البجاه فى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ببعض المظاهر الفرعونية رغم انتشار الاسلام فيما بينهم، فيذكر ابن سليم الاسواني بأن إسلامهم كان ضعيفا^(٥).

١ - انظر عاداتهم الوثنية: المقدسى: البدء والتاريخ، جـ ٤، ص ٦٩، ٧٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٢٩٧، ابن الوردى: تنمة المختصر، جـ ١ ص ١٣٥.
٢ - المسعودى: مروج الذهب، جـ ١، ص ٤٣٨، المقرئى: الخطط، جـ ١ ص ١٩٤، ١٩٥، مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص ٣٨.

El Mahadi Mandour: A short History of the sudan , P. 32

٣ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٦-١٩٧.

٤ - المقرئى: الخطط، جـ ١، ص ١٩٦-١٩٧.

Paul, A.: The Hadareb, A study in Arab-Beja relationships, SNR, XI P. 75.

٥ - أثبتت الزميلة نادية بدوى من واقع الدراسة الميدانية لرسالة الماجستير من التقاليد المتبعة فى الزواج عند هذه القبائل، ان ترفع خيشة العريس وبناتها بعد غروب الشمس، كما ان العروس والعريس لا يروا الشمس بعد زفافهم لمدة أربعين يوما، وهذا التقليد يرجع الى وقت ان كانت عبادة اله الشمس منتشرة بين قبائل البجة، وذلك حتى القرن السادس الميلادى، والهدف من ذلك حماية العروسين من اله الشمس، وبمعنى آخر هو نوع من الاحترام والتقدير لاله الشمس، ولايسح اتيان العمل الجنسى فى وجود اله الشمس. نادية بدوى: الزينة عند العبادة، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الافريقية، ص ٩٦، ٩٧، أحمد بدوى : فى موكب الشمس، جـ ١، ط لجنة التأليف والنشر، ط ٢، ١٩٥٥، ص ١٥٧-١٦٠، مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة، ص ٣٨.

ويبدو أن هذه القبائل العربية التي دخلت بلاد النوبة وأرض البجة خشيت أن ينقرض نسلها، أو يذوبو بين الاهاالى الأصليين، نتيجة اختلاطها معهم بلا تحفظ، فاستحدثت عادة فريدة من نوعها، لم يتبع مثلها العرب فى أى مكان نزلوا به، الا وهى عادة التشليخ فى الخدين^(١)، وقد اقتبست كل القبائل العربية التى توغلت إلى اعالى النوبة هذه العادة من بعضها، فأصبحت من السمات المميزة لكل قبيلة من القبائل العربية التى توغلت فى أعماق بلاد النوبة^(٢).

ويبدو أن هذه العادة كانت منتشرة بين القبائل العربية، وأخذتها عنها القبائل العربية بعد اختلاط العنصرين بالتزاوج، فقد اتخذت كل قبيلة من القبائل العربية هناك علامات خاصة أو سمة خاصة فى وجه أبنائها بقصد تمييزهم بسهولة من بين القبائل^(٣).

أما عن عادة الختان فهى معروفة عند قبائل البجة^(٤)، وأن كانت ترجع إلى أصل مصرى قديم، وليس للعرب فضل فى ذلك، ومما يذكر كذلك أن النوبيون يمارسون الختان للأولاد والختان الفرعونى للبنات^(٥).

أما المسميات العربية، فان ابن سليم الاسوانى أشار فى صدد حديثه عن النوبة أن المنطقة من أسوان حتى الشلال الثانى هى الجهة التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها أملاك^(٦). وأيدت الأبحاث الأثرية فى منطقة مريس وجود جاليات عربية إسلامية كما أشرنا من قبل، ذلك أنه عثر فى غير قليل من الاماكن بأرض مريس على كثير من المسميات العربية، ويرجع تاريخ أقدمها الى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى. وتدل كذلك شواهد القبور المكتوبة بالخط العربى، وتحمل أسماء

١ - أنظر عادة التشليخ عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ص ١٦٩، ١٧٠.

٢ - محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص ٢٨٨.

٣ - عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ١٦٩.

٤ - انظر المقرئزى: الخطط ، ج ١، ص ١٩٥، محمد بن عمر التونسى، تحيذ الازمان بسيرة بلاد العرب والسودان، القاهرة ١٩٦٥، ص ص ٢٢٤، ٢٢٥ محمد عوض محمد: الشعوب والسلاسل الافريقية ص ٢٦٦.

٥ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٧٧، الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص ٢٦٩.

٦ - المقرئزى، الخطط، ج ١، ص ١٩٠.

عربية^(١) في كل من تافه (٢١٧هـ/١٨٣٢م) وفي كلابشة (٣١٧هـ/٩٢٩م) على استخدام المسميات العربية، وتداولها في أرض مريس^(٢) هذه الجاليات العربية المقيمة هناك كثيرة التنقل بين منطقة مريس، وأرض البجة، لذا انتقلت بينهما المؤثرات العربية بسهولة ويسر، إذ وجدت كتابات عربية بالخط الكوفي على جدران قلعتين بالقرب من منجم للذهب في هذه المنطقة (دير يهيب)، ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادي (٣٧٢هـ - ٣٧٣هـ/٩٨٢-٩٨٣م) فضلا عن كتابات أخرى في نيزاري جنوب دير يهيب، ويرجع تاريخها إلى هذا العهد كذلك^(٣).

هكذا أدى اختلاط هذه الجماعات العربية المهاجرة إلى تأثر العناصر النوبية والبجاوية بالدماء العربية التي كانت تتجدد باستمرار طوال عصر الولاة.

المأكل والمشرب :

لاشك ان العرب المسلمين قد تبادلوا المنتجات الغذائية مع مصر بحكم الجوار إذ يقول المقرئزي عن مدينة أسوان الواقعة في أرض مصر، الوفيرة في منتجاتها "وأسوان في آخر بلاد الصعيد، وهي ثغر من ثغور الإقليم، يفصل بين النوبة وأرض مصر، وكانت كثرة الحنطة، وغيرها من الحبوب والفواكه، والخضروات والبقول، كما كانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم، ولحمائها هناك غاية في الطيب والسمن، وكانت أسعارها أبدا رخيصة وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة"^(٤).

ويشير المسعودي إلى النشاط المتبادل بين مصر والنوبة بمنتجاتها الغذائية بقوله: "وفي مدينة بلاق^(٥) خلق كثير من الناس ونخل كثير في كلا الشطين، وهذه

١ - انظر شكل رقم (١١)؛

Devillard: Op. Cit P. 118.

ومصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٣٠.

2 - Denillard · op. cit P. 118.

٢ - مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ١٣٠، ١٣١.

٤ - المقرئزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٩٧.

٥ - بلاق: هي جزيرة فيلة الحالية واسمها الفرعوني بيلاك : واطلق عليها مؤرخو الاغريق فيلى أو فيلاك، أما اسمها القبطي فهو بيلاخ، وتحرف هذا الاسم في العصر الاسلامي الى بلاق وهذه الجزيرة الان تقع فيما بين خزان أسوان والسد العالي. انظر المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٩٠، ١٩٩، مصطفى مسعد، الاسلام، ص ١٠٣.

المدينة تنتهى سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر وأسوان^(١).
هذا واشتهرت بلاد النوبة لدى المؤرخين المسلمين، بأنها تحوى الكثير من
مختلف أنواع الحيوانات والطيور التى يستطاب لحمها فى المأك^(٢)، كما ان ابن
سليم الاسوانى يشير إلى أنواع عديدة من الحيوانات والطيور النوبية المستخدمة فى
الطعام^(٣).

ولما كانت العلاقات بين مصر والنوبة قد تحددت بمقتضى معاهدة البقط وبما
نصت فيها من تبادل السلع الغذائية، فقد كان على مصر الإسلامية، ان توجه
اهتمامها للاستفادة من هذه الحيوانات والطيور النوبية على اختلاف أنواعها خاصة
طوال عصر الولاية^(٤).

وكانت بلاد البجة التى تنتسب إليها الإبل البجاوية^(٥) بصفة خاصة مستودعا
كبيرا للإبل، وخاصة فى قرية بخته^(٦) التى تنتسب إليها الجمال البختية وهى أحسن
أنواع الجمال.

وأشار أحمد بن سليم الاسوانى أثناء رحلته فى بلاد النوبة فيقول: "والمواشى
من البقر والغنم والضأن غاية فى الكثرة عندهم^(٧)". ثم أشار الادريسي من بعده إلى
وجود الأغنام والماعز والحملان والبقر بكثرة فى بلاد النوبة، ويذكر أنها
أساسيات التبادل السلعى بين مصر والنوبة^(٨) خاصة أن الأطباء فى ذلك العصر
كانوا يوصفون لحم الضأن النوبى للمرضى فى مصر، ضمن وسائل العلاج^(٩).

- ١ - المسعودى: مروج الذهب: ج ١، ص ٤٤٢، وأيضا ج ١، ص ٤٣٦، ٤٣٧.
- ٢ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٧٧.
- ٣ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٤، ١٩٥، بوركهات: رحلاته، ص ١٢٠.
- ٤ - ظلت بلاد النوبة تشتهر بكثرة الإبل منذ العصور الوسطى الى العصر الحديث، أنظر بوركهات:
رحلاته الى النوبة والسودان، ص ١٢٠.
- ٥ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٤.
- ٦ - بختى نوع من الجمال تنتسب الى قرية بخته، من قرى قبائل البجة بالصحراء الشرقية، وقد اشتهرت
هذه القرية، بانتاج نوع من الجمال الجيدة تعرف بالجمال البختية، امتازت بالسرعة والصبر يقول عنها
الادريسي "وليس يوجد على وجه الارض جمال احن منها، ولا أصبر على السير ولا اسرع خطا وهى
بديار مصر معروفة بذلك، أنظر: الادريسي، صفة المغرب وارض السودان ومصر، ص ٢٧.
- ٧ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩٢، ١٩٣.
- ٨ - الادريسي: المصدر السابق، ص ٢١.
- ٩ - الانفوى: الطالع السعيد، ص ٢٨.

ويشير الادريسي إلى طبيعية المأكّل والمشرب عند القبائل النوبية بقوله:
"وشربهم من الآبار وأكلهم من الذرة ولحوم الجمال المقددة والحيوت المصيد،
والألبان عندهم كثيرة"^(١).

كذلك اشتهرت بلاد النوبة، خاصة إقليم مريس بالأسماك^(٢)، ويبدو ان اتساع
نهر النيل النوبي، فضلا عن كثرة المساقط المائية فيه، ساعد على وجود الأسماك
بكثرة، فترك أبناء النوبة الزراعة وعملوا في صيد السمك، وجعله غذاء رئيسيا
لهم^(٣).

وقد اهتم حكام مصر منذ عصر الولاة بالثروة السمكية في بلاد النوبة، حتى
وجد ما يعرف بديوان المصايد للاستفادة من الثروة السمكية عموما^(٤).

ويشير الادريسي إلى طعام مدينة دنقلة في غربي النيل : يقول "وفيه شرب
أهلها، وأهلها سودان لكنهم أحسن السودان وجوها وأجملهم شكلا، وطعامهم الشعير
والذرة، والتمر يجلب إليهم من البلاد المجاورة لهم، وشرابهم المرز المتخذ من الذرة
واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل طرية ومقددة ومطحونة ويطبخونها بألبان
النوق، وأما السمك فكثير عندهم جدا"^(٥).

وقد لاحظ بوركهارت وهو في طريقة إلى دنقلة أن طعام الخبز من القمح دليل
على الرفاهية والثراء العريض، وطعام العامة من الذرة^(٦) وهو في غاية الخشونة،
ويصنع بغير ملح ويخبزونه على الصلح كبود جزيرة العرب^(٧).

وقد حازت بلاد النوبة شهرة كبيرة في التمر وإنتاجه، فقد كانت أول إشارة
لنخيل النوبة في العصر الإسلامي ما وردت عند اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)

١ - الادريسي: صفة المغرب، ص ١٢، القلقشندي: صبح الاعشى ج ٥، ص ٢٧٥.

٢ - الادريسي: صفة المغرب، ص ١٩، ابن تغري بردي: النجوم، ج ٢، ص ٢٩٧، بوركهات، رحلاته،
ص ص ٢٢، ٢٣.

٣ - المقرئزي: الخطط ج ١، ص ١٩١،

Trimingham, J.S. : Op. Cit. P. 8.

٤ - المقرئزي: الخطط ج ١، ص ص ١٠٦، ١٠٧.

٥ - الادريسي: صفة المغرب، ص ١٩، القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٧٥. ٢٧٦.

٦ - بوركهارت: رحلاته، ص ٩.

٧ - المرجع نفسه، ص ١٢٤.

حين قال: "وبلادهم بلاد نخل وكرم وزرع"^(١).

ثم تلاه المسعودى (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) الذى أشار أيضا إلى كثرة النخيل هناك وأجرى مقارنة بين تربة النوبة وتربة البصرة والكوفة من حيث ملاعمتها لإنبات النخل فيه فيشيد بالتربة النوبية ويقول أن النواة عندما تودع فى الأرض فتتبت نخلة، ويؤكل من ثمرها بعد عامين اثنين فقط، بينما أرض البصرة والكوفة لا تلائم انبات النوى^(٢).

إشارة أحمد بن سليم الاسوانى الى وفرة النخل فى تلك البلاد، أثناء رحلته فى بلاد النوبة، تدل على صدارة بلاد النوبة فى إنتاج التمر، فيذكر أن هناك أنواع من التمر النوبى لا نظير له فى أى مكان فى العالم^(٣)، ويبدو أنه ظل يشاهد اخراج النخيل على ضفتى النيل طوال رحلته على النيل، فأعجب بها، وأكثر من وصفها. والتمر النوبى لم يكن له نظير من حيث الكم والكيف، وكثرة تنوعه إلى حد انه أصبح دعامة للاقتصاد النوبى، وأصبح غذاء النوبيين الرئيسى، إلى جانب الشعير والذرة^(٤)، ويشير المقرئى إلى ان هذا التمر كان يحمل الى مصر بقوله: وان ما يحمل ما بها من التمر والقطن والحقول الجارى بها من قديم الزمان^(٥).

الملابس:

لاحظ المؤرخون والرحالة الذين زاروا منطقة النوبة وأرض البجة أن ملابسهم بسيطة فى شكلها، ويرجع هذا ربما لطبيعة الأحوال المناخية فيذكر الدمشقى: "أن للنوبة صنفان: أحدهما يقال لهم: علوا، وملكهم يسكن مدينة تسمى كوسة والآخر

١ - اشتهرت بلاد النوبة بإنتاج أفخر أنواع التمر، فيذكر الحموى فى معجم البلدان، ج ١، ص ٢١٩ الفارق الكبير بين تمر النوبة وتمر العراق الذى كان يليه فى الجودة، ويذكر الالفوى: الطالع السعيد: ص ٢٨، المقرئى، الخطط ج ١، ص ١٩٩، ان الخليفة العباسى هارون الرشيد عندما طلب تمرا من تمر النوبة جمعت له ثمرة واحدة من كل صنف وبذلك جمعت له وبيعه، مما يدل على كثرة تنوع التمور النوبى، اليعقوبى: تاريخ ج ١، ص ١٩١.

٢ - المسعودى: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٤٢، ٤٤٣.

٣ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ص ١٩٠، ١٩٢، ١٩٥.

٤ - القلقشندى: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٧٥.

٥ - المقرئى: الخطط، ج ٢، ص ٢٠١.

يسمى: مقرا "وملكهم يسكن دنقلة. لا يلبسون المخيط" بل يتحشون بثياب من الصوف يقال لها: الدكاديك^(١).

كذلك يشير إلى البجة بقوله: "وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسكنون المدن"^(٢).

ويشير القزويني إلى ملابس النوبة بقوله: "ومن عاداتهم تعظيم الملك الذي اسمه كابيل... ولبسه الثياب الرفيعة من الصوف والخز والديباج"^(٣).

وفي موضع آخر يشير إلى دنقلة وأهلها عراة^(٤) مؤتزون بالجلود، والنمر عندهم كثيرة، يلبسون جلودها^(٥).

أما الادريسي فيشير إلى مدينة بلاق إحدى المدن النوبية، اذ يرتدى أهلها الأزرق والمازر^(٦).

أما المقرئ فيشير إلى الاختلاط بين البجة والعرب، وما ينتج عن ذلك من انتقال المؤثرات العربية من الأزياء بقوله: وقيل البجة قبيلة من الحبش أصحاب أخبية من شعر وألوانهم أشد سوادا من الحبش يتزينون بزى العرب^(٧).

فما لاشك فيه أن القبائل العربية المهاجرة إلى السودان وادي النيل نقلت معها أسلوب العرب في الملابس، فهناك لباس عربي قح، كان يلبسه النوبيون المستعربون، وهذا اللباس عبارة عن سروال^(٨)، جلدي مشقق إلى سيور، وبدون ساقين ولا حجزه، وكان هذا اللباس أكثر شيوعا بين الفتيات^(٩).

١ - الدمشقي: نخبة الدهر، ص ٢٨٦.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

٣ - القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٥.

٤ - لم يسمع ان النوبيين انهم عراة، وربما ينصرف هذا الوصف على بعض القبائل التي تعيش في الأقاليم النائية في الجنوب أو في الغرب، وتخضع لملك النوبة في علوة انظر: مصطفى مسعد: المكتبة السودانية حاشية (٣) ص ١٩٤.

٥ - القزويني: آثار البلاد، ص ٣٩.

٦ - الادريسي: صفة المغرب، ص ٢٠.

٧ - المقرئ: الخطط، ج ١، ص ١٩٧.

٨ - ظل هذا اللباس مستخدما في بلاد النوبة المختلفة الى عصر قريب ان لم يكن موجودا الى اليوم فسي بعض بوادي النوبة.

٩ - عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ١٦٨.

وثمة نوع من الملابس العربية تتميز بها نساء النوبة المستعربة وهذا اللباس عبارة عن ثوب ابيض تلتف به النساء ، ويعرف عند الكنوز بالنوبة السفلى باسم الشقة، بينما يعرف عند قبائل الجعليين والشايقية ومن جاورهم بالنوبة العليا باسم التوب، ولايزل هذا اللباس مستخدما إلى اليوم.

هذا وقد عرفت المرأة البجاوية عادة التزين بالحلى^(١)، ومن استخدام القرط والسوار، والعقد، والخلخال وحلى الأنف المنتشرة بين الرجال والنساء، وأن أصبحت بعد ذلك قاصرة على النساء^(٢).

والتزين بالذهب لعب دورا بارزا في علاقات مصر والنوبة منذ العصر الفرعوني القديم، وقد استخدم الذهب في الحلى بمصر منذ عصر الأسرة الأولى^(٣)، وكذلك استخدمت الفضة للتزين^(٤).

المسكن :

يصف ابن سليم الاسوانى أثناء رحلته إلى بلاد النوبة حال الأبنية والمسكن الذى كان بسيطا نظرا لحالتهم الاجتماعية التى تعتمد على حرية التنقل فيقول ".... وقرى متصلة وعمارة حسنة بأبرجه حمام^(٥) ... نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان والكنائس والاديار^(٦).

كانت جميع مساكنهم عبارة عن أخصاص، وكذلك قصور ملوكهم^(٧)، وقد تطورت نتيجة لوصول القبائل واستقرارها بأن أصبحت تبنى من الطين، وأعمدة رفيعة^(٨) وان كانت لم يرق شكلها لليو الافريقى الذى وصفها بأن " كل بيوتها قبيحة^(٩)".

١ - على زين العابدين: المصاغ الشعبى فى مصر، اقاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص ٧، سعد الخادم، الفن الشعبى والمعتقدات الشعبية، النهضة المصرية ، ص ١٦.

٢ - على زين العابدين: مرجع سابق، ص ١٦١، ١٧٩، ١٨٦.

٣ - عبدالرحمن زكى: الحلى فى التاريخ والفن والارشاد ١٩٦٥، ص ١٠.

٤ - على زين العابدين: فن صناعة الحلى، ص ٢٨١، نادى بدوى: الزينة، ص ١٧٢.

٥ - المقرئى: الخطط، ج ١، ص ١٩١،

٦ - المصدر نفسه، والجزء والصفحة.

٧ - يقول القزوينى: دنقلة مدينة عظيمة ببلاد النوبة، ممتدة على ساحل النيل.. وبيوتهم أخصاص كلها، وكذلك قصور ملوكهم " أنظر القزوينى: آثار النوبة، ص ٣٩، النويرى: نهاية الارب، ج ١، ص ٢٦٢.

٨ - ليو الافريقى: وصف افريقيا ، ص ٥٥٧.

٩ - المصدر نفسه، والصفحة.

وقال بوركهات أثناء رحلته عبر بلاد النوبة : "ويبنى النوبيون اليوم أكواخهم الحجرية... على سفوح الجبال.... أما فى البقاع التى ينبسط فيها السهل فأنهم يبنون مساكنهم من اللبن ويقيمونها وسط السهل"^(١) وهذه المباني تتألف من بنائين مستديرين منفصلين أحدهما للرجال والآخر للحريم ، وبيوت اللبن منخفضة، والسقف من سيقان الذرة^(٢).

ومع ذلك، فقد ظلت بعض المناطق مثل إقليم المحس اذ تصنع الأكواخ فيه من الحصر المجدولة من سعف النخل، والمشدودة إلى أعمدة عالية ترتفع أطرافها فوق السقف.

نستج من هذا أن المسكن النوبى كان بسيط فى بنائه ثم تطور من كونه على شكل اخصاص إلى البناء بالحجارة أو الطوب اللبن طبقا لطبيعة كل منطقة، كما أن المسكن بشكله القديم لا يزال قائما فى بعض المناطق^(٣).

ومما لاشك فيه أن الجماعات العربية من بلى وجهينة وهوازن الذين عرفوا بالحلايقة استقرت على أرض البجة، منذ القرن الأول الهجرى/السابع الميلادى^(٤)، ثم جاءت جماعات من الأمويين ليستقر بعضهم فى ميناء باضع (جزيرة الريح)^(٥).

١ - بوركهارت: رحلاته، ص ٩٩.

٢ - بوركهارت: رحلاته، ص ١٢٢، محمد عوض: الشعوب والسلاسل الاقليمية ص ٢٦٥.

٣ - نادية بدوى: الزينة، ص ٩٦، ص ٩٧.

٤ - المسعودى: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٢٨.

٥ - ابن الجوزى: تقوير الغيش، ص ١٢٧-١٢٢،

ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ١٣١.

الخاتمة

الخاتمة

لم تضع النظرية السياسية للدولة الإسلامية عقبات أمام رعاياها من غير المسلمين في مصر، بل أتاحت لهم قدرا كبيرا من الحرية داخل إطار هذه الدولة، وعند التطبيق أبان الفتح نجاح عمرو بن العاص في كسب الجزء الأكبر من القبط إلى جانبه، كما نجاح في تحييد اليهود، وانتهج سياسة ظلت قائمة في مصر الإسلامية تعتمد على عدد من المبادئ المتعلقة بحرية العقيدة داخل إطار المجتمع المصري، والتزام الدولة بحماية الرهبان ورجال الدين الذميين، كما يتضح من الوثائق الخاصة بعصر الولاة، وجاء هذا تأكيد على حرص العرب المسلمين على الالتزام بروح الإسلام السمحة وتقرير العدالة تجاه أهل الذمة عملا بما تفرضه الشريعة الإسلامية، وهكذا التقت النظرية مع التطبيق العملي على أمر سواء.

وقد أصبح أهل الذمة المتمرسون في شئون الإدارة والمال عنصرا لا غنى عنه في تصريف أمور الدولة، ورغم إبعادهم عن وظائفهم أثناء فترات الشدة والاضطرابات فإنهم كانوا ما يلبثون أن يعودوا لممارسة دورهم في الهيكل الإداري والمالي طوال عصر الولاة.

وقد استفاد أهل الذمة من مقررات الشريعة الإسلامية وتسامح الدولة الإسلامية، وأقراها مبدأ حرية العقيدة، وضمان الحريات الاجتماعية بشكل عام، كما أنهم شاركوا في كافة مجالات النشاط في الدولة، ووصل بعضهم إلى أرفع المناصب لسماحة الإسلام في مصر.

وكان طبيعيا أن نجد سودان وادي النيل قد تأثر بما يحدث في مصر من تطورات وأحداث سياسية طوال عصر الولاة حتى أنه بتمام الفتح نصت معاهدة الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس فيما يتعلق بالمصريين بالآ "يساكنهم النوبة" ونصت في نفس الوقت على أن من يدخل في الصلح من "الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه".

وهكذا أجرى المسلمون على من دخل في صلحهم من الروم والنوبة ما جرى على أهل مصر، من تأمينهم على أنفسهم وأموالهم ودمتتهم وكنائسهم إلا من اختار الذهاب منهم، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه.

وجاء اهتمام ولاية مصر بالنوبة من أجل تأمين حدود مصر الجنوبية وتيسير وصول الدعوة الإسلامية إليها، وضمان انتظام الحركة التجارية الصادرة من مصر والواردة عبر أراضي النوبة.

ويمكن القول بأن المحاولات الأولى لفتح النوبة وإن استهدفت تحقيق الهدف الأساسي من الفتوحات من أتاحه الفرصة لتعامل الإسلام مباشرة مع شعوب تلك المناطق ووصول الدعوة إليهم، إلا أن ذلك كان مرتبطاً بمدى ما يمكن إعداده من قوة قادرة على الفتح واستكمالها، إذ لم تكن هذه الحملات العربية الأولى تريد زحفاً جاداً نحو البلاد النوبية، فعمرو بن العاص لم يكن يطمح في أكثر من تأمين حدود مصر الجنوبية، أو تعقب الفارين من الجنود أو القواد البيزنطيين ولعل أولها كانت حملة استكشاف تريد أن تستطلع الأحوال في أقصى الصعيد.

واستمر ولاية مصر في سياستهم من إرسال الحملات العسكرية إلى النوبة حتى عهد عبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة ٣١هـ/٦٥٢م الذي عقد معهم اتفاقاً لاشك أنه كان يتفق مع طبيعة بلاد النوبة ويؤدي في نفس الوقت إلى تحقيق الأهداف الأساسية للفتوحات من حيث اتصال الدعاة بأهل هذه البلاد، والتمهيد لنشر الإسلام، بالإضافة إلى وقف الاغارات النوبية على صعيد مصر، وتأمين حدودها، وتنشيط الحركة التجارية، وما البقط إلا دليل على استمرار وفاء النوبيين بما تعهدوا به.

وقد جعلت معاهدة البقط النوبيين في نظر العرب "مصالحين" وهو ما عرفة الفقهاء باسم "أهل العهد" ولذا فإنها تفسر بأنها حسن جوار، وسلامة الحدود، وحرية التجارة بين البلدين، ثم أنها تخول للمسلمين الحصول على سواعد النوبيين القوية لخدمة الدولة الإسلامية، بالإضافة إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية نشرًا سليماً فيما بينهم.

ومما ساعد على ذلك، أن معاهدة البقط خلت من التعصب الجنسي أو الديني ولذا بقيت أطول مدة يمكن أن تبقى معاهدة بين دولتين، فضلاً عن حسن العلاقات الودية والسليمة بصفة عامة.

وظلت معاهدة البقط أكثر من ستة قرون ونصف القرن أساساً للعلاقات السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية وغيرها، وسارت على ضوئها كل الحكومات الإسلامية التي تعاقبت على مصر فصارت من ثم محددات للعلاقات بين مصر والنوبة.

وإذا كانت معاهدة البقط قد حددت نوعية العلاقة السلمية التي ربطت بين مصر والنوبة لفترة طويلة، إلا أن كل طرف كان يتعامل مع الآخر حسب الموقف السياسى، فطالما كانت مصر قوية نفذت النوبة المعاهدة، ومن الطبيعى أن يخل هذا الوضع عند تغير السلطة فى مصر، فعند انتقال الخلافة إلى بنى العباس اضطربت العلاقة السلمية بين مصر والنوبة، التى تملصت من التزامها بدفع البقط، لمدة خمسة عشر عاما، على نحو ما يتضح من البردية العربية التى تتضمن خطابا مرسلا من والى العباسى على مصر موسى بن كعب ١٤١هـ/٧٥٨م إلى ملك النوبة والمقرة، بخصوص العلاقات المصرية النوبية، والجديد فى هذه الوثيقة البالغة الأهمية أنها تلقى الأضواء على العلاقات المصرية النوبية المضطربة فى بداية العصر العباسى الأول، وأنها جاءت تأكيدا لمعاهدة البقط، التى وضع أساسها عبد الله ابن سعد بن أبى سرح فى عهد عثمان بن عفان فى سنة ٣١هـ/٦٥٢م.

ولاشك أن الامتناع عن إرسال البقط هو ما كان يبعث على اختلال هذه العلاقة وخصوصا أن فترة الانتقال من العصر الأموى إلى العصر العباسى قد سقط منها بقط سنين، وهذا ما أكدته هذه الوثيقة البردية.

ويدخل ضمن سودان وادى النيل البجة، فلم يكن هناك اهتمام من الفاتحين بهذه القبائل أول الأمر، بدليل عدم ورود إشارة إليهم فى عهد الصلح الذى عقده عبد الله بن سعد للنوبيين ٣١هـ/٦٥٢م وأول من صالحهم عبيد الله بن الحباب، وربما استقر فى نفوس العرب، فى المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامى أن ديار البجة ليست بدار حرب، شأنها فى ذلك شأن بلاد الحبشة، وقد ظلت معاهدة عبد الله بن الحباب معمولا بها زهاء قرن من الزمان.

وعقد عبد الله بن الجهم فى سنة ٣٢٣هـ/٨٤٦م معاهدة مع كنوب بن عبد العزيز ملك البجا تختلف كثيرا فى نصوصها عن معاهدة البقط التى عقدت مع النوبة، وموضع الأهمية هنا أن بلاد البجة حتى مصوع أضحت جزءا من الدولة الإسلامية. ويطبق عليها شروط البلاد التى تفتح عنوة، بدليل فرض الخراج.

هكذا كانت الحملات العربية المتكررة على أوطان البجة والنوبة، فاتحة عهد جديد لانتشار الإسلام فى تلك البلاد من الظهير المصرى، وأخيرا حملة العمرى التى كانت بمثابة فتح أبواب النوبة، وأرض البجة على مصراعيها أمام القبائل

العربية الضاربة في مصر لتتخذ سبيل النوبة مخرجاً مما كانت تلاقيه من صعوبات في مصر.

وأخيراً يأتي موقف ولاة مصر من الكنيستين القبطية والنوبية، فلا شك أن هذه العلاقة كانت طيبة بفضل هيمنة الكنيسة المصرية، فقد كانت النوبة تدخل ضمن زعامتها الروحية، فقد نشأت بينهم وبين بطاركة الكنيسة المصرية علاقات ودية، اختلف طبيعتها من حين إلى آخر تبعاً لما تقتضيه مصالح الطرفين، غير أن موضع الأهمية هنا هو موقف ولاة مصر من الكنيستين وإقرارهم حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية دون ضغط أو تسلط عليهما.

وكانت هجرات القبائل العربية من أهم عوامل التطور الاجتماعي في كل من مصر وسودان وادى النيل، ومعروف أن الفتح العربي لمصر ساعد على هجرة كثير من القبائل العربية إلى مصر، فمنها من جاء ممثلاً في جيش الفتح، ومنها من جاء بصحبة الولاة العرب الذين كانت تعيينهم الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الأموية، ثم هناك قبائل قدمت لتلحق ببطونها التي هاجرت إلى مصر واستقرت بها.

ومنذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي بدأت الخلافة تستخدم هجرة القبائل العربية إلى مصر لخدمة أغراضها الاقتصادية وتمثل هذا في نقل قبيلة قيس سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٨م إلى دلتا مصر، ومهدت لهم السبل للعمل في الزراعة.

ولما كانت القبائل اليمنية أكثر عدداً من القيسية في مصر، فقد ركزت الخلافة العباسية على نقل قبائل عدنانية مثل قبيلة ربيعة لتحد من قوة القبائل اليمنية، كذلك استخدمت هذه القبائل في استخراج المعادن من مناجم أقصى جنوب مصر، والوقوف على وجه غارات النوبة والبجة المتكررة على مصر هذا علاوة على تأمين تجارة البحر الأحمر.

وكانت قبيلة قيس في شرق الدلتا (الحوف) من أقوى القبائل حتى عرفت المنطقة التي نزلت بها باسم "بلاد قيس" وكثيراً ما وجدت الظروف الاقتصادية بين القيسية واليمنية فتأروا معاضد الوالى وفي بعض الأحيان انضم الأقباط إليهم مما يدل على زيادة الاختلاط بين العرب والأقباط ووحدة مصالحهم.

أما الإسكندرية فقد كانت الغلبة فيها للقبائل اليمنية حتى كانت لخم، وجذام، ومدلج، وتجب، من أظهر القبائل وأقواها وإلى جانبها وجدت بعض بطون

المعافر، ولقد انتشرت هذه القبائل نحو الغرب، وتمركز بعضها في المنطقة الواقعة بين الإسكندرية وبرقة.

أما عن الصعيد الأعلى فقد استقرت فيه من القبائل العربية بنى أمية وخاصة أثناء هروب مروان بن محمد، حتى أنه مع مطلع القرن الثالث الهجرى كان كثير من بنى أمية قد تمركزوا في الصعيد.

كذلك استقرت عدة قبائل في الصعيد الأوسط ثم اتجهت إلى الصعيد الأعلى ومنها قبيلة همدان، كما حظى الصعيد الأعلى بهجرات عربية كان على رأسها قبائل بلى التي كانت تؤلف ثلث المجموعة القضاعية الساكنة في بلاد الشام.

أما قریش فيذكر المقریزی أنها نزلت بكثرة في أسوان منذ العهد الأموى، وملك أبناؤها الضياع في بلاد النوبة. كذلك وفدت قبائل عربية إلى الصعيد الأقصى منهم بنو هلال وبنو سليم، أما جهينة فقد اشتركت في الفتح العربى بأعداد قليلة إلا أنها في القرن الثالث الهجرى غزت بلاد البجة، وامتدت نفوذها الى بلاد النوبة وأرض السودان وادى النيل لتسهم في نشر الإسلام.

احتفظ العرب في مصر بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان كما دلت على ذلك شواهد القبور، ولكن في القرن الثالث الهجرى نجد ان اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتسب إليه المتوفى، فيكتب الادفوى، أو الكوفى أو المصرى.

وكانت هجرات القبائل تضم الموالى الذين قدموا مع جيش عمرو بن العاص واستقروا بين خطط الفسطاط، بجانب الروم الذين افرد لهم خطة فى الفسطاط وهم من الذين فضلوا البقاء فى مصر، وأغلب الظن أن وجودهم بين خطط المسلمين يرجع إلى أنهم اعتنقوا الإسلام، ثم توافد على مصر الشاميون والاندلسيون وهم من التجار المسلمين، وأيضاً وجد فى مصر العنصر النوبى والحبشى كما دلت أوراق البردى على ذلك.

وقد كان لقرار الخليفة المعتصم العباسى فى سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م والخاص بإسقاط العطاء عن القبائل العربية أثر كبير فى حياتها، فقد دفعها للبحث عن مصدر للعيش، فانتشرت القبائل فى الريف وخالطت المصريين وشاركتهم أعمالهم، ومن ثم بدأت حركة الاندماج بين العرب والمصريين، والتي كان لها أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية والإسلام.

ولقد أثبتت الدراسة أن التسرب العربى الإسلامى المتجه من مصر إلى السودان وادى النيل، دوافع ثلاث:

- ضغط من جانب حكام مصر.
- البحث عن الكلا فى أقاليم النوبة الشاسعة.
- التجارة، وخاصة تجارة الذهب التى ذاعت شهرتها فى أرض البجة، وكانت هذه العوامل هى التى أدت إلى نشر الإسلام والثقافة العربية فى السودان وادى النيل.
- أما عن انتشار الإسلام، وفيما يتعلق بمصر فقد تضمنت معاهدة عمرو بن العاص مع المصريين ما نصه: "التعهد بتحقيق الأمان للمصريين على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم.."

وقد اتسم الإسلام بالبساطة وعدم التعقيد، ولم يجعل للكهنة سلطانا على المسلم، بل جعله متصلا بالله دون واسطة، واتسمت سيرة الفاتحين بالعدالة والرافة والتسامح على خلاف ما شهدته مسيحية مصر فى أيام الحكم البيزنطى.

وتتابعت موجات الداخلين فى الإسلام من المسيحيين المصريين، وشهد النصف الأول من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى انتشارا واسعا للإسلام فى مصر، حتى إذا كانت إمارة أحمد بن طولون على مصر فى سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، كان أكثر من مسيحي قد تحولوا إلى الإسلام، وصار المسلمون الأغلبية العظمى بين السكان وصار أهل الذمة أقلية قليلة، ومن ثم أخذت الصبغة الإسلامية تشكل المجتمع المصرى، وتطبعه بطابعها فى العادات والتقاليد وفى الحياة الاجتماعية بصفة عامة، وأكبر دليل على زيادة عدد المسلمين وتناقص عدد الذميين آنذاك، تضاول حصيلة الجزية، فلم تعد بابا أساسيا من أبواب الدخل فى مصر، منذ العصر الطولونى، إلى جانب اختفاء ثورات القبط التى كانت من مميزات عصر الولاية الأمويين والعباسيين. وقد أتاحت عملية استضافة السكان القبط للمسلمين طبقا للشروط التى أقروا بها منذ البداية، وكذا ما كان من خروج العرب الى الريف للارتباع مما أتاح فرصا للاحتكاك والاختلاط بين الجانبين وقيام الدعاة بدورهم فى بث الدعوة ونشر الإسلام بين الأهالى.

على أن أهم عوامل تعريب وانتشار الإسلام هو توافد القبائل العربية واستقرارهم فى كثير من المدن والقرى واختلاطهم بالأقباط اختلاطا كبيرا، مما أدى إلى انتشار الإسلام واللغة العربية بين الأهالى وبالتالى تعريب البلاد.

وانتشار الإسلام في السودان وادى النيل يرجع إلى هذا التيار المهاجر المنصرف صوب الجنوب، إذ بدأ يزداد عمقا وشدة بعد أن أصبحت أحوال مصر خاصة والعالم الإسلامي عامة لا تشجع العرب على الإقامة إنما تدفعهم صوب الجنوب دفعا. ومن العوامل التي ساعدت على نشر الثقافة العربية القادمة من مصر الجاليات النوبية التي أقامت بمصر، معنى هذا أنه من بين عوامل اضمحلال ممالك النوبة ما يمكن أن نسميه بتبادل في الجماعات والثقافات بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية، فخرجت من النوبة جماعات نوبية التحقت بجيش مصر، ولفظت مصر بعض عناصر الشغب فيها، في نظر ولايتها الأتراك؟، وهم جميعا من العرب المسلمين فانسابوا إلى النوبة، ثم اخذ هؤلاء يؤثرون تأثيرا بشريا وثقافيا فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة، على حين أن هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر لابد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام.

وتشير المصادر الإسلامية إلى بعض شخصيات نوبية اشتغلت بالعلوم الدينية والفقهية مثل يزيد بن أبى حبيب أو ممن سلك طريق التصوف مثل ذى النون المصرى النوبى الأصل، وتحية النوبية، وليس من المستبعد أن يكون للعناصر النوبية التي ذكرناها اثر واضح في نشر الإسلام بين أهلهم في السودان وادى النيل. لقد كان طبيعيا أن تنتشر لغة العرب بين المصريين وسودان وادى النيل وأن يتطور الأمر فتصبح اللغة العربية لغة رسمية ولغة حياة لتحل محل اللغات القديمة، وكان ذلك في الواقع نتيجة لانتشار الإسلام بين شعبي وادى النيل.

والدليل على ان إرهابات حركة التعريب بمصر قد بدأت منذ الفتح هو وجود برديتين عربيتين ترجعان إلى عام ٢٢هـ/٦٤٢م وتعتبر نموذجا حسنا لكتابات العربية المبكرة فهي تضم أغلب الحروف العربية بضروبها المختلفة.

على أن هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي ان حركة التعريب في المجتمع المصرى لم تتعارض مع الاحتفاظ بالثقافات القديمة وبالأسماء القبطية.

وقد وصلت إلينا أقدم وثيقة إسلامية متضمنة بعض أسماء من الصحابة الذين استقروا في مصر، وهي وثيقة عبد الله بن لهيعة (٩٧-١٧٤هـ/٧١٥-٧٩٠م) وترجع أهمية هذه الوثيقة لأنها تحوى أسماء لأصحاب الرأى والحديث والثقافة التاريخية وغيرها في الديار المصرية ابتداء من القرن الأول الهجرى إلى أوائل القرن الثالث الهجرى.

وفي هذه البردية نرى اسم الليث بن سعد (٩٤-١٧٥هـ/٧١٣-٧٩١م) وهو أمام الديار المصرية في العلم والحديث.

كذلك تشير الوثيقة إلى عبد الله بن وهب (١٢٥-١٩٧هـ/٧٤٣-٨١٢م) ويرجع الفضل في جمع التراث القديم المنسوب للصحابة والتابعين وتابعي التابعين إلى عبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك خاصة.

وازدهرت الحياة العلمية في ظل المذاهب الإسلامية، وكان المذهب المالكي والشافعي لهما السيادة في مصر، ولم ينتشر المذهب الحنبلي في مصر طوال عصر الولاية.

ومن الجوانب الفكرية التي شهدتها مصر ظهور علم التصوف على يد ذي النون المصري، وهو أول من وضع الأسس الأولى للصوفية في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية.

كانت علوم اللسان العربي تنمو وتزدهر كلما تقدم انتشار اللغة العربية بمصر وظهر بالفسطاط من أبناء القبائل العربية التي استقرت بمصر شعراء صوروا بأشعارهم البيئة الاجتماعية.

وكانت المدرسة التاريخية حلقة متكاملة لتاريخ مصر الوطني وكان التاريخ جانباً مهماً للثقافة العربية الإسلامية وقد اتبعت الدراسات التاريخية المنهج العلمي العام، فنشأت الروايات التاريخية في كنف الدراسات الدينية.

لقد أظهرت الثقافة العربية في مصر تفوقها بهؤلاء العلماء الذين جعلوا من مصر الإسلامية منارة يهتدى إليه الكثير من العلماء الوافدين لكي تتوطن الثقافة العربية في مصر، وتنتشر على نطاق أوسع بين أهل البلاد ومن ثم كان ظهور مدراس مصر الإسلامية، وتفوقها على جميع المدارس الإسلامية الأخرى.

وكان المسكن الإسلامي في مصر في الفترة التي تلت الفتح مباشرة يميل إلى البساطة وعدم الإسراف حتى أن دار عمرو نفسه وصفت بالدار الصغرى وكانت من الطوب اللبن.

إن المسلمين منذ أول العصر الإسلامي كانوا حريصين غاية الحرص على المحافظة على حرمة الناس داخل بيوتهم، وإن المنازل لم تكن لها نوافذ أو شبابيك كبيرة تطل على الطرق والشوارع وذلك منذ بداية عصر الولاية.

كذلك كانت المنازل فى أول الأمر تتكون من طابق أرضى واحد، ثم أخذت تتعدد طوابقها فى نهاية عصر الولاية.

ومنذ بداية العصر الأموى (٣٨-١٣٢هـ/٦٥٨-٧٤٩م) نجد أنه أصبح هناك ميل إلى الضخامة والفخامة وشيدت بعض الأبنية فى ذلك العصر بحيث بلغت من الكبر والزخرف حدا عظيما، بعد أن كان التقشف والاعتدال والبساطة سمة من سمات البناء بعد الفتح مباشرة، فنجد أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد أضاف إلى الدار الصغرى السابقة التى بناها والده، أو بنى مكانها بمعنى أصبح دارا كبيرة كانت تمتاز بالتأنق والاتساع فى أرجائها حتى سميت بالقصر.

أما بالنسبة لتصميم الدور والمنازل التى تعود إلى فترة عصر الولاية أنها كانت تبنى على نموذجين أساسيين أحدهما شامى والآخر عراقى.

أما عن المسكن النوبى، كان بسيطا نظرا لحالتهم الاجتماعية، وكانت جميع مساكنهم عبارة عن أخصاص، وكذلك قصور ملوكهم، وقد تطورت نتيجة لوصول القبائل واستقرارها بأن أصبحت تبنى من الطين، وبأعمدة رفيعة، وإن كانت لم يرق شكلها لليو الأفريقى الذى وصفها بأن "كل بيوتها قبيحة".

وقد تطور المسكن النوبى من البساطة فى البناء من كونه على شكل أخصاص إلى البناء بالحجارة أو الطوب اللبن طبقا لطبيعة كل منطقة، كما أن المسكن بشكله القديم كان لا يزال قائما فى بعض المناطق.

أما عن تطور الحياة الاجتماعية فى مصر بالنسبة للعرب المسلمين وخاصة فى تسجيل عقود الزواج منذ بداية القرن الأول الهجرى فإن هناك بردية غير عربية ترجع إلى سنة ٩١هـ مدونة على ورق البردى تبدأ بالبسملة وهى مع غيرها من العقود تعطينا تصورا عن عدد الشهود على العقد وقيمة المهر، ويتضمن عدد غير قليل من عقود الزواج المدونة على ورق بردى بعض الشروط الخاصة لمصلحة الزوجة كأن تكون العصمة بيدها، وهو ما يعبر عنه الفقه بـ(تمليك المرأة أمرها)، كذلك حرية الزوجة فى التصرف فيما تملك وعدم تدخل الزوج فيما تتصرف فيه.

وعقود زواج الذميين سواء كانت مكتوبة باللغة المصرية أو بالإغريقية أو بالقبطية وحتى المكتوب منها بالعربية منذ دخول العرب فكلها تحمل طابعا واحدا، ومن ذلك تضمنها لبعض الشروط وخاصة المالية.

أما تحول البجاة عن عاداتهم الوثنية فجاء نتيجة الاختلاط والانصهار مع العناصر العربية الوافدة ، وخاصة بعد أن هادنهم عبید الله بن الحبحاب السلولى، إذ كثر المسلمون فى كثير من المناطق، وخاصة مناطق المناجم، واختلطوا بالسكان وتزوجوا منهم وأسلم كثير من البجاء.

ونتيجة للصفات الطيبة للنوبيات تهاقت أمراء مصر على اقتنائهن والتسرى بهن.

أما عن التسميات فى مصر الإسلامية، فواضح من دراسة الأوراق البردية أن الأسماء التى جاءت فى هذه الوثائق تشهد باحتفاظ أغلب المصريين بالأسماء القبطية أو بقايا المصرية القديمة أو بالأسماء المقتبسة من اليونانية والرومانية، بعكس شواهد القبور التى تغلب عليها الأسماء العربية ويعتقد أن السبب فى هذا أن الأوراق البردية التى وصلت إلينا ترجع إلى أماكن متفرقة فى الريف المصرى، ولاسيما مصر الوسطى والصعيد، أما شواهد القبور فمعظمها من جبانة الفسطاط والعسكر والقطائع حيث كان الأكثرية من العرب الوافدين على مصر أو ممن تناسلوا عنهم.

كذلك دلت شواهد القبور فى السودان وادى النيل وخاصة منطقة مريس على كتابات مكتوبة بالخط العربى ، وتحمل أسماء عربية.

وقد استخدمت عادة الختان فى كل من مصر وسودان وادى النيل، وكان يقام لها الاحتفالات فى مصر، وإن كان النوبيون يمارسون الختان للأولاد والختان الفرعونى للبنات.

وقد أثبتت الدراسة أن العرب قد نقلوا معهم إلى مصر كثيرا من أنواع الملابس هذا بالإضافة إلى ما كانت تعرفه مصر من الثياب الملونة والعمائم والقلائس، وملابس النساء، إذ أشارت أوراق البردى إلى ذكر المناديل التنيسى، والجيب الخز الخضراء، هذا بالإضافة إلى ألبسة القدم وهى توضح ما بلغته مصر من تطور الملابس وصناعتها.

وقد لاحظ المؤرخون والرحالة الذين زاروا منطقة النوبة وأرض البجة أن ملابسهم بسيطة فى شكلها.

هذا وقد نقلت القبائل العربية المهاجرة إلى السودان وادى النيل أسلوبها فى الملبس، فهناك لباس عربى قح، كان يلبسه النوبيون المستعربون، وهذا اللباس

عبارة عن سروال جلدى مشقق إلى سيور ومن الملابس العربية فى النوبة والتى كانت ترتديها النساء ثياب بيضاء، إذا التأثير العربى فى النوبة واضح من ناحية الملابس.

كذلك تفنن العرب المسلمون فى المأكول والمشرب بنزولهم فى مصر، وتفاعلوا مع العادات المصرية القديمة، بعد ما كان طعامهم الثريد، أخذوا يستطيبون الأطعمة النباتية والحيوانية فى سائر أنحاء مصر.

وقد تبادل العرب المسلمين المنتجات الغذائية بين مصر وسودان وادى النيل وخاصة من التمر النوبى.

كما كان السكان جميعا فى مصر يشتركون فى مظاهر اجتماعية عامة يحبونها ويحتفلون بها وهى الأعياد والمواسم والاحتفالات، وقد أبقي المسلمون على احتفال القبط بأعيادهم الدينية، بل اشتركوا معهم فى الجانب الاجتماعى المسلى منها كالاحتفال بعيد وفاء النيل وعيد الغطاس وغيرها.

كما كانت هناك إلى جانب اعياد القبط والمسلمين مناسبات أخرى تحتفل بها مصر، وتحاط بمظاهر الأبهة كالاحتفال برؤية هلال رمضان والاحتفال بفتح الخليج. وأخيرا وسائل التسلية التى اشتركت فيها جميع عناصر المجتمع المصرى تنوعت بين متنزهات وسباق للخيل، وقيان ومغنون ومجالس للشعر.

وبعد فهذه صورة عن التطور الاجتماعى فى مصر الإسلامية وانعكاسه على سودان وادى النيل فى فترة عصر الولاية.

ولعلى أكون قد وفقت فى إبرازها.

والله ولى التوفيق ،

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق :

أ - وثائق وبرديات غير منشورة (مرتبة حسب تاريخها):

- ١- عقد زواج إسلامي، مؤرخ في سنة ٩١هـ. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، تحت رقم (٢٥٢٩٥) وهي ضمن مجموعة د. هنري أمين عوض.
- ٢- عقد شراء باسم عبيد الله بن بطرس الادفوي المشتري من النصر بن عبد الله الزيات، مؤرخ ذي القعدة ٢٣٨هـ. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم (٩٨١٨).
- ٣- عقد شراء باسم علي بن عبد الله المشتري من ورثة بشنده بن عيسى الشماس، مؤرخ شهر ربيع الأول ٢٤٦هـ. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم (٩٨١٧).
- ٤- عقد بيع عقار، مؤرخ في شهر صفر ٢٦٨هـ. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم (١٥٦٤٩).
- ٥- عقد زواج عبري بين شاب وفتاة يهودية. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم (٢٦٥٣٩).

ب- وثائق بردية منشورة:

- ٦- خطاب مرسل من والي مصر موسى بن كعب إلى .. صاحب مقرة ونوبة في سنة ١٤١هـ. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، تحت رقم (٢٥٤٨٠) نشرها. C.F: Martin.,: Studia Arabica of Islamica, American University of Beirut, 1981.
- ٧- عقد الزواج رقم ١٧٣٥/٤ تاريخ ، مجموعة دار الكتب المصرية.
- ٨- عقود رقم ١٢١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٧ . مجموعة دار الكتب المصرية.
- ٩- عقود بيع أرقام ١٧٩٢، ١٧٩٤، ١٧٩٦، ١٨٩٩، ١٩٠١، ١٩٠٣، ١٧٩٨، ١٧٩٧، مجموعة بردي دار الكتب المصرية بالقاهرة (١).
- 10- Balogh / Kahle.,: Two Coptic Documents Relating to Marriage, in Aegyptus, 1933, 1953.

- 11- L. Maceaul.,: Coptic Marriage Contract in, Actes du Xve Congres International de Papyrologic (Papyrologice Bruxellensia 17), 20 (Papyri ineditis), 1979.
- 12- Carl Heinrich Becker.,: Papyri Schott - Reinhardt in der Universitats Pibliothek in Heidelberg. Heidelberg 1906, Arabische Papyri des Aphroditaf undea In: Zeitschrift fur Assyriologie, 1907.
- 13- David. Well.,: Le Djami (Ibn Wahb) Le Caire (Publications de L'Institut Francais d'Archeologie Orientale du Caire), 1939-1948.
- 14- Grohmann Adolf.,: Arabic Papyri in the Egyptian Library Vols. 1 (Cairo 1934), II (Cairo 1936), III (Cairo 1938), Vol. 4 (1962), Vol. 5 (1955), Vol. 6 (1974).
- ١٥- وقد نقلت إلى العربية بعنوان: "أوراق البردى العربية" الأجزاء ١-٦
ج ١ (١٩٣٤)، ج ٢ (١٩٣٦)، ج ٣ (١٩٣٨م)، ج ٤ (١٩٦٢م)،
ج ٥ (١٩٦٨)، ج ٦ (١٩٧٤م)، طبعة دار الكتب المصرية.
- 16- Ra.if Georges Khaury.,: (1) Abd Allah Ibn Lahia Juge et grand maitre de L'Ecole Egyptienne. Avec edition de l'unique Rouleau de Papyrus Conserve a Heidelberg. Wiesbaden (Codices A,rabici Antiqui IV).
- (II) (Wahb. B. Munabbih.
1: Der Heidelberger Papyrus Heid Arab 23" Leben und Werk des Dichters. Wiesbaden "Codices Arabici Antiqui " 1972.
- (III) Al-Layth Ibn Saed (94/713-175/791), Grand Maitre et mecene de L'Egypte, Vu a. Travers quelques documents islamiques anciens. In Journal of Near Eastern Studies. 1981, (Arabic and Islamic Studies in honor of Nabia Abbott Part one).
- ١٧- وثائق دير سانت كاترين. رقم ٢٦٥ (وهى وثيقة بيع) "تاريخ الوثيقة ٨٩٥هـ" ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منقولة عن نسخة جامعة الإسكندرية.

ثانياً: المخطوطات :

- ١٨- ابن أبيك الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) "كنز الدرر وجامع الغرر"، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ.
- ١٩- ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم ابن زولاق الليثى ت ٣٨٧هـ). "فضائل مصر وأخبارها وخواصها"، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، برقم ٣٥٩١ تاريخ. منقولة عن نسخة خطية بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٦٩٩٣ تاريخ. "مختصر تاريخ مصر" ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ٢٧١٧ تاريخ.
- ٢٠- ابن زين القاضى (أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زين القاضى ق ٩هـ). "شروط النصارى". مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٥٢ تاريخ.
- ٢١- ابن عبد السلام (شهاب الدين أحمد بن عبد السلام الشافعى ت ٩٣١هـ/١٥٢٥م). "الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد" مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٩ تاريخ، ٦٦ جغرافيا.
- ٢٢- ابن النقاش (أبو أمانة محمد بن على. ت ٧٧٣هـ). "المزمنة فى استعمال أهل الذمة" مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٣٩٥٢ تاريخ.
- ٢٣- ابن وصيف (ابن وصيف شاه. ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م). "جواهر البحور ووقائع الدهور" مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية- جامعة الدول العربية، ميكروفيلم رقم ٢٠٢ تاريخ.
- ٢٤- أبو الربيع (الأفضل أبو الربيع بن السيد أبو محمد بن الخليفة عمر عبد المؤمن بن على). "شيوخ ابن وهب وأخباره" ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ٦٢١ تاريخ.
- ٢٥- بيبرس الدوادار (ركن الدين المنصورى المصرى. ت ٧٢٥هـ/١٢٣٥م). "زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة" جزء نسخة مصورة بجامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٧.
- ٢٦- الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله) "المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الانشا" مخطوط مصور، جامعة القاهرة، رقم ٤٢٠٤٥.

- ٢٧- الذهبى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايىاز. ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م). "تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام". مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٣٩٦ تاريخ.
- ٢٨- الكافيجى (الإمام محمد بن سليمان بن سعيد ابن مسعود الكافيجى الحنفى. ت٨٧٩هـ). مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٢٨ تاريخ.
- ٢٩- المقرئى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على المقرئى. ت٨٤٥هـ/١٤٤٥م). "المقئ فى تاريخ وتراجم أهل مصر والواردين عليها". مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم ٥٣٧٢ تاريخ. "السلوك لمعرفة دول الملوك" القسم الأول. مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٥٥.

ثالثا: المصادر المطبوعة :

- ٣٠- "القرآن الكريم".
- ٣١- "الكتاب المقدس" (العهد القديم والعهد الجديد)
- ٣٢- ابن الاثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى. ت٦٣٠هـ) "الكامل فى التاريخ" الجزء الثانى، والخامس، القاهرة ١٣٤٩هـ. "أسد الغابة فى معرفة الصحابة" جـ ٣، القاهرة ١٩٣٨م.
- ٣٣- ابن الاخوة (محمد بن أحمد القرشى. ت٧٢٩هـ/١٣٢٩م) "معالم القربة فى أحكام الحسبة" تحقيق محمد محمود شعبان، وآخرون: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.
- ٣٤- ابن اسحق (محمد بن اسحق بن يسار بن جبار الأموى). "فتوح مصر وأعمالها" ط القاهرة ١٢٧٥هـ.
- ٣٥- ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد. ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م). "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" الجزء الأول- القسم الأول، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.
- ٣٦- ابن بطريق (أفئشيوس المكنى سعيد بن بطريق. ت٣٢٨هـ) "التاريخ المجموع على التصديق والتحقيق". ط بيروت ١٩٠٩م.

- ٣٧- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى.
ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م). "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة"
ج ١، ٢، ٣، ط الأولى، دار الكتب المصرية ١٩٢٩م.
- ٣٨- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى. ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) "رحلة
ابن جبير" تحقيق حسين نصار، ط بيروت ١٩٦٤م. "تذكرة بالأخبار
عن اتفاقات الأسفار" ط ليدن ١٩٠٧م.
- ٣٩- ابن جماعة (بدر الدين بن إبراهيم ابن جماعة. ت ٧٣٣هـ) "تذكرة السامع
والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم" ط الهند ١٣٥٣هـ.
- ٤٠- ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على الجوزى.
ت ٥٩٧هـ) "تلييس ابليس" ط نهضة مصر، ١٩٢٨م. "أخبار الحمقى
والمغفلين". بغداد، مطبعة البصرى ١٩٦٦م.
- ٤١- ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسى.
ت ٧٣٧هـ). "المدخل على الشرع الشريف" أربعة أجزاء، القاهرة
١٣٤٨هـ.
- ٤٢- ابن حجر العسقلانى (أحمد بن على. ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) "الرحمة الغيثية
بالتريجة الليثية فى مناقب سيدنا ومولانا الإمام الليث بن سعد". القاهرة،
المطبعة الأميرية ١٣٠١هـ بولاق. "توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس"
القاهرة بولاق ١٣٠١هـ. "تهذيب التهذيب" الهند ١٩٠٨م، ١٣٢٥هـ.
- ٤٣- ابن حوقل (أبو القاسم أحمد النصبى ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) "كتاب صورة
الأرض" القسم الأول الطبعة الثانية- ط ليدن عام ١٩٦٧م.
- ٤٤- ابن خرداذبه (أبو القاسم عبد الله بن عبد الملك المتوفى ٣٠٠هـ). "المسالك
والممالك". ط ليدن ١٩٦٧م.
- ٤٥- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى. المتوفى ٨٠٨هـ/١٤٠٥هـ/
١٤٠٦م) "المقدمة" القاهرة- المكتبة التجارية. "العبر وديوان المبتدأ
والخبر" المجلد الأول ط الثالثة، المجلد الثانى، بيروت ١٩٦٦،
١٩٦٧م.
- ٤٦- ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم المتوفى
٦٨١هـ/١٢٨١م) "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان". حققه د.

إحسان عباس، المجلد الأول، بيروت لبنان ١٩٦٨م، المجلد الثاني، بيروت ١٩٦٩م، المجلد الثالث بيروت ١٩٧٠م المجلد الرابع بيروت ١٩٧٠م، المجلد الخامس بيروت ١٩٧٠م، المجلد السادس بيروت ١٩٧٠م، المجلد السابع بيروت ١٩٧٠م.

٤٧- ابن الدايه (أبو جعفر أحمد بن يوسف المتوفى ٣٣٠هـ/٩٤١م) "المكافاة" ط القاهرة ١٩٤١م. "سيرة ابن طولون" القاهرة ١٩٤١م.

٤٨- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أريدمر العلاني. ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) "الانتصار لواسطة عقد الامصار" ج٤، ج٥ ط الأميرية ١٣١٠هـ.

٤٩- ابن الراهب (أبو شاعر بطرس بن أبي الكرم المهندي) "تاريخ ابن الراهب" نشرة لويس شيخو. بيروت ١٩٠٣م.

٥٠- ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم. ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) "أخبار سيبويه المصري" نشره محمد إبراهيم سعد وآخرون، ط الأولى، القاهرة، ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.

٥١- ابن الزيات (أبو عبد الله محمد ناصر الدين محمد بن عبد الله بن عمر. ت ٨١٤هـ/١٤١١م). "الكواكب السيارة في ترتيب الزيادة في القرافتين الكبرى والصغرى". القاهرة، المطبعة الأميرية بمصر ١٣٢٥هـ/١٩٥٧م.

٥٢- ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد- ت ٣٣٠هـ/٨٤٥م) "الطبقات الكبرى" طبعة بيروت ١٩٠٨م.

٥٣- ابن سعيد الانطاكي (يحيى الانطاكي ت ٤٥٨هـ) "تاريخ أو صلة تاريخ أو تيخا" باريس ١٨٩٧م.

٥٤- ابن سعيد (علي بن موسى المغربي (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٥م) "المغرب في حلى المغرب" تحقيق زكي محمد حسن وآخرون، ج١. كلية الآداب سنة ١٩٥٣م.

٥٥- ابن سلام (أبو عبيد القاسم ت ٢٢٣هـ) "الأموال" القاهرة، بدون.

٥٦- ابن سيدة (أبو الحسن بن إسماعيل اللغوي الاندلسي ٤٥٨هـ) "المخصص" المكتب التجاري - بيروت بدون.

٥٧- ابن عابدين (محمد أمين الشهير بابن عابدين) "رسائل ابن عابدين" ط الاستانة ١٣٢٥هـ. الجزء الثانى.

٥٨- ابن عبد البر القرطبى (أبو عمر يوسف المتوفى ٤٦٣هـ) "الاستيعاب فى معرفة الأصحاب" تحقيق محمد البحر اوى، مطبعة النهضة المصرية بالقاهرة الجزء الثالث، الثامن. "مختصر جامع بيان العلم وفضله" القاهرة، بدون.

٥٩ ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى ٢٥٧) "فتوح مصر وأخبارها" طبعة ليدن ١٩٢٠م.

٦٠- ابن عذارى (أبو العباسى أحمد المراكشى) "البيان المغرب فى أخبار المغرب" طبعة بروكسسال.

٦١- ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى) "تاريخ دمشق" ط روضة الشام ١٣٣٠، الجزء الأول.

٦٢- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد الصالحى ت ١٠٨٩هـ / ١٩٧٩م) "شذرات الذهب فى أخبار من ذهب" ٨ أجزاء - القاهرة ١٣٥٠-١٣٥١هـ.

٦٣- ابن العميد (المكين جرجس بن العميد بن أبى المكارم بن أبى الطيب ت ٦٧٢هـ) "تاريخ المسلمين" ط ليدن ١٩٢٥م.

٦٤- ابن طلحة (أبو سالم محمد بن طلحة القرشى النصيبى الوزير ت سنة ٦٥٢هـ) "العقد الفريد للملك السعيد" ط القاهرة ١٣٠٦هـ.

٦٥- ابن ظهيرة (جمال الدين محمد بن محمد نور الدين بن أبى بكر ت ٩٨٦هـ) "الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة" دار الكتب ١٩٦٩م.

٦٦- ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم ابن على بن محمد بن فرحون اليعمرى المدنى المالكى ت ٧٩٩هـ) "كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب" ط الأولى مصر ١٣٥١هـ.

٦٧- ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق الهمداني ت ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) "مختصر كتاب البلدان" نشر دى غربة - مطبعة بريل ليدن ١٩٦٧م.

٦٨- ابن قتيبة (أبى محمد عبد الله بن مسلم المتوفى ٢١٣هـ / ٨٢٨م أو ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) "المعارف" دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٠م "عيون الأخبار" القاهرة ١٩٢٥م، ١٩٣٠م الجزء الثانى.

٦٩- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر توفى سنة ٧٥١هـ) "أحكام أهل الذمة" نشره د. صبحى الصالح دمشق ١٩٦١م. "أعلام الموقعين عن رب العالمين" القاهرة ١٣٢٥هـ، الطبعة الثانية - مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥م. "فتاوى رسول الله" تحقيق مصطفى عاشور، ط القاهرة ١٩٨٠م. "حكم الإسلام فى الغناء" القاهرة، ط ٢، ١٩٧٩م "الفروسية" تحقيق عزت العطار، مؤسسة نشر الثقافة الإسلامية ط ٢ الأنوار ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م.

٧٠- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى المتوفى ٥٧٤هـ) "تفسير ابن كثير" ط بيروت ١٩٦٩م. "سيرة عمر بن عبد العزيز" القاهرة بدون "البداية والنهاية" ج ١٠، ط مصر ١٩٣٢م.

٧١- ابن ماجة (الحافظ أبو عبد الله القزوينى) "سنن ابن ماجة" (جزئين) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط بيروت ١٩٨٧م. الجزء الأول.

٧٢- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقى المصرى سنة ٧١١هـ) "أخبار أبى نواس" دار صادر بيروت بدون "لسان العرب" مطبعة الاستقامة. القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م.

٧٣- ابن نجيم (الشيخ زين الدين بن إبراهيم بن نجيم "الأشباه والنظائر على مذهب أبى حنيفة النعمان" القاهرة ١٢٩٨هـ، الجزء الأول.

٧٤- ابن النديم (محمد بن اسحق - المتوفى ٣٨٣هـ) "الفهرست" القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى.

٧٥- ابن الوردى (زين الدين عمر. ت سنة ٧٥٠هـ) "تتمة المختصر فى أخبار البشر" إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدرأوى المجلد الأول، دار المعرفة بيروت ١٩٧٠م.

٧٦- أبو الحسن على بن يوسف الحكيم "الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة" تحقيق د. حسين مؤنس، مدريد ١٩٦٠م.

- ٧٧- أبو صالح الارمنى (أبو المكارم جرجس بن مسعود ت أوائل القرن السابع الهجرى) "تاريخ كنائس وأديرة مصر" اكسفورد ١٨٩٥م.
- ٧٨- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبى الفدا ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) "المختصر فى أخبار البشر" دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت بدون، المجلد الأول.
- ٧٩- أبو يوسف (صاحب أبى حنيفة ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م) "كتاب الخراج" القاهرة ١٣٠٢هـ.
- ٨٠- الحافظ أبو نعيم (أحمد بن عبد الله الاصبهاني المتوفى ٤٣٠هـ) "حلية الأولياء وطبقات الاصفياء" ط الأولى القاهرة ١٣٥١-١٣٥٧هـ / ١٩٣٢-١٩٣٨م.
- ٨١- الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس) "صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس" ط ليدن ١٨٦٤م.
- ٨٢- الادفوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الادفوى ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م). "الطالع السعيد، الجامع لأسماء نجباء الصعيد" تحقيق سعد محمد حسن، ومراجعة د. طه الحاجرى الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة ١٩٦٦م.
- ٨٣- الاصفهاني (أبو الفرج - المتوفى سنة ٣٥٦هـ) "الاغانى" القاهرة (دار الكتب المصرية) (٢٢ جزءا) بدون.
- ٨٤- البخارى (محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٢٥٦هـ) "الجامع الصحيح" مطبعة دار الشعب ٩ أجزاء القاهرة ١٣٧٨. "فتوح البارى بشرح صحيح البخارى" ط الأولى - القاهرة ١٣٢٥هـ.
- ٨٥- البستانى "محيط المحيط" ط بيروت ١٨٦٩.
- ٨٦- البغدادى (عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) "الأفلادة والاعتبار فى الأمور والمشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر. (القاهرة مطبعة المجلة الجديدة).
- ٨٧- البلاذرى (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) "فتوح البلدان ط بيروت ١٩٧٨م، الجزء الأول. "أنساب الأشراف" الجزء

- الأول، تحقيق د. محمد حميد الله معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م.
- ٨٨- البلوى (أحمد محمد عبد الله بن محمد المدينى ق الرابع الهجرى) "سيرة ابن طولون" تحقيق محمد كرد على، دمشق ١٩٤٠م.
- ٨٩- البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى ت ٤٤٠هـ) "الآثار الباقية عن القرون الخالية" ط سخاو.
- ٩٠- التونسى (محمد بن عمر التونسى ت ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م) "تشيحذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" القاهرة ١٩٦٥م.
- ٩١- الثعالبى (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابورى المتوفى ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) "يتيمة الدهر" ٤ أجزاء - القاهرة ١٣٥٣هـ/١٩٤٧م. "اللطائف ومحاضرات الأوائى ومسامرات الأواخر" ط بولاق ١٨٨٣م.
- ٩٢- حاجى خليفة (المتوفى ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) "كشف الظنون عن أسمى الكتب والفنون" ٣ أجزاء. استنبول ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.
- ٩٣- الحميرى (محمد بن عبد المنعم) "الروض المعطار فى خبر الأقطار" تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥م.
- ٩٤- الدمشقى "محمد بن أبى طالب الانصارى ت ٧٢٧هـ/١٣٢٨م) "نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر" ط بطرسبرج ١٨٦٦م.
- ٩٥- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى ٧٤٨هـ/١٣٤٧م- ١٣٤٨م) "تذكرة الحفاظ" ط حيدر آباد (الهند) ١٣٣٣هـ- الجزء الأول. "سير أعلام النبلاء" القاهرة ١٩٦٢م الجزء الثالث. "العبر فى خبر من غير" تحقيق فؤاد سيد، الكويت دائرة المطبوعات والنشر جـ ١، ١٩٦٠م. "ميزان الاعتدال" القاهرة ١٣٢٥هـ. "تاريخ الإسلام" القاهرة ١٣٦٨هـ، جزء أول.
- ٩٦- الزبيدى (أبو بكر بن الحسن) "طبقات النحويين واللغويين" القاهرة ١٩٥٤م.
- ٩٧- الزركلى (خير الدين الزركلى) "الإعلام" ط الثالثة، بيروت ١٩٦٩م.
- ٩٨- ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) "سير الأباء البطارقة" ط المعهد القبطى

جزء أول، م ١ جـ ١، م ١ جـ ٢، م ١ جـ ٣، م ٢ جـ ٣، م ٣ جـ ٣، م ٣ جـ ٣ ط القاهرة ١٩٤٣، ١٩٤٨، ١٩٥٩، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

٩٩- السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكي ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) "طبقات الشافعية الكبرى" ٦ أجزاء القاهرة، المطبعة الحسينية ١٣٢٤هـ.

١٠٠- السخاوى (الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢هـ) "التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة" تحقيق محمد حامد الفقى، القاهرة ١٩٥٧م، الجزء الثانى "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" القدس، مطبعة الترقى ١٣٤٩هـ.

١٠١- السلمى (أبو عبد الرحمن السلمى ت ٣٤٣هـ) "طبقات الصوفية" ط الأولى، دار الكتاب العربى، مكتبة الخانجى بمصر ١٩٥٣م.

١٠٢- السمرقندى (علاء الدين السمرقندى ٥٣٩هـ) "تحفة الفقهاء" جـ ٢، حققه محمد زكى عبد البر، ط الأولى، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

١٠٣- السمعانى (أبو سعيد عبد الكريم بن أبى بكر محمد المظفر المنصور بن محمد بن عبد الجبار التميمى ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) "كتاب الأنساب" ط ليدن سنة ١٩١٢م.

١٠٤- السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، المتوفى ٩١١هـ/١٥٠٥م) "طبقات الحفاظ" تحقيق على محمد عمر ط القاهرة ١٩٧٣م. "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة" المطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٧هـ - جزءان. "تاريخ الخلفاء" القاهرة ١٩٦٩م، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد "الزهر فى علوم اللغة" جـ ٢، القاهرة، بدون. "بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاة" القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

١٠٥- الشافعى (محمد بن إدريس الشافعى المتوفى ٢٠٤هـ بمصر) "الأم" الجزء الأول، ط بولاق ١٣٢١هـ.

١٠٦- الشعرانى (عبد الوهاب) "الطبقات الكبرى المسماه "بلواقح الأنوار فى طبقات الأخيار" القاهرة ١٢٩٦هـ.

١٠٧- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد) "فتوح القدير الجامع بين فني الراوية والدراية في علم التفسير" بيروت (خمس مجلدات) "نيل الاوطار من أحاديث سيد الأخيار" ط بيروت ١٩٧٣ م، الجزء الخامس.

١٠٨- الشيرازي (أبو اسحق إبراهيم بن علي المتوفى ٤٧٦هـ) "طبقات الفقهاء" بغداد، المكتبة العربية ١٣٥٦هـ.

١٠٩- الصابئي (أبو الحسين هلال) "رسوم دار الخلافة" عنى بتحقيقه والتعليق عليه ميخائيل عواد، مطبعة العاني بغداد ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

١١٠- الصنعاني (محمد بن إسماعيل) "سبل السلام" ج٣، ط الرياض ١٩٧٧م.

١١١- طاش كبرى زاده (أحمد بن مصطفى) "مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم" ثلاث أجزاء، مراجعة وتحقيق كامل بكري، عبد الوهاب أبو النور القاهرة دار الكتب الحديثة - مطبعة الاستقلال الكبرى.

١١٢- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) "تاريخ الأمم والملوك" الأجزاء ٢، ٣، ٧ القاهرة ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.

١١٣- عبد الله بن عبد الحكم (أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى ٢٠٤هـ) "سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك ابن انس برواية ابنه محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى ٢٦٨هـ" القاهرة ١٩٥٤م.

١١٤- العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله المتوفى ٧٤٢هـ) "مسالك الابصار في ممالك الامصار" ج١، ج٢ القاهرة - دار الكتب المصرية ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م.

١١٥- عياض (القاضي عياض بن موسى بن عياض المالكي المتوفى ٥٤٤هـ) "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" الجزء الأول، الثالث والرابع ط الرباط.

١١٦- الغزالي (الأمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ) "أحياء علوم الدين" ج١، ٢، ٣، مطبعة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٣٥٦هـ.

١١٧- الغزولي (علاء الدين) "مطالع البدور في منازل السرور" ط الأولى مصر ١٣٠٠/١٢٥٩هـ.

- ١١٨- قدامة بن جعفر (أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ت ٣٣٧هـ/٩٤٩م) "الخراج وصناعة الكتابة" العراق ١٩٨١م.
- ١١٩- القزويني (زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) "آثار البلاد وأخبار العباد" بيروت ١٩٦٠م.
- ١٢٠- القفطي (جمال الدين علي بن محمد بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب ت ٦٤٦هـ). "أخبار العلماء بأخبار الحكماء" بغداد مكتبة المثنى. "أنباء الرواه على أنباء النحاه" القاهرة مطبعة دار الكتب ١٩٥٠م.
- ١٢١- القلقشندي (الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي ت ٨٢٣هـ/١٤١٨م) "صبح الاعشى فى صناعة الانشا" ١٤ جزء، القاهرة ١٩٦٣م "قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان" تحقيق إبراهيم الأبياني، ط الأولى ١٩٦٣م.
- ١٢٢- الكندي (أبو عمر محمد ابن يوسف الكندي المصري ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) "كتاب الولاية والقضاة" ط بيروت ١٩٠٨م. "ولاية مصر" بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
- ١٢٣- ليو الأفريقي (الحسن بن محمد الوزان الزياني ت ٩٤٤هـ) "وصف أفريقيا" ترجمة من الفرنسية للعربية د. عبد الرحمن حميده وراجعته د. علي عبد الواحد، المملكة العربية السعودية، الرياض ١٣٩٩هـ.
- ١٢٤- مالك (الأمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر ت ١٧٩هـ) "الموطأ" تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء الكتب العربية ١٣٧٠هـ.
- ١٢٥- الماوردي (أبو حسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي) "الأحكام السلطانية" الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٧٣م.
- ١٢٦- المرتضى (أحمد بن يحيى المرتضى المتوفى ٨٤٠هـ) "كتاب البحر الزخار الجامع علماء الامصار" تحقيق محمد بن يحيى مهران، مكتبة الخانجي مصر ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م، الجزء الثانى.
- ١٢٧- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ-٩٥٦م) "مروج الذهب ومعادن الجوهر" أربعة أجزاء. ط. بيروت ١٩٧٣م "التنبيه والإشراف" تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوى مكتبة الشرق الإسلامية مصر ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

١٢٨- المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى المعروف بالبشارى ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٧م) "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" نشر دى غوية طبعة ابريل، ليدن ١٩٦٧م.

١٢٩- المقدسى الحنبلى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح) "الآداب الشروعية والمنح المرعية" ط المعانى مصر ١٣٤٨هـ، الجزء الثانى.

١٣٠- المقدسى (مطهر بن طاهر المقدسى ت ٣٥٥هـ) "البدء والتاريخ" الجزء الرابع، مكتبة المثنى بغداد، مؤسسة الخانجى بمصر، طبع فى مدينة شالون بمطبعة باريس ١٩٠٧م.

١٣١- المقرئى (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المتوفى ٨٤٥هـ) "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" طبعة بيروت، جزءان. "البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب" تحقيق د. عبد المجيد عابدين - القاهرة ١٩٦١م. "النقود الإسلامية" ط النجف ١٩٦٧م. "القول الأبريزى للعلامة المقرئى" طبع جمعية التوفيق مصر الفجالة ١٨٩٨م. "الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك" تحقيق د. جمال الدين الشيال. الناشر مكتبة الخانجى بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥م.

١٣١- ناصر خسرو (ناصر خسرو علوى الفارسى الأصل ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) "سفرنامه" نقله للعربية د. يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م. الطبعة الأولى.

١٣٣- النووى (محيى الدين شرف - المتوفى ٦٧٦هـ) "تهذيب الأسماء واللغات" القسم الأول، إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة "مختصر كتاب رياض الصالحين"

مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة ١٩٨٦م،

١٣٤- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٨٣٣هـ) "نهاية الأرب فى فنون الأدب" الأجزاء ١- ٢٧، ط دار الكتب بدون.

١٣٥- الهمداني (بديع الزمان ت ٣٩٨هـ) "المقامات" شرح محمد عبده - المطبعة الكاثوليكية بيروت - لبنان.

- ١٣٦- الواقدي (محمد بن عمر ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م) "فتوح الشام" جزءان. المطبعة العثمانية ١٣١٥هـ. "فتوح مصر والإسكندرية" ط ليدن ١٧٢٥م.
- ١٣٧- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) "معجم البلدان" أربعة أجزاء. ط بيروت ١٩٥٥م. "معجم الأدباء" عشرين جزء، القاهرة ١٩٣٨م.
- ١٣٨- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) "تاريخ اليعقوبي" ٢ جزء، ط ليدن ١٨٨٣، "البلدان" ليدن ١٨٩١م.
- ١٣٩- يوحنا النقيوسي (ت أواخر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي "تاريخ".
140- La Chronique de Jean, évêque de Nikiou, Notice et extraits par M.H. Zatenberg. Pairs 1889.
141- La Chronique de Michel, Le Syrien, T. 2, Fasc 3, et T. 3, Fasc 1, Pairs, 1904.

رابعاً: المراجع العربية الحديثة:

- ١٤٢- إبراهيم أحمد العدوي (دكتور) "التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية" مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٦م. "ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب" الأنجلو ١٩٦٣م.
- ١٤٣- إبراهيم نصحي (دكتور) "مصر في عصر البطالمة" ج ٢، ط الرابعة. الأنجلو ١٩٧٦م.
- ١٤٤- أحمد أمين "فجر الإسلام" ج ١، القاهرة ١٩٦٥.
- ١٤٥- أحمد بدوي (دكتور) "في موكب الشمس" جزء أول، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط ٢، ١٩٥٥م.
- ١٤٦- أحمد تيمور "نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة" ط القاهرة ١٣٥١هـ.
- ١٤٧- أحمد شلبي (دكتور) "تاريخ التربية الإسلامية" بيروت ١٩٥٤م.
- ١٤٨- أحمد عبد الحميد الشامي (دكتور) "تاريخ العرب والإسلام الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٢.
- ١٤٩- أحمد فهمي أبو سنة "العرف والعادة في رأى الفقهاء" مصر ١٩٤٧م.

- ١٥٠- أحمد مختار عمر (دكتور) "تاريخ اللغة العربية في مصر" القاهرة ١٩٧٠م.
- ١٥١- أسد رستم (دكتور) "حرب في الكنائس" بيروت ١٩٦٨م.
- ١٥٢- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) "تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي وحتى الفتح العثماني" ط الأولى مصر، ١٩٦١م "تاريخ الدولة العربية" الإسكندرية ١٩٨٤م.
- ١٥٣- ايزيس حبيب المصري "قصة الكنيسة القبطية" ج٢، القاهرة ١٩٦٥م.
- ١٥٤- الشاطر بصيلي (دكتور) "معالم تاريخ السودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي" القاهرة ١٩٥٥م "تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر للميلاد" القاهرة ١٩٧٢م.
- ١٥٥- البراموسى (الراهب) "حسن السلوك في تاريخ البطارقة والملوك" الجزء الأول. القاهرة، بدون.
- ١٥٦- بطرس الجميل (الأنبا) "كتاب السنكسار" الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين" جزءان وضعه: الأنبا بطرس الجميل - أسقف مليج، والأنبا ميخائيل أسقف أتريب، والأنبا يوحنا أسقف البرلس وغيرهم. ط القاهرة ١٩٦٨.
- ١٥٧- تقارير: "تقرير مصلحة الآثار عن آثار بلاد النوبة المهددة بالغرق لمناسبة مشروع السد العالي" القاهرة ١٩٥٥م.
- ١٥٨- جمال الدين الشيال (دكتور) "تاريخ مصر الإسلامية" ج١، ط دار المعارف ١٩٦٧م.
- ١٥٩- جرجى زيدان "تاريخ التمدن الإسلامى" ج٣ القاهرة ١٩٣٥، ج٤ القاهرة ١٩٠٨، ج٥ القاهرة بدون "تاريخ آداب اللغة العربية" الأجزاء ١: ٣ القاهرة ١٩٣٧م.
- ١٦٠- جورجى صبحى "قواعد اللغة المصرية القبطية" ط المعهد العلمى الفرنسى، القاهرة ١٩٢٥م.
- ١٦١- حسن إبراهيم حسن (دكتور) "تاريخ الإسلام السياسى" الجزء الأول والثانى والثالث، ط القاهرة ١٩٣٥. "انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، ط الثالثة ١٩٨٤م.

- ١٦٢- حسن أحمد محمود (دكتور) "حضارة مصر الإسلامية" العصر الطولوني" ١٩٦٠م. "الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا" الجزء الأول مطبعة لجنة البيان العربي. دار النهضة العربية ١٩٦٣م. "العالم الإسلامي في العصر العباسي طبعة أولى، دار الفكر القاهرة سنة ١٩٦٦م.
- ١٦٣- حسن رجب (دكتور) "البردي" دار المعارف القاهرة ١٩٨١م.
- ١٦٤- حسن ظاظا (دكتور) "الفكر الديني الإسرائيلي" أطواره ومذاهبه القاهرة سنة ١٩٧١م.
- ١٦٥- حسن كمال (دكتور) "الطب المصري القديم" الجزء ٣، ٤، المجلد الثاني ١٩٦٤م.
- ١٦٦- حسنين محمد ربيع (دكتور) "وثائق الجنييزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى" ج ٢، ط الرياض ١٩٧٩.
- ١٦٧- حسين مؤنس (دكتور) "أطلس تاريخ الإسلام" الزهراء للإعلام العرب القاهرة ١٩٨٧م.
- ١٦٨- حفنى ناصف "تاريخ الأدب العربي" ج ٢، مطبعة الجريدة بسراى البارودى بمصر، بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- ١٦٩- حكيم أمين "دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية" القاهرة ١٩٦٣م.
- ١٧٠- "دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول.
- ١٧١- رؤوف حبيب (دكتور) "دليل المتحف القبطى" القاهرة ١٩٦٦م.
- ١٧٢- راشد البراوى (دكتور) "حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين" القاهرة ١٩٤٨م.
- ١٧٣- رضا كحالة "معجم قبائل العرب" دمشق ١٩٤٩، ثلاث أجزاء.
- ١٧٤- زبيده عطا (دكتورة) "إقليم المنيا فى العصر البيزنطى فى ضوء أوراق البردى" الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.
- ١٧٥- زكى شنودة "موسوعة تاريخ الأقباط" الجزء الأول والجزء الثانى الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

١٧٦- زكى محمد حسن (دكتور) "مصر والحضارة الإسلامية" القاهرة ١٩٤٢م
"الفن الإسلامى فى مصر" ج١، القاهرة ١٩٣٥م.

١٧٧- زهدى يكن "الزواج ومقارنته بقوانين العالم" طبعة ثانية، منشورات المكتبة
العصرية بيروت ١٩٥٢م.

١٧٨- سعاد ماهر (دكتورة) "البحرية فى مصر الإسلامية" دار الكتاب العربى
١٩٦٧م. "مخلفات الرسول فى المسجد الحسينى" دار مطابع الشعب،
القاهرة ١٩٦٥م.

١٧٩- سعد الخادم "تاريخ الأزياء الشعبية فى مصر" دار المعارف ١٩٥٩م. "الفن
الشعبى والمعتقدات الشعبية" النهضة المصرية ١٩٦٢م.

١٨٠- سعد زغلول (دكتور) "تاريخ الإسكندرية من الفتح الإسلامى إلى بداية
العصر الفاطمى" من كتاب تاريخ الإسكندرية وحضارتها "منذ أقدم
العصور" ١٩٦٣م.

١٨١- سليم حسن (دكتور) "مصر القديمة الجزء الثانى، ط دار الكتب ١٩٤٧م.
١٨٢- سيد أمير على "تاريخ العرب والتمدن الإسلامى القاهرة مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٩٣٨.

١٨٣- سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة) "مصر فى فجر الإسلام" دار الفكر العربى
١٩٤٧. "مصر فى عصر الولاة" القاهرة سلسلة الألف كتاب. "مصر
فى عصر الإخشيديين" ط الثانية، القاهرة ١٩٧٠م. "مصر فى عصر
الطولونيين والإخشيديين القاهرة ١٩٦٠م دراسات فى المجتمع
المصرى الإسلامى قبل العصر الفاطمى" مستخرج من دراسات اثارية
إسلامية، المجلد الثانى ١٩٨٠م. "عبد العزيز بن مروان القاهرة
١٩٦٧م. "الوليد بن عبد الملك" القاهرة المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢م.

١٨٤- شحاتة عيسى إبراهيم "القاهرة" الألف كتاب، دار الهلال.
١٨٥- شكرى فيصل "حركة الفتح الإسلامى فى القرون الأولى" بيروت ١٩٥٢م.
١٨٦- شوقى ضيف (دكتور) "المدارس النحوية" القاهرة ١٩٦٨م.
١٨٧- شوقى عطا الله الجمل (دكتور) "تاريخ السودان وادى النيل" الجزء الأول، ط
الأنجلو ١٩٦٩م.

- ١٨٨- شيخو (لويس) "المخطوطات العربية لكتبة النصرانية" بيروت سنة ١٩٢٤م.
- ١٨٩- صفاء حافظ عبد الفتاح (دكتورة) "الموانى" والثغور المصرية" دار الفكر العربى، الكويت ١٩٨٦م.
- ١٩٠- صلاح الدين المنجد (دكتور) "دراسات فى تاريخ الخط العربى منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموى" ط الأولى، بيروت ١٩٧٢م.
- ١٩١- ضياء الدين الرئيس (دكتور) "الخراج والنظم المالية" الطبعة الثانية الأنجلو ١٩٦١م.
- ١٩٢- عبد الحميد يونس "الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى" جامعة القاهرة ١٩٥٦م.
- ١٩٣- عبد الرحمن زكى (دكتور) "القاهرة تاريخها وأثارها من جواهر القائد حتى الجبرتى المؤرخ" الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦.
- الحلى فى التاريخ والفن والإرشاد" القاهرة ١٩٦٥م.
- ١٩٤- عبد السلام الترماني (دكتور) "الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام" دراسة مقارنة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الكويت (عالم المعرفة) ١٩٨٤م.
- ١٩٥- عبد اللطيف أحمد على (دكتور) "مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية" دار النهضة العربية ١٩٦٥م.
- ١٩٦- عبد الله حسين (دكتور) "السودان" الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٥.
- ١٩٧- عبد الله خورشيد (دكتور) "القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة" دار الكاتب العربى ١٩٦٧م.
- ١٩٨- عبد العزيز الدورى (دكتور) "تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى" بغداد ١٩٤٨.
- ١٩٩- عبد العزيز صالح (دكتور) "التربية والتعليم فى مصر القديمة" ط القاهرة ١٩٦٦م. "الشرق الأدنى القديم" ج١، القاهرة ١٩٦٧م.
- ٢٠٠- عبد المجيد عابدين (دكتور) "البيان والأعراب للمقريزى" (تحقيق) عالم الكتب، القاهرة ١٩٦١م. "نظرية عامة فى تاريخ تعريب السودان" الخرطوم ١٩٥٩م. "تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها إلى

العصر الحديث" الطبعة الأولى أول يونيو ١٩٥٣م. "دراسات سودانية" مجموعة مقالات في الأدب والتاريخ.

٢٠١- عبد المنعم ماجد (دكتور) "العصر العباسي الأول" (التاريخ السياسي) ط مكتبة الأنجلو ١٩٧٣، الجزء الأول. "تاريخ الدولة العربية" ج١، ط الرابعة. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١م. "مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي" ط الثالثة، الأنجلو المصرية ١٩٧١ "الحاكم بأمر الله" القاهرة ١٩٥٩. "ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر" مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨م.

٢٠٢- عطية القوصي (دكتور) "اليهود في ظل الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٧٨م.

٢٠٣- عطية القوصي (دكتور) "تاريخ دولة الكنوز الإسلامية" القاهرة ١٩٨١م.
٢٠٤- علي حسنى الخربوطلي (دكتور) "الإسلام وأهل الذمة، القاهرة ١٩٦٩م.
"الحضارة العربية والإسلامية" القاهرة ١٩٦٢م.

٢٠٥- علي زين العابدين "المصاغ الشعبي في مصر" القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

٢٠٦- علي عبد الواحد وافي (دكتور) "الحقوق الإنسانية في الإسلام" ط٥، القاهرة ١٩٧٩.

٢٠٧- فتحى عثمان (دكتور) "مع المسيح في الأناجيل الأربعة" الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦م.

٢٠٨- فريد شافعى (دكتور) "العمارة العربية الإسلامية في عصر الولاة" القاهرة ١٩٧٠م.

٢٠٩- فنسك "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى" القاهرة ١٣٦٤هـ.

٢١٠- قاسم عبده قاسم (دكتور) "أهل الذمة في مصر العصور الوسطى دراسة وثائقية" دار المعارف ١٩٧٩م. "اليهود في مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى" دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٩٨٧م. "النيل والمجتمع المصرى" دار المعارف، ط الأولى ١٩٧٨م.

- ٢١١- كمال صالح البنا "قوانين الإجراءات فى مسائل الأحوال الشخصية" مصر ١٩٥٨م.
- ٢١٢- محمد جمال الدين سرور (دكتور) "الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية" القاهرة ١٩٧٩م.
- ٢١٣- محمد الخضرى "نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين" ط القاهرة ١٩٦٧م.
- ٢١٤- محمد رمزى "القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م".
القسم الأول: البلاد المندثرة، دار الكتب ١٩٥٣: ١٩٥٤م.
القسم الثانى: البلاد الحالية، دار الكتب ١٩٥٤: ١٩٥٥م. القسم الثانى، ج٤، دار الكتب ١٩٦٣م.
- ٢١٥- محمد السفارينى الحنبلى "ثلاثيات مسند الإمام أحمد" ط الأولى ١٣٨٠هـ — دمشق، الجزء الأول.
- ٢١٦- محمد السيد غلاب (دكتور) "تطور الجنس البشرى" مكتبة الأنجلو المصرية، ط السادسة ١٩٨١م.
- ٢١٧- محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) "الفن الإسلامى - المنسوجات الأثرية" بغداد ١٩٦٥م.
- ٢١٨- محمد عزة دروزه "عروبة مصر" بيروت ١٩٦٣م.
- ٢١٩- محمد عوض محمد (دكتور) "السودان الشمالى، سكانه وقبائله" لجنة التأليف والترجمة. "الشعوب والسلالات الأفريقية" الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥. "نهر النيل" الطبعة الأولى.
- ٢٢٠- محمد غيطاس (دكتور) "أضواء جديدة على تاريخ النوبة الإسكندرية، ١٩٨٧م.
- ٢٢١- محمد كامل حسين "أدب مصر الإسلامية، عصر الولاة" الناشر دار الفكر العربى، بدون.
- ٢٢٢- محمد محمد أمين (دكتور) "تطور العلاقات العربية فى العصور الوسطى" معهد الدراسات العربية ١٩٧٧م.
- ٢٢٣- محمد مصطفى الماحى (دكتور) "شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

- ٢٢٤- محمود عكوش (دكتور) "مصر في عهد الإسلام خواطر في تاريخها ونبذ عن أثارها" القاهرة، ط دار الكتب المصرية ١٩٤١م.
- ٢٢٥- محمود مصطفى (دكتور) "الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي". دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧م.
- ٢٢٦- مراد فرج "القراءون والربانون" القاهرة ١٩١٨م.
- ٢٢٧- مراد كامل (دكتور) "حضارة مصر في العصر القبطي" القاهرة، بدون.
- "القبط في ركب الحضارة العالمية" مطبوعات جمعية مار مينا العجايبى بالإسكندرية بدون.
- ٢٢٨- مصطفى طه بدر (دكتور) "مصر الإسلامية" الطبعة الثانية ١٩٥٩م الجزء الأول.
- ٢٢٩- مصطفى كمال عبد العليم (دكتور) "اليهود في عصرى البطالمة والرومان" القاهرة ١٩٦٨م.
- ٢٣٠- مصطفى مسعد (دكتور) "الإسلام والنوبة في العصور الوسطى" بحوث فى تاريخ السودان وحضارته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادى. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٠م. "المكتبة السودانية العربية" مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان فى العصور الوسطى. مكتبة الأنجلو المصرية، ط الأولى ١٩٧٢ مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم.
- ٢٣١- مكى شبكة (دكتور) "السودان عبر القرون" دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٦٤م.
- ٢٣٢- منسى القمص الشماس "تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٢٤م.
- ٢٣٣- والفنسون اسرائيل (دكتور) "تاريخ اللغات السامية" الطبعة الأولى، مطبعة الاعتماد ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م.
- ٢٣٤- وزارة الشؤون الاجتماعية "النوبة حاضرها ومستقبلها" القاهرة ١٩٦٤م.
- ٢٣٥- وليم نظير (دكتور) "الثروة النباتية عند قدماء المصريين" الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- ٢٣٦- يس عبد المسيح "اللهجات القبطية وأثارها الأدبية" بحث منشور فى كتاب صفحة من تاريخ القبط مطبوعات جمعية مار مينا العجايبى بالإسكندرية ١٩٥٤م.

٢٣٧- يوحنا سلامة (القمص) "اللائى النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة" ج١، ط٣، مصر ١٩٦٥م.

خامسا: المراجع الإفرنجية المترجمة إلى العربية:

٢٣٨- ارنولد (توماس) "الدعوة إلى الإسلام" تعريب: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠م.

٢٣٩- أوليفر (رولاند) "موجز تاريخ أفريقية" ترجمة دولت أحمد صادق. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م ص ٧٨.

٢٤٠- ايتكنهاوزن (رتشارد) "فن التصوير عند العرب" ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتى، وزارة الإعلام- بغداد ١٩٧٣م.

٢٤١- بتشر (أ.د) "تاريخ الأمة القبطية وكنيستها" ثلاث أجزاء. ترجمة اسكندر تادرس، القاهرة ١٩٥٠م.

٢٤٢- بتلر (الفرد. ج) "فتوح العرب لمصر" تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٤٦م.

٢٤٣- بروكلمان (كارل) "تاريخ الأدب العربى". الأجزاء ١: ٤ تعريب د. عبد الحليم النجار وآخرون. القاهرة ١٩٦٢م.

٢٤٤- بوركهارت (جون لويس) "رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان" ترجمة فؤاد اندروس، حقق أعلامه الشاطر بصيلى نشر مطبعة المعرفة ١٩٥٩م.

٢٤٥- بينز (نورمان) "الإمبراطورية البيزنطية" ترجمة د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠م.

٢٤٦- (أ.س) "أهل الذمة فى الإسلام" تعريب دكتور حسن حبشى، دار المعارف ١٩٦٧م.

٢٤٧- جاستون فييت "القاهرة مدينة الفن والتجارة" تعريب الدكتور مصطفى العبادى- نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت- نيويورك ١٩٦٨م.

- ٢٤٨- جوايتاين (س.د) "دراسات في التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية" تعريب وتحقيق د. عطية القوصى، الكويت ١٩٨٠م.
- ٢٤٩- دوزى (رينهارت) "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" ترجمة د. أكرم فاضل، بغداد ١٩٧١م.
- ٢٥٠- دى كاسترى "الإسلام خواطر وسوانح" ترجمة أحمد فتحي زغلول- القاهرة ١٣١٥هـ/١٨٩٨م.
- ٢٥١- دينيت (دانييل) "الجزية والإسلام" ترجمة د. فوزى فهمى فهم، بيروت ١٩٦٠م.
- ٢٥٢- سليجمان "السلالات فى أفريقيا" ترجمة يوسف خليل، مكتبة العالم العربى ١٩٥٩م.
- ٢٥٣- على بهجت "حفريات القسطنطين" ألفه ونشره باللغة الفرنسية على بهجت، البيرجبريل، نقله للعربية على بهجت، محمود عكوش، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٨م.
- ٢٥٤- لويس (ارشيالد) "القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط" نقله للعربية أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠م.
- ٢٥٥- متر (آدم) "الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى" جزءان ترجمة محمد عبد الهادى أبوريدة، القاهرة ١٩٤٧.
- ٢٥٦- موس (هـ.) "ميلاد العصور الوسطى" ترجمة عبد العزيز توفيق، ط القاهرة ١٩٦٧م.
- ٢٥٧- نيكلسون (رينولد) "فى التصوف الإسلامى وتاريخه" تعريب د. أبو العلا عفيفى. القاهرة ١٩٤٧م-١٩٥٦م.
- ٢٥٨- هسى (ج م) "العالم البيزنطى" ترجمة د. رأفت عبد الحميد. الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧م.

ساسا: الدوريات والبحوث:

- ٢٥٩- احمد عبد الحميد الشامى (دكتور) "أوراق البردى العربى" مجلة المؤرخ العربى، العدد التاسع، بغداد، ص ١٢٩.

- ٢٦٠- توفيق سلطان (دكتور) "التعريب في العصرين الأموي والعباسي" الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الرابع والعشرون ١٩٧٧م.
- ٢٦١- جمال الدين الشيال (دكتور) "الفسطاط" كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد ١٢، سنة ١٩٥٨.
- ٢٦٢- جمال محرز (دكتور) "منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط" ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٦٩م، ج١، ط دار الكتب ١٩٧٠م.
- ٢٦٣- سعاد ماهر (دكتورة) "محافظات الجمهورية العربية المتحدة وأثارها الباقية في العصر الإسلامي"، أشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، المجلد ٢١، العدد الأول ١٩٥٩م. مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- ٢٦٤- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) "الإسلام والتعريب" مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر العدد الثاني، سنة ١٩٧٩م.
- ٢٦٥- سكانلون (جورج) "إعادة النظر في المعالم الأثرية" بحث مقدم ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة. ج١، مطبعة دار الكتاب ١٩٧٠م.
- ٢٦٦- سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة) "تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية" مجلة كلية الآداب، المجلدان ٩، ١٠، ١٩٦٠م، ١٩٦٢م.
- ٢٦٧- شفيق علام (دكتور) "الزواج في مصر القديمة" مجلة مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس ديسمبر ١٩٨١.
- ٢٦٨- عبد الرحمن زكي (دكتور) "خطط الفسطاط، فيما كتبه عبد الرحمن بن عبد الحكم" مقال بالمجلة التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم، إعداد مجموعة من الأساتذة، المكتبة العربية، القاهرة ١٩٧٥م.
- ٢٦٩- عبد المجيد عابدين (دكتور) "سيلاد سوبا" مجلة الجمعية التاريخية السودانية، المجلد الأول، الجزء الثاني.
- ٢٧٠- عبد المنعم ماجد (دكتور) "علم البردي العربي لأول مرة" بحث منشور في ندوة الدراسات البردية، جامعة عين شمس ١٩٨٢م. "النيل في رسوم الدولة الفاطمية في مصر" بحث منشور في ندوة حوض النيل، يناير ١٩٨٧م.

٢٧١- محمد عبد العال أحمد (دكتور) "النوبة والمحالات الإسلامية لفتحها فيما بين عامي (٢٠-٣١هـ / ٦٤١-٦٥٢م)" مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية. المجلد ٣٣، ١٩٨٤م، ١٩٨٥م. "الإسلام في غرب القارة الأفريقية جذوره الأولى ووسائل انتشاره" معهد الدراسات الأفريقية ١٩٨٦م.

٢٧٢- محمد عمر بشير (دكتور) "تدفق الهجرات العربية للسودان" مجلة الدراسات السودانية، العدد الأول، مجلد السابع.

٢٧٣- مصطفى جواد "مجلة التراث الشعبي"، "أزياء العرب الشعبية"، العدد الثامن ١٩٦٢م.

٢٧٤- مصطفى العبادي (دكتور) "ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربي" المجلة التاريخية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.

٢٧٥- مصطفى مسعد (دكتور) "البجة والعرب في العصور الوسطى" مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد الحادي والعشرين، ج٢، ديسمبر ١٩٥٩م. "مملكة علوه" المجلة التاريخية المصرية، العدد الثامن ١٩٥٩م. "معاهدة البقط نمط فريد في مجال العلاقات الدولية في الإسلام"، بحوث في مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية- جامعة الإمام محمد بن سعود- العدد الخامس ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

سابعاً: الرسائل الجامعية:

٢٧٦- عبد الرحمن العبيد عبد الماجد "تنوير الغبش في فضل السودان والحبش" تصنيف الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الجوزي، تحقيق عبد الرحمن العبيد، إشراف أ.د. حسن أحمد محمود، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٢٧٧- عطية القوصي (دكتور) "بنو الكنز" رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٠م.

٢٧٨- محمد حمزة إسماعيل "قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك" رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٨٧م.

- ٢٧٩- محمد الصغير "البردى واللوتس فى الحضارة المصرية القديمة" رسالة ماجستير، جامعة القاهرة.
- ٢٨٠- محمود الحسينى "التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية" رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، كلية الآثار ١٩٨٧م.
- ٢٨١- محمود محمد على الحويرى "أسوان فى العصور الوسطى" رسالة ماجستير جامعة القاهرة. ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.
- ٢٨٢- مصطفى عبد الله شبحه "الزخارف الإسلامية فى عمارة الكنائس الأثرية بمصر القديمة وما بها من التحف والآثار"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- ٢٨٣- نادية بدوى "الزينة الشخصية عند العبادة" رسالة ماجستير، جامعة القاهرة غير منشورة، معهد الدراسات الأفريقية ١٩٨٥م.

ثامنا: المراجع الإفرنجية :

- 284- Actes du 11 Symposium international sur la Nubie (Fevrier 1-3, 1971). Organisé par L. Institut d'Egypté. Edité Par Labib, Le Caire 1981.
- 285- Adams, W.y.,: Sudan Antiquites Service Excavations in Nubia, Fourth Season 1962-63.
- 286- Arkell, A.J.,: A history of the Sudan from the earliest times to 1821. London 1955.
- 287- Anawati., (C),: Factors and effect of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria, Wiesbaden, 1975.
- 288- Autefage,: Les Coptes, Lyon, 1885.
- 289- Bell. H.I.,: The Byzantine Servile State in Egypt, "Journal of Egyptian Archaeology, 1917, 4".
- 290 - Bloss, J.F.E.: The Story of Suakin, S.N.R. XIX, Part 1, 1936.
- 291- Book. A.E.R.,: Byzantine Imperialism in Egypt, "The American historical Review, 34, 1928".
- 292- Budge. E.A.W.,:

- The Egyptian Sudan, its History and Monuments, London 1907.
- A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, Vol. 1, London, 1928.
- 293- Budge, W.,: Text relating to saint mena of Egypt and Canons of Nicaea in a Nubian dialect with Facsimile, London, 1909.
- 294- Butler, :
 - The Arab Conquest of Egypt, London 1902.
 - Butler: Ancient Coptic Churches, Oxford, 1884.
- 295- Crawford, O.G.S.,: The Fung Kingdom of Sennar Gloucester, 1951.
- 296- Creed. J.M.,: Egypt and The Christian Church, Oxford, 1941.
- 297- Encyclopaedia of Islam. Art "Masjid", Vol. 3;
 - Encyclopaedia of Islam, history of the town of Fustat. Vol. 1.
- 298- Fischel, H.,: Jews in the Economic and Political life of Medieval Islam, London 1937,
- 299- Fowler, : Christian Egypt, London, 1901.
- 300- Goddard. F.F.,: The Egyptian Contribution to Nubian Christianity, SNR., XL, 1959.
- 301- Goitein, S.D.,:
 - Mediterranean Society A the Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the documents of the Cairo Geniza, 3 Vols University of California Press 1967-1978.
 - "Jewish Society and Istitution Under Islam", In: Jewish Society through the Ages, edited by H.H. Ben Sasson and S. Ettinger. New York 1973.
 - Studies in Islamic history and Institutions, Leyden 1968.
 - The Geniza Sources in. D. Goitein, Jewish Education in Muslim Cauntries, Terysalem 1962.
 - "L'Etat actuel de la recherche sur les documents de la Geniza du Caire" Revue des Etudes Juives, Troisième série, 1959-1960.

- "The Cairo Geniza as a source for the history of Muslim Civilisation" in *Studia Islamica* 1955.
- 302- Griffith, F.L.I.,: *Oxford Excavations in Nubia*, LAAAXIII, 1926.
- 303- Grohmann (A).,: *The Problem of Dating Early Qurans Der Islam.*, Berlin 1958. Grohmann: *From the World of Arabic Papyri*, Al. Maaref Press. Cairo 1952.
- 304- Hamilton. J.A. De. C.,: *The Anglo-Egyptian Sudan from Within*, London 1935.
- 305- Hardy.,: *Christian Egypt, Churches and People*, New York, 1952.
- 306- Hassanein Rabie.,: *The Financial System of Egypt*, Cairo.
- 307- Hurart.,: *Histoire des Arabes*, Paris, 1912.
- 308- Ibrahim S. Halkine.,: *The Arab Jewish Literture "The Jews" their history, Culture and Religion*, Vol. 1.
- 309- Jackson. F.,: *The history of the christian Church from the earliest Times to the death of St Leo the great A.D. 461*, London 1909.
- 310- Jakobielski, S.,:
 - *Some remarks on Faras incipitons*, *Nubische Kunst*, 1970.
 - *Faras 111, A history of the Bishopric of pachoras on the Basis of Coptic inscriptions*, Warsrawa, 1972.
- 311- Yusuf Fadi Hassan.,: *The Arabs and the Sudan*. University of Khartoum Press 1973.
- 312- Khoury (R.G),: *Asad. B. Musa (132-212/750-827): Kitabaz - Zuhd. Nouvelle édition revue, Corrigée et Augmentée de tous les Certificats de lecture d'après les deux Copies de Berlinet de Damas. Avec une étude sur l'auteur. Wiesbaden. (Codices Arabici Antiqui II) 1976.*
- 313- Kirwan. L.P.,:
 - *The international position of sudan in roman and medieval times*. S.N.R. Vol. XL, 1959.
 - *Notes on the topography of the Christian, Nubian Kingdoms*, J.E.A XXI, 1955.

- 314- Lammens. M.H.,: Un Gouverneur Omayyad e d' Egypte; "Qorra Ibn Sarik d' après les papyrus Arabes", Bulletin de l' institut Egyptien, Le Caire 1908.
- 315- Lane Poole (Stanley).,: History of Egypt in the Middle Ages, London 1901.
- 316- MacMichael.,: A history of the Arabs in the Sudan, Vol. 1, Gambridge 1922.
- 317- El Mahadi Mandour.,: A. short history of the Sudan, Oxford University Press, London, 1965.
- 318- Mann, J.,:
 - The jewis in Egypt and palestine under the Fatimid Caliphs. 2 Vols. Oxford 1920,1969.
 - Texts and studies in jewish history and literature, New York 1972.
- 319- Marcel.,: Egypt depuis la Conquete des Arabes jusque à la domination, Francais, Paris.
- 320- Martin.,:
 - Studia Arabica of Islamica, American University of Beirut, 1981.
 - The Journal of Egyptian Archeology in 1975, "Vol. 61".
- 321- Monneret de Villard.,: Storia Della Nubia, Cristiana Roma, 1938.
- 322- Maspero. G. Wiet.,: Matérieaux Pour Servir à la géographie de L'Egypte. Le Caire 1919.
- 323- J. Maspero.,: Organisation militaire de L'Egypt Byzantine, Paris 1912.
- 324- Milne.,: A history of Egypt under Roman Rule, London, 1924.
- 325- Moorsel, Paul Van, and Others.,: The Central Church of A bdallah Nirqi, Leiden, 1975.
- 326- Mostapha El-Emir.,: Fauilles de L'.Université d'Alexandrie à Gebel Adda (1959).
- 327- Mustafa M. Musad.,: The downfall of the christian Nubian Kingdoms, SNR. Vol. 40, 1959.

- 328- Paul, A.,:
- The Hadareb, A study in Arab-Beja relationships, S.N.R. XL, 1959.
- A history of the Bija tribes of the Sudan the Cambridg University 1971.
- 329- Salamon. M. George.,: Un texte Arabe inédit pour Servir à L'histoire des chrétiens d'Egypte, Le Caire, 1906.
- 330- Save-Soderberg, T.,: Christian Nubia - The Excavations Carried out by the Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Nubische Kunst, 1970.
- 331- Stephenson. C.,: Mediaeval history Europe from the second to the sixteenth Century, New York, 1962.
- 332- Thompson. J. Johnson. E.,: An introduction to Medieval Europe 300- 1500, New York, 1965.
- 333- Trimingham, J.S.,: Islam in the Sudan., Oxford University, 1949.
- 334- Villard, Ugo Monneret De., Storia della Nubia Cristiana Roma, 1938.
- 335- Vosiliev. A.A.: history of the Byzantine Empire 324. 1453, Modison and Milwaukee, 1964.
- 336- Weigall, A.,: A Report on the Antiquities of lower Nubia (the first Cataract to the Sudan frontier) and their Condition in 1906-7-Oxford.
- 337- Wiet (Gaston).,: Catalogue Général du Musée Arabe du Caire. Stéle Funéraires. Tome I.V. Le Caire; Wiet (G): L'Egypte Musulmane (Précis de L'histoire d' Egypte T 11) Le Caire 1932.
- 338- Yedida K. Stillman.,: The importance of the Cairo Geniza international Journal of the Middle East Studies, Cambridge University 1976.
- 339- Le Synaxaire Arabe Jacobte, Rédaction Copte, texte Arabe, Vol. 1-3 Paris.

ABBREVIATIONS

Actes du 11 Symposium: Actes du 11 Symposium international sur la Nubie (Fevrier 1-3, 1971), Le Caire 1981.

ASN: The Archaeological survey of Nubia.

Budge, Ethiopia, Vol. I: Budge, E.A.W., A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, Vol. 1, London 1928.

Jakobielski, Bishopric: Jakobielski, S., A history of the Bishopric of Pachoras on the basis of Coptic inscriptions. Warszawa, 1972.

JARCE: Journal of the American Research Centre in Egypt, Cairo.

JEA: Journal of Egyptian Archaeology, Oxford. - Kush: Kush, Journal of the Sudan Antiquities service, Khartoum.

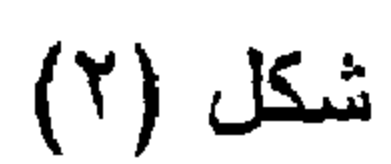
LAAA: Annals of Archaeology and Anthropology, Liverpool.

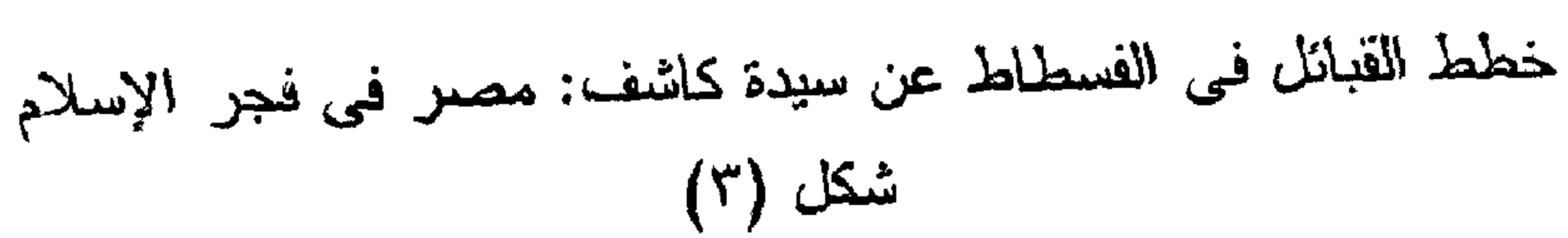
Nubischekunst: Kunst and Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit. Recklinghausen - 1970.

SNR: Sudan Notes and Records, Khartoum.

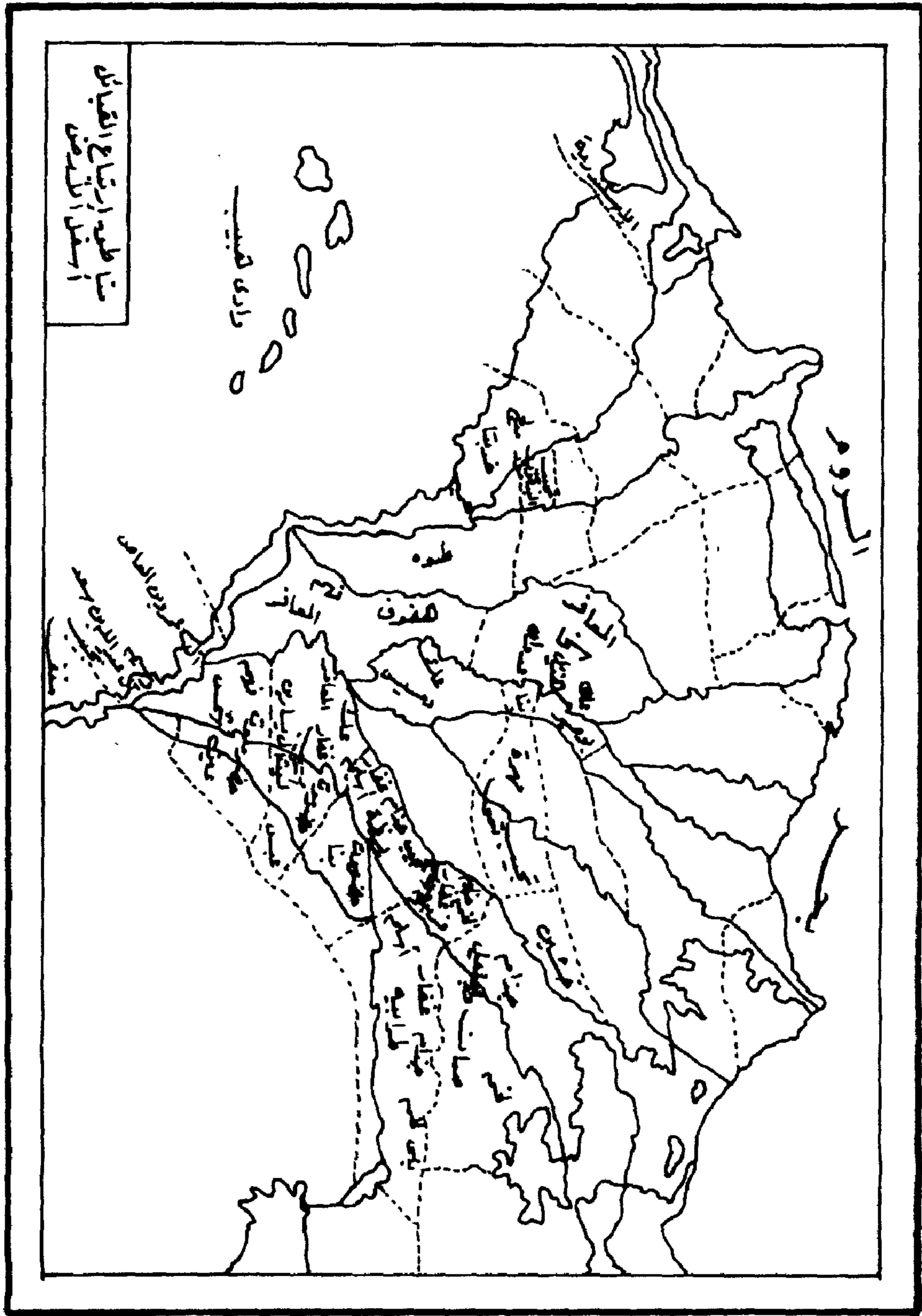
الملاحق

- الخرائط التوضيحية.
- الوثائق والأشكال التوضيحية.



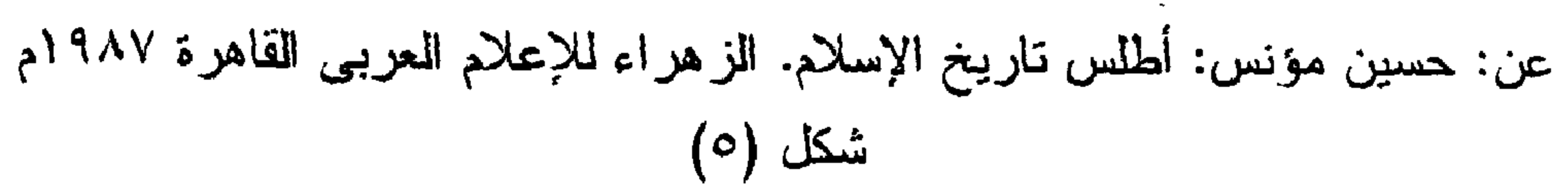


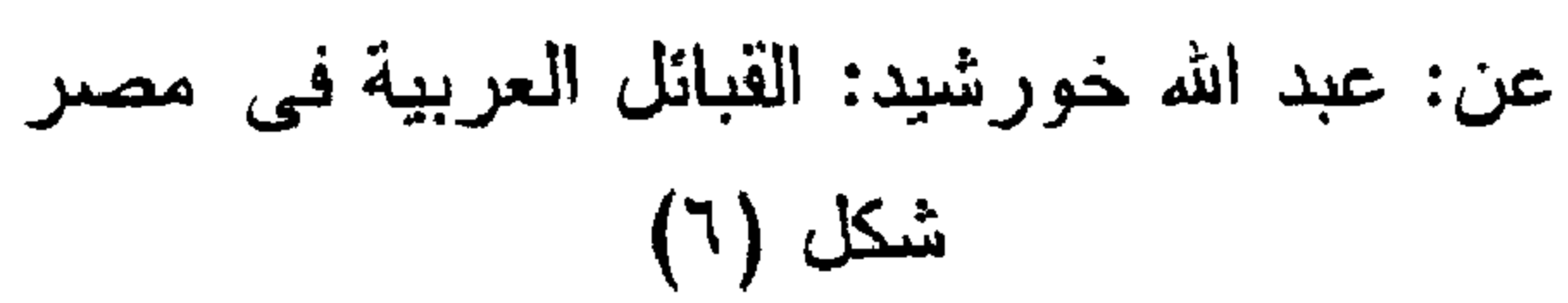
شكل (٣)



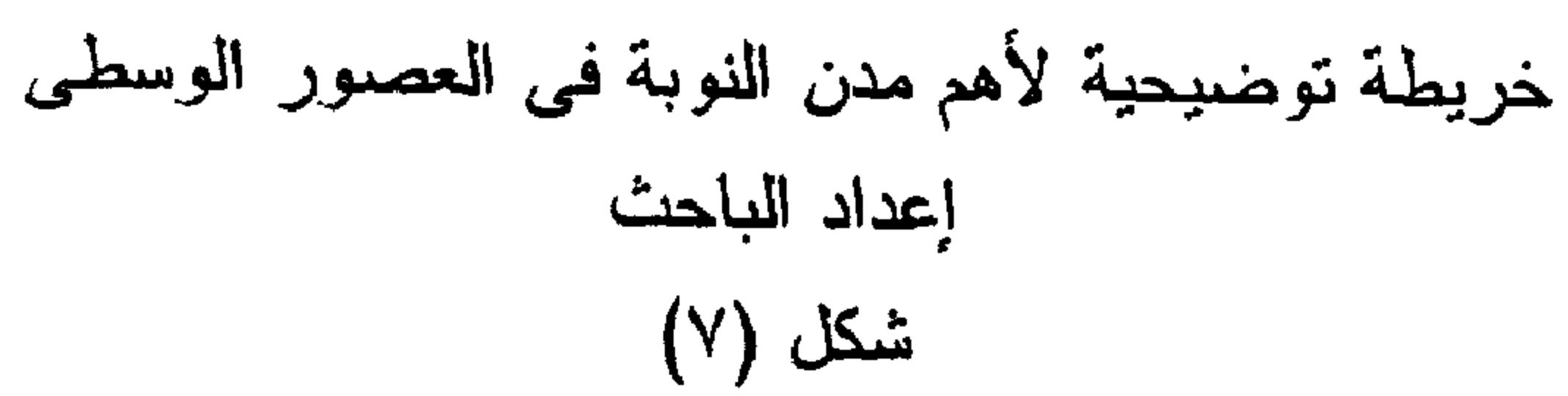
عن: عبد الله خورشيد: القبائل العربية في مصر

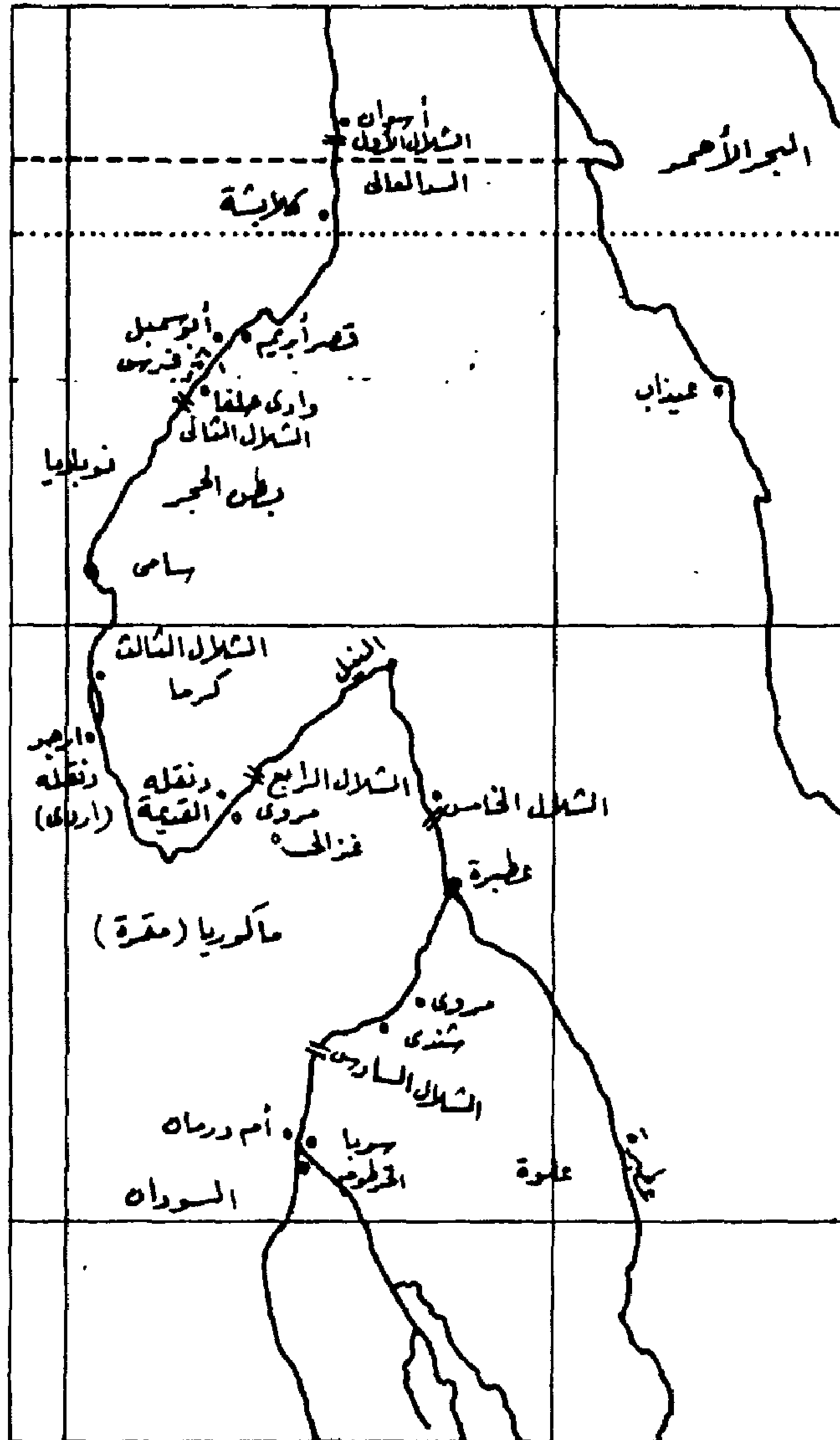
شكل (٤)





شكل (٦)

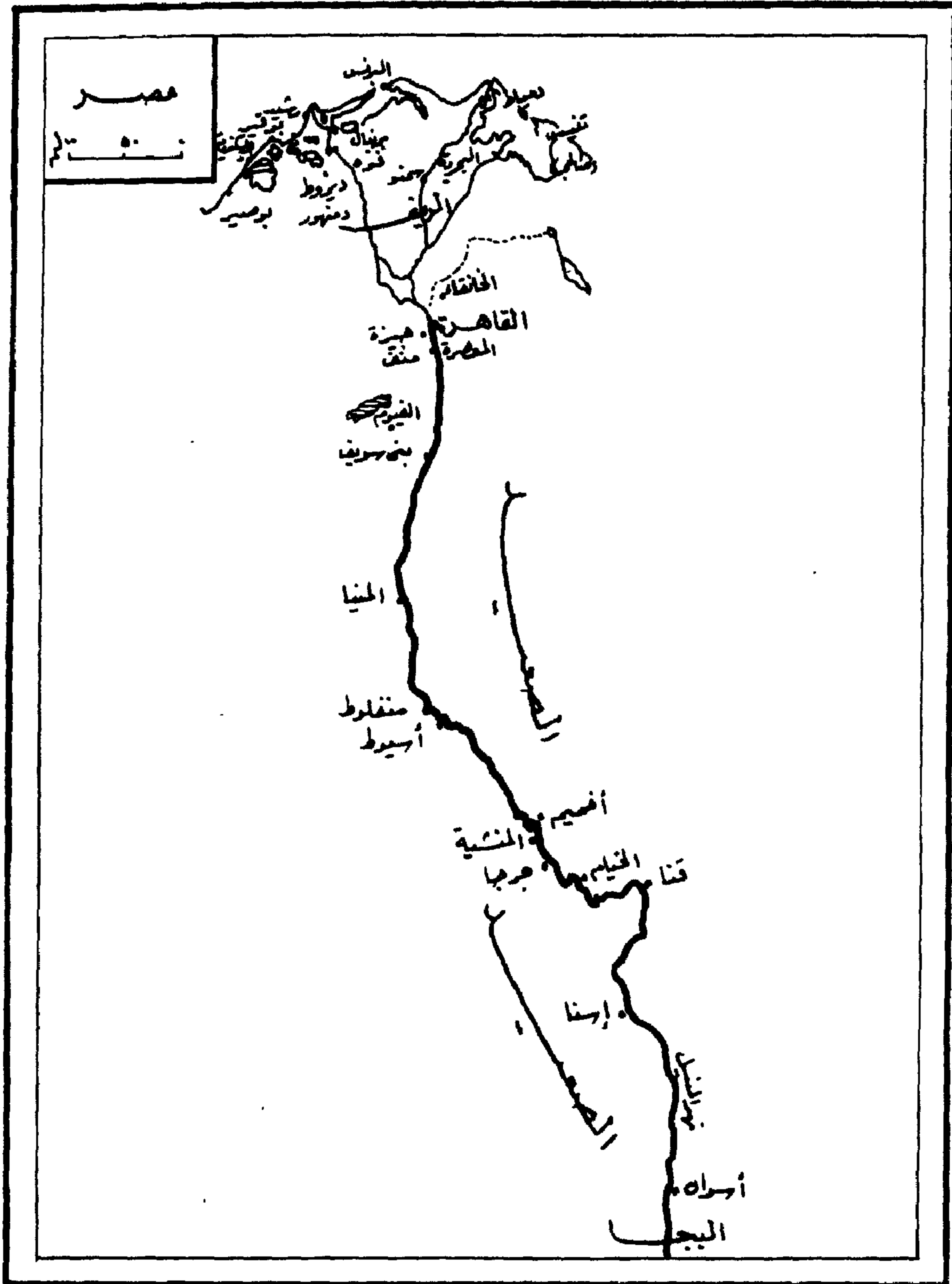




النيل من الشلال الأول إلى الشلال السادس

إعداد الباحث

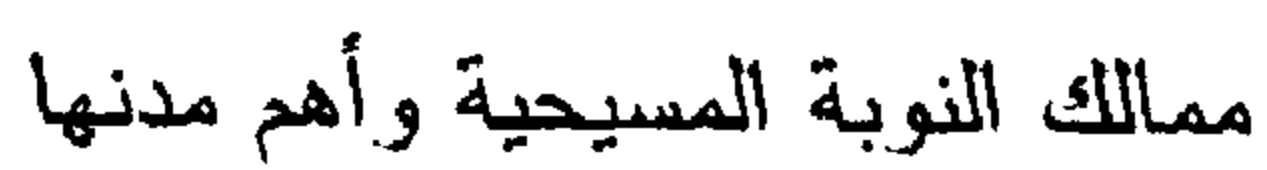
شكل (٨)



النوبة وأرض البجا كما وردت عند ليو الأفريقي

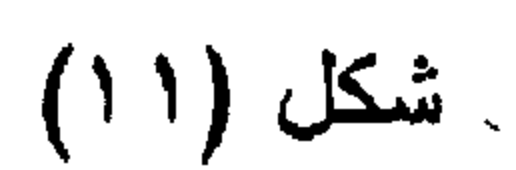
عن : ليو الأفريقي: وصف أفريقيا

شكل (٩)



مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ٧٣

شکل (۱۰)



نص الرسالة
من الوالى العباسى فى مصر
إلى ملك النوبة ومقرة بخصوص العلاقات
المصرية النوبية سنة ١٤١هـ/٧٥٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

من موسى بن كعب^(١) إلى صاحب مقرة^(٢) ونه سلم
على أوليا الله وأهل طاعته..... واحمد إليهم الله لذى لا اله الا هو
(٥) أما بعد فقد عرفت الذى صولحتم عليه والذى جعلتم على أنفسكم من
الوفا به فاحرزتم بذلك دماكم وأموالكم ان انتم وفيتم والله تبارك
وتعالى يقول فى كتابه "وَأَوْفُوا بَعَهْدَ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَقْضُوا
الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ
(١٠) يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ"^(٢) وقال "وَأَوْفُوا بَعَهْدِي أَوْفِ بَعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ"
وقد وفينا لكم بالذى جعلنا لكم علينا من الكف عن دماكم وأموالكم
وعرفت أمنكم فى بلادنا وسكونكم حيث أحببتم منها واختلاف تجاركم
إلينا لا يصل إليهم منا ظلم ولا غشم ولا يعتدى على أحد ممن قبلنا منكم
(١٥) ولا يمتع من حقه ولا يحال بين تجاركم وبين ما أرادوا امنين
مطمأنين حيث سلخوا من بلادنا وفا بعهدنا وصدقا لقولنا وإيماننا بربنا
وتصديقا لنبينا
وانتم فيما بيننا وبينكم على غير ذلك لا تردون إلينا ما عليكم من البق
الذى صولحتم عليه ولا تردون من ابق
(٢٠) إليكم من ارقائنا ولا يا من منكم تجارنا ولا تعجلون تسريح رسلنا إلينا
وانت تعرف ان أهل الأديان كلها والملا الذين لا يعرفون ربا ولا
يؤمنون ببعث ولا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا لا يهجمون تاجرا ولا
يحبسون رسولا وانت تظهر لأهل ملتك الإيمان بالذى خلق

١ - هو موسى بن كعب بن عيينة وهو من تميم تولى من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، فكان
وصوله إلى مصر لا ربع عشرة بقيت من ربيع الآخرة سنة ١٤١هـ، فكانت ولايته على الصلاة
والخراج ونزل بمدينة العسكر، وكانت ولايته سبعة أشهر وصرف فى ذى القعدة.

٢ - سورة النحل: آية ٩١.

(٢٥) السموات والأرض وما بينها وتومن بعيسى بن مريم وبكتابه وتظهر العدل لهم والعمل بالحق وعملكم فيما بيننا وبينكم مخالف لما تظهر فقد اتاكم تاجر من تجار أهل بلدنا يقال له سعد قد ذهب بأموال كثيرة زايغها بها من أهلها فحبستموه قبلكم وحلتم بينه وبين من يطلبه بحق

(٣٠) ومنعتموه منه وبعث إليكم رجل من أهل أسوان يقال له محمد بن زيد تاجرا له في تجارته وطلب حقوق له فاحتبستموه وما كان معه من المال فكتب إلي عاملي على أسوان يذكر أنه كتب إلي خليفتك فيه فكتب إليه خليفتك يسله أن يبعث إليه محمد

(٣٥) بن زيد صاحب ذلك التاجر ليستخلفه على ما كان معه من المال فبعثه إليه في رهط من المسلمين فضربه ضربا سيئا وكسر يده وحبسه ثلث ليال عنده حتى ظن أنه قاتله ثم خلى سبيله فدعاه سلم بن سليمان عاملي على أسوان بالبينة على وصول تاجره اليكم وعلى ما صنع به خليفتك

(٤٠) فاتاه برهط من المسلمين عدول من سكان أسوان فشهدوا له بما ذكر من أمره وأمر تاجره فكتب إلي بذلك كله وبعث إلي محمد بن زيد صاحب ذلك التاجر فوافي قدوم بطره رسولك إلينا فجمعت بينهما ومع بطره رهط من أهل ملتك فذكروا انهم

(٤٥) ظنوا حين أخذوه أنه ممن كان يغير عليهم من البجة فأمر غوث بن سليمان قاضي أهل مصر أن ينظر في أمرهم ثم تحملتم على مثل ما تحل عليه الناس من الحق والعدل فقضى على بطره أن يرد ذلك التاجر وما كان معه من المال أن كان حيا وأن كان قد قتل فعليكم ديته

(٥٠) ألف دينار

وبعث إليكم سلم رسولا له منذ تسعة أشهر ورسولا منذ أربعة أشهر فحبستموه مع عندكم من أرقا أهل الإسلام وأهل ذمتنا وما عليكم من البقط فانه قد ذكر لي أن عليكم بقط سنين لم تؤدوه وما بعثتم به من البقط

(٥٥) بعثتم بما لا خير فيه بين أعور أو أعرج أو كبير ضعيف أو صبي صغير فانظر فيما كتبت إليك به وعجل البعثة إلينا بما بقى عليكم من البقط للسنين التي قبلكم ولا تبعث بما لا خير فيه فلا نقبله وابعث

- (٦٠) إلينا بتاجر محمد بن زيد ربما كان معه من المال إلا أن يكون قد قتل فتبعث بألف دينار دينه وبما كان معه من مال وابعث إلينا سعد التاجر الذى قبلكم ولا توخر من ذلك شيئاً أن كنتم تحبون أن نفى لكم بعهدنا ونكون على ما كنا عليه من الاستقامة لكم وعجل
- (٦٥) ذلك ولا توخره وأن أنت لم تعجل رايت فيما بينى وبينكم رأى أن شاء الله فانى احببت أن اعذر إليكم واتخذ الحجة عليكم والسلام على أولياء الله وأهل طاعته وكتب ميمون يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة إحدى وأربعين ومايه.

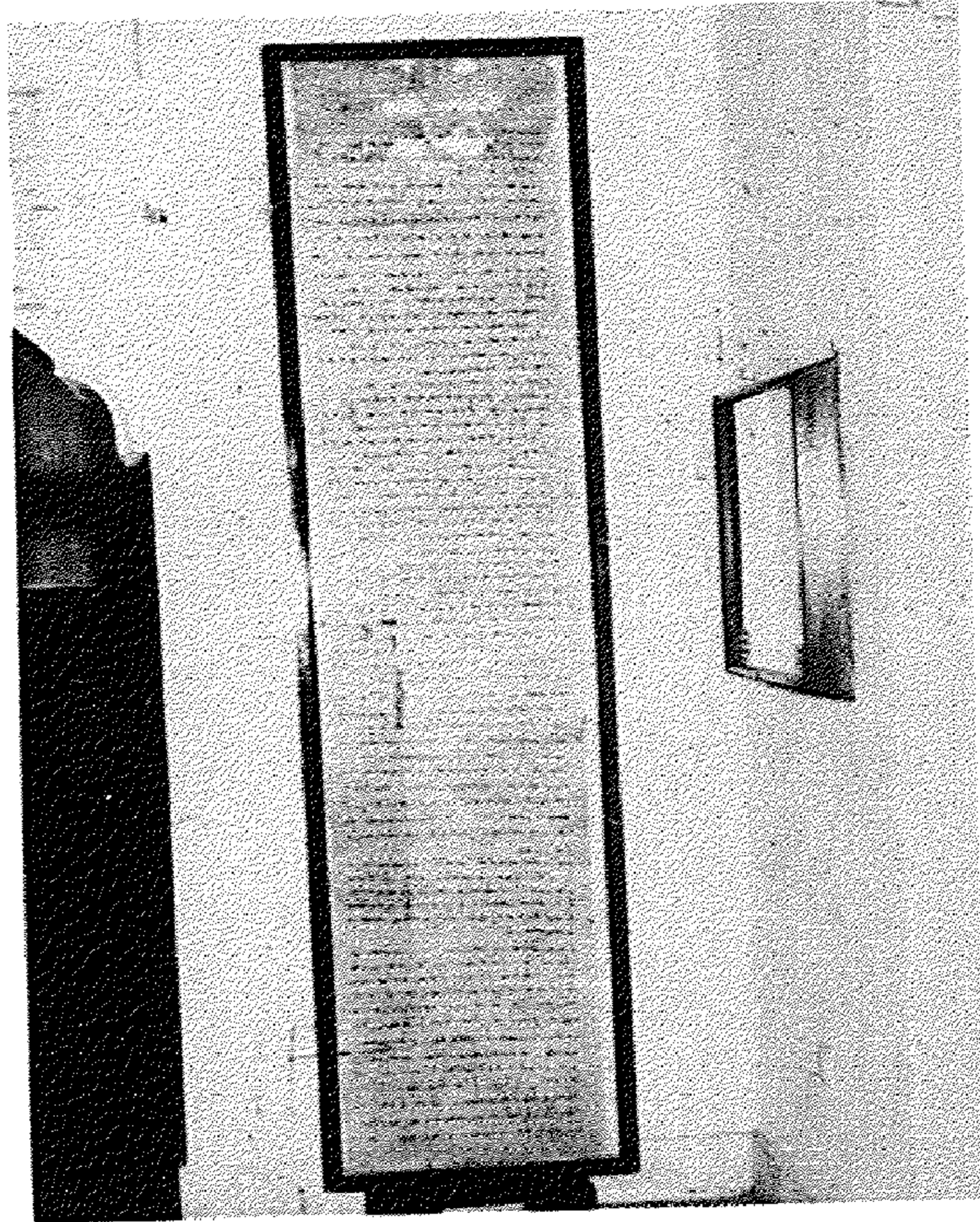
الوثائق والأشكال

ملحق رقم (١)

رسالة من والى مصر موسى بن كعب إلى ... صاحب مقرة ونوبة

- رسالة بردية، بالخط العربى الكوفى البسيط تبدأ بالبسملة، عبارة عن خطاب موجه من حاكم مصر إلى حاكم النوبة، - وتتكون البردية من ٦٩ سطرا بالعربية - يطلب إليه الوفاء بما التزمت به بلاده من موثيق، وهى تشير فى نص هذه الرسالة إلى معاهدة البقط، فهى امتداد لها، وتعكس مدى العلاقة بين مصر الإسلامية والنوبة، إلى أوائل العصر العباسى.

وقد اكتشفت هذه البردية ضمن حفائر قصر أبريم ويرجع تاريخها إلى سنة ١٤١هـ، وهى توضح مدى تمسك ولاية مصر بما تضمنه عهد عبد الله بن سعد من التزام النوبة بالوفاء بما ورد فيها.

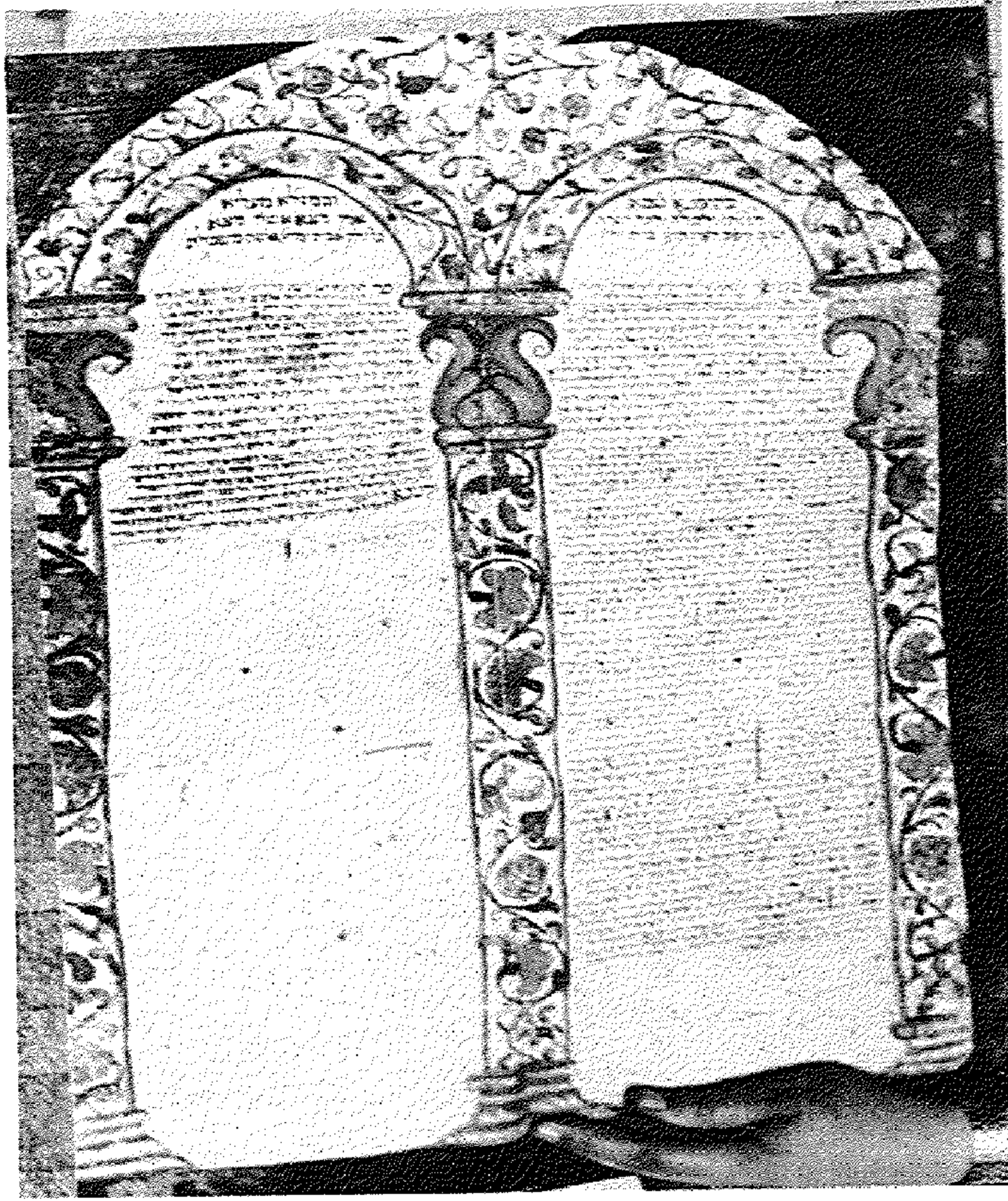


وثيقة بردية منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٢٥٤٨٠

شكل رقم (١)

ملحق رقم (٢)
وثيقة عبرية "عقد زواج بين شاب وفتاة يهودية"

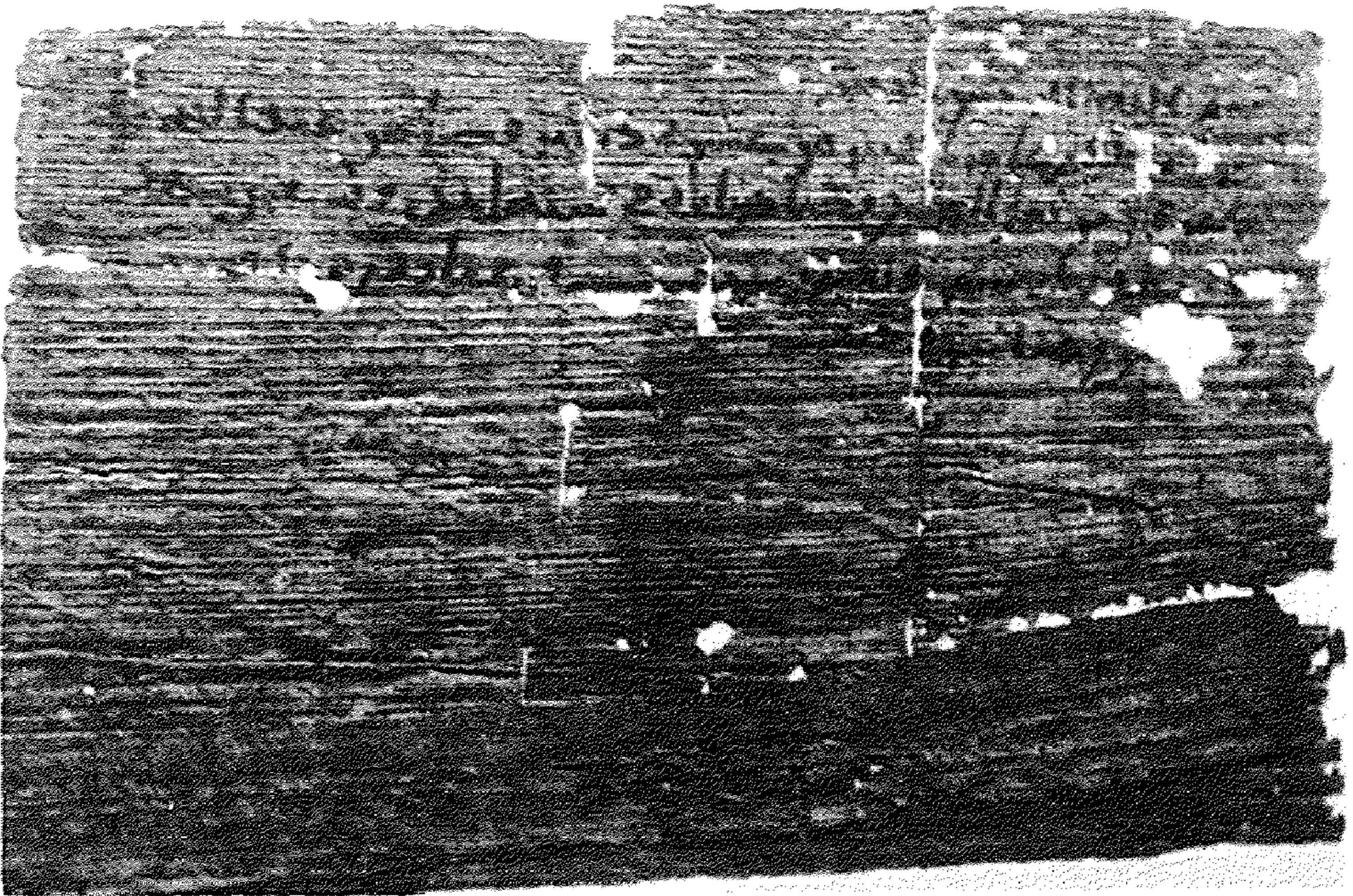
وثيقة عبرية مكتوبة بالمداد الأسود داخل شكل زخرفي، عبارة عن عقدين محاطين بالزخارف النباتية الملونة. ومضمونها عبارة عن عقد زواج بين فتى يهودى يدعى بل بن هانتير، وفتاة يهودية تدعى استر ابنة أحد الحاخامات، وتشتمل الوثيقة على أدعيات وتمنيات بالحظ السعيد. وهى مؤرخة بالتقويم اليهودى - الذى يبدأ من خلق العالم - يوم الجمعة الموافق ٣ من شهر سيفان ٥٤٦٠، والتاريخ الثانى الذى يبدأ من خراب بيت القدس - وهو سنة ١٦٣٢، كما يتضح من نصوص هذه الوثيقة التزام العريس بنفقات عروسه من قيمة المهر، وأن الزوجة بمقتضى هذا العقد صارت ملكا له بعد تحريره. الألوان باهتة، وبسيطة، وهناك بعض ثقوب بالوثيقة.



وثيقة عبرية غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٢٦٥٣٩
شكل رقم (٢)

ملحق رقم (٣)
وثيقة بردية غير منشورة
عقد زواج، يبدأ بالبسملة

وأهمية هذه البردية، أنها تحوى عقد زواج إسلامى، مؤرخ من سنة ٩١ هـ، وهذا يعكس مدى حالة المجتمع المصرى عقب الفتح الإسلامى، من تسجيل عقود الزواج منذ باكورة الفتح مباشرة.



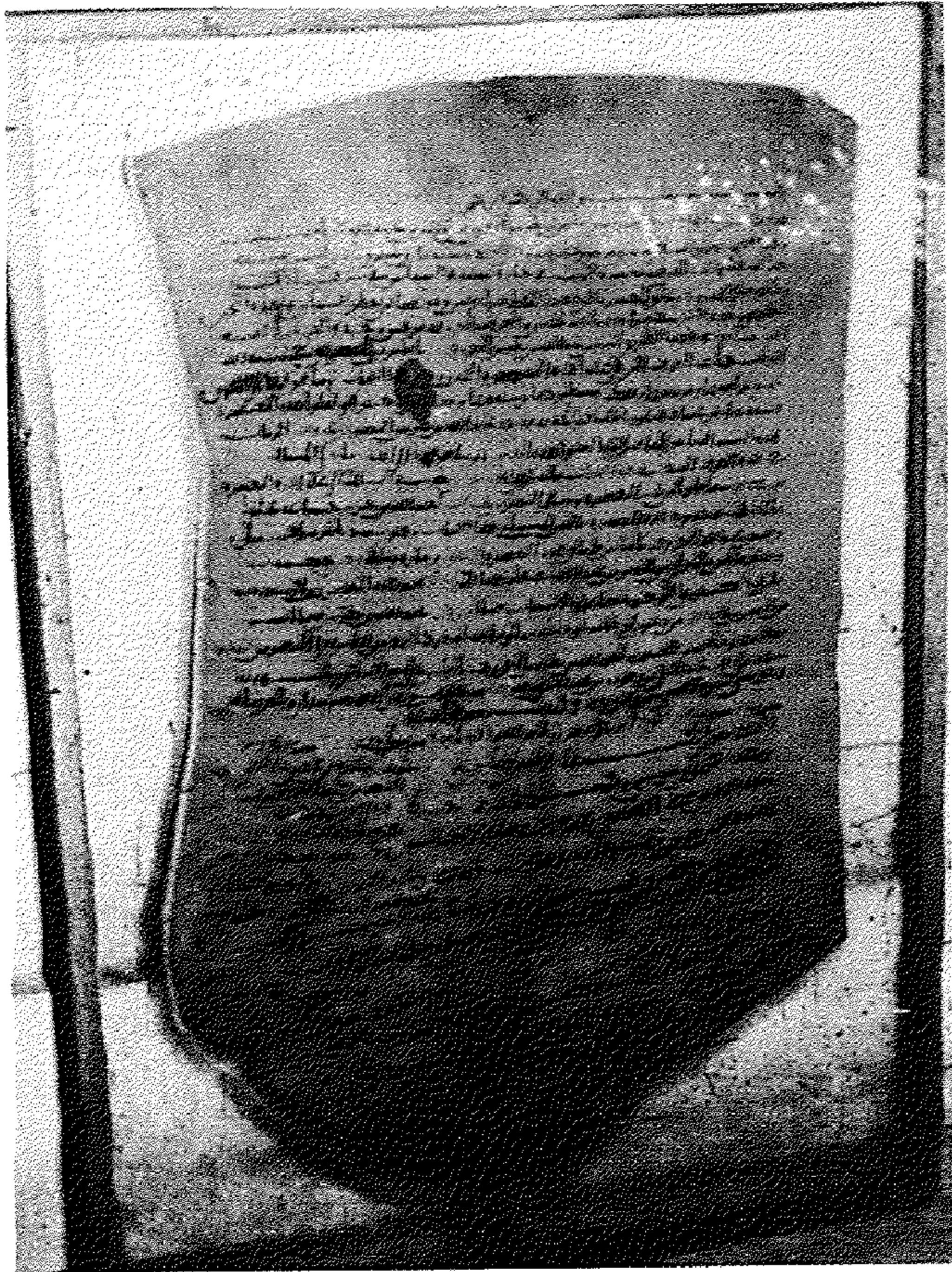
وثيقة بردية غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٢٥٢٩٥

مجموعة د / هنرى أمين عوض

شكل رقم (٣)

ملحق رقم (٤)
وثيقة غير منشورة
عقد شراء يبدأ بالبسملة

يحتوى على ثلاثة وثلاثين سطرا مكتوبة بالمداد الأسود على جلد غزال، وهى
باسم عبيد الله بن بطرس الأدفوى المشتري من النصر بن عبد الله الزيات،
وتاريخ هذه الوثيقة يرجع إلى ذى القعدة سنة ٢٣٨هـ.

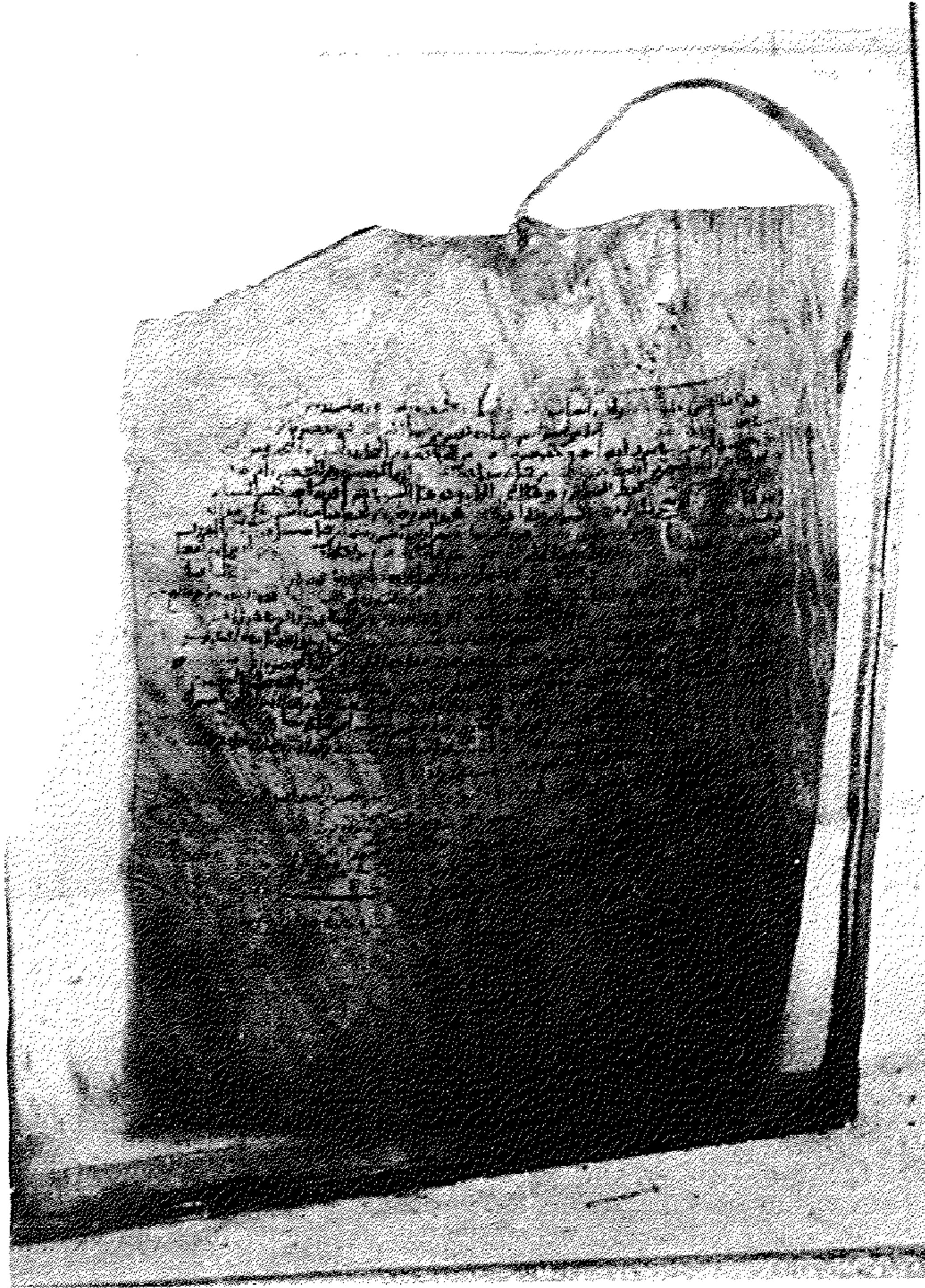


وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٩٨١٨

شكل رقم (٤)

ملحق رقم (٥)
وثيقة غير منشورة
عقد شراء يبدأ بالبسملة

عقد شراء يحتوى على ستة وعشرون سطرا، مكتوب بالمداد الأسود على جلد غزال، وهو باسم على بن عبد الله المشتري من ورثة بشنده بن عيسى الشماس ومؤرخ شهر ربيع الأول سنة ٢٤٦ هـ.
وكتابه ممحوه فى بعض الجهات، وبه عدة ثقوب.

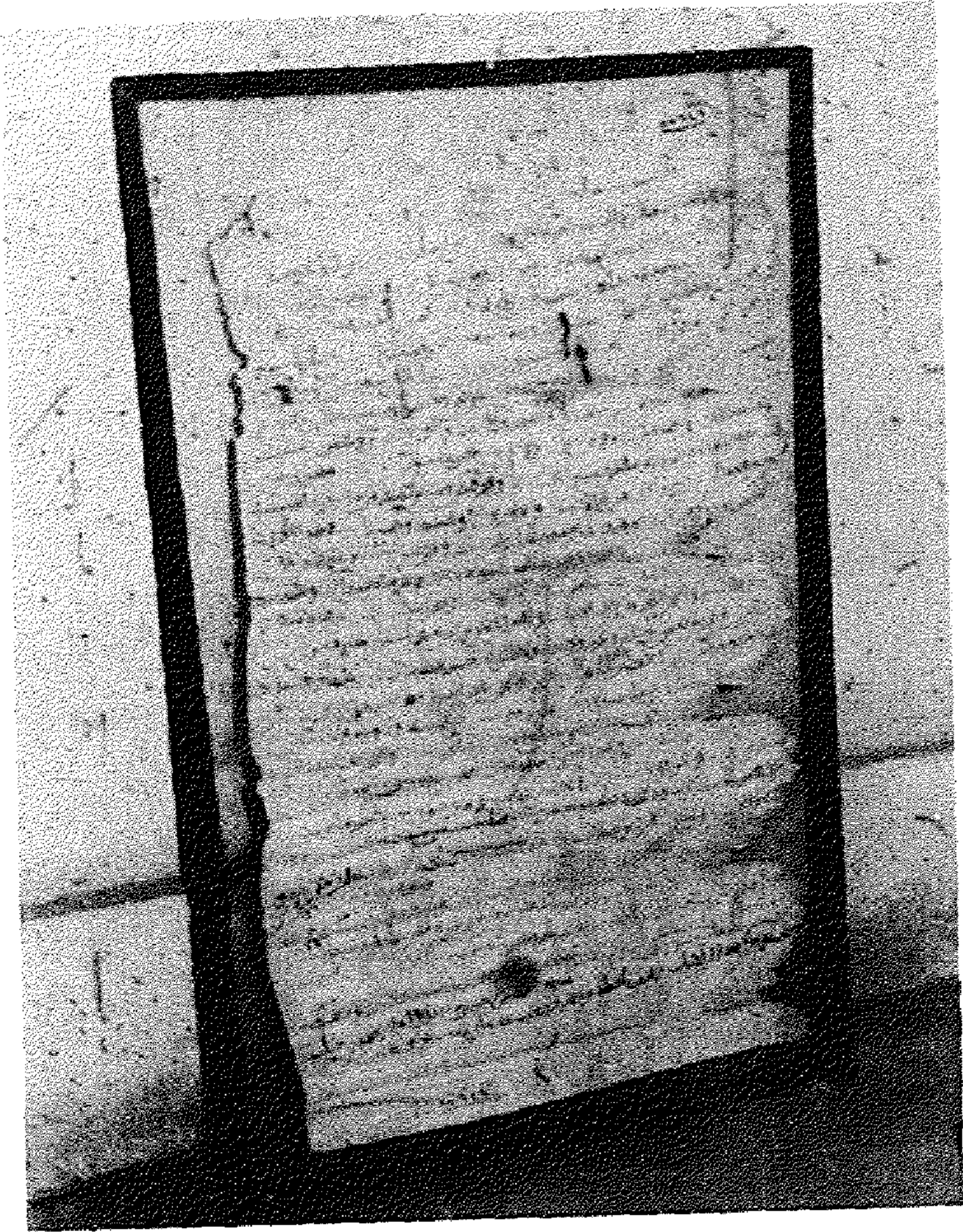


وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٩٨١٧

شكل رقم (٥)

ملحق رقم (٦)
عقد بيع عقاريبدأ بالبسملة

هذه الوثيقة مكتوبة على صفحة من الرق، عبارة عن عقد بيع عقار، مؤرخ في شهر صفر ٢٦٨ هـ، وبجانبه الأيمن آثار طوبة.

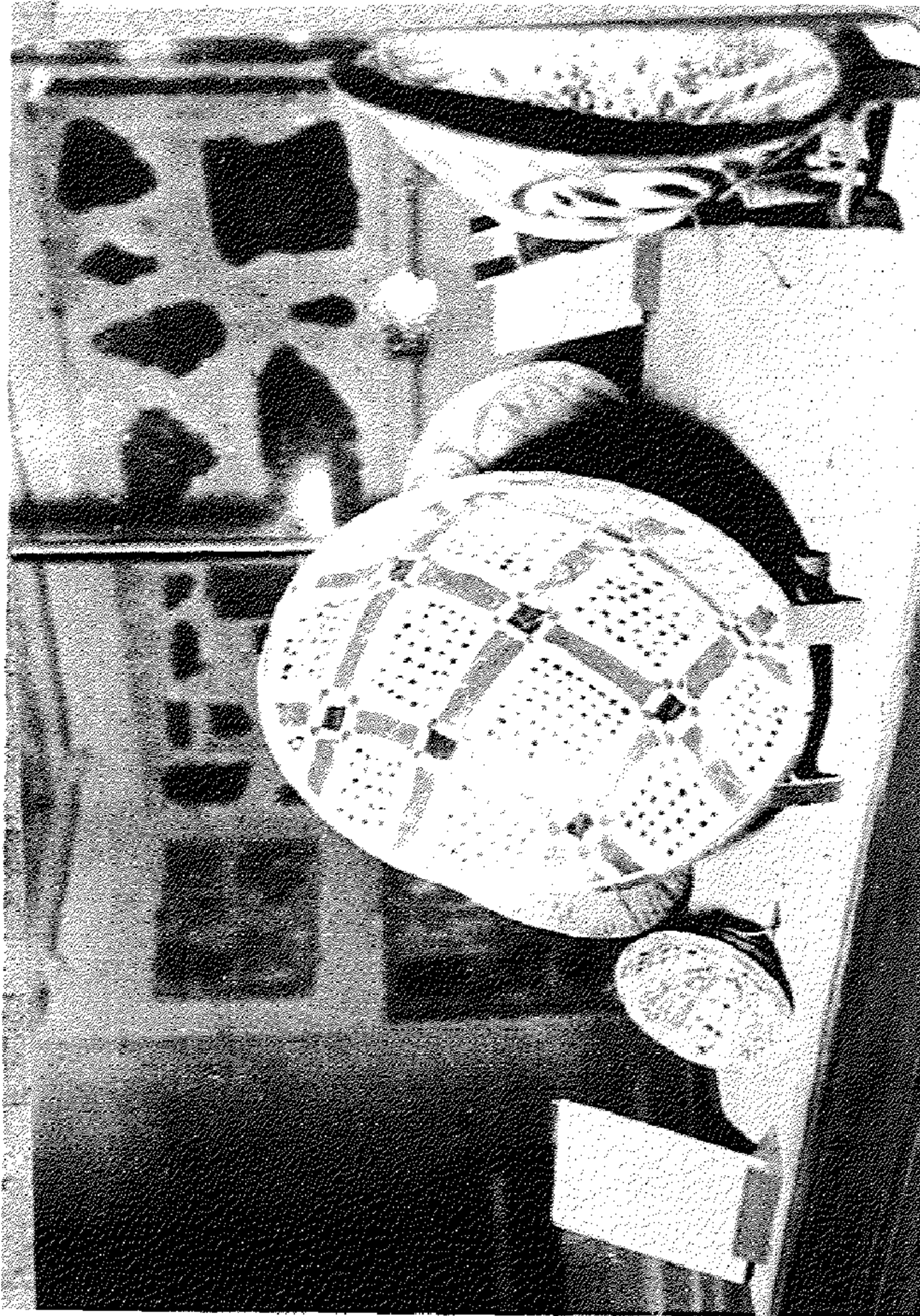


وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة رقم ١٥٦٤٩

شكل رقم (٦)

ملحق رقم (٧)
طبق من الخزف صنع في مصر (القرن الثالث الهجري)

القاعة (١٣) بمتحف الفن المصري الإسلامي.
خصّصت هذه القاعة لأنواع من الخزف المصري في عصوره المختلفة وهي
كاملة الزخارف، ومن التحف الهامة صحن صغير من الخزف الأبيض ذو الطراز
الطولوني.

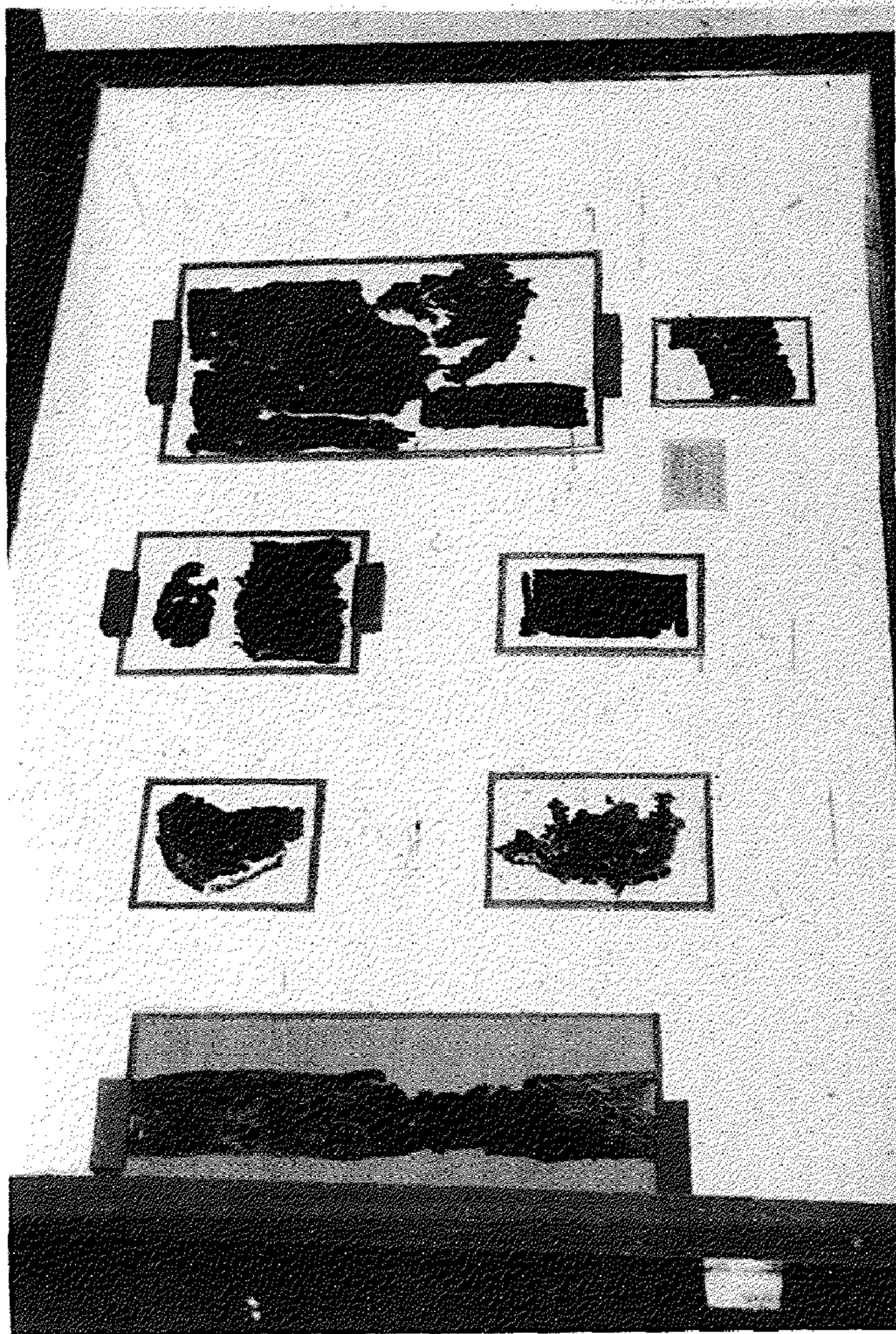


نموذج طبق من الخزف متحف الفن الإسلامي بالقاهرة القاعة (١٣)

شكل رقم (٧)

ملحق رقم (٨)
قطع من النسيج ترجع إلى العصر العباسي الأول

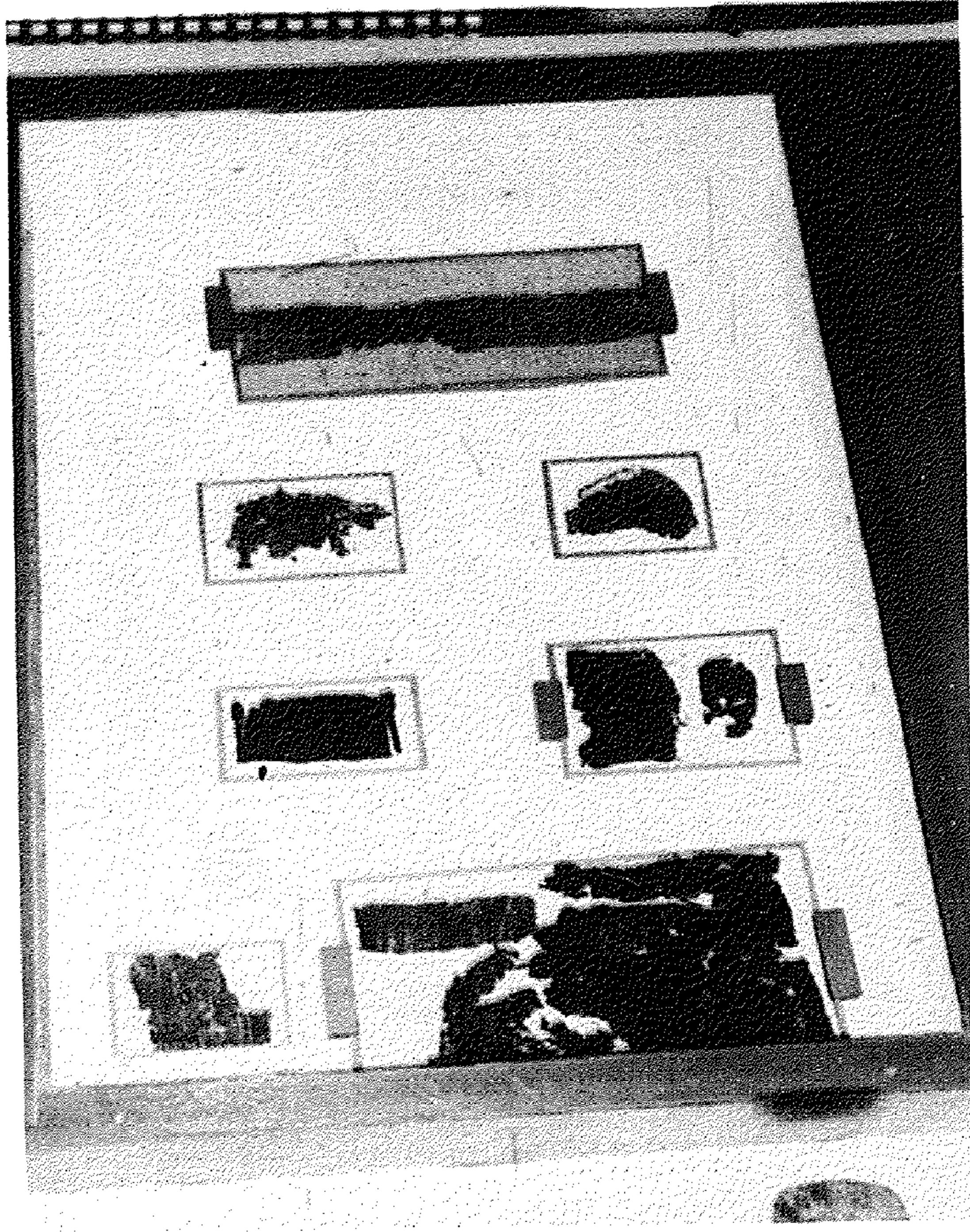
قطع من النسيج السميك من الصوف والكتان بزخارف منسوجة، تمثل رسوم حيوانية أو نباتية أو آدمية، تظهر فيها تأثيرات ساسانية. وعلى هذه القطعة شريط من سطر كتابة كوفية تتص على أنها صنعت في مدينة القيس سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤م).



نماذج من قطع النسيج الإسلامي بمصر
عصر الولاة/ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة رقم ١٤٤٧٣
شكل رقم (٨)

ملحق رقم (٩)
قطع من النسيج ترجع إلى العصر العباسي الأول

قطع من النسيج السميك من الصوف والكتان بزخارف منسوجة، بها صور حيوانية وأشكال زخرفية إسلامية. عليه سطر كتابة كوفية تنص على أنها من عمل (طراز الخاصة بمدينة البهنسا).

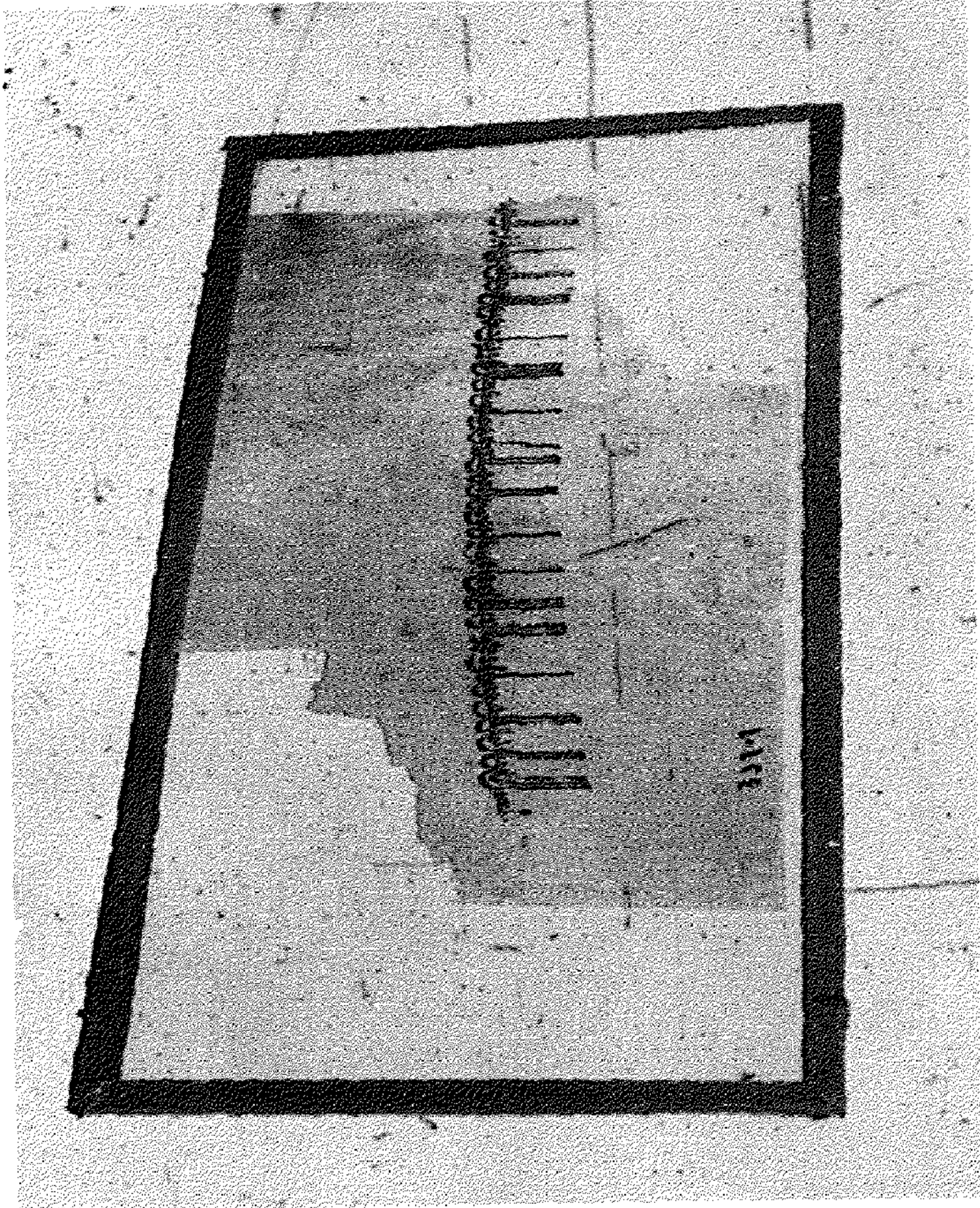


نسيج من الصوف والكتان متحف الفن الإسلامي بالقاهرة رقم ٧١٢٠
شكل رقم (٩)

ملحق رقم (١٠)
نسيج العصر العباسي

نسيج من الكتان يرجع إلى العصر العباسي، يظهر عليها عبارات دعائية منفذة بالتطريز أو مكتوبة بالمداد.

مصر / ق ٣ هـ / ٩ م .



وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة رقم ٢٥٤٨٠

شكل رقم (١٠)

المحتويات

إهداء	٥
المقدمة	٢٢-٥

الباب الأول

التطور الاجتماعي في مصر الإسلامية في عصر الولاة

الفصل الأول

السياسة الإسلامية في مصر

سياسة عمرو إزاء أهل الذمة	٣٢-٢٣
السياسة الإسلامية إزاء أهل الذمة	٣٧-٣٢
حرية العقيدة	٣٨-٣٧
وظائف الدولة	٤٦-٣٩
قضايا أهل الذمة	٤٨-٤٦
العلاقة بين مصر والدولة الإسلامية من الناحية المالية	٥٢-٤٩

الفصل الثاني

هجرات القبائل العربية إلى مصر

خطط القبائل بالفسطاط	٦٣-٥٣
القبائل العربية في مصر السفلى	٧٠-٦٣
القبائل العربية في مصر العليا	٧٤-٧١
الموالي والاقليات الأخرى	٧٦-٧٤
دراسة بعض الظواهر الاجتماعية للعرب المسلمين في مصر:	
العصبية القبلية في مصر	٧٨-٧٧
العطاء	٨٠-٧٨
إثباتهم في الديوان	
الاختلاط	٨٢-٨٠

الفصل الثالث

انتشار الإسلام، والثقافة العربية في مصر

انتشار الإسلام	٩٢-٨٣
الدعوة إلى الإسلام	
انتشار الإسلام التدريجي	

- انتشار اللغة العربية وتعريب مصر ٩٣-١٠٢
- الثقافة العربية في مصر ودور مدرسة الفسطاط ١٠٢-١٠٣
- النشاط الثقافي لمدرسة الفسطاط (العلوم الدينية) ١٠٣-١١٠
- تأثير مدرسة الفسطاط بالمذاهب الفقهية الأربعة ١١٠-١١٦
- ذو النون المصري رائد التصوف في مصر ١١٦-١١٩
- العلوم العربية الأخرى (التاريخ - الشعر - النحو) ١١٩-١٢٧

الفصل الرابع تخطيط المدن الإسلامية

- الفسطاط ١٢٩-١٣٩
- الدروب والارزقة ١٣٩-١٤٠
- أبواب الدروب ١٤٠-١٤١
- السقائف والرحاب ١٤١-١٤٢
- الأزقة ١٤١-١٤٢
- إنارة الدروب والأزقة ١٤٢-١٤٣
- المسكن الإسلامي ١٤٣-١٤٧
- العمارة الدينية الإسلامية: ١٤٧-١٥١
- المساجد ١٥١-١٥٢
- المرافق العامة: ١٥٢-١٥٣
- الأسواق ١٥٣-١٥٤
- الحمامات ١٥٤-١٥٥
- وسائل الانتقال ١٥٥-١٥٦

الفصل الخامس العادات الاجتماعية الخاصة عند العرب

- الزواج في ضوء أوراق البردى العربية ١٥٧-١٧٣
- الولادة والتسمية ١٧٣-١٧٦
- الختان ١٧٦-١٧٧
- الملابس وتطورها في مصر ١٧٧-١٨٩
- الطعام والشراب ١٨٩-٢٠٢
- المآتم والأحزان ٢٠٢-٢٠٧

الفصل السادس

العادات الاجتماعية الخاصة لأهل الذمة

- المصريون المسيحيون ٢١٦-٢٠٩
- الزواج والطلاق ٢٢٠-٢١٦
- الختان ٢٢١-٢٢٠
- الملابس ٢٢٧-٢٢١
- الطعام والشراب ٢٢٩-٢٢٧
- المسكن ٢٣١-٢٢٩
- المآتم والأحزان ٢٣٢-٢٣١
- اليهود ٢٣٦-٢٣٢
- المسكن
- الملابس
- الزواج

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية العامة

- الأعياد والمواسم عند المسلمين ٢٤١-٢٣٧
- الأعياد والمواسم عند أهل الذمة ٢٥٣-٢٤١
- المواكب العامة والاحتفالات ٢٥٤-٢٥٣
- وسائل التسلية ٢٦٠-٢٥٥

الباب الثانى

أثر التطور الاجتماعى فى مصر فى عصر الولاية فى السودان وادى النيل الفصل الاول

التأثير المصرى فى السودان وادى النيل فى النواحي السياسية والعسكرية

- الصلات السياسية والعسكرية ببلاد النوبة ٢٩١-٢٦١
- الرسائل المتبادلة بين ولاية مصر وحكام النوبة ٢٩٣-٢٩١
- الصلات السياسية والعسكرية ببلاد البجة ٣٠٢-٢٩٣
- موقف ولاية مصر من الكنيستين القبطية والنوبية ٣١٠-٣٠٣

الفصل الثانى

التأثير الثقافى والاجتماعى المصرى فى السودان وادى النيل

- هجرات القبائل العربية وأثرها فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى
سودان وادى النيل ٣١١-٣٢٣
- الهجرات العربية وأثرها على العادات والتقاليد بسودان وادى النيل
- الزواج ٣٢٣-٣٢٥
- الختان ٣٢٥-٣٢٦
- المسميات ٣٢٦-٣٢٧
- المأكل والمشرب ٣٢٧-٣٣٠
- الملابس ٣٣٠-٣٣٢
- المسكن ٣٣٢-٣٣٣
- الخاتمة ٣٣٥-٣٤٧
- المصادر والمراجع ٣٥١-٣٨٢
- المصادر
- المراجع
- الملاحق ٣٨٥-٤٠٩
- الخرائط التوضيحية
- الوثائق والأشكال
- الفهرست ٤٠٩-٤١٤

دكتور/ كرم الصاوى باز

الميلاد : الإسكندرية محرم بك ١٩٥٥م.

المؤهلات : ليسانس الآداب قسم التاريخ جامعة عين شمس ١٩٧٨.

حاز على دبلوم الدراسات الأفريقية ١٩٨٥؛ ماجستير التاريخ الإسلامى والوسيط ١٩٨٨؛ دكتوراه التاريخ الإسلامى والوسيط معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ١٩٩١.

• عمل مساعد باحث بمركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس ١٩٨١-١٨٩٣ معيد التاريخ الإسلامى حتى أستاذ مساعد بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ١٩٨٣-٢٠٠٦م.

• عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.

• يشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه فى التاريخ الإسلامى والوسيط بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية.

• له العديد من الدراسات المنشورة منها:

• عمداصيون واصلاحاته الداخلية فى الحبشة (٧١٤-٧٤٥هـ/١٣١٤-١٣٤٤م).

- الصراع بين العرش والعلماء فى سنغاي فى الفترة من (٨٦٩-٨٩٩هـ/١٤٦٤-١٤٩٣).

- ديوان الكانم والبرنو: نموذج مبكر للعروبة والإسلام فى تشاد.

- كلوة مركز الثقافة العربية الإسلامية فى شرق أفريقيا عصر أسرة المهدي العربية (٦٧٦-٨٢٤ / ١٢٧٧-١٤١٢م).

- نظم التجارة الصحراوية بين المغرب الاقصى والسودان الغربى فى الفترة من (ق٨-١٠هـ / ١٤-١٦م).

- الوكالات التجارية حلقة وصل بين مجتمعات البحر الأحمر ومدغشقر وجزر القمر (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م).

- شارك فى مؤتمرات دولية بجمهورية السودان - تشاد - تونس - الجماهيرية الليبية، وأعير للمملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٩٤-٢٠٠٠هـ.



مصر والنوبة فى عصر الولاية

هذا الكتاب

يطرق مجالاً حيويًا فى التاريخ الاجتماعى من منظور وثائق البرديات العربية ؛ فهى مادة فياضة وثرية لتشريح ورصد حركة المجتمع فى مصر والنوبة فى زمن عصر الولاية (٢١ - ٢٥٤ هـ / ٦٤٢ - ٨٦٨ م) ، اذ علجت هذه الدراسة الوثائقية التطور الاجتماعى فى مصر والنوبة ؛ من حيث الحياة الاجتماعية الخاصة والعامة ، برزت من خلالها عادات وتقاليد سارت نحو التعريب ؛ كالزواج فى ضوء أوراق البردى العربية ، والمسميات والبيع والشراء بين المسلمين وأهل الذمة ؛ برديات رصدت طبيعة العلاقة بين مصر والنوبة خلال عصر الولاية .

هكذا يأتى هذا العمل العلمى فى الدراسة المصرية النوبية ليمثل إضافة هامة لمكتبتنا العلمية اعتماداً على الوثائق البردية وأوراق الجنيزة ، وأول الأنساب السودانية ، والدراسات الأركيولوجية فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة .

Bibliotheca Alexandrina



0650695



مكتبة الأنجلو المصرية
THE ANGLO-EGYPTIAN BOOKSHOP



The World of Words & Thoughts